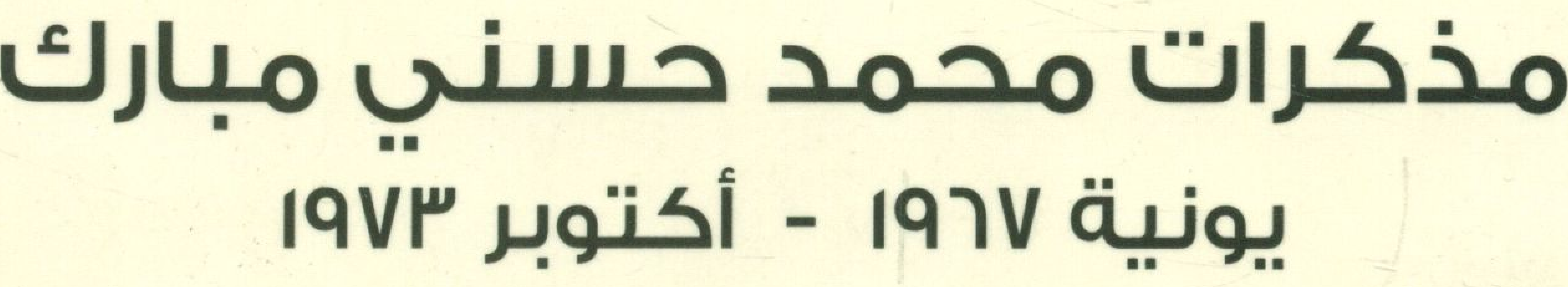
كلمة السر



مذكرات محمد حسني مبارك

يونية ١٩٦٧ - أكتوبر ١٩٧٣



كلمة السر

مذكرات
محمد حسني مبارك

يونية 1967 - أكتوبر 1973

سجلها وكتبها:
محمد الشناوي

تحرير وتقديم:
عبدالله كمال



العنوان:

كلمة السر

مذكرات محمد حسني مبارك

يونية 1967 - أكتوبر 1973

سجلها وكتبها:
محمد الشناوي

تحرير وتقديم:
عبدالله كمال

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-2774-1
رقم الإيداع: 2013/10504
الطبعة الأولى: أكتوبر 2013



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفون: 33466434 - 02 33472864
فاكس: 02 33462576
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تقديم

بقلم محمد حسني مبارك
نائب رئيس الجمهورية

لقد كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ مسرحا للتجربة .
ومسرحا للعقيدة .. مع التخطيط .. مع القتال .
ولقد كتب الله لنا النصر من عنده ...
وسجلناه بدمائنا .. وأرواحنا ..

ولقد كان دور الطيران المصري في هذه الحرب بارزا ، ولعلها
أروع أدوارها في التاريخ كله . وضرب طياروها وضباطها
وجنودها وكل رجالها أروع الأمثلة في التضحية والبطولة
والفداء .

ولقد كان لي شرف قيادتها خلال المعارك وقبلها وبعدها
مما زادني فخرا . وإن كان لنا أن نسجل أعمالهم
للتاريخ ، فإن بطون الكتب أحفظ لأعمالهم . وستبقى
هذه الأعمال فخرا للأجيال المقبلة .

على أن أسرار حرب أكتوبر ستظل مجالا لدراسات مختلفة في
المستويات العسكرية والسياسية والشعبية . وإن كانت
هذه أصداؤها فالأمل أن نلمسها أفراحا .

وما زالت آمال أمتنا معلقة بقواتها المسلحة ، حتى تستكمل
النصر تحت قيادة الرئيس باعث الشرارة
الرئيس محمد أنور السادات
دام ذخرا للنصر

محمد حسني مبارك
نائب رئيس الجمهورية

الهزيمة ليست قدرًا..
والنصر ليس صُدفة

تقديم بقلم: عبدالله كمال

قادتني إلى هذه الوثيقة التاريخية المهمة.. صُدفة سعيدة. للدقة وجدتني في طريقها، إذ لم أبذل جهدًا، ولم أخطط لمسعى كي أحصل عليها.. بل لم أكن أعرف بوجودها من الأصل، لم يذكر أحد من قبل أن محمد حسني مبارك نائب الرئيس أنور السادات قد كتب مذكراته، حتى مبارك نفسه لم يعلن ذلك وربما لم يكن يتذكره.

كان كل ما أعرفه أن الرئيس مبارك له مذكرات مسجلة تلفزيونيًّا عن طريق إدارة الشئون المعنوية بالقوات المسلحة فيما بعد عام 2000، وأنه ربما قد دوَّن مذكراته الأخيرة في الفترة بين تخليه عن منصبه في 11 فبراير 2011.. وقبل أن يتم التحقيق معه، ثم احتجازه ومحاكمته بعد ذلك.

الحكاية بسيطة للغاية: تعرفت إلى مخرج سينمائي وتلفزيوني شاب وواعد، كان واحدًا من بين مجموعة من الشباب الذين بدأت في التواصل معهم بعد 25 يناير 2011، كنت

ولا أزال أحاول التقرب من جيل جديد لم أكن قد تواصلت معه بقدر كافٍ للاطلاع على أفكاره.

كان من المهم أن أستمع إلى هؤلاء الذين عبروا عن غضبهم ضد حكم آمنت بوطنيته وإخلاصه، مهما كان لنا من ملاحظات على أدائه، أن أقترب من آرائهم، وأعرف ما يفكرون فيه، ولماذا هم غاضبون. وكان من بين هؤلاء الفنان الشاب كريم الشناوي.

بعد حوارات مختلفة، بعضها فردي.. وبعضها جماعي، بعضها مباشر.. وبعضها عبر وسائل العصر على «دردشات الواتس اب».. كان أن دخل كريم مكتبي حاملًا هذا النص التاريخي الذي كان قد نسيه الرئيس مبارك نفسه قرابة 40 عامًا.

إن كريم هو حفيد المرحوم محمد الشناوي، الرجل الذي كتب تلك المذكرات بعد أن استمع لمبارك شهورًا طويلة، وتفرغ لتدوينها أشهرًا أطول. وبين الحفيد والجد كان الأب الذي بقيت المذكرات في حوزته طوال تلك السنوات، الأستاذ حازم الشناوي الإعلامي والمذيع المعروف بالتلفزيون المصري.

قبل سنوات طويلة كنا قد تعارفنا، أنا وحازم الشناوي، إذ كان يقدم في نهاية التسعينيات برنامجًا شهيرًا يذاع على القناة الثالثة اسمه «غدًا تقول الصحافة»، بموازاة برنامج آخر أوسع شهرة اسمه «الكاميرا في الملعب».

كنا في مختلف الصحف القومية نسعى لأن نكون ضيوفًا في برنامج «حازم» الذي أصبح مشهورًا بحواراته مع الأستاذ الكبير مفيد فوزي رئيس تحرير مجلة «صباح الخير» في ذلك الحين، كان «مفيد» قد أضاف إلى نجوميته مقدارًا جديدًا بطريقة عرضه الجذابة للمجلة مع حازم الشناوي قبل صدور عددها الجديد بليلة، كل أسبوع.

وكان في داخل كل منا، نحن الصحفيين الشباب، أمنية صغيرة نرجو أن تتحقق بأن نقدم عرضًا لصحفنا من خلال هذا المذيع اللافت.. وكنت أرجو أن يأتي ترتيب الحلقات ذات يوم بحيث أعرض «مجلة روزاليوسف» باعتباري مساعد رئيس تحريرها مع الأستاذ حازم الشناوي، كنت أعتقد أنني يمكن أن أقترب من أسلوب عرض مفيد فوزي الناجح.

مرت سنوات طويلة منذ آخر لقاء، ربما خمسة عشر عامًا على الأقل، حين زارني الأستاذ

حـازم مـع ابنه كريم وفي يده «وثيقة أبيه» التي كتبها على لسـان حسـني مبـارك، راويًا قصة القـوات الجوية في حـرب أكتوبر، وكيف صنعت هـذا المجد العظيم. في هـذا اليوم أولتني عائلة الشناوي ثقه تمنيت أن أكون على قدرها.

روى لي حـازم الشـناوي قصة أبيـه مع تلك المذكرات. وقد كانت بدورها قصة بسـيطة ولكنها شاءت أن تضيف إلى بساطتها بعضًا من الحكمة في وقائع التاريخ.. وادخرها الزمن بطريقـة غـير متوقعة لكي تكون ذات يوم شـهادة موثقة عما تم إغفالـه حينًا أو الغضب منه حينًا آخر.

كان المرحـوم الرئيـس محمـد أنور السـادات قد أصـدر مذكراته الشـهيرة «البحث عن الـذات» في إبريـل 1978، وقرأها كثير مـن المصريين. في مطلع شـبابي ونهاية صباي كنت واحدًا من هؤلاء، النسخة كانت تباع بـ 25 قرشًا. وقد كانت عامرة بتفاصيل كثيرة وسيرة رئيس حكى نفسه وروى عن نفسه. كان أهم ما يميز «البحث عن الذات» ما يتعلق بالوقائع التاريخية النابضة والحية وقتها.. تلك التي تخص سـجل السـادات الأعظم في حرب أكتوبر المجيدة.. فضلًا عن بدء مسيرته نحو السلام مع إسرائيل.

كان السادات واعيًا بأهمية الكتب، وضرورة أن يكتب هو بنفسه، وهو ما عرف عنه منذ سـنوات طويلة، كان قد بدأ الكتابة خلالها في عديد من الصحف المصرية أبرزها «المصور» و«الهـلال» في حـدود عام 1948. ثم بعد ثـورة 1952 كان أن أصدر مجموعة من الكتب، هـي: قصـة الثـورة كاملة، يا ولدي هـذا عمك جمال، معنـى الاتحاد القومي، 30 شـهرًا في السـجن، نحو بعث جديد، القاعدة الشـعبية.. ثم في نهاية السـبعينيات أصدر «البحث عن الذات» وفيه روى قصة حياته.

حـين صدرت جريدة «مايو» في نهاية السـبعينيات، ناطقة باسـم الحـزب الوطني الذي أسسه السادات بديلًا لحزب مصر العربي، وعقب بدء التعددية الحزبية، كان أن أملى مجموعة مقالات باسـمه عنوانها «عرفت هؤلاء».. وكان معروفًا كذلك أنه يملي مباشرة أو بشـكل غير مباشر على الأستاذ أنيس منصور كثيرًا من المقالات التي تظهر في صور حوارات بمجلة «أكتوبر». وبنفس الأسـلوب مع تفاصيل مختلفـة في الطريقة كان أن كتب المرحوم الدكتور رشاد رشدي أستاذ الأدب والنقد الكبير مذكرات السادات «البحث عن الذات».

كان الرئيس الراحل مولعًا بالتوثيق، ومعنيًّا بالكتابة، ومهتمًّا بالكتب، حتى إن الدعاية اليسارية ضده قد رسخت في الذهنية العامة أنه لا يحب القراءة ويصيبه الملل من التقارير المكتوبة. واحدة من بين الترويجات غير المدققة التي انتشرت في ثقافتنا دون أن تخضع لأي مراجعة، ولم يكن اليسار وحده مشاركًا في مثل تلك الترويجات، بل كان لدى الإخوان ماكينتهم الخاصة، كما لم يكن السادات الضحية الوحيدة لهذا، بل عانى مبارك ما هو أكثر وأعرض وأشد تأثيرًا، لأن حكمه بالطبع كان أطول ولأنه تقاطع مع الاثنين معًا: اليسار والإخوان. ما لا يعرفه الكثيرون أن مبارك قارئ حقيقي، وأن عددًا من المثقفين المصريين كانوا يرشحون له الكتب، وبعضها كان يأتيه من وزراء.

عين الرئيس الراحل أنور السادات الفريق طيار حسني مبارك نائبًا له في 1975. وقد كان هذا القرار مثيرًا للجدل وقتها، حول أسباب الاختيار، ولماذا مبارك بدلًا من كل العسكريين المجايلين له، وفي صدارتهم قادة حرب أكتوبر زملاؤه، وفيهم من هم أقدم منه.

السادات وحده كان يعرف ماذا يفعل، كان القرار معبرًا بصورة واضحة عن اقتناعه بقدرات مبارك، والدور الذي قام به في حرب أكتوبر، وكان من الأكيد أن لدى السادات تقديرًا عميقًا للانتصار الخاص الذي حققته الضربة الجوية في بداية الحرب الضارية لاستعادة الكرامة وتحرير الأرض المصرية من الاحتلال الإسرائيلي.. تقديرًا لابد من الانتباه إليه، بينما كان مبارك هو القائد الذي استشهد شقيق السادات الأصغر عاطف في الطلعات الجوية التي قررها يوم 6 أكتوبر.

ومن الواضح أن تقدير السادات كان قد شمل ما هو أبعد، إذ كان هو صاحب فكرة تلك المذكرات لكي يروي فيها نائب الرئيس حسني مبارك قصة ما حدث بعد هزيمة 1967 وصولًا إلى نصر 1973.

اتصل الرئيس السادات بالدكتور رشاد رشدي، وكلفه أن يكتب مذكرات قائد سلاح الجو نائب الرئيس، وأن يستمع منه إلى قصة هذا المجد الذي يجب أن تضم تفاصيله دفتا كتاب للتاريخ، اعتقد السادات أن الدكتور رشاد باعتباره كاتب مذكراته الناجحة سيكون الأنسب لكي يخوض جولة نجاح إضافية بمذكرات حسني مبارك.

من المدهش - وإن كان من المنطقي - أن اعتذر الدكتور رشدي، أسبابه يمكن تفهمها.

كان تبريره للسادات مبنيًّا على أساس أنه كتب مذكرات الرئيس ولا يمكنه أن يدون بنفس الأسلوب مذكرات نائب الرئيس. اقتنع الرئيس السادات وطلب منه أن يرشح بديلًا.. كان هو الأستاذ محمد الشناوي.

كان الأستاذ الشناوي درعميًّا، حصل على ماجستير في علم النفس، وكان إذاعيًّا مرموقًا[1].. في زمن كانت فيه الإذاعة نجمة وسائل الإعلام، بينما شاشات التلفزيون لم تصل إلى كافة بيوت مصر كما هي الحال الآن. كان قد قطع طريقًا طويلًا في خبرة العمل كإذاعي قدير، عمل مذيعًا لسنوات طويلة، وهو صاحب فكرة تأسيس الإذاعات المحلية، وأول مدير لمحطة «القاهرة الكبرى»، ومؤلف درامي في سجله ما لا يقل عن مائة سهرة وخمسين مسلسلاً، بخلاف التدريس في المعهد العالي للفنون المسرحية، وكلية ضباط الشرطة المتخصصين.

وفقًا لرواية حازم الشناوي عن والده الراحل فإن محمد الشناوي اجتمع مع نائب الرئيس محمد حسني مبارك عشرات المرات، روى له فيها كل تفاصيل ودقائق السنوات الست التي قضاها في عملية إعادة بناء القوات الجوية، منذ كان ضابطًا قياديًّا، تلقى ضربة يونيو وهو لم يزل قائدًا لقاعدة بني سويف الجوية.. حتى أصبح مديرًا للكلية الجوية وإلى أن أصبح قائدًا للقوات الجوية محققًا النصر الجوي الأهم في تاريخ مصر.

وقد كتب محمد الشناوي النص في حدود 500 ورقة فلوسكاب بخط اليد، بعض صفحات منها كان قد دون عليها الرئيس مبارك ملاحظات بخط يده بقلم أحمر، خصوصًا فيما يتعلق بالمعلومات الفنية والعسكرية الدقيقة، لقد ساعدتني تلك الملاحظات في أن أتأكد أن هذا النص لمبارك قبل أن أطلع على التقديم الذي كتبه بخط يده. وتمثل هذه الأوراق الوثيقة الأهم حول تلك السنوات وهذا السلاح وذلك البطل.. إذ لا توجد تقريبًا غيرها بهذه الدقة وتلك الشمولية وهذا التنظيم، والأهم على لسان محمد حسني مبارك، صانع هذا التاريخ بين كل صناع التاريخ من الجيل البطل الذي حقق نصر أكتوبر.

ليس معروفًا على وجه الدقة ما هو السبب الذي منع نشر تلك المذكرات، وما الذي عطل عملية النشر بعد أن اكتملت الوثيقة، إذ لم أجد لدى الأستاذ حازم ما يمكن نقله عن

(1) اقرأ السيرة الذاتية الكاملة لمحمد الشناوي ص355.

والده في هذا السياق، غير أن المؤكد أنه كان هناك حرص عائلي على الاحتفاظ بالوثيقة إلى أن يحين وقت تنفيذ وصية الوالد الراحل بالنشر، عندما يجد ابنه ذلك مناسبًا.

في بداية 2013 وضع الأستاذ حازم الشناوي ثقته في كاتب هذه السطور، وسلمني صورة من تلك «المذكرات- الوثيقة» لكي تجد طريقها إلى النور، وترك لي - مشكورًا- أسلوب ترتيب ذلك.. توثيقًا وتدقيقًا، وأرجو أن أكون على قدر ثقة العائلة الحائزة للوثيقة، وثقة صاحب المذكرات، وقبلهما ثقة القارئ الذي نقدم له هذا العمل التاريخي المهم.

للوهلة الأولى، أثبتت قراءة تلك المذكرات - وبما لايدع مجالًا للشك - أنها للرئيس مبارك، سواء من حيث الوقائع الشخصية القليلة التي يرويها، أو من حيث المعلومات الفنية والعسكرية التي تضمنتها، أو من حيث تنظيم المادة المروية عن طريقة إعادة بناء القوات الجوية واستعدادها لحرب أكتوبر، ومن ثم تفاصيل ودقائق الضربة الجوية الساحقة لإسرائيل في أكتوبر 1973.. فضلًا عن الملاحظات الخطية التي وجدتها على جانبي بعض الصفحات وهي بخط أعرفه عن خط الرئيس الأسبق لمصر.

في غضون الأشهر القليلة التي تلت وصول هذا النص إلى يدي، لم تتح فرصة مناسبة لإطلاع الرئيس أو أي من أفراد عائلته على المذكرات: ولديه علاء وجمال أو السيدة قرينته. كنت أرغب في أن تكون هذة الخطوة عملًا مزدوجًا: يحقق أولًا توثيق النص، وثانيًا السماح بنشره.

كان يمكن أن أمضي في إجراءات النشر، وسط مناخ مشغوف بأي شيء عن مبارك.. لكني لم أجد أنه مطابق للمعايير الأخلاقية أن يتم النشر بدون إطلاع أي من أفراد عائلة الرئيس مبارك على المكتوب منسوبًا إليه، مع كامل التقدير والثقة في أسرة الشناوي الحائزة للوثيقة نقلًا عن الأستاذ الراحل محمد الشناوي.

في أغسطس 2013.. بُعيد صدور الحكم بأحقية الرئيس مبارك في أن يتم الإفراج عنه إجرائيًا من الحبس الاحتياطي الذي قيد حريته لسنتين، كان أن أبلغت الأستاذ فريد الديب - المحامي الكبير والمدافع القانوني عن الرئيس مبارك - بالأمر.. وتكرم سيادته وعرض الأمر على الرئيس مبارك حيث كان في مقر إقامته الجبرية في مستشفى المعادي، وكان أن تذكر الرئيس الموقف الممتد بينه وبين المرحوم محمد الشناوي، وطلب أن يقرأ مذكراته.

وتكرم الأستاذ فريد مجددًا ونقل الخبر إليَّ، فبدأت على الفور المرحلة الثانية من التعامل مع هذه المذكرات المهمة، تمهيدًا لعرضها على صاحبها الرئيس مبارك، وكان أن عُرضت عليه بعد ذلك.

لم تقف المهمة التي كلفت بها نفسي عند مسألة توثيق النص، والتأكد من انتسابه التاريخي للرئيس مبارك، ولا عند تولي إدارة عملية نشره عبر الدار المحترمة «نهضة مصر».. ولا عند كتابة هذا التقديم النقدي الشارح للكتاب والراوي لملابساته. بل آليت على نفسي أن أجعله أكثر حداثة عما كان عليه وأن أحرره بما يلائم سنة صدوره في 2013، مع كل التقدير والاحترام للجهد الذي بذله الأستاذ المرحوم محمد الشناوي في نهاية السبعينيات من القرن الماضي، أي قبل نحو 40 عامًا.

لقد حافظت على روح الأسلوب، ولغة الكتابة، والاقتباسات التي أوردها محمد الشناوي من تلقاء نفسه كما يمكن أن أخمن موقعها مهنيًّا، أو تلك التي أوصى بها الرئيس مبارك كما أتوقع من خلال تحليل المضمون.

يمكن توقع أن محرر المذكرات الأول قد اهتم ببعض المأثورات والأحاديث النبوية وبعض المذكرات العسكرية، وضمنها الصفحات أثناء صياغته للنص المنقول عما سمعه من نائب الرئيس، كما يمكن أن يقودنا الحدس إلى أن (مبارك) قد اهتم بما ذكرته إسرائيل عن العمليات العسكرية وما ورد في كتبها وتصريحات مسئوليها، وتوثيق ذلك عبر أدوات المؤسسة العسكرية التي كانت تهتم بذلك منذ زمن بعيد وتتابعه وتعرضه في تقارير دورية على قياداتها المختلفة.

بخلاف ذلك فإن تراتبية المذكرات، وتوالي تفاصيلها، ودور القوات والأفرع، ومهام الأفراد والقادة، وسجلات البطولات الشخصية، وغير ذلك هو من صميم شخصية القائد صانع النصر الجوي، الذي لم يكن يروي مذكراته الشخصية، بقدر ما كان يملي مذكرات القوات الجوية في السنوات الست التي سبقت أكتوبر 73 وقادت إليه.

في هذا السياق قمت ببعض الجهد في عملية تحرير إضافي لهذه المذكرات، يمكن أن أوجزه وفق مقتضيات الأمانة المهنية والتاريخية فيما يلي:

* الاحتفاظ بعنوان النص «كلمة السر.. صِدام» - من يونية 1967 إلى أكتوبر 1973» مع إضافة عبارة مذكرات حسني مبارك» لها ويمكن فهم لماذا اختار الأستاذ الشناوي عنوانه الأول تخليدًا لاسم العملية الهجومية القتالية التي قامت بها القوات الجوية المصرية في أكتوبر 1973.

* قمت بعدد من عمليات التكثيف والاختصار التي لا تخل بقيمة النص، ولا روح السياق الذي قام به الأستاذ الشناوي. وكان سبب ذلك هو اعتقادي أن النص الذي وصل يدي كان قيد المراجعة ولم يكن نصًا أخيرًا، فضلًا عن أن الطبيعة الإذاعية للغة الأستاذ المرحوم محمد الشناوي كانت تميل به إلى أن يضع تكرارات من فصل لآخر مذكرًا بها، حسب أسلوب العمل الإذاعي، مقارنة بما هو غير معتاد في أساليب التحرير المقروءة.

* قمت بإعادة التبويب عن طريق الدمج، وليس بإعادة الترتيب.. بمعنى أنني حافظت على درامية وتاريخية العمل كما دونه الأستاذ الشناوي، غير أني ألغيت التوزيع بطريقة الأبواب الرئيسية المتضمنة لفصول داخلية فرعية، وجعلتها كلها فصولًا متتابعة، ما اقتضى دمج بعض الفصول.

كانت المذكرات موزعة كما يلي: مقدمة، وسبعة أبواب، تتوزع كلها على فصول، بعضها أربعة وبعضها خمسة، باستثناء الباب الرابع فهو كتلة واحدة، وخاتمة.

في تبويبها الجديد - وبعد دمج عديد من الفصول - صارت هذه المذكرات مكونة من مقدمة و13 فصلًا وخاتمة، بخلاف هذا التقديم.

* قمت ببعض عمليات إعادة تنظيم الفقرات، وإعادة كتابة بدايتها، محاولًا أن يكون هذا أكثر تناسبًا مع لغة تحرير عصرية مغايرة.. وبدون إخلال بالجهد المبذول قبل أربعين سنة.

* حررت هذا التقديم التاريخي- التوثيقي، والنقدي، الإضافي والواجب.

إن صدفة العثور على تلك المذكرات هي نفسها بعض قيمتها، من حيث إنها وصلتني عبر شاب ينتمي إلى جيل رفض الكثير من أبنائه حسني مبارك، وخرجوا ثائرين ضده، ذلك أن هذا الجيل لم يعرف مبارك، ولم يعرف الجيل الذي انتمى إليه كقائد عسكري.. مجدته الأغاني الدعائية ولم تشر إلى قيمة عمله وإنجازه الحقيقي وثائق منضبطة وذات قيمة

تاريخية وعلمية. هذه الوثيقة تكمن أهميتها في أنها تربط بين أجيال حققت وأنجزت وفعلت وأجيال لم تعرف.

ليست تلك مشكلة يتحملها الجيل الجديد وحده. حين تفرغ مبارك نفسه لذكر بعض ما فعل في هذه الحرب المجيدة حدث أن تعطل وصول رسالته مرات؛ لأنه كانت قد مضت سنوات طويلة، فلم يعد يسرد تفصيلًا متكاملًا عن الضربة الجوية، وكان يذكر بعض العناوين العابرة في حوارات سريعة غير مهتمة بالدقائق والمكونات الصغيرة لحدث كبير، ومرة لأن هذه المذكرات لم تعرف طريق النشر. وقد أخذته السنوات وتفاصيل الحكم ومتغيرات الأيام، التي ربما بدا بعضها كما لو أنها حروب متكررة تتطلب عبورًا تلو آخر.. وترتيبًا لإعادة البناء مرة بعد غيرها.

وعلى الرغم من أنه توجد بعض الكتابات هنا أو هناك حول السنوات الثلاثين لحكم مبارك، فإن كثيرًا منها لم يهتم بالغوص في تفاصيل، واكتفى البعض بما يمكن اعتباره مجاملة لرئيس، ورأى فيه الجيل الجديد أنه نفاقات.. واهتم البعض الآخر بما يمكن اعتباره هجومًا سياسيًّا على رئيس، رأى فيه مؤيدوه ظلمًا له. وحتى لحظة صدور هذا الكتاب فإنه لم توجد بعد مصادر واضحة ودقيقة وشاملة وموضوعية لا عن سنوات حكم مبارك، ولا عنه شخصيًّا، لا عن سيرة السياسي الحاكم ولا عن تاريخ العسكري البطل.

هذا تناقض مريع تاريخيًّا، بين حقيقة أن الرئيس مبارك قد حكم ثلاثين عامًا، وامتد مساره العملي لأكثر من خمسين سنة، وبين كونه الرئيس الذي لم تدون عنه تاريخيًّا كثير من تفاصيل سيرته.. لا قبل أن يكون رئيسًا ولا بعد أن أصبح رئيسًا ولا عقب تركه لمنصبه كرئيس.

لقد اكتفى مبارك وحكمه بالمادة الإعلامية السيارة التي كانت تغطي أنشطة يومية ووقائع إخبارية، للدقة هو لم يكتف، وإنما لم يسع. ولا يوجد بشأن سيرته كتاب تحليلي شامل، أو سيرة موثقة، أو أي منتج ثقافي متعمق آخر. إن الكتاب الذي يمكن أن تعثر عليه بشأن مبارك قد يكون دعائيًّا أو ألبومًا مصورًا، أو كتابًا انتقاديًّا هجوميًّا رافضًا.

وبالموازاة لمبارك، فإن حرب أكتوبر، وهي تتخطى دور شخص بعينه، وتشمل بطولات ومواقف وأدوارًا لمئات الألوف من المصريين، كان بدورها أن لقيت ظلمًا تاريخيًّا ولم تحظ

بالقدر الكافي من الاهتمام التفصيلي والدقيق، حتى مع صدور عدد من مذكرات بعض من كبار قادتها، ربما لأسباب ودواعي السرية التي فرضت عليها وعلى تفاصيل حقوق المعرفة العسكرية التي أحاط بها الكتمان عقودًا، وربما لأن النصوص التي صدرت لم تتضمن تفصيلات محددة بالطريقة الاستثنائية الواردة في هذه المذكرات على لسان نائب الرئيس محمد حسني مبارك.

باستثناء مذكرات الفريق محمد عبدالغني الجمسي فإن الصورة التي تصل عن حرب أكتوبر إلى الأجيال الجديدة تبدو غير مكتملة وتحتاج إلى مزيد من التفصيل.. بل إن قائدها الميداني الأهم، القائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع المشير أحمد إسماعيل لم يمنحه الزمن فرصة لكي يروي تجربته ومسيرته وقصة الانتصار الذي سجل فيه اسمه.. وباستثناء كتاب تنشره دار «نهضة مصر» متضمنًا بعضًا من أوراق المشير أحمد إسماعيل، فإن قائد النصر ميدانيًّا لم يكتب سيرته.

لقد مضت سنوات طويلة على حرب أكتوبر، وبمضي السنوات طوى النسيان مذكرات قادة حرب أكتوبر، الذين لم تنشغل بهم تفصيلًا الحركة النقدية والأعمال البحثية، والعملية التي تبقي قيم تلك الحرب وأهميتها التاريخية يقظة في ذهن وعقل الأجيال التالية.. لا تحليل ولا دراسات ولا مراجعات، لم تعد حرب أكتوبر مدرجة أصلًا على الخطط البحثية للجامعات والمعاهد المصرية.

وبنفاد سنوات هذا الجيل صانع النصر، فإن الأعمال التي تتناول حرب أكتوبر ودقائقها انقطعت، ولا تضم المكتبات العربية والمصرية إلا مؤلفات نادرة عن الوقائع وتحليلها ودراستها وبحث تأثيراتها. ومن هنا فإن صدور تلك المذكرات التي أملاها نائب الرئيس محمد حسني مبارك يسقي تربة ذاكرة قد جفت، ويرطب اهتمامًا قد ذبل.

وليس بعيدًا عن هذا الظلم المتراكم أن حربًا معنوية وتاريخية وعلمية قد تم شنها على قيمة حرب أكتوبر ومجدها، تشويهًا وتقليلًا وإضعافًا، بل وتحويلها - استسلامًا للرواية الإسرائيلية - إلى حرب متعادلة في أفضل الأحوال..وفي أحوال أخرى وفقًا لروايات غير عربية بدت كما لو أنها هزيمة ناقصة أو نصر غير مكتمل.

هذا أمر جلل وخطير وجدير بالانتباه بالنسبة لاهتمامنا بأجيال صار عليها أن تستسلم

لحملات دعائية جعلت من الصمود الخاسر من قبل بعض التنظيمات في معارك عابرة نوعًا من الانتصار، وأصبح عليها أن تقتنع بأن الجيش المصري بلا مجد طالما أنه لم يخض حربًا منذ انتهت حرب أكتوبر 1973.

إن أهمية «المذكرات الأولى لحسني مبارك» لا تكمن فحسب في صاحبها، بقدر ما تكمن كذلك فيما ترويه عن المؤسسة العظيمة التي كان هو أحد أبطالها، وأبطال انتصارها في أكتوبر 1973، ويعزى ذلك إلى الطريقة التي روى بها مبارك تفاصيل عملية إعادة بناء القوات الجوية، باعتبارها الخاسر الأهم والأكبر في هزيمة يونيو 1967، ومن ثم باعتبارها صاحبة ضربة النصر الأولى في حرب أكتوبر 1973 المجيدة.

لا يمكن اعتبار هذا الكتاب «مذكرات شخصية»، وإن كان «مذكرات» بالتأكيد، ذلك أن نائب الرئيس محمد حسني مبارك لم يجعل من نفسه محورًا لها، ولم يتطرق إلى ذاته إلا في مرات نادرة. لقد جعل من الكتاب سجلًا لسنوات تطوير القوات الجوية، وانتقالها من الهزيمة إلى النصر، وبدا خلال تلك الصفحات شاهدًا غير معلن أكثر من تقديمه لنفسه على أنه فاعل رئيسي. من المدهش أنه لايتوقف عند محطات تاريخية مهمة ليروي تفاصيل كيف أصبح مديرًا للكلية الجوية ومن ثم كيف عين رئيسًا للأركان وكيف تم اختياره قائدًا للقوات الجوية.

مشهدان يركز عليهما حسني مبارك بشأن نفسه، الأول وهو مهزوم، يشعر بالظلم الفادح لأنه لم يقاتل، عاكسًا تلك الصورة على كافة الأفراد والقادة في القوات الجوية خصوصًا والقوات المسلحة عمومًا. والثاني وهو منتصر يؤكد بروايته لا بالحديث عن عمله الشخصي كيف أثبت المقاتل المصري جدارته وكيف تمكن من أخذ أسباب العلم والقوة لكي يثأر لنفسه ولأمته.

بدا مبارك حريصًا على عدم التفاخر في هذه الوثيقة، ليس لأنه أصر على أن يكون ملتزمًا إلى حد بعيد بالغرض الذي وجد أن الرئيس السادات قد استهدفه، أي أن يروي قصة الضربة الجوية، ومن ثم تباعد عن أن يكتب سيرة صاحب الضربة الجوية، ولكن أيضًا لأن تحليل المضمون يثبت أنه حاول أن يبتعد عن منطق «التفاخر القومي»، وانتهج منذ الصفحات الأولى، وبإصرار، أسلوب التحليل العلمي والواقعي، وصولًا إلى نتيجة محددة وهي أن ما تحقق من القوات الجوية لم يكن «معجزة» أو «أسطورة».

كان منطق مبارك المعلن لتبرير ذلك، هو أنها إذا كانت «معجزه» أو «أسطورة» فإنها تكون بذلك حدثًا استثنائيًا، منحة عابرة، بينما أراد أن يثبت طوال صفحات ذلك الكتاب – كما فعل توثيقًا – أن العملية الجوية «صِدام» كانت نتاج تقييم وتخطيط ودراسات وتدريب وإصرار وإرادة، يمكن أن يتكرر إذا تكرر ذات الجهد الذي تم بذله من أجل الوصول إلى هذا النصر، وإذا تكررت المبررات الداعية لحدوثها.

لقد أخفى مبارك نفسه من مذكراته الأولى، من حيث إنه لم يكتبها بطريقة أنه في يوم ما استدعى أو قابل أو وجه بأمر معين، وفي يوم آخر اجتمع بهذا أو ذاك، ومن حيث إنه لم يقل قابلت وسمعت وفكرت وقررت وقرأت، وإنما دونها بطريقة «مسيرة فريق» من الأفراد والقادة، في مختلف قواعد وألوية وأفرع القوات الجوية، وفي سياق منظومة القوات المسلحة برمتها.

في هذه المذكرات: لم يكتب مبارك عن مبارك، مباشرة، إلا ثلاث مرات تقريبًا، الأولى حين تحدث عن مشهد معاناته من الهزيمة، والثانية حين روى واقعة لجنة التحقيق التي فوجئ بأن شاهدةً أمامها قد ذكرت عنه رواية غير صحيحة دون أن تعرف أنه يرأس لجنة التحقيق التي تستمع إليها، وكانت الثالثة عندما روى كيف شارك في خطة الخداع الاستراتيجي لمفاجأة الحرب.

عوضًا عن هذا، جعل مبارك من تلك المذكرات مبارزة منهجية متصاعدة بينه وبين القائد الإسرائيلي الجنرال «مردخاي هود» مخطط وقائد الضربة الجوية الإسرائيلية التي أوقعت الهزيمة بمصر في صباح يوم 5 يونيو 1967. وقد كان هذا الأسلوب اللافت مهمًا للغاية في التعبير عن فكرة الكتاب من حيث أنه جعل هذه المواجهة تحقق ما يلي:

1 – إكساب المذكرات بعدًا دراميًا صراعيًا، يمزج ما بين الشخصي والعام، من حيث إن المواجهة كانت بين قائدين، أحدهما كسب جولة والثاني يخطط للثأر، ومن حيث إنها كانت بين اثنتين من القوات الجوية المتحاربة، ومن حيث إنها كانت كذلك صراعًا بين بلدين وشعبين، بين مصر وإسرائيل.

2 – منحت هذه المواجهة التي صنعها مبارك لمؤلفه فرصة أن يحلل ما قام به خصمه، وأن يعطيه بداية الاعتراف بأنه قد حقق مكسبًا، ثم يسحب هذا الاعتراف ويهدم هذا

المنهـج بتأكيد كونه لا يعـبر عن ابتكار خاص، ولا يمثل إنجـازًا، ويفتقد إلى الشرف، ويستند إلى عوامل مساعدة لولم تكن متوافرة ما أمكن لمردخاي هود أن يحقق نصره.

3 - أعطت المواجهة بهذا الشكل للقائد المصري حسني مبارك فرصة أن يأخذ قارئه خطوة تلو أخرى نحو إعلان انتصاره على القائد الإسرائيلي، بقصد إبلاغ رسـالته الأساسـية وهي أن «الإسرائيلي» وما يمثله ليست لديه أية ميزات استثنائية.. وأن «المصري» هُزم لأنـه واجه عيوبًا نتجت عن «تقصير» وليـس لأنه مهزوم بالفطـرة، أو لأنه يعاني من «قصور» مولود به كما أرادت هزيمة يونيو - من جانب إسرائيل - أن تقول وتروج.

4 - استخدم مبارك هذه المواجهة بدهاء مبهر، لكي يؤكد جِدة وحداثة الضربة الجوية التي خطـط لهـا ونفذها، وكيـف أنها كانت مبتكـرة ومبدعة، ونتاج العقـل المصري، وتمثل إضافـة حقيقيـة في تاريـخ القتال الجوي.. مقارنًـا بين أداء القـوات المصرية في 1973 والقوات الإسرائيلية في يونيو 1976.

بمقاييـس المقروئيـة العادية تبـدو صفحـات هذه المذكـرات أقرب إلى أن تكـون جافة، لأنها لا تتضمن مشـهيـات القـراءة المتوقعة.. فهي لا تتضمـن قصصًا وحكايات ومشاهد طريفـة.. إلا حـين تصل إلى فصلها الأخـير، عندما يحرص مبارك على ذكـر عديد من أمثلة البطـولات التـي قدمهـا الطيارون والمقاتلـون في القـوات الجوية، وكلها احتـوت على قيم ملهمة ومآثر خالدة.

في النص الأصلي الذي حرره الأستاذ الشناوي كان أن ضم كل تلك القصص في فصول تحت الباب السابع، ووزع قصص الأفراد بحسب كل فرع في القوات الجوية.

تحريريًـا كان يمكننـي أن أوزع القصـص الإنسـانية والبطـولات المميـزة لأفـراد وقادة القوات الجوية التي أوردها الفريق طيار محمد حسـني مبارك على مختلف فصول الكتاب.. كان هـذا سـيوفر فرصًـا لمزيد من أسـاليب الإمتاع أثنـاء القراءة.. غير أن هذا كان سـيخل بالترتيب الأصلي للنص المكتوب، والذي بني ترابطيًا انتقالًا من محور إلى آخر، ومن مرحلة إلى غيرهـا، ثـم تـوج في النهاية بالفصـل الأخير الذي يحكـي قصص الأمجاد الشـخصية.. وبمنتهى الحرص على أن يبدو ذلك في سياق روح فريق واحد.

للباحثين عن المتعة - القراءة عندي لا بد أن تضيف انبساطًا يتوج المعرفة - تكتسب هذه المذكرات رونقها وإمتاعها من جوانب أخرى، إذ بخلاف هذه المواجهة المستمرة بين مبارك ومردخاي هود، كانت المهمة التي أولى مبارك نفسه بها هي أن يسقط في كل صفحة واحدة من الأساطير التي روجتها إسرائيل عن نفسها بعد يونيو 1967، بأسلوب علمي وطريقة واقعية، لم تذهب نحو الحديث عن البطولات افتخارًا، بل نحت إلى التأكيد المستمر على منهج «الأخذ بالأسباب».

وفي صراعه هذا مع الجنرال مردخاي هود، وحتى وهو ينتقده، ويؤكد أن خطة ضربة يونيو 1967 منقولة عن الفكر الأنجلو فرانكفوني العسكري في حرب 1956، فإن مبارك كان يعطي لخصمه قدره، إذ على قدر الخصم وقوته كان حجم النصر وتاريخيته.

لقد نقل الفريق طيار حسني مبارك الحرب إلى صفحات مذكراته، كما لو أنه كان في غرفة عمليات القوات الجوية، يخطط، وينفذ، ويأمر بالتدريب، ويرقي مستوى التسليح، إلى أن حانت لحظة القتال، في كل صفحة، أو للدقة كل فصل، كان يسير بالتفاصيل عبر هذا المسار ونحو هذا الاتجاه.

إن الاطلاع على هذا النص لا يؤكد فقط جدارة مبارك بأنه كان طيارًا مقاتلًا تاريخيًّا، ولكن - وهذا مهم للغاية - يحيي في ذاكرة الأمتين المصرية والعربية مدى وحجم هذا الإنجاز الذي تحقق، وكيف أنه يمكن لهما أن تمضيا في طريق مختلف نحو الحداثة إذا اتبعتا ذات المنهج وتصدتا للتحدي، وكان الهدف محددًا وطريق الوصول إليه كان عبر العلم والتدريب.

رسالة ومنطق الكتاب هو أن: الهزيمة ليست قدرًا، والنصر ليس صدفة، وفي سبيل ذلك، ووفق التزامه بمعايير السرية التي كانت مفروضة وقتها، حتى على نائب رئيس الجمهورية، فإن محمد حسني مبارك يشرح في فصول متتابعة كيف تحقق النصر.. وكيف تم التغلب على الهزيمة. وقبل ذلك فإنه بمنهج القوات المسلحة المصرية يقيم ما وقع وأسبابه والدروس المستفادة منه، وطرق علاج الأخطاء، وكيف أمكن امتلاك أدوات الانتصار.

لم يكن الطريق إلى النصر سهلًا ويسيرًا، كما لم تمر السنوات من 1967 إلى 1973 بسلاسة، وبقدر ما تبدو مروية الأعوام المريرة عادية وبسيطة ونحن نقرؤها الآن بعد

أربعين عامًا من النصر، بقدر ما كمنت فيها عوامل قسوة المهمة وعبء الثأر وضخامة العمل وحجم التضحيات. وفي هذه الصفحات كان أن قدم حسني مبارك ذلك العمل التاريخي، وهو جانب من بين جوانب العملية العسكرية كلها في أكتوبر 1973 كما لو أنه يمكن لأي أحد أن يقوم به.. في حين أنه لم يكن كذلك على الإطلاق.. ولعلنا نلاحظ بالاطلاع على هذه المذكرات ما يلي:

1 - قبل بناء المقاتل بدنيًّا وتسليحًا وتدريبًا كانت المهمة الأصعب والأهم هي إعادة بنائه نفسيًّا ومعنويًّا. في مذكراته أعطى مبارك جهدًا عميقًا ومثابرًا لكي يشرح ذلك وأهميته ودوره في تأصيل وترسيخ عقيدة القتال، واستنهاض المصري من هزيمته، في ضوء أن الهدف الذي رأى مبارك أنه كان مخططًا من قبل إسرائيل في يونيو 1967 هو قهر المواطن المصري خصوصًا والعربي عمومًا نفسيًّا وتنكيس ذاته بحيث لا تقوم لها قائمة من جديد.

2 - بخلاف البناء المعنوي، فإن المقاتل بني معرفيًّا، ومن اللافت أن القائد حسني مبارك ركز على أن ردود أفعال المقاتلين وقراراتهم القتالية لاتكون متحصلة فقط من عمليات تدريبهم وتسليحهم وتجهيزهم معنويًّا.. بل رأى أنها تعود في الأصل إلى تراكم حضاري يتجمع في لحظة المواجهة ويكون أن ينتج قرارات المقاتل التي تؤدي لانتصار.

أكثر من مرة يشير مبارك إلى الأسلوب الذي أنتجه أحد قادة التشكيلات بعد أن أنهى مهمته القتالية ونفذت ذخيرته كلها هو وكل من معه من زملائه ثم واجه تشكيلًا مفاجئًا من الطيارين الإسرائيليين.. فكان أن ابتكر نوعًا فريدًا من المناورة أوحى للعدو أنه بكامل قدرته مما أدى إلى فرار الآخرين. مثل هذه القدرة التي تم ابتكارها في لحظة وأصبحت بعد ذلك خبرة يثبت مبارك أنها نتاج تراكم معرفي يميز هذا المقاتل عن غيره من مقاتلي العدو أو غيره.

3 - لم يذهب المصريون إلى حرب أكتوبر فجأة، كما أنهم لم يكونوا قادرين عليها في وقت قصير.. ولم تكن التدريبات وحدها كافية لاكتساب المهارات ونمو القدرات.. وكان المقاتلون بحاجة إلى أن يواجهوا الطيارين الإسرائيليين ليعرفوهم قبل أن يقاتلوهم في معركة الثأر. ومن هنا تبدو في المذكرات أهمية وفلسفة حرب الاستنزاف التي يشرح

مبارك مبررها التكتيكي بطريقة لم تكتب من قبل، ويصفها بأنها «جامعة» كان لا بد من الالتحاق بها قبل التقدم إلى نصر أكتوبر.

4 - إن مشاركة أكثر من مائتي طائرة في أولى طلعات الضربة الجوية في الساعة الثانية وخمس دقائق يوم 6 أكتوبر لم يكن سوى قمة جبل الجليد، وحتى يسيطر المقاتل على عنان السماء وهو في مواجهة خصمه فإن عشرات من التفاصيل المعقدة على الأرض، وبين السماء والأرض لا بد أن تكون قد تمت.. بدءًا من إعادة بناء المطارات وتوزيعها وحمايتها وطريقة التجهيز الفني للطائرات وإعادة تطويرها وتحديثها وتدريب الأطقم المعاونة.. ومن أهمية هذه المذكرات أنها تشرح ذلك تفصيلًا.

لقد أعلى مبارك في مذكراته قيمة «الفريق» لا «الفرد»، وهنا تتجلى قيمته في الانزواء كقائد تاريخي للقوات الجوية حين طوى دوره بين أدوار كافة أفراد وقيادات سلاح الجو، وحين اهتم بأن يوزع كل فصول كتابه ومرويته على كافة أفرع وأنساق القوات الجوية. في أحد أهم الفصول يذكر تفصيلًا دور كل من المقاتلات، والقاذفات، والهيلوكوبتر، وعمليات الاستطلاع والنقل والاتصال والإبرار والأطقم الفنية.

5 - لأول مرة يذكر مبارك تفاصيل الدور الذي قام به علميًّا في مرحلة توليه إدارة الكلية الجوية.. ويوثق ما أنتجه الفكر العسكري العلمي المصري خلال السنوات الست ظهيرًا للضربة الجوية وفي الطريق إليها. وعلى الرغم من أنه اهتم في مواضع مختلفة من تلك المذكرات بانتقاد الفكر العسكري القديم والبالي الذي أدى إلى هزيمة 1967 فإنه يدهش قارئه بذكر فائدة إعادة إحياء أفكار عسكرية قديمة وتوظيفها في ضوء الإمكانات المحدودة لتحقيق أهداف جديدة. مثال ذلك استحياء الدفاع الجوي بأسلوب البالون ودراسة ذلك في الكلية الجوية.

6 - يروي مبارك إسهامه في خطة الخداع الاستراتيجي، ومفاجأة الحرب، وبقدر أهمية تلك التفاصيل، فإن التحليل العلمي في حاجة إلى أن يستفيد مما يرويه مبارك وغيره من القادة العسكريين حول تلك الخطة وعملية التمويه القومية التي شاركت فيها مصر كلها - كما يقول مبارك- وليس الجيش وحده، لفهم طبيعة هذا المكون في الثقافة

المصريـة وتأثير المناورة على سـلوك الأفراد والشـعب برمته ومؤسسـته العسـكرية في لحظات بعينها، وأثناء مواجهة خصم ما.

وبخـلاف ذلك، وغيره كثير، تكمن أهمية هذه المذكرات، حول القائد والقوات، في أنها تؤرخ للحظة التي عُنيت بها، وتكشـف ما غاب بمرور السـنوات، وتميط اللثام عن أسرار لم تعلـن مـن قبـل، وفي ذات الوقت تمثل وسـيلة إضافية لفهم شـخصية صاحبها، ومنهجه السـياسي، والبعدين الوطني والقومي في أفكاره خلال سـنوات الحرب وما تلا ذلك وقبل أن يكون رئيسًا.. وكيف يمكن أن يفسر هذا سياق مواقفه وسياساته بعد أن أصبح رئيسًا.

وبقـدر مـا تكشـف المذكـرات الأولى لحسـني مبـارك طريقة تفكـيره، بقدر مـا تطرح التساؤلات حول السنوات الثلاثين التي حكم فيها مصر، ومن ثم التحديات التي واجهها، وكيـف تعامل معها، وإلى أي مدى اسـتعان بالأسـاليب التي التزم بهـا وفرضها وطبقها في السـنوات السـت من 1967 إلى 1973، وما الذي يجده القائد العسـكري المنتصر في الحياة المدنية عندما ينتقل إليها، وتمكنه أو لا تمكنه وقائع وملابسات مختلفة من تحقيق أهدافه.

حـين وقعـت بـين يديّ هـذه الوثيقـة بالغة الأهميـة، أدركت مـا هو حجم هذا السـبق التاريخـي، وقيمتـه، وتأثيره.. والأفق التي يفتحها، والمعلومات التـي يوفرها، والمعاني التي يضيفهـا. وبقـدر ما تمثله مـن حيث كونها عمـلًا علميًّا وتاريخيًّـا تعنى بـه اهتمامات مختلفة لأنواع وفئات متباينة من القراء.. فإنها تعتبر إنصافًا رتبته الأقدار لقائد مصري عظيم، كان أن تسببت تعقيدات السياسة في الطعن في مكانته العسكرية، وقيمة ما حققه في نصر أكتوبر المجيد.

هـذا الإنصـاف الذي قدمتـه الصدفة من أجل سـيرة رجل.. يمثل إنصافًـا أعظم أهمية للحقيقة والتاريخ والأجيال التي لم تعرف الكثير عن صاحب المذكرات، كما لم تعرف سوى النادر عن جيله وقيمته في مسيرة مصر.

عبدالله كمال

جاردن سيتي ـ مصر الجديدة

سبتمبر 2013

مقدمة
كلمة السر.. «صِدام»

أكتب هذه المذكرات انطلاقًا من شعوري بالمسئولية تجاه المواطن المصري، والقوات الجوية، والقوات المسلحة المصرية كلها. واستجابة لمسئوليتي تجاه التاريخ والحقائق التي يجب أن يطلع عليها الجميع.

وأشعر بفداحة تلك المسئولية منذ نبتت فكرة هذا الكتاب - الذي يحكي ملحمة الطيران المصري كاملة، بدءًا من ضربة الخامس من يونية عام 1967، حتى ضربة «صِدام» التي استعاد بها الطيار المصري سمعته كمقاتل جريء ومقتدر، في الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973 . إن المرجع الأساسي لذلك الإحساس هو ذلك الرصيد الهائل من الإعلام الإسرائيلي، الذي امتزج فيه قدر محدود من الحقائق، بقدر لا محدود من الأكاذيب والخيالات التي صيغت بذكاء شديد.

لقد نجح هذا الإعلام في تحويل ضربة إسرائيل للطيران المصري صباح 5 يونية 1967 من مجرد خطة عادية- إذا قيست بالمقاييس العسكرية المحايدة والموضوعية - في إطار الظروف التي تمت خلالها الضربة على جانبي الصراع، إلى أسطورة خيالية، تروي أمجادًا خرافية لواضع الخطة «مردخاي هود» وهيئة عملياته العسكرية.

لقد عرفت تلك الضربة في الملفات السرية لوزارة الدفاع الإسرائيلية باسم «طوق الحمامة»، ويعود القدر الأكبر من النجاح الذي حققته إلى هذه الصدمة النفسية التي أصابت جماهير شعبنا المصري، وأمتنا العربية كلها، وهي ترى «أكبر قوة جوية ضاربة في الشرق الأوسط» - كما كانت القيادات العسكرية المصرية السابقة تُصرح دائمًا - تتحطم وهي جاثمة على الأرض، في ضربة سريعة لم تتجاوز منذ بدايتها في الساعة 8.45 صباحًا إلى نهايتها نحو الساعة العاشرة، ساعتين فقط.

عامل آخر ساعد على إشاعة الجو الأسطوري حول ضربة إسرائيل للطيران المصري وهو الأقاصيص والحكايات المبالغ فيها كثيرًا، والتي رواها الجنود العائدون - على أقدامهم - عبر سيناء، تنفيذًا لقرار الانسحاب الذي أصدرته القيادة العسكرية للقوات البرية في الوقت الذي فقدت فيه هذه القوات أي حماية جوية، فأصبحت خلال عمليات الانسحاب المتسرع غير المنظم، مكشوفة تمامًا للعدو الجوي، ومعرضة لطيرانه الذي أسكرته نشوة النصر المذهل - حتى بالنسبة لأكبر المتفائلين في قيادة الطيران الإسرائيلي - فمضى الطيارون الإسرائيليون يعربدون في سماء سيناء، ويعبثون بالقوات البرية المصرية العائدة.. وهم في مأمن من أي حساب أو عقاب رادع.

ويُضاف إلى ذلك عامل أخير، لعله في تقديري، أخطر هذه العوامل جميعًا، وهو تلك الأعداد الهائلة من أبناء مصر - سكان مدن القناة - الذين تحولوا مع تصاعد العمليات القتالية على جبهة السويس إلى مُهجرين، موزعين في معظم مدن مصر وقراها، وما حمله معهم هؤلاء الإخوة من قصص العدوان الإسرائيلي المتغطرس، والذي كان طيران إسرائيل يمثل رأس الحربة في كل عملياته.

إن رؤية المواطن المستقر في داره وعمله، وسط أهله وأصحابه الذين عاش عمره بينهم، لأخ له في الوطن، وقد أُرغم على ترك مسقط رأسه ومسرح حياته العملية والاجتماعية، ثم تحول رغمًا عنه - وتحت وطأة عمليات عسكرية عدوانية - إلى مُهجر يعيش في معسكر أو مخيم، ويعيش على إعانة مهما تعاظم قدرها، فهي بالقياس إلى دخله الأصلي محدودة، ودون ما اعتاد أن ينفق على نفسه وذويه.. هذه الصورة القاسية، حين يشاهدها المواطن المصري - ويسمع بها أو يراها الإنسان العربي - بعد 5 يونية 1967، كان لها فعل السحر الأسود في نفسه، وربما بعثت إلى ذهنه ووجدانه على الفور، بصورة مماثلة طالما قرأ عنها أو سمع بها

عـام 1948، حين نجحت إسرائيل عشـية إعلان قيامها كدولـة، في طرد الملايين من عرب فلسـطين وأصحابهـا الشرعيين، وتحويلهم إلى لاجئين يعيشـون في المخيمات، على صدقات المجتمع الدولي.

وقد تضافرت مع هذه العوامل في تحقيق الهدف النهائي، الذي سعى الإعلام الإسرائيلي عقـب 5 يونية إلى تحقيقه في نفسـية الإنسـان العربي، وهـو التهويل لهذه العملية العسـكرية التـي لا تخرج في التحليل العلمي عن منهج من الفكر العسـكري الألماني والإنجليزي، مع بعض الإضافات اليسـيرة التي تتفق مع طبيعة وتكوين العقلية العدوانية المسيطرة على قادة المؤسسـة العسـكرية الإسرائيلية. وحصيلة كل هذا، أن تحول الطيران الإسرائيلي إلى خرافة وتحول الطيار الإسرائيلي إلى شـبح، تنسـج مخابرات العدو حوله الأسـاطير، وتشـيعها عبر أجهزة الإعلام العالمي.

وإذا كنـا - نحـن العرب بوجه عام والمصريين بوجه خاص - نعيب على الإسرائيليين.. عسـكريين وساسـة، تلك المسـتويات الرهيبة من الغرور والغطرسـة التي لا تطاق، والتي اسـتولت عليهم فكرًا وسـلوكًا، عقب انتصارهم المفاجئ والمذهـل، الذي حققوه بأبخس الأثـمان، فإننـا لا نرضى لأنفسـنا - نحـن المصريين بالـذات - أن يؤخذ علينا مـا عبناه على خصمنا.. فنستسـلم لنشـوة النصر الذي حققته قواتنا المسـلحة - بجميـع أفرعها - يوم 6 أكتوبر، بحيث قضت في سـت سـاعات على أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر، فإذا به - بشهادة العدو قبل الصديق، وبعد ست ساعات فقط - يترنح من هول الضربات التي كالها له المقاتل المصري جوًّا وبرًّا وبحرًا.

ومـع يقظتنا الكاملة لهـذا المنزلق العاطفي الخطر، الذي يمكن أن يجرنا إليه الإحسـاس القـوي بالنصر السـاحق الذي زلزل كيان العسـكرية الإسرائيلية، فإننـا - مع كل التواضع الذي تمليه الثقة الكاملة بالنفس، والإيمان الراسـخ بالقدرة القتالية الهائلة للجندي المصري - لا يسـعنا إلا أن نشـير إلى حقيقة مهمة، وهي أن إسرائيل تؤمن إيمانًا راسـخا، بأن عدوها الأول، وخصمها الأخطر شأنًا، والأثقل وزنًا.. هو مصر.. وشعبها الأمين.. ذلك الشعب الـذي ظـل ثابتًـا على أرضـه كالطود الراسـخ يحمي حضارته التـي زرعهـا في وادي النيل، وحماهـا ضد موجـات الغزو الأجنبـي، التي تكسرت على شـاطئ صلابـة المصريين طوال عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث.

منطلقان يدفعانني إلى الانتباه إلى ذلك العداء المتأصل:

الأول عسكري بحت، تمثل في تكثيف الضربة الموجهة إلى جيش مصر وطيرانها، بحيث أدى هذا التكثيف في حجم الضربة والعناصر التي استخدمت فيها - حيث ألقت إسرائيل بكل ثقلها العسكري تقريبًا جوًّا وبرًّا على الجبهة المصرية - إلى إحداث شلل مفاجئ في القيادة المصرية. إن هذا أدى مع عنصر المفاجأة إلى ما أدى إليه من هزيمة ساحقة، وغير طبيعية في نفس الوقت، خرجت بها مصر مهزومة من معركة لم تقم في الواقع، وكانت النتيجة الحتمية بعد أن خلا مسرح العمليات من الوجود المصري الذي تحسب له إسرائيل ألف حساب، أن تفرغت العسكرية الإسرائيلية لباقي أطراف الصراع، على الجبهتين السورية والأردنية، وهي واثقة تمامًا من تحقيق النصر بعد أن فرغت من خصمها الألد، وعدوها الأخطر.. مصر وجيشها.

المنطلق الثاني أخذ شكل الحرب النفسية المسعورة، التي شنها الإعلام الإسرائيلي بلا هوادة أو رحمة، واستهدف بها تحطيم معنويات الإنسان المصري - باعتباره الركيزة الأولى في الصراع العربي - الإسرائيلي، فإذا نجح هذا الإعلام في زعزعة هذا الإنسان المصري، وخلخلة بنائه النفسي الصلب، فإنه يفقد ثقته بنفسه وثقته بقواته المسلحة، وبقدرة هذه القوات على شن هجوم مضاد، لتحرير أرضه المحتلة، وبالتالي ينهزم نفسيًّا حتى النخاع، بعد هزيمة عسكرية لا مجال للتشكيك فيها.. ومن ثم سينطوي على نفسه، ثم تتجه حركته - إذا قُدر له أن يتحرك - في اتجاهين مدمرين.. أولهما: فقدان الثقة في قيادته السياسية، التي انتهت به إلى هزيمة ساحقة، وما يتبع فقدان الثقة من تمزق وانفجارات تؤدي في النهاية إلى انهيار الجبهة الداخلية التي أذهلت كل الخبراء والمحللين العالميين بصلابتها الأسطورية عام 1967 وما تلاها من سنوات الصمود.

إن الخطر الأكثر تدميرًا هو موقف الإنسان المصري في قضية الصراع العربي - الإسرائيلي - كان يكمن في احتمال عاشت إسرائيل ولعلها لا تزال تحلم به، بأن تؤدي الخسائر التي مُني بها الشعب المصري كنتيجة حتمية لضربة 5 يونية، إلى وقوفه موقف المتشكك المرتاب في القضية كلها، وأن ينتهي به هذا الموقف المتردد، إلى رفض كامل في النهاية، يعقبه انعزال مصر عن القضية برمتها، وتلك أعذب أمنيات الفكر الإسرائيلي، أن تنجح في الوقيعة بين الإنسان المصري وبين أمته العربية جمعاء، وقيعة تنتهي إلى انعزال مصر، وخروجها من حلبة

الـصراع نهائيًّـا، لكي يخلو الجـو لإسرائيل، تعربد فيه كما تشـاء، وتصنع بالمنطقـة ما تريد.. وتعيد رسم خريطة المشرق العربي على هواها.

لعـل هذا يفسر لنـا ضراوة الإعـلام الإسرائيلي في هجومـه المخطط المـدروس بإحكام ودقة بالغين، على عقل الإنسـان المصري وعاطفته معًا، هجومًا اسـتخدمت فيه كل وسائل الإعلام الحديث، وجندت له كل أساليب الحرب النفسية الحديثة.

عشرات الكتب والمؤلفات التي تتحدث عن «حرب الأيام الستة» - قدمت لها وزارات الدفـاع والخارجية والإعلام الإسرائيلي كل الإمكانيات والتسـهيلات.. الوثائقية والمادية. وعشرات الأفلام - التسـجيلية والروائية - التي تم إنتاجها ببذخ خرافي، وبحرفية سينمائية بالغـة الدقة والذكاء، تصور كلها بطولات جيش الدفاع الإسرائيلي، وتتغنى بأمجاد «طيران إسرائيـل».. ذراعها الطويلة ذات المخالب الجهنمية القادرة على سـحق أي هدف في أعمق أعـماق الوطـن العربي.. وخاصـة في ربـوع خصمها اللـدود الخطير؛ مصر.. مئـات - ولا نبالـغ إذا قلنـا آلاف - المقـالات والأبحاث العلمية.. والندوات التـي تنشرها - أو تذيعها وتعرضها - وسـائل الإعلام يتغنى كتابها ومذيعوها «المحايدون» - كما يسمون أنفسهم - بأمجاد العسـكرية الإسرائيلية، من ناحية، ويسـخرون بهزال العرب وضعفهم وتخلفهم من ناحية أخرى.

ثم - أخيرًا وليس آخر - هذا السيل الرهيب من الأقاصيص المصنوعة - داخل مكاتب المخابرات الإسرائيلية - عن بطولات رهيبة، وقدرات أسطورية لجيش «الدفاع» الإسرائيلي وطيرانه الرهيب. ولعل هذا اللون الأخير من ألوان الحرب النفسية التي شنها العدو ضدنا، عقب 5 يونية، كان أخبث وسائله على الإطلاق، لأنه كان يسعى إلى تحقيق هدفين واضحين منـذ البدايـة، غرس الفـزع في نفس الإنسـان المصري - مدنيًّـا كان أو عسـكريًّا - من هذه المقولة الخرافية « الذي لا يُهزم أبدًا»..ثم قتل الثقة والاحترام اللذين يكنهما المواطن المصري لجيشـه عن طريق سـيل متلاحق من النكت المرة التي تسخر من المقاتل المصري ومن قدرته على الصمود في الميدان وعجزه عن مواجهة المقاتل الإسرائيلي، سواء تمت هذه المواجهة على الأرض أو في السماء.

من الحقائق المسلم بها - في الفكر العسكري قديمه وحديثه - أن العدو الذي ينجح، عن طريـق الحرب النفسـية في نشر الفزع في صفوف المدنيين على الجهـة المعادية، ثم تصعيد هذا

الفـزع، إلى احتقار للجيش الوطني والسـخرية منه وعدم الثقة بـه، يضمن في النهاية النصر الكامـل والسـاحق لقواتـه عند أول مواجهة لـه مع الخصم الذي نجـح في تدمير معنويات شعبه.

هـذه الحقيقة التي جرت الآن مجرى البديهيات في الفكر العسـكري، كانت نقطة البداية - كما سيتضح في تلك المذكرات - عندما تحركت العسكرية المصرية بقيادتها الجديدة بعد 5 يونيـة مباشرة لتحقيق الصمود النفسي أولًا للمقاتل والإنسـان المصري قبل أي خطوة على الطريق الشاق الطويل الذي انتهى إلى معارك السادس من أكتوبر المجيد.

ورغم ما حققه جيش مصر البطل - بكل أنواعه وأسـلحته - من بطولات في السـادس مـن أكتوبـر، تعتبر كما قال الرئيس محمد أنور السـادات «معجزة عسـكرية بأي مقياس من مقاييس الفكر العسكري» فإن ضراوة الحرب النفسية التي شنها علينا العدو عقب 5 يونية وقبل 6 أكتوبر كانت مثار اهتمام كل مصري، سـواء في أعلى مسـتوى من مسـتويات القيادة السياسية والعسكرية.. أو لدى المواطن المصري العادي.

كنا كعسكريين نعرف جيدًا على الطبيعة - ودون تأثر بعوامل التحامل أو التحيز الوطني ضد عدونا، أو لصالح قواتنا المسلحة - أن ما حدث في 5 يونية ليس معجزة مطلقًا، ولا هو خارقة من الخوارق التي تستحيل مجاراتها أو اللحاق بها، وكانت القيادة العسكرية المصرية - التي تولت مسـئولية وشرف الإعداد للسـادس من أكتوبر - تعرف بحكم دراساتها العليا، وتمكنهـا مـن فنون الفكر العسـكري - سـواء في معاهـد الغرب أو الـشرق - أن ما حدث في معـارك 5 يونية، مجرد اسـتغلال جيد لظروف معينة وجدت عـلى جانبي جبهة الصراع، وهو أمر لا يشكل عبقرية عسكرية، ولا يستأهل كل ما نُسج حوله من أساطير وخرافات، بلـغ مـن شيوعها، أن الإسرائيليين أنفسـهم وهم الذيـن صنعوها لكي يرعبـوا بها العرب ويخدروهـم عن واقعهم، وقعوا في نفس المصيدة، والتقطوا بغباء غريب عليهم فعلًا، نفس الطعـم الذي أجهدوا خبراءهم في صنعه واختلاقه لكي تلتقطه شـعوب الأمة العربية، وفي مقدمتها شعب مصر.

ولقـد وصل بهم خـداع النفس القائم على الغرور والغطرسـة والاستسـلام دون وعي لنشـوة النصر غـير الطبيعي، بينما قـادة إسرائيل يعرفون بينهم وبين أنفسـهم أن نصرهم في 5 يونيـة كان غير طبيعي في مجملـه، أقول: وصل بهم خداع النفس إلى الحد الذي دفع بأحد

قادتهم العسكريين الكبار، رئيس الأركان دافيد أليعازر إلى أن يصرح قبيل 6 أكتوبر، للصحافة العالمية، بأن «البحر الأحمر قد أصبح - بفضل الطيران الإسرائيلي - ذراع إسرائيل الطويلة القوية - إلى بحيرة إسرائيلية.. وعلى العرب جميعًا أن يوطنوا أنفسهم على هذا كأمر واقع يتصرفون على ضوئه».

لو أننا وزنا هذا التصريح لقائد عسكري كبير - مفروض فيه أنه يحترم نفسه ويحترم كلامه - بموازين الفكر العسكري السليم وقواعده العلمية لوجدنا أنفسنا أمام احتمالين لا ثالث لهما:

الأول: أن يكون «أليعازر»، حين ألقى بهذا التصريح قد استوثق تمامًا من وصوله بقواته - بجميع أسلحتها - إلى المستوى الذي يستحيل معه أن تلحق بها أية هزيمة عسكرية، سواء من حيث مستوى الإعداد والتدريب، أو من حيث مستوى التسليح كمًّا وكيفًا.. كما أن عليه في نفس الوقت أن يستوثق - عن طريق استخباراته العسكرية - من أن قوة خصمه لم تتصاعد بأي حال، إلى المستوى الذي يُشكل لجيشه تهديدًا أو شبه تهديد عند حدوث أي اشتباك.

وإذا صح للقائد العسكري - الذي يحترم نفسه ويحترم عقل قواته - أن يفاخر بارتفاع قدراته القتالية، فإن مسئوليته كقائد ومفكر عسكري، تفرض عليه أن يتناول كل ما يتصل بخصمه بحذر شديد، لأن التجارب العملية أثبتت دائمًا، أن أي خصم مهما كان شأنه، عنده دائمًا ما يخفيه عن أكثر العيون قدرة على التلصص، وأكثر الآذان تدريبًا على التسمع. فإذا أغفل القائد العسكري هذه الحقيقة البسيطة، فقد وضع بنفسه أول طوبة في بناء بشع اسمه.. الفشل.

الاحتمال الثاني: الذي يُمكن تفسير كلام القائد الإسرائيلي على ضوئه، أن تكون أجهزة الحرب النفسية في إسرائيل، قد وصلت في ممارستها مهمتها ضد العرب عمومًا - ومصر وشعبها خصوصًا، إلى درجة التشبع، بحيث تحولت بمهامها الدعائية - دون أن تدري - إلى عقول القادة الإسرائيليين أنفسهم، فإذا بهم يصدقون الأكاذيب التي اختلقوها حول القوة الأسطورية لجيشهم الذي لا يُغلب.. وإذا بكبيرهم - في ذلك الوقت - «دافيد أليعازر» يدلي بتصريحه الغريب .

ولم يكن أليعازر وحده الذي أُصيب بحمى الغرور، فقد كان هناك سباق عجيب بين

قادة إسرائيل - العسكريين والسياسيين على السواء - في إلقاء مثل هذه التصريحات الخالية من أي تعقل، لو وزناها بأي ميزان فكري سليم على المستويين العسكري والسياسي.

إن «حاييم بارليف» - صاحب الخط الشهير الذي أنفقت إسرائيل على إقامته وتحصينه مئات الملايين من الدولارات، ثم انهار بعد ساعات ست من الضربات القاسية التي كالها له المقاتل المصري الشجاع المدرب جيدًا، المسلح جيدًا - «حاييم» هذا، يصرح يوم 5 فبراير 1971 لوكالة الأنباء الفرنسية، بقوله: «ليست لدى المصريين أدنى فرصة للنجاح، إذا هم حاولوا عبور القناة، من المؤكد أن لديهم الوسائل اللازمة لمثل هذه المهمة، ولديهم خطط للعمل، ولكن ما ينقص مصر هو الجيش الذي يستطيع أن يخطط.. وينفذ.. ويقاتل».

ثم يعود في 8 مارس عام 1973 ليصرح بقوله: «أقول باختصار إذا استأنفت مصر القتال، فإن إسرائيل لن تخسر موقعًا واحدًا».

وقد كان «موشي ديان» فيلسوف المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، الذي تحطم هو وكل نظرياته عن «الأمن الإسرائيلي» فوق صخرة 6 أكتوبر، يؤكد دائمًا وفي كل مناسبة أن «مصر لن تحارب قبل عشر سنوات إذا هي فكرت في الحرب فعلًا».. وهو أيضًا القائل: «إن الجبهة المصرية لا تستحق من جهد جيش إسرائيل أكثر من ستين دقيقة».

أعود الآن إلى عدد من تلك التصريحات التي كان يكررها من حين لآخر، في سياق تعاليه وغروره. ففي الثاني والعشرين من نوفمبر عام 1969 أعلن ديان في مؤتمر صحفي: «إن خط بارليف منيع مستحيل اختراقه، إننا أقوياء لدرجة تكفي لكي نحتفظ به إلى الأبد، وأي عملية عبور مصرية - إذا حدثت - ستلقى الرد الحاسم، ولن تؤثر على قبضة إسرائيل الحازمة على خط بارليف».

وفي 18 نوفمبر عام 1970، أعلن «ديان» أمام الكنيست الإسرائيلي بأنه «إذا فضل المصريون استخدام القوة وعبور قناة السويس، فإنني أعلن أن قواتهم ستتحول إلى رماد».

وفي 26 مايو 1971، أذاعت وكالة أسوشيتدبرس العالمية هذا التصريح الذي أدلى به موشي ديان: «إذا حاول المصريون الإقدام على مخاطرة العبور، فإن هزيمة دموية في انتظارهم، وحتى أصدقاؤهم يعلمون أنهم لم يصلوا إلى مستوى القتال».

وفي 19 سبتمبر عام 1971، أذاعت الوكالة الفرنسية برقية لوزير الدفاع الإسرائيلي:

«إذا حاولت مصر عبور القناة، فسوف تتم إبادة قواتها.. و.. سيواجه الجيش المصري كارثة مؤكدة».

وفي الزيارة التي قام بها «ديان» للولايات المتحدة، في أوائل عام 1972، تناقلت وكالات الأنباء العالمية تصريحه الذي قال فيه: «إنني أحذر المصريين من الهلاك.. إذا أطلقوا النار..».

وأخيرًا يأتي هذا التصريح الذي لا يحتاج إلى شرح أو تفسير لمدلوله، وهو التصريح الذي أدلت به «جولدا مائير»، رئيس وزراء إسرائيل قبيل وأثناء معارك السادس من أكتوبر، «إذا كان أنور السادات عاجزًا عن الحرب، وإذا كان يعلم تمامًا أن الهزيمة الساحقة المنكرة هي النتيجة المحتومة.. فلماذا لا يقبل المفاوضة مع إسرائيل».

هذا السيل المتلاحق من التصريحات - الذي بدأ كثمرة لتخطيط مدروس لقواعد وأسس الحرب النفسية، وانتهى كنتيجة طبيعية لاستسلام قادة إسرائيل وساستها لحمى الغرور التي أصابتهم عشية نصر 5 يونية، وتصاعدت حرارتها إلى درجة الهوس، هذه التصريحات كانت قيادتنا العسكرية والسياسية - على السواء - تردها إلى حجمها الطبيعي، انطلاقًا من معرفتنا الحقيقية بما عند العدو من إمكانيات، وثقتنا الكاملة في سلامة الطريق الذي كنا سائرين فيه، خطوة خطوة.. بحذر وتأنٍ، ولكن بإصرار وتصميم وتتابع، لا يعرف المستحيل، ولا يتوقف أمام الصعاب مهما تعاظمت.

ومن هنا.. لم تكن هذه التصريحات تعني عند العسكرية المصرية سوى معنى واحد.. أنه حدثت بالتدريج، وبدون قصد من العدو - وبقصد كامل من جانبنا - عملية تبادل للمواقع النفسية. وإذا سلمنا بأن السلوك البشري - كما هو في الواقع والتحليل العلمي - رد فعل عملي للدوافع النفسية والاقتناعات العقلية، فإن تصريحات قادة إسرائيل بكل صلفها وغرورها، كانت تعني بالنسبة لنا نحن المصريين، أننا - قبيل معارك 6 أكتوبر - قد نجحنا في تبادل المواقع النفسية التي كنا نحتلها قبل 5 يونية، فتركنا موقع الغرور والتفاخر والمظاهرات السياسية الهوجاء للإسرائيليين، وأخذنا بدلًا منها موقع الحذر، والعمل الدائب في صمت، والتخطيط العلمي المدروس في الخفاء.

كانوا يدركون قوتهم، ويبالغون في إحساسهم بهذه القوة في الإعلام - بل الإعلان - عنها، وكنا نصمت غالبًا، وإذا اضطررنا للكلام، فبالقدر الذي لا يشيع اليأس في نفس

المواطن المصري والعربي، ولكنه لا يساعد في نفس الوقت على تنبيه العدو إلى مستوى خطر - بالنسبة له - من مستويات التدريب أو التسليح، نكون قد نجحنا في تحقيقه.

وكانت حمى التصريحات التي انتابت قادة إسرائيل، متفقة تمامًا مع الأهداف الخفية للعسكرية المصرية، ولكن خطرها الذي كنا نعمل له ألف حساب، هو تأثيرها على المواطن المدني الذي لا يعلم ما نعلمه نحن العسكريين، سواء بالنسبة لقوة العدو، أو لقوتنا المتزايدة باستمرار.

ومن هنا كان الإحساس الخطير بالمسئولية، عن ضرورة نجاح إعلامنا العسكري بالذات في تحقيق المعادلة الصعبة التي تتمثل في الاستمرار في خداع العدو المغتر بقوته، المنتشي بنصره السريع في 5 يونية 1967، مع الحفاظ في نفس الوقت على الدعائم الضرورية لسلامة نفسية المواطن المدني، والاحتفاظ له بالقدر الكافي من الثقة في قواته المسلحة، ثقة تصد عنه الهجمات الضارية التي تشنها عليه أجهزة الحرب النفسية لدى إسرائيل.

وللحقيقة والتاريخ، فقد كانت تلك عملية شاقة على جميع الأطراف.. سواء بالنسبة لأجهزة الإعلام عامة، والإعلام العسكري خاصة.. أو بالنسبة للمواطن المصري الذي استمد من شجاعته وصلابته الأصيلة، القدرة على الصمود في مواجهة الحرب الدعائية للعدو، وعدم الاستسلام للسموم الخبيثة التي كانت أجهزة العدو المدربة تبثها في جميع الوسائل المستحدثة.

وأخيرًا... حلت ساعة الصفر التي استبعد العدو مجيئها، بينما عاشت الملايين في مصر والأمة العربية كلها، تتحرق شوقًا للقائها، وفي الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973، وتنفيذًا لأمر القائد الأعلى الرئيس السادات، عبرت مائتان وعشرون من طائراتنا القاذفة الثقيلة، والقاذفة، والقاذفة المقاتلة، عدا طائرات الحماية والاعتراض.. عبرت كلها وفي ثانية واحدة ـ وطبقا للخطة «صِدام» ـ الخط «س» في نفس اللحظة، لتنطلق بعده إلى مواقع العدو شرقي القناة... كي ترد له الدين الذي فاجأها به منذ ستة أعوام في الخامس من يونية عام 1967.

وفي الثانية والثلث - وبعد مضي عشرين دقيقة تقريبًا، كنت في غرفة العمليات أستقبل «التمام» من مختلف القواعد الجوية، لكي أعيد إبلاغه في نفس اللحظة للقائد الأعلى في غرفة العمليات المركزية، لقد نجحت الضربة «صِدام» في تحقيق أهدافها ضد العدو بنسبة

تجاوزت 95٪ ولم تتجاوز خسائر قواتنا الجوية في هذه العملية المركزة نسبة 1٪ فقط، رغم أن عدد الطائرات المشتركة فيها قارب الثلاثمائة، وهي نتائج تعتبر وسام شرف لأية قوة جوية في العالم، لأنها حطمت جميع الأرقام القياسية العالمية السابقة، سواء في عدد الطائرات المشتركة في ضربة واحدة، أو في نسبة تحقيق الأهداف ضد العدو، أو هبوط نسبة الخسائر بين القوة المهاجمة.

وبمجرد أن تأكدت القيادة العليا، من نجاح الضربة الجوية المكثفة «صِدام» دارت آلة الحرب الجهنمية، وتحركت جحافل المقاتلين المصريين تعبر القناة، وتلتحم بجنود الجيش الذي كان لا يُقهر. وتتوالى المعارك لتؤكد بطولة وفعالية المقاتل المصري – الذي يشعر بالأمن والثقة لأن قواته الجوية، التي أخذت الدرس والعبرة من أخطاء 1967، قد صممت على الانتقام.. ولقد اعترف العدو نفسه، وشهد العالم أجمع.. المراسلون الحربيون والخبراء العسكريون، بأن الطيار المصري المقاتل أثبت وجوده بجدارة وفاعلية خلال معارك أكتوبر سواء في الضربة الأولى التي فاجأت العدو وحطمت له مراكز القيادة والسيطرة، ومراكز الإعاقة والتشويش، ومواقع بطاريات الصواريخ «هوك» المنتشرة شرقي القناة، أو في طلعات المعاونة الجوية للقوات البرية في زحفها المنتشر على أرض سيناء، أو في معارك الاعتراض والقتال الجوي ضد طيران العدو الذي حاول اختراق مجالنا الجوي طوال أيام القتال.

وفي كل هذه المجالات، كان الطيار المصري المقاتل حريصًا على أن يكتب بعرقه ودمه – بل وبحياته شهيدًا – لوحة جديدة في ملحمة الطيران المصري، التي كانت بدايتها صدمة 5 يونية 1967، ونقطة الوصول السعيدة ظهر السادس من أكتوبر 1973 .

وهنا أستطيع أن أجيب عن السؤال الذي طرحته في بداية هذه المقدمة.. هذا الكتاب.. لماذا؟!

لقد عمدت أجهزة الإعلام الإسرائيلية عشية «حرب الأيام الستة» – كما سموا معارك 5 يونية – إلى التهويل الأسطوري الذي يقترب من حد الخرافة، في حديثهم عن الضربة الإسرائيلية للطيران المصري، ولولا صلابة الإنسان المصري عقلًا وعاطفة، لانهار بناؤه النفسي أيام هذه الحرب النفسية الضاربة، وإذا كان الطيران المصري قد استطاع أن ينتقم لنفسه في 6 أكتوبر، وأن يرد الصفعة بصفعات أشد عنفًا وقسوة على العدو المتغطرس،فإن

الواجب نحو الطيار المصري المقاتل الذي كتب خاتمة سعيدة ومشوقة لملحمة بدأت بداية حزينة في 5 يونية 1967، يحتم أن يعرف أهله وذووه، ماذا فعل لهم ومن أجلهم.. في معارك السادس من أكتوبر.

هذا الكتاب أيضًا يفرضه الواجب نحو المواطن المصري العادي الذي عاش سنوات وسنوات، وهو أسير خوف غامض من عدو أسطوري له ألف ذراع - اسمه الطيران الإسرائيلي... الذي صورته الدعاية الإسرائيلية على أنه تنين خرافي له مخالب لا نهاية لطولها، ولا راد لقوتها، ولا مُعقب لحكمها.. وإذا كان هذا المواطن المصري الشجاع الصلب الإرادة صلابة تحطمت على جدرانها كل دعايات العدو وسمومه - قد صمد فإن ما حققه الطيران المصري من نجاح في المعركة، يمثل جانبًا من الجزاء لصبر هذا المواطن.. ولكن جزاؤه الأوفى يتمثل في إطلاعه على الصورة الكاملة لملحمة طيرانه المصري، منذ لحظة القيام من الصدمة، إلى سنوات الإعداد الصامت «إلى لحظة» الصدام الخالدة التي تحطمت فيها أسطورة الطيران الإسرائيلي الذي لا يقهر.

من هنا، يأتي الإحساس بالمسئولية أمام المواطن المصري، بكل صبره وجلده، وبكل تضحياته الشجاعة في سنوات الإعداد للمعركة، وخلالها، وبعد أن توقف القتال في انتظار الحل الشامل العادل للقضية.

فحق هذا المواطن الذي ضحى أن توضع الصورة كاملة بين يديه، بلا تهوين من أمر العدو - كما فعل خصمنا الذي اعتز بنصره عام 1967 - وبدون تهويل في ملامح الصورة على جانبنا القومي.

الحقيقة.. والحقيقة وحدها، هي ما يحتاجه المواطن المصري إذا أردنا أن نضع أمامه صورة ما جرى في 6 أكتوبر ومعاركه الخالدة.

والتزام الحقيقة في الحديث عن إحدى حلقات الصراع مع عدو لم يلتزم طيلة حياته بالصدق لحظة واحدة، في كل ما كتبه عن معاركه ضدنا ليس بالأمر الهين على النفس، ولكننا نلتزم به إيمانًا بالمسئولية أمام الجيل الحالي من طياري مصر الشجعان الذين خاضوا التجربة باقتدار وفدائية منقطعة النظير، وهي مسئولية أمام الأجيال القادمة من طياري المستقبل، أذرع مصر المحلقة في سماء التضحية والبذل، فحقهم - حين يأتي دورهم في تحمل

الأمانة أن يكون بين أياديهم سجل أمين، بالغ الصدق والدقة في تصوير ما كان.. حفزًا لهم نحو ما ينبغي أن يكون.

والتزام الصدق أولًا وأخيرًا، هو مسئولية أمام المواطن المصري الذي ضحى في شجاعة صامتة، وحقه أن يعرف الحقيقة، وأن يستوثق تمامًا، من أنه لم ينخدع هذه المرة أيضًا، كما خُدع من قبل في مواقف سابقة، كانت الهزيمة تتحول إلى نصر تعرف الدنيا كلها أنه نصر شعارات وهمية، بينما الإنسان المصري صاحب الحق الأول في معرفة الحقيقة، هو الوحيد الذي تُخفى عنه الحقيقة.

وإذا كنت قد شاركت بحكم موقعي العسكري أثناء معارك أكتوبر المجيدة كقائد للقوات الجوية المصرية وأُتيح لي بحكم هذا الموقع أن أعرف من الحقائق ما ييسر لي تقديم الصورة الكاملة لملحمة الطيران المصري، فإنني سأحاول تقديم هذه الصورة برؤية جديدة، أكثر شمولًا، وأكبر عُمقًا، في تفسير الأحداث والوقائع، بعد أن شرفني الرئيس القائد الأعلى محمد أنور السادات، بالعمل معه كنائب لرئيس الجمهورية.

إنني آمل أن يجد القارئ المصري خصوصًا والعربي عمومًا في هذا الكتاب، ما هو بحاجة إلى معرفته عن نسور مصر الشجعان، والملحمة البطولية، التي بدءوا في كتابة سطورها، عقب ضربة الخامس من يونية 1967 بساعات.

كما أرجو صادقًا، أن يجد العدو في هذا الكتاب – وهو سيقرأ بلا شك ما سأكتبه – تحليلًا دقيقًا لميدان من أخطر ميادين الصراع العربي – الإسرائيلي هو ميدان التسابق على السيادة الجوية في المنطقة.. وهو تحليل يكتبه طيار مقاتل، عايش التجربة بكل جوانبها المظلمة والمضيئة، ولعل العدو ينزع في النهاية من رأسه كل جذور الغرور وبذوره، حين يستوثق تمامًا أن الأمة العربية بوجه عام، والشعب المصري بوجه خاص، قد انتزع من براثن الهزيمة الساحقة، نصرًا مؤكدًا، وأنه لا يوجد في العصر الحديث شيء اسمه المستحيل، ما دامت هناك إرادة، وما دام هناك هدف محدد، وإصرار لا يعرف التراجع، سعيًا إلى هذا الهدف، كما أرجو أن ينزع العدو من رأسه أحلام التفوق التكنولوجي.

لقد أثبتت معارك أكتوبر وهي أول حرب إلكترونية متكاملة في العالم، سواء في مجال الطيران أو الدفاع الجوي أن المقاتل العربي الجديد مقاتل مثقف عسكريًا مكتمل الثقافة القتالية، متمكن من فنية سلاحه مهما كان سلاحه بالغ التعقيد، وهذا الجيل الجديد من

المقاتلين السلميين هو صيحة التحذير الحقيقية، التي يطلقها شعبنا والأمة العربية معه لكي يفيق العدو ويتراجع إلى حجمه الصحيح، متخليًا عن أحلام السيطرة والتوسع التي أوقعته في مأزق الحرب الرابعة التي وصفها الجنرال الأمريكي «إيثيل بانجر» حين قال في تعقيبه على معارك أكتوبر: «إن إسرائيل بقيت قائمة كدولة لأننا لم نخنها، فبدون الأسلحة والنفاثات الأمريكية، كان محتومًا أن تفنى إسرائيل».

إن شعبنا المصري، وأمتنا العربية جمعاء، يطلبان السلام العادل الذي لا يعرف الاستسلام، وشعبنا قادر بإذن الله وبصمود أبنائه وتكاتف أمته العربية على تحقيق هذا السلام العادل، ولقد شرب العدو في معارك أكتوبر من الكأس التي نستطيع أن نجرعها له كاملة، إذا هو لم يتراجع عن الغي، ويتوب إلى الرشاد.

والله ناصر من ينصره.. وما النصر إلا من عند الله.. هو نعم المولى، ونعم النصير..

من حسني مبارك

نائب رئيس الجمهورية

"أكلني الغيظ والكمد، كنت أستغيث بجهاز اللاسلكي في طائرتي، ولكن الجهاز لا ينطق. لا أحد يسمعني، لا أحد يسعفني.. حتى ولو بأطيب التمنيات.."

دمروا طائراتنا.. وأخطاءنا

في هذا اليوم الأشد حزنًا في مراحل حياتي وقعت أعظم هزائمي الوطنية والشخصية، فقدت سلاحي أمام عيني، وخسرت بلادي سلاحها الجوي ومُنيت بهزيمة عسكرية كبرى.. في هذا اليوم أيضًا تحقق أهم مكاسبنا وواحد من أكبر انتصاراتنا على أنفسنا.

- **التاريخ:** 5 يونية عام 1967.
- **الوقت:** الساعة السادسة من صباح الإثنين، الذي قُدر له أن يحمل فيما بعد ولبضع سنوات، على امتداد الوطن العربي كله، صفة «يوم الإثنين الحزين».
- **المكان:** قاعدة بني سويف الجوية. كانت حتى ذلك التاريخ مقر لواء القاذفات الثقيلة المكونة من طائرات «ت ي 16».

بعد ليلة من النوم المتقطع هاجمني خلالها أرق غريب، لم أدرك سببه على وجه التحديد. لقد أرجعت هذا الأرق إلى إحساس بتوتر الموقف العسكري بيننا وبين العدو، وما قد يؤدي إليه من تتابعات محتملة. كنت أشك أننا حسبنا بدقة ما سوف يُؤمن قواتنا المسلحة

عمومًا، وقواتنا الجوية بالذات إذا ما وقعت مفاجأة مؤسفة. لقد تحول هذا الشك فيما بعد إلى يقين أيدته الأحداث والوقائع.

كنت منذ عودتي من بعثتي الدراسية إلى الاتحاد السوفيتي، أتولى قيادة لواء القاذفات الثقيلة «ت ي 16» وهو منصب كان يجر عليّ الكثير من المتاعب التي تخلقها «الشللية» التي كانت منتشرة بشكل مرضي على مستوى القيادة قبل 5 يونية 1967. كان سلاحي الوحيد في مواجهة هذا الوباء - الشللية - هو الانهماك في العمل إلى الحد الذي لا يسمح لي أنا شخصيًّا بالوقت الكافي للتفكير في تصرفات الشلل المحدقة بي، أو محاولة الرد على «المكائد» التي تُحاك ضدي، طمعًا في الموقع القيادي الذي أتولاه.

إيجابيًّا، كان هذا الانهماك في العمل من جانبي يؤدي بالضرورة إلى تحقيق نتائج عسكرية، لا يستطيع أشد الطامعين شغفًا إلى موقعي أن ينكر أثرها على الارتفاع بمستوى القدرة القتالية للواء الذي أتولى قيادته.

أذكر، بينما أستعيد شريط الأحداث التي عبرتها في تلك الفترة المؤلمة: أنني أمضيت على سبيل المثال، ستة أشهر كاملة في بدء تشكيل اللواء وإعداده لا أغادر مقر قيادتي على الإطلاق، ولا أذهب إلى بيتي ولو لحظات عابرة، وكنت أقضي ساعات النهار وجزءًا كبيرًا من الليل في عمل متواصل، لا أسمح خلاله لنفسي إلا بوقت محدود من النوم الخاطف، الذي يهيئ لي متابعة العمل من جديد.

رغم هذا الجهد المتواصل فإنني كنت أفاجأ مع بالغ أسفي بأن الشلل التي تحاصرني في كل مكان أتواجد فيه، كانت تنتهز أي فرصة يتصورون خلالها بأنني غفلت لحظة واحدة عن ألاعيبهم المعرقلة.

في مثل هذا المناخ المؤسف، كنت أتابع بقلق بالغ، أخبار التطور السريع في الموقف العسكري، وبجهد كبير كنت أسيطر على القلق الذي لو استسلمت له فإنه يؤدي بالمقاتل إلى أوخم العواقب، خصوصًا إذا كان يتولى موقعًا قياديًّا له أهمية خاصة. وبمواصلة العمل، لا اعتقد أن أحدًا قد فوجئ في مقر قيادة اللواء، عندما رأوني أباشر مهمتي بمكتبي في تلك الساعة المبكرة جدًّا من صباح الإثنين 5 يونية عام 1967.

كانت أمامي يوميًّا مهمة قد يعتبرها غيري من الزملاء قادة الألوية الجوية، مهمة عادية، بل ودون مستوى اهتمام قائد اللواء شخصيًّا، وهي مصاحبة مجموعة من الطيارين في

طلعة تدريب عادية. في منهجي كان الأمر مختلفًا تمام الاختلاف: إن القائد الذي لا يُعنى بالتدريب المستمر، الذي يحفظ لرجاله مستوى دائم الارتفاع والتجديد من القدرة القتالية، ولا يُشرف بنفسه على هذه المسئولية، ويتولى متابعتها شخصيًّا، قائد مقصر في أداء واجبه.. أو هو لا يعرف حدوده ومسئولياته القيادية.

هكذا كنت في غاية السعادة، وأنا أستقبل خمسة من طياري القاعدة في بني سويف جاءوا يعلنون رغبتهم في الطيران، لأنه مضى عليهم وقت طويل لم يطيروا. استجبت على الفور لرغبة المقاتلين الخمسة، ووعدتهم بالاشتراك معهم، وتحددت بالفعل الساعة 9.5 «التاسعة وخمس دقائق» من صباح الإثنين 5 يونية موعد الطلعة التدريبية المرتقبة.

كان كل شيء يبدو هادئًا وعاديًا في هذا اليوم. ولم يلح في الأفق العسكري على الأقل ما ينذر أو يشير مجرد إشارة إلى احتمال وقوع الكارثة أو ما هو قريب منها، ولم يرد للقاعدة من القيادة الجوية في القاهرة، أي توجيه بمهام غير عادية، لهذا مضت الأمور في مجراها الطبيعي بالنسبة لنا.

أقلعت الطائرة الأولى في الموعد المحدد تمامًا ودون تأخير أو تقديم ثانية واحدة. كان بعض الزملاء يعتقدون أن تلك الدقة نوع من «الحذلقة أو الحنبلية».. لم يكن الأمر كذلك. وهذه الدقة الزائدة في احترام الجداول الزمنية للعمليات الجوية تعود إلى أن الحرب الحديثة أثبتت بتجاربها المتعددة، أن احترام الطيار المقاتل للجدول الزمني المحدد لتفاصيل مهمته القتالية أمر لا فكاك منه، بل إن هذا الالتزام الحرفي هو الضمان الوحيد لنجاح المهمة التي عُهد للطيار إتمامها، وربما كان احترام الطيار المقاتل لهذا الجدول الزمني، هو مفتاح النجاة لا بالنسبة له وحده، بل بالنسبة لقواته الجوية بأسرها. لا أبالغ حين أقول إن تأخر الطيار دقيقة واحدة أو تقدمه عن الموعد المحدد له، قد يتسبب في حدوث كارثة على المستوى الاستراتيجي للشعب الذي سلم للطيار أمانة الدفاع عن سمائه ضد العدو الجوي.

في الساعة 9.15 كنا نصعد بطائراتنا الخمس، فوق سحاب منخفض لم يتجاوز ارتفاعه ثلاثمائة متر، بعد خمس دقائق اهتزت أجهزة اللاسلكي في طائرتي، بخبر وقع عليّ كالصاعقة، حيث تم إبلاغي بأن القاعدة الجوية التي أقلعت منها منذ لحظات قد هوجمت. فعلتها إسرائيل إذن. قاعدتي الجوية تضرب وأنا معلق في الجو، عاجز عن صنع أي شيء. وقاذفاتنا الثقيلة التي يعرف العدو جيدًا قدرتها التدريبية الرهيبة، تُدمر الآن وهي جاثمة

على الأرض لا حول لها. وأبشع من هذا، تلك الصفوة من خيرة الرجال الذين أجهدت نفسي، وأجهدوا أنفسهم معي في تدريبهم تدريبًا متواصلًا للارتفاع بمستوى قدراتهم القتالية، استعدادًا للحظة اللقاء بالعدو، وها هي اللحظة قد حلت.. ولكن.. في غير وقتها المناسب، وفي الظروف التي اختارها العدو، ورتب لها.. تُرى ما مصير هؤلاء المقاتلين الشجعان الذين فاجأتهم طائرات العدو وهم على الأرض؟

كان هذا بعد وقوع أول ضربة جوية معادية بخمس وثلاثين دقيقة كاملة. تساءلت: كيف ولماذا أضاع مركز العمليات الرئيسي هذا الوقت الثمين دون أن ينذر باقي المطارات التي لم تكن قد تعرضت للقصف في أولى موجات الضربة الإسرائيلية التي بدأت في التاسعة إلا الربع؟ خمس وثلاثون دقيقة بالكمال والتمام، كانت كافية لإنقاذ جزء لا يستهان به من قواتنا الجوية، بل كانت كافية مع حسن القيادة وسلامة التخطيط والتوجيه لتغيير نتيجة الضربة الجوية القاصمة، وبالتالي.. تغيير سير المعارك كلها، سواء في الجو أو على مسرح العمليات البري.

يأكلني الغيظ والكمد، وأستغيث بجهاز اللاسلكي في طائرتي، ولكن الجهاز لا ينطق. لا أحد يسمعني، لا أحد يسعفني حتى ولو بأطيب التمنيات. إن مركز العمليات صامت تمامًا، وبرج المراقبة في قاعدتي الجوية التي غادرتها مع رجالي الخمسة كان هو الوحيد الذي يرد عليَّ محذرًا من الهبوط بسبب تدمير الممرات معلنًا عجزه عن إعطائي أية تعليمات بالاتجاه إلى مطار آخر يكون مازال صالحًا للهبوط.

مرت بنا لحظات من الصمت الكئيب، ونحن نطير بلا هدف.. إلى أين نذهب؟ وفي أي مطار يستقر بنا المطاف؟ لم نكن نعرف، ولم يكن أمامنا وقتها إلا أن نطير، ونطير حتى يُفرغ الوقود من طائراتنا.. فتقع كارثة أو معجزة.. وفجأة دبت الحياة في جهاز اللاسلكي.. اتصال من مركز العمليات... وكان يطلب طلبًا غريبًا، بدا لي وقتها وكأنه نوع من السخرية المرة، ونحن معلقون في الجو، بلا هدف نسعى إليه، وبلا مطار نثق في بقاء ممراته سليمة وصالحة للاستقبال.

كان مركز العمليات قد ظن أنه بدأ يستجمع شتات «قدرته» على السيطرة، أو لعله فقدها نهائيًا، فإذا به يطلب منا تنفيذ الخطة «فهد»! كدت ألعن محدثي. أي «فهد» هذا الذي يطلبون مني تنفيذه، بعد أن ضُربت قاعدتي الجوية، وطائراتها على الأرض، وأنا معلق في الجو مع زملائي. ولم أجد في هذا الطلب الهازل ما يستحق عناء التفكير في مجرد الرد عليه حتى بالرفض.

كان غضبي ساعتها هائلًا من هذه القيادة التي تذكرت فجأة ولكن.. بعد فوات الآوان أن هناك خطة اسمها «فهد» وأن هذه الخطة يُمكن تنفيذها، ويُمكن عن طريقها أن نلقن العدو درسًا قاسيًا.. ولكن متى.. وكيف؟ لقد ضاع الوقت.

مجددًا، سيطرت على الغضب، وبتفكير فوري حسمت أمري.. هؤلاء الرجال الخمسة يجب الحفاظ على سلامتهم، والاحتفاظ بطائراتهم إن أمكن.. إن الضربة التي دمرت قاعدتنا الجوية في بني سويف تعني كذلك أن المطارات المتقدمة في القاهرة والدلتا وسيناء قد دمرت تمامًا.. ولكن لا مجال لليأس.. فلنسرع بالصعود إلى مصر العليا.. وأغلب الظن أن مطار الأقصر لايزال سليمًا، فليكن هو محطة الوصول التي نلجأ إليها مؤقتًا، لكي نتزود بالوقود والذخيرة اللازمة، ثم نعاود الطيران، أملًا في الإسهام بجهد في المعركة بهذه الطائرات الخمس.

أصدرت أمري بالاتجاه إلى الأقصر.. لأفاجأ بعد هبوطنا بتعذر إمدادنا بالوقود لعدم وجود المعدات اللازمة للتموين واستحالة إمدادنا بالذخيرة اللازمة، لأنه لا يوجد بالمطار ذخيرة وضاع الوقت في محاولة استخدام وسائل بدائية لتزويد الطائرات بالوقود، وفي الاستعانة بمركز العمليات للبحث عن وسيلة لإمدادنا بالذخيرة اللازمة لاشتراكنا في المعركة، إن كانت لاتزال هناك فرصة للاشتراك فيها.

وبينما نحن في هذا الوضع المزري أقبلت الطائرات الإسرائيلية، وبدأت قصف المطار. كان هناك عدد من الطائرات المدنية التابعة لشركة مصر للطيران وبعض طائرات النقل الثقيلة التابعة للقوات الجوية، وقد بدأت الطائرات المعادية بتدمير طائراتنا الخمس القاذفة الثقيلة لكي تُفرّغ من قدرتها التدميرية ثم تحولوا إلى باقي الطائرات ومنشآت المطار لقصفها.

إن الحرب عمل مرير، مختلفة في واقعها عما يمكن أن يقرأه عنها إنسان في كتاب، أو يشاهدها في فيلم سينمائي. لقد عشت الحرب في تلك الساعة الكئيبة من صباح 5 يونية الحزين بطريقة سلبية بشعة على نفسي كطيار مقاتل.. رأيت بعيني طائراتي الخمس وهي سلاحي في الحرب، تدمر أمامي.. على الأرض، وأنا عاجز عن استعمالها، عاجز عن حمايتها من الدمار.. كانت لحظة رهيبة لا تُنسى.. وأحسست ساعتها أن فؤادي يتمزق تمامًا، مثل الطائرات الخمس التي تمزقت أشلاء على أرض المطار.. إن الحزن الذي شملني أنا ورجالي الخمسة لا يقدر على وصفه أو الإحساس به سوى طيار مقاتل. فقد سلاحه مثلنا دون أن يتمكن من استعماله.

بـإرادة البقـاء وحدها تحول الحزن الذي اجتاحني إلى غضب لا حدود له.. ثم إلى قسـم علـى الأخـذ بالثـأر. كان احـتراق طائراتنا أمام أعيننـا، إهانـة لا يغتفرهـا إلا الجبان.. ولا يمحوهـا إلا الثأر.. لابد أن نسـقي إسرائيل من نفس الكأس.. ولابـد لنا مهما طال المدى، أن نجـرد طياريها من سـلاحهم قبل أن يتمكنوا من استعماله.. ولابـد أن تذوق على أيدينا مـرارة تدمـير طائراتها وهي جاثمة على الأرض.. في ضربة جويـة قاصمة، لا تعرف الرحمة ولا تسمح للخصم بالإفلات من مصيره المحتوم.

بينما تؤلمني هذه الذكرى، قد يكون مدهشًا أن أقول إن تلك الضربة المدمرة قد سببت لنا نحن الطيارين المصريين عكس ما اعتقدت إسرائيل أنه سـوف يسـبب لنا. تصور العدو أن هذه الضربة القاصمة ستؤدي إلى حالة من اليأس، يعجز المقاتل المصري عن احتمالها، تؤدي بـه في النهايـة إلى الإقـلاع نهائيًّا، أو مرحليًّـا، ولفترة طويلة عن التفكـير في خوض مواجهة جوية مع هذا الشـبح المخيف الذي تطلقه إسرائيل في الجو على هيئة شـياطين لا يعرف أحد من أين تأتي، ولكنه يتعذب من وقع ضرباتها الملتهبة القاصمة.

هـذا الحلـم الإسرائيـلي الكبير تحـول إلى وهم أكـبر، تبدد في نفـس اللحظة التـي تمت فيها الضربة المفاجئة للطيران المصري في جميع المطارات المصرية التي تلقت الضربة الجوية ،كان جميع الطيارين الذين شـاهدوا بأعينهـم طائراتهم تحترق أمامهم وهي جاثمـة على الأرض، يرددون نفس القسـم الذي تعاهدت عليه مع رجالي الخمسـة في مطار الأقـصر... الثأر.. ولا شيء غير الثأر، يمحو الإهانة التي تلقاها نسور مصر الذين حُرموا من أجنحتهم في ذلك اليوم.

لم يكـن الـذي احترق يوم 5 يونيو هو الجزء الأكبر من سـلاحنا الجـوي وحده.. ولكن الـذي احترق بالفعـل وكما أثبتت عمليـات أكتوبر المجيدة هو الأسـلوب القديـم في قيادة الطيران المصري، تخطيطًا وتنفيذًا على جميع المستويات التكتيكية والاستراتيجية.

لقـد نسـفت قنابـل الطائـرات الإسرائيلية، التي تسـاقطت فـوق مطاراتنا يـوم 5 يونية «الشللية».. والأخطاء الكبيرة... والتستر على تلك الأخطاء.. كما أنها حرقت الجهل بفنون القتال الحديث.. لكي تفسح الطريق دون قصد منها طبعًا لجيل جديد من الرجال.. يملك العلم والقدرة المرتفعة على التخطيط والتنفيذ على أعلى مستوى قتالي معاصر.. ويملك قبل كل شيء.. الرغبـة في الانتقام. ورب ضـارة نافعة. وصدق الله عز وجل، حين قال في كتابه العزيز: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

”... هكـــذا تـــحـــول الـطـــيـــران الإسرائيلي إلى «وهــم كبير» في عقول الإسرائيليين أنفسهم، قبل أن يكون وحشًــا خرافيًّا طائرًا بالنسبة للإنسان العربي.. “

معجزة ضخمة.. أم أكذوبة كبرى؟

قبيل بزوغ الفجر وطوال الساعات الأولى من صباح الإثنين 5 يونية 1967، شق عدد من السيارات المسرعة طريقه في الشوارع الهادئة في سباق غير مقصود نحو مكان التجمع.. كان كبار القادة وأعضاء هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي، حريصين على ألَّا تفوتهم اللحظة التي دبروا لها في الخفاء.. توالى وصولهم. كان على رأسهم وزير الدفاع جنرال دايان.. وكان كل شيء قد تم إعداده وأصبح جاهزًا للتنفيذ.. لم ينسوا شيئًا من التفاصيل الصغيرة.. حتى الحصول على بركة «النبي المسلح بن جوريون» حرص «موشي دايان» أن ينالها قبل التنفيذ.. هكذا كانوا يصفونه وفق ما نقرأ.

قبل أن يستسلم للنوم - مساء الأحد 4 يونية - طلب من أحد مساعديه أن يمر على «بن جوريون» - ليعرض عليه دقائق الموقف عسكريًّا وسياسيًّا، وخطة دايان.. واستمع الرجل العجوز لرسول وزير الدفاع.. ثم سأله فجأة:

- «هل موشي دايان واثق من نفسه؟».

وأجاب رسول الجنرال:

- نعم يا سيدي..

وعلى الفور، أطلق بن جوريون العبارة التي كان ينتظرها تلميذه «موشي دايان».

- «في هذه الحالة.. أمنحه بركاتي».

قرأت عن ذلك المشهد فيما بعد حرب يونيو في بعض الكتب: أحاط قادة جيش إسرائيل بالجنرال «مردخاي هود» قائد الطيران الإسرائيلي داخل قاعة عمليات السلاح الجوي، وعيونهم معلقة بالساعة.. وفي تمام السابعة وعشر دقائق بتوقيت إسرائيل «الثامنة وعشر دقائق بتوقيت القاهرة» كان توتر الأعصاب قد بلغ ذروته بين الحاضرين.. كانوا يستعدون للقيام بلعبة ضخمة، وأي خطأ مهما كان تافهًا، يمكن أن يؤدي بهم جميعًا إلى الهاوية.

وفجأة قطع عليهم هواجسهم صوت « هود» الذي انحنى على الميكروفون الموضوع أمامه - والمفتوح مباشرة على غرف العمليات الفرعية في جميع القواعد الجوية التي تقرر اشتراكها في العملية - وألقى قائد الطيران الإسرائيلي بكلمة السر المتفق عليها «موكيد - جو». وعلى الفور تنفس المجتمعون الصعداء ارتياحًا.. إن طائرات إسرائيل تحلق الآن في الجو.. في طريقها لتنفيذ العملية «كولوب» أو «طوق الحمامة» أو «ضربة صهيون» على اختلاف الأسماء التي أُطلقت على الضربة الجوية المركزة التي وجهتها إسرائيل ضد الطيران المصري في ذلك اليوم.

إن من واجبي الآن أن أحلل بموضوعية كاملة دقائق هذه العملية الجوية، وأن أردها إلى حجمها الصحيح، ومكانها الطبيعي من الفكر العسكري القائم على أسس علمية سليمة.. ثم نتعرف في النهاية حقيقة هذه الضربة.. وهل هي - كما قيل عنها وكما حاولت إسرائيل أن ترسب في وجدان أمتنا - معجزة عسكرية؟ أم أن الهالة الأسطورية التي نسجت حولها لا تعدو أن تكون أكذوبة ضخمة، استهدفت عقل ووجدان الإنسان العربي لتخديره وبث الذعر في نفسه.. كما استهدفت - في نفس الوقت - وجدان الفرد الإسرائيلي والسيطرة عليه، وتحويله إلى عابد لآلهة المؤسسة العسكرية الذين لا يأتيهم الخطأ أو القصور من بين أيديهم ولا من خلفهم؟

إن إسرائيل تعرف - بلاشك - أن كاتب هذه المذكرات طيار مقاتل، درس ومارس التخطيط والقتال الجوي، بالمستوى الذي يجعله قادرًا على الحديث عن أية خطة جوية، حديث من يعرف دقائق العملية وأسرارها، بكل ما فيها من نواحي الامتياز والقصور، وبكل ما حوت من تقليد أو تجديد.

وإذا كان هناك احتمال للتعصب من جانبي ضد خطة الجنرال الإسرائيلي - كما رُسمت

ونُفـذت - بحكم العاطفة الوطنية، فإن الضمان الوحيد لكشـف الحقيقة، والحقيقة وحدها - في تلك الخطة التي تحولت بفعل الدعاية إلى أسطورة - هو الاتفاق منذ البداية على أسس موضوعية للتحليل، وقواعد ثابتة معترف بها في جميع مدارس الفكر العسـكري ومناهجه، شرقية كانت أم غربية. ثم ننطلق من هذه الأسـس والقواعد المتفق عليها علميًّا، إلى تطبيق صحيح لدقائق الضربة الإسرائيلية لطيران مصر.

إن التخطيـط السـليم لأية عملية قتالية، هو الذي يرسـم للمقاتل - أيًّا كان سـلاحه - الطريق الموصل لتحقيق الهدف في أسرع حيز زمني، وبأقل قدر ممكن من الخسـائر، واضعًا في الاعتبار الحلول المناسبة للمفاجآت المحتملة من جانب العدو، وهذا هو الحد الأدنى من المواصفـات التـي يجب توافرها في الخطـة، لكي تُوصف بأنها «خُطة سـليمة» قابلة للتنفيذ، دون أن تعـرِّض المقاتلـين - القائمين بهـا - للهلاك، أو على الأقل للفشـل أو الإحباط... فإذا سرنا خطوة أبعد - على طريق التقييم العلمي للخطة العسكرية - لكي نسمح لأنفسنا بوصفها بأنها عبقرية أو معجزة، يجب أن يكون واضع الخطة نفسـه قد أعطانا المبرر العملي لهذا الوصف، وذلك بتحقيق شرطين أساسيين:

1 - الابتـكار والتجديـد في وضع عناصر العملية القتالية كلها، سـواء مـن ناحية التوقيت للضربة الأولى، أو وسائل تجميع العناصر المشتركة في القتال.

2 - وضـع الحلـول الممكنة - والمبتكـرة في نفس الوقت - للمشـاكل القائمة على الجانبين، سـواء بالنسـبة لجبهة واضع الخطة نفسه، أو المشـاكل الناجمة عن موقف جيد يتمتع به الخصم.

ويضـاف إلى هذيـن الشرطـين، عنصر مهم لابد مـن توافره - في الخطـة الممتازة، فضلًا عن العبقرية أو المعجزة - وهو الإعداد المسـبق للحلول العاجلة والبسيطة، لجميع المواقف المعوقـة التـي يمكن أن يفكر الخصم في اللجوء إليها، عملًا بمبدأ عسـكري متعارف عليه، وهو: أن القائد الناجح هو الذي يؤمن بأن العدو عنده دائمًا ما يخفيه.

هدفنا من هذا التحليل الموضوعي المجرد أمران:

الأول: رد هـذه الخطة إلى حجمها الحقيقي المتواضع بمقاييس الفكر العسـكري، الخالي مـن التهريـج الغوغائي، والمبالغـات الدعائية، والمتاجرة السياسـية بالنتائـج الضخمة التي

حققتها خطة بالغة التواضع لكي يطمئن المواطن المصري - والإنسان العربي عمومًا - أن ما حدث في 5 يونية 1967، لم يكن بأي حال من الأحوال معجزة عسكرية، ومن ثم فهو لن يتكرر مطلقًا.

والأمر الثاني: أن العقل العسكري المصري قادر تمامًا - كما أثبتت تجارب 6 أكتوبر - على مجاراة عدوه، بل والتفوق عليه في مجال التخطيط والإعداد للعمليات العسكرية - جوية كانت أو برية أو بحرية - وأن المفكر العسكري المصري كالمقاتل المصري الذي ظلمته دعايات العدو، لم يكن ينقصه لإثبات وجوده في مجال الإبداع والخلق سوى توافر الإمكانيات العلمية والمادية، وحين توافرت له هذه الإمكانيات بهر العالم - بالفعل المعجز وليس بالكلام - كما سيتضح من تحليل الضربة المصرية «صِدام» لطيران العدو.

إن أصول «النقد الموضوعي» لأية خُطة قتالية، تحتم علينا تطبيقًا لمبادئ الفكر العسكري السليم - أن نلقي نظرة فاحصة على الظروف السياسية والنفسية والعسكرية المتوافرة على الجانبين المتحاربين.. سواء قبيل العملية القتالية، أو خلال تنفيذها، أو بعد الفراغ منها.. واضعين في الاعتبار جميع الاحتمالات التي يُمكن أن تؤدي إليها العملية القتالية موضوع الخطة.

وتطبيقًا لهذا الأساس سنعود إلى الوراء - مايو عام 1967 - ومن واقع ما كتب في إسرائيل نفسها عن هذه الفترة الملتهبة التي سبقت العمليات. إن واحدًا من أبرز الكتاب الإسرائيليين الذين تخصصوا في الكتابة عن الصراع العربي - الإسرائيلي «ميشيل بارزوهار» يبلور الظروف السياسية والنفسية للموقف في كتابه «التاريخ السري لحرب إسرائيل» في النقط التالية:

في دمشق: إحساس مكثف بالخطر الإسرائيلي الموجه ضد النظام الحاكم في سوريا، خاصة بعد العمليات الانتقامية الواسعة التي قام بها الجيش والطيران الإسرائيلي ضد سوريا في نوفمبر 1966، ثم في إبريل 1967 ردًا على الغارات التي يشنها أعضاء منظمة «فتح» الفلسطينية.. وبناءً على هذا، سارعت سوريا بتوقيع اتفاقية دفاع مشترك مع مصر، ونتيجة لهذه الاتفاقية - التي فوجئت بها إسرائيل - قام رئيس الوزراء المصري آنذاك بزيارة مفاجئة لسوريا «يوم 5 مايو 1967» أعلن خلالها: أن المعاهدة العسكرية الجديدة سوف

تطبق في حالة قيام إسرائيل بمهاجمة سوريا.. ذلك الهجوم الذي كان السوريون يتوقعونه في أية لحظة، وتأمينًا لأنفسهم منه عقدوا هذه المعاهدة.

في القاهرة: تتلاحق الأحداث بسرعة مذهلة، ويتصاعد الموقف بشكل لا يترك فرصة لالتقاط الأنفاس:

1 – رؤساء الوحدات وقادة الأسلحة المختلفة في الجيش المصري يتلقون الأمر اليومي رقم «1» الذي يقول: «أعلنت حالة الاستعداد القصوى ابتداءً من يوم 15 مايو، الساعة 1430، وتغادر الفرق والوحدات التي أعدت للعمليات مراكزها الحالية، وتتحرك نحو مناطق التجمع والانتشار التي خُصصت لها، وتستعد القوات المسلحة للانتقال للقتال على الجبهة الإسرائيلية، طبقًا لسير العمليات».

2 – قرار مصري بسحب قوات الطوارئ الدولية المتمركزة على الجانب المصري من الحدود الفاصلة بين مصر وإسرائيل، ثم إغلاق مضيق تيران في المدخل الجنوبي لخليج العقبة – وهو شريان الحياة الوحيد للعلاقات النامية بين إسرائيل ودول إفريقيا والشرق الأقصى.. ومنابع البترول مصدر الطاقة الذي لا حياة لها بدونه.

3 – مؤتمر صحفي عالمي يعقده المرحوم الرئيس السابق جمال عبدالناصر، ويعلن فيه أمام المئات من الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء العالمية تهديده لإسرائيل بإلقائها في البحر، إذا نشبت الحرب بينها وبين مصر، أو إذا جازفت بالهجوم على سوريا.

4 – لقاء بين جمال عبدالناصر وبين أعضاء «اللجنة المركزية لاتحاد النقابات العربية» يعلن فيه أنه «إذا هاجمت إسرائيل سوريا أو مصر، فإننا جميعًا سندخل الحرب ضدها، وسيكون هدفنا الأساسي هو تدمير إسرائيل.. إنني لم أكن أستطيع أن أقول مثل هذا الكلام منذ ثلاث سنوات أو خمس، وليس من عادتي أن أعد بشيء لست قادرًا على تحقيقه.. أما اليوم فإنني مقتنع بانتصارنا.. إن مصر تتوقع في كل لحظة هجوم إسرائيل الذي سيتيح لنا الفرصة لتدميرها».

في عمان: الملك حسين يسافر إلى القاهرة، في رحلة جوية مفاجئة وسريعة تنتهي بعقد معاهدة دفاع مشترك تنص على وضع القوات الأردنية تحت تصرف قيادة مصرية – أردنية مشتركة في حالة قيام الحرب.

هـذا بإيجـاز هـو الموقف السـياسي على الجانـب العربي، كما صـوره الكاتـب الإسرائيلي «ميشـيل بارزوهـار» في كتابه «التاريـخ السري لحرب إسرائيل» ونحن نستشـهد به، لا من باب التسليم بكل ما ورد به من تحليل، بل إنه يعطينا صورة دقيقة «لوجهة النظر الإسرائيلية للموقف»، والتي نفترض أن «مردخاي هود» قد وضعها موضع الاعتبار عند رسـم خطته الجوية.

ونتنقـل هنـا إلى الجانـب الآخـر مـن طـرفي الـصراع.. مـاذا كان يجـري عـلى الجانـب الإسرائيلي؟

– في تل أبيب: في الخفاء – ومن وراء سـتار السياسـة الرسـمية المعلنـة لإسرائيل كانت تدور رحى صراع عنيف على محورين أساسيين:

المحور الأول: ذلـك الصراع التقليدي النابـع من طبيعة الكيـان الإسرائيلي القائم على مجموعـة من التناقضـات الحادة، أبرزها وأخطرهـا جميعًا التناقض القائم بـين الديمقراطية كفكـرة وجوهر الصهيونية كنظرية تقوم على مبـدأ التمييز العنصري، وما يفرضه هذا المبدأ عـلى حيـاة المجتمع الذي يتبناه من انعزال عمن حوله من شـعوب الأرض وأجناسـها، ثم التعصب ضد هذه الشعوب والإحساس بالتفوق عليها.

ويـلي هـذه المتابعـات الحتمية بالضرورة إحسـاس الشـعب المتعصب بالخطـر والعداء الـذي يحاصره وجعلـه جزيرة بشرية معزولة تعيش عـلى الكراهية، والنتيجـة الطبيعية لهذا الموقف النفسي والاجتماعي الشـاذ أن تسـود العقيدة القتاليـة العدوانية في هذه المجتمعات المتحررة، على ما عداها من العقائد والأفكار.. لتسـيطر المؤسسـات العسـكرية على غيرها من مؤسسات المجتمع.

لـو أننـا رجعنا لأحداث الفترة التي سـبقت ضربة 5 يونيـة 1967 وألقينا نظرة فاحصة عـلى الواقـع السـياسي لإسرائيل كما أبـرز ملامحه الرئيسـة كل من «ميشـيل بارزوهاور» في كتابـه «التاريخ المصري لحـرب إسرائيل» و«إيجال آلون» في كتابه «بنـاء الجيش الإسرائيلي» و«شـاؤول فريـد لانـدر» في كتابه «مسـتقبل إسرائيل».. سـنجد أنفسـنا أمام مجتمع يسـير معصـوب العينـين في اتجاه الحـرب، رغم هـذا الصراع الظاهـري بين الأحزاب السياسـية «الديمقراطيـة» المتمثلـة في مجلـس الـوزراء الـذي يقوده ليفي أشـكول – وبين العسـكرية العدوانية وهي الأسـاس الحقيقـي لنظرية التفوق العنصري الممثلـة في رجال الجيش وعلى

رأسهم موشي دايان، وقد انتهى الصراع المظهري، على هذا المحور، بانتصار فكرة العدوان، بعد أن اطمأن «السياسيون» إلى حصن استعداد «الإسبارطيين الجدد» من قائمة المؤسسة العسكرية، وقدرتهم على توجيه الضربة التي نفذت صباح الإثنين 5 يونية.

فإذا انتقلنا إلى المحور الثاني: من محاور الصراع الداخلي في إسرائيل، في تلك الفترة سنجد الأحزاب السياسية الإسرائيلية متفقة فيما بينها على ضرورة تحقيق «الحلم الأكبر» - من النيل إلى الفرات - ومتفقة أيضًا على أن الخطر الأكبر الذي يهدد هذا الحلم إنما يأتي من «مصر» وقوتها المتزايدة.. عسكريًّا واقتصاديًّا وتكنولوجيًّا.

ونقطة الخلاف الوحيدة بين أحزاب إسرائيل هي في تحديد الطريقة التي تذهب بهذا الخطر المصري وفي تحديد الوقت والظروف التي يتم فيهما توجيه الضربة اللازمة لمصر وليس في مبدأ الضربة ذاتها.

لهذا سارعت «الدبلوماسية الإسرائيلية» - المثلة للأحزاب السياسية في مجلس الوزراء - إلى التحرك لتهيئة المناخ السياسي الدولي المؤيد - أو على الأقل غير المعارض - للضربة القادمة.

وقد قُدر للتحرك الدبلوماسي الإسرائيلي - وقتها - أن يفشل فشلًا ذريعًا في محاولته المسعورة استقطاب فرنسا إلى جانب العدوان، بحيث انتهت زيارة «أبا إيبان» السريعة لباريس في 24 مايو 1967 وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة، بصيحة التحذير التاريخية الشهيرة التي أطلقها قائد فرنسا المحنك الشريف «شارل ديجول» في وجه الوزير الإسرائيلي «لا تشنوا الحرب.. لا تشنوا الحرب.. ولا تكونوا بأي حال البادئين بالقتال».

عن لندن نجد «ميشيل بارزوهار» يقول في كتابه «التاريخ السري لحرب إسرائيل» بالحرف الواحد: «من بين رؤساء الحكومات الذين اجتمع بهم إيبان خلال رحلته - التي سبقت ضربة 5 يونية - فان هارولدويلسون رئيس وزراء بريطانيا آنذاك كان الوحيد الذي لم يحاول تهدئة إيبان أو صرف نظره عن الحرب».

أما في واشنطن، فقد استطاع الإسرائيليون أن يستفيدوا إلى أبعد مدى من التوتر المشحون بالعداء وسوء الظن المتبادل بين القاهرة والعاصمة الأمريكية، ورغم خوف الأمريكيين أن تؤدي الحرب بين العرب وإسرائيل إلى تورط أمريكي جديد في الشرق الأوسط، بعد تورطهم الدامي الذي كلفهم الكثير في فيتنام، فقد استطاعت إسرائيل أن تضرب على

وتر الخطر الشيوعي، وتغلغل النفوذ السوفيتي في المنطقة، وخطر هذا النفوذ الذي فتح له عبدالناصر - كما يقول بارزوهار - كل الأبواب التي لم يكن يحلم بطرقها، وتهديد هذا كله للمصالح الأمريكية في المنطقة.

ولم تكتف إسرائيل بكل هذا.. بل سارعت بعزف لحن مبتكر، ركزت نغماته على هدف محبب للغاية لدى الولايات المتحدة وهو أن هزيمة مصر أمام إسرائيل في ضربة مفاجئة وخاطفة سيكون تأثيرها على المجتمع الدولي رائعًا - من وجهة النظر الأمريكية والغربية عمومًا - لأن انتصار السلاح الإسرائيلي وهو سلاح غربي الجنسية في الحرب.. يعني هزيمة للسلاح الروسي الأحمر.. وهي هزيمة سيمتد أثرها من ميدان القتال إلى نفسية المواطن المصري - ثم الإنسان العربي من بعده - بحيث يفقد سكان المنطقة ثقتهم في كل ما هو سوفيتي.. سلاحًا كان أم فكرًا، وهي نتيجة محببة إلى قلب السياسة الأمريكية.

ورغم عذوبة الإغراءات التي قدمتها إسرائيل لكي تورط أمريكا في التدخل السافر لصالحها، فقد تردد الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت «ليندون جونسون» في اتخاذ قرار محدد.. وقد بدا تردده الواضح في أكثر من تصريح خلال محاضر الاجتماعات واللقاءات لمناقشة تطورات الموقف المتصاعد، نثبت بعضها على سبيل المثال:

في اجتماع «جونسون - أبا إيبان»، قال الرئيس الأمريكي ردًّا على طلب الوزير الإسرائيلي قيام الولايات المتحدة باتخاذ خطوة إيجابية ضد قرار مصر بإغلاق مضايق تيران: «أعتقد أننا نستطيع فتح المضايق».. ولكن الذي يهم، ليس هذا الذي يعتقده ليندون جونسون. وإنما.. ما يقوله رسميًّا رئيس الولايات المتحدة، والرئيس لا يستطيع أن يتكلم بدون موافقة الكونجرس.

عندما ارتفعت الأصوات المؤيدة لإسرائيل في الكونجرس بطلب التدخل السافر ضد مصر، علق الرئيس الأمريكي بقوله في سخرية لافتة: «إن هؤلاء الذين يطالبونني بعدم إرسال جندي أمريكي واحد بعد الآن إلى فيتنام يلحون عليّ في إرسال كل حاملات الطائرات الأمريكية إلى خليج العقبة».

وعندما حاول أبا إيبان إحراج «ليندون جونسون» بسؤاله الصريح «هل سنقاتل وحدنا، أم أنكم ستقفون إلى جانبنا وما هو المدى الحقيقي لتعهداتكم نحونا؟».. لم يلتقط «جونسون» الطعم، بل عاجل إيبان برد وقع عليه كالصاعقة حين قال له تهربًا من الإجابة

عـن سـؤاله: «يجب القيـام بعمل قانوني ضد الحصـار المفروض على مضايـق تيران.. إنكم تتحدثـون دائـمًا عن مجلس وزرائكم الذي سـيجتمع يوم الأحد 4 يونيـة .. وليس هذا من شأني، وإذا كنتم تريدون أن نقف إلى جانبكم، فيجب أولًا أن نتجه إلى الأمم المتحدة».

ورغم أن وزارة الخارجية الأمريكية - وعلى رأسـها دين راسـك - كانت قد أكثرت من الحديـث عـن ضرورة «التـصرف في الأزمة على ضـوء رعاية المصالح الأمريكيـة في المنطقة العربيـة، والحـذر مـن موقف متسرع يـضر بهذه المصالـح».. رغم هذا فقـد كانت إسرائيل واثقة من أن الأصوات المعارضة للانحياز لها داخل الأجهزة التي تشارك في صنع السياسة الأمريكية الخارجية سـتضطر إلى الصمت راضيـة أو مُكرهة، عندما يرتفع هتاف المؤيدين، بالفرحة لانتصار إسرائيل عقب ضربتها المفاجئة لمصر.

واسـتغلت أجهزة الإعلام الإسرائيلي - بذكاء شـديد - المظاهرات السياسية المتسرعة، التـي قـام بهـا الإعلام المـصري في تلك السـاعات الحرجة مرددًا بهـا نغمة التهديـد بإبادة إسرائيل وإلقائها في البحر إذا ما نشـبت الحرب.. كما اسـتغلت المظاهرات العسـكرية التي وصلـت إلى حـد غريب من السـذاجة، حين سـمحت القيادة المصرية بعمل اسـتعراضات علنية مكشـوفة للقوات المتجهة بأسلحتها إلى سـيناء.. ووصلت السذاجة بهذه المظاهرات العسـكرية إلى حد السماح بتصوير هذه القوات بأسلحتها في الصحف في تحقيقات صحفية ضخمة تناولت كل ما يتصل بهذه القوات عددًا وعتادًا وأماكن تجمع على الجبهة.

الأمـر واضـح إذن.. أصبحـت مهمـة الدبلوماسـية الإسرائيلية، وإعلامها النشـط، في منتهى السهولة.. وليس أمامها أكثر من أخذ ما تقوله مصر علنًا، ووضعه أمام الرأي العام العالمـي وخاصة في الولايـات المتحدة لكي ينحاز إلى جانب إسرائيـل.. هذا الحمل الوديع المهدد بالفناء من الغول المصري الرهيب.

وهكذا تتضح معالم الخريطة السياسـية للموقف على جانبي الصراع قبيل الضربة الجوية الإسرائيليـة لمـصر في 5 يونية 1967.. حرص شـديد عـلى اجتذاب الأصدقـاء والمؤيدين يوازيه تحرك سريع «لتحديد» من يشك في ولائهم، بالنسبة للجانب الإسرائيلي.. مع احترام مفتعل ولكنه مخطط ومدروس لاستقطاب مظاهر الرأي العام العالمي.. يقابله على الجانب المـصري من الخريطة السياسـية للموقف مظاهرات إعلامية بدائية في شـكلها ومضمونها،

تتوازى معها - بل وتسبقها أحيانًا مظاهرات عسكرية ساذجة، يفرح بها الأطفال والسذج وحدهم.

وهنا يضع الناقد العسكري يده، على الخيط الأول في خطة الجنرال «مردخاي هود» وهو الخيط السياسي في الخطة.. وبعيدًا عن أي مبالغات دعائية، أو مزايدات سياسية. الدارس «المحايد» لهذا الخط السياسي في خطة الجنرال الإسرائيلي، سيجد نفسه أمام حكم واحد لا فكاك من إصداره وهو أن «مردخاي هود».. استنادًا إلى أقصى مدى ممكن من موقف مناسب له تمامًا، ومعاكس تمامًا للعدو من الوجهة السياسية وأكثر من هذا.. فإن ذلك الموقف الذي استفاد منه «هود» لم تخلقه إسرئيل، ولم يتحايل مردخاي لصنع شيء فيه، بل هو موقف جاهز من «صنع العدو نفسه ومن حصيلة أخطائه» التي أدت في النهاية إلى إعداد «مسرح العمليات» من الناحية السياسية لمصالح إسرائيل، ولم يفعل قائد الطيران الإسرائيلي أكثر من تقدمه لاستغلال أخطاء عدوه السياسية لصالحه.. وحركة الجنرال «هود» هنا حركة جبرية الاختيار ولا ابتكار فيها، بل إنه كان مرغمًا عليها، إذا أراد أن يضمن لخطته العسكرية الحركة التقليدية السلبية على الجانب السياسي.

إن الجانب السياسي في خطة «مردخاي هود» كان بالنسبة له جانبًا قهريًّا، لا فضل له في تحديد معالمه ولم يبعد دوره عن الاستفادة من خطأ قائم بالفعل، على الجانب المصري.. ومن ثم نسأل: هل كان الجنرال الإسرائيلي يستطيع أن يحدد لتنفيذ خطته الهجومية - لضرب الطيران المصري - موعدًا يسبق 5 يونية ببضعة أشهر، أو يتأخر بضعة أشهر وحتى بضعة أيام عن الموعد الذي نفذت فيه بالفعل؟

من المؤكد بحكم مجريات الأحداث قبل 5 يونية، حيث لم يكن الموقف في المنطقة قد أخذ هذا الشكل المتوتر العنيف، أن «مردخاي هود» لم يكن - ومن خلفه المؤسسة العسكرية الإسرائيلية كلها - ليفكر في تنفيذ ضربته، وهو مفتقر إلى المبرر المعقول لضربة قد تهدد بالصدام المسلح بين قوى أكبر من مصر وإسرائيل.

ومن المؤكد أيضًا أن الجنرال الإسرائيلي، لم يكن يملك تأخير الضربة عن موعدها الذي نفذت فيه بضعة أيام من المحتمل أن تتسرب خلالها النوايا التي بينها لعدوه، بحيث تفشل الخطة في تحقيق هدفها، وربما انقلبت ضده وضد قواته، إذا أخذت مصر حذرها من الضربة المفاجئة.

في هـذا الجانب السـياسي من الموقـف طرأ عامل جديـد على الموقف، وأعطـى الجنرال «مردخـاي هـود» فرصة العمر التي لم يكـن يحلم بها، وكانت من الأسـباب التي يسرت له القيام بتنفيذ خطته الهجومية ضد الطيران المصري.. كما سـاعد اسـتغلاله لهذه الفرصة على تضخيم حجم الضربة الإسرائيلية وفداحة الخسائر الناجمة عنها.

تمثل هذا العامل الطارئ في الرسالة المفاجئة التي التقطتها أجهزة اللاسلكي في السفارة السـوفيتية بالقاهرة قبيل فجر السبت 27 مايو 1967، وعلى الفور أسرع السفير السوفيتي بالتوجه إلى منزل الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ليوقظه من نومه في الثالثة صباحًا، ويبلغه فيها رسالة موسكو العاجلة: «نرجوكم عدم القيام بأي عمل عسكري».

وفحوى هذه الرسـالة واضح تمامًا.. أن موسـكو، بناءً عـلى اتصالاتها التي لم تنقطع مع واشـنطن – منـذ فجرت الأزمة – قد اطمأنت إلى أن إسرائيـل لن تكون البادئة بالعدوان.. وعلى مصر أن تعطي فرصة لالتقاط الأنفاس أملًا في الوصول إلى حل بديل للحل الساخن الذي خيم شبحه على المنطقة منذ بداية الأزمة.

ومـن المؤكد أن إسرائيل قد علمت بهذه الرسـالة، وتوقعت تأثيرهـا المهدئ على حرارة المظاهرة العسكرية – على الجانب المصري – وما يتبع هذا الهدوء المؤقت من اطمئنان القيادة المصرية إلى عدم قيام العدو بضربة مفاجئة، ولو لبضعة أيام.

وقد استفاد الجنرال «هود» من هذه «البضعة أيام» إلى أبعد مدى، سواء في تحديده لوقت الضربـة التي كان يتحتم تنفيذها خلال فترة الاسـترخاء المؤقت الـذي اطمأنت فيه القيادة المصرية.. أو في أسلوب العملية الهجومية نفسها والرسائل التي استخدمت في تنفيذها.

أنتقل الآن إلى الموقف العسكري نفسه لكل من طرفي الصراع، لنلقي نظرة فاحصة على هذا الجانب.. لأن التعرف على هذا الموقف، قبل العملية أو بعدها، ضروري لإصدار حكم منصف، سـواء بالنسـبة لقواتنا المسـلحة – وخاصة قواتنا الجوية.. الهدف الأول لضربة 5 يونية – أو بالنسبة للعدو نفسه.

ونظرًا لاتسـاع رقعة «الموقف العسـكري» – الذي يشـمل عادة القوات البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوي – فإننا سنتجه في هذا التحليل إلى موقف القوات الجوية وظروفها على جانبي جهة الصراع لتحليل عناصر الضربة الإسرائيلية للطيران المصري صباح 5 يونية،

ورد هـذه الخطـة إلى حجمها الصحيـح «المتواضع» للغايـة من ناحية التخطيط العسـكري السليم.

أتوجـه بسـؤال أولي ومهـم للغايـة، إلى واضـع الخطة الإسرائيليـة الجنـرال «مردخاي هود».. وهو السـؤال الذي لاشـك أن الجنـرال الإسرائيلي، قد ووجه به مـن خبراء القتال والتخطيـط الجوي القائـم على القواعد المتعـارف عليها في الفكر العسـكري بعيدًا عن كل ضوضاء ودعايات الحرب النفسية - التي شنتها إسرائيل ضدنا بضراوة لا تعرف الرحمة - والسؤال الذي أعنيه، يقول ببساطة:

إذا كان «مردخـاي هـود» يعـرف بحكـم منصبه كقائد لسـلاح الطـيران الإسرائيلي في عـام 1967، كل شيء عن إمكانيات هذا السـلاح عددًا وعتـادًا وتدريبًا.. فماذا كان يعرف بالضبط عن قدرات العدو الذي يخطط لضربه؟ ثم ما هي البدائل التي كان من المحتم عليه أن يعدهـا، أو - عـلى الأقل - يُفكر فيها، لو فاجـأه العدو الجوي - المصري - بما لم يتوقعه، عملًا بالقاعدة المعروفة التي تقول «إن العدو عنده دائمًا ما يخفيه»؟

توضيحًا لأهمية هذا السؤال، نطرح المبادئ الثلاثة الأولية في التخطيط لأية عملية قتالية وخاصة في القتال الجوي.. وهي:

1 - أن يطمئـن واضـع الخطـة إلى أنه يملك القـوات الضاربة التي تسـتطيع تنفيذ الخطة في أسرع وقت، وبدقة كاملة، وبأقل قدر من الخسائر.

2 - أن تكـون لـدى واضـع الخطة صورة دقيقـة - أو أقرب ما تكون للدقـة - عن إمكانية العـدو الجوي.. ودفاعاتـه، خاصة في السـاعة «س» التي يحددها المخطط العسـكري لتنفيذ عمليته الهجومية.

3 - التفكـير في كل «البدائل» الممكنة في مواجهـة جميع «الاحتمالات» المفاجئة، التي يُمكن أن يلجأ إليها العدو، سـواء لتحويل الضربة عن هدفها، أو للتقليل من حجم الخسـائر الناجمة عنها، أو ردها على العدو المهاجم، للإيقاع به في شرك خداعي لم يحسب حسابه.. والمبدأ الأخير بالذات يصرخ بالتحذير في أذن المخطط العسكري.. لا تستهن بالخصم مهـما بدا لك من ضعفـه - الذي قد يكون ظاهريًا، ولا تغتر بقوتك التي قد تؤدي بك إلى الهلاك.

هذه القواعد الأساسية في التخطيط القتالي، والتي تمثل في نفس الوقت.. لب السؤال الخطير الذي وجه ولا يزال يوجه للجنرال هود - لابد من تطبيقها على الجانبين المصري والإسرائيلي لتعرف حقيقة ما حدث في الساعة 8.45 من صباح الإثنين 5 يونية 1967 وهل كان معجزة كبرى.. أم أسطورة كبرى؟

ولكي نطبق تلك القواعد على الجانب المعادي، لابد من نظرة سريعة على تاريخ نشأة السلاح الجوي الإسرائيلي، والظروف النفسية التي تأسس في ظلها، والعقيدة القتالية التي عاش أفراد هذا السلاح يستنشقونها كالهواء. وإلقاء هذه النظرة التاريخية، أمر حيوي في التحليل المنصف لعملية «طوق الحمامة» التي رسمها «هود»، سواء من حيث التخطيط أو التنفيذ.

وأول ما يطالعنا في تاريخ «الطيران الإسرائيلي» عبارة أطلقها ذات يوم أحد أدباء إسرائيل ووصف فيها طيران بلاده بأنه «طيران يملك دولة» ورغم ما يبدو في هذه العبارة من «تهريج» ظاهري ودعاية لاذعة.. فإنها في حقيقة الأمر تعبر عن واقع مؤسف يعيشه الإسرائيليون، ويخضعون له طوعًا أو كرهًا.. لأنه نابع من طبيعة الظروف المكونة لإسرائيل كدولة ومجتمع، يقومان على تبني نظرية متعصبة تؤمن - من جهة - بتفوق الجنس.. وتحلم من جهة أخرى - بالتوسع والاستعمار الاستيطاني لأجزاء من الوطن العربي.

هذا التعصب العنصري، والإيمان بتفوق «الجنس» إلى جانب الحلم الأسطوري بانتزاع أجزاء من أراضي الدول العربية المجاورة جعل وضع إسرائيل منذ قيامها - كشعب ودولة - في حالة حصار دائم، تمارسه من حولها الدول العربية المحيطة بها.. ولما كانت إسرائيل من جانبها، وبحكم قلتها العددية بالقياس إلى الكثرة العربية الهائلة من حولها، غير قادرة على رفع هذا الحصار عمليًّا فقد اتجهت إلى رفعه نفسيًّا.

بل إن إسرائيل تجاوزت هذا إلى التفكير في تحويل الحصار العددي المفروض عليها من العرب إلى حصار نفسي، تفرضه هي على الدول العربية مجتمعة، عن طريق إنشاء قوة ضاربة ذات قدرة قتالية مرتفعة، تستطيع عن طريقها أن تغرس الرعب في قلب الإنسان العربي، وتحقق بها في نفس الوقت التوازن النفسي بين أحلام التوسع العدواني التي تعشش في عقل الإسرائيلي، كما تصور هالة أبواق العسكرية الإسرائيلية، وبين الفزع الطبيعي الذي يهاجم

هـذا المواطـن التعس – ليل نهار – وهو يحس بريـاح الخطر والعداء تهب عليه وتحاصره من كل جانب.

فـإذا عرفنا أن سـكان إسرائيل– بملايينهـم الثلاثة المحدودة – لا يمكن أن يشـكلوا – عدديًّـا على الأقل – القوة «البرية» المسـلحة التي لا تغرق في محيط الكثرة السـكانية العربية الرهيبـة مـن حولها.. يتضح لنـا السر الحقيقـي في التركيز على الطيران بالنسـبة للمؤسسـة العسـكرية الإسرائيلية – وهي بعقيدتهـا العدوانية.. تضمن العدوان عـلى الغير كما تتوقعه من الغير بنفس الدرجة.

هكـذا تحول الطـيران الإسرائيلي إلى «وهم كبـير» في عقول الإسرائيليين أنفسـهم، قبل أن يكون وحشًـا خرافيًّا طائرًا بالنسـبة للإنسـان العربي.. بل إن واجب الإنصاف والأمانة العلميـة – حتى بالنسـبة لخصم لا يتوقف كثيرًا عند الأمانة إذا لم تخـدم أهدافه العدوانية – يفرض علينا أن نقول إن الشـخص الإسرائيـلي، سـواء أكان مواطنًا عاديًّا أم واحدًا من أكبر قادة المؤسسـة العسـكرية في إسرائيل – هو أولًا وأخيرًا ضحية لخرافة «الوحش الإسرائيلي الطائر» قبل أن يكون صانعًا لهذه الخرافة أو مروجًا لها.

ذلـك أن إحسـاس الإسرائيـلي الكامـن في أعماقه بأنه شـخص عـدواني، يفـرض عليه الاستسـلام لقوة أسـطورية تضمن لوجوده العدواني الاسـتمرار.. وقد التمس هذه القوة في سلاح الطيران.. ولكي يُقنع نفسه قبل عدوه بخطورة هذا الوحش الطائر، أعطاه كل ما يطلـب من مال ورجال.. وأخضع مـا في الدولة لاحتياجات هذا الوحش الخرافي.. بحيث انقلـب الوضـع في مجتمـع إسرائيل إلى حالة شـاذة بالفعل، ولا مثيل لهـا في أي مجتمع آخر، فأصبح الطيران هو الذي يملك إسرائيل بدلًا من أن تملك إسرائيل سلاحًا للطيران.

إن كلامنا هذا عن سلاح الجو الإسرائيلي لا يعني أن كل حديث عن هذا السلاح وقوته عددًا وعتادًا محض خرافة أو مجموعة أكاذيب، لا أسـاس لها من الواقع.. لأن طيران العدو حقيقة مادية، لا سبيل إلى تجاهلها أو نفيها.. ولكن الذي ننفيه تمامًا هو هذه الهالة الضخمة من القدرات الأسـطورية التي نسجت حوله.. وهي أساطير نسجت بذكاء، ومزجت فيها الحقيقـة بالخيال، تلبية لحاجة نفسـية تكمن في قاع النفـس الإسرائيلية المحكومة بمجموعة من العقد والتراكمات التاريخية التي لا ذنب للعرب فيها على الإطلاق.

في الفـترة الواقعـة بين مايو عام 1948 ويناير 1949 كان هذا السـلاح الجوي الناشـئ

يقـوم بـدور لا بأس بـه في العمليات القتالية التي نشـبت بـين قوات الدولـة الوليدة، وبين «الجيوش العربية» التي اشـتركت فيما سُـمي وقتها بـ «حرب التحرير لفلسـطين العربية».. ورغـم ضآلة حجـم وقدرات الطيران الإسرائيلي آنذاك، فإن نشـاطه بالـذات ضد القوات المصرية - التي اقتربت أيامها إلى مسافة 35 كيلو مترًا من تل أبيب - كان ملحوظًا.

منـذ ذلـك التاريخ، اسـتطاع «تولكوفسـكي» - أول قائـد لهذا السـلاح - أن يقنع قادة إسرائيـل - مدنيين وعسـكريين بـضرورة العنايـة بالطـيران، وتحويله من مجرد سـلاح من أسـلحة الجيـش إلى وحش طائـر.. قادر على حمايـة إسرائيل والدفاع عنهـا بعيدًا عن أرض إسرائيل ذاتها - والتي لا تسمح بحكم مساحتها الضئيلة بأية عمليات قتالية برية تدور على أرضهـا المحدودة، وتؤدي إلى اختراقها أو شـطرها. ومعنى هـذا.. ضرورة توفير عنصرين أساسيين في عملية تكوين هذا السلاح.

أولهمـا: السرعة، التي توفرهـا الأنواع الجيدة والأكثر حداثـة والأكبر قوة توفر له في عالم الطيران المقاتل، بحيث تصل الطائرة إلى أبعد مدى في أسرع وقت ممكن.

ثانيهما: الفعالية.. الناشئة عن التركيز الشديد، سواء في التدريب الجيد، أو في تناغم الأجهزة المختلفة المشتركة في عمليات هذا السلاح.

وجـاءت حرب 1956 التي أخـذت فيها إسرائيل دور الشريـك الأصغر في العمليات الهجوميـة التي قامت بها القوات الإنجليزية والفرنسـية ضد مـصر وأثبتت هذه العمليات مرة ثانية، أهمية، بل وحيوية الطيران المقاتل لإسرائيل.. لأن الضربة «الأنجلوفرنسـية» عام 1956 للطـيران المـصري، عجلت بإخراجه مـن المعركة، وكانت من أخطـر العوامل التي دفعت القيادة المصرية العليا إلى اتخاذ قرارها بسحب القوات البرية المنتشرة في سيناء.

لقد أطلق «عيزرا وايزمان» - خليفة «تولكوفسـكي» في قيادة سـلاح الجو الإسرائيلي - شـعاره المعروف «أن إسرائيل يجب حراستها على ارتفاع أربعين ألف قدم»، ثم أتبعه بشعار آخر أكثر صراحة يقول فيه: «إن الدفاع عن إسرائيل يجب أن يبدأ من سماء القاهرة».

وقد صادف الشعاران هوى في نفس المسيطرين من قادة المؤسسة العسكرية في تل أبيب، وسرعان ما استجابوا بسخاء غير محدود لطلبات سلاح الطيران، بحيث نمت قدرات هذا السـلاح نموًّا زائدًا على المعدل الطبيعي لأي سـلاح طيران آخر، بالقياس إلى حجم الجيش الإسرائيلي كله، وإلى إمكانيات إسرائيل ذاتها كدولة.

ومن نقطة الصفر عام 1948، وصلت إمكانيات طيران إسرائيل المعلنة عام 1967، وقبيل تنفيذ عملية «طوق الحمامة» التي خطط لها الجنرال «مردخاي هود» ونفذت بالفعل صباح 5 يونية، إلى الأرقام التالية من الطائرات، المختلفة الأنواع والتسليح والقدرات القتالية:

أولًا: طائرات القتال وعددها «246» طائرة بيانها كالآتي:

- 65 مقاتلة اعتراضية من طراز «ميراج - 3/ س».
- 50 مقاتلة من طراز «سوبر / ميستير».
- 50 مقاتلة من طراز «ميستير - 4/ 1»
- 55 مقاتلة/ قاذفة «طراز: أوراجان».
- 26 مقاتلة/ قاذفة «طراز نوتور».

ثانيًا: طائرات تدريب تم تسليحها، واستخدمت في المعاونة الجوية بعد الحصول على السيطرة الجوية الكاملة:

- 200 طائرة تدريب طراز «فولجا - ماجستير».

ثالثًا: طائرات النقل ويبلغ عددها واحدًا وخمسين طائرة بيانها كالآتي:

- 5 طائرات من طراز «ستراتوكروزر».
- 32 طائرة من طراز «نورد».
- 14 طائرة من طراز «كوماندوود أكوتا».

رابعًا: طائرات الهليكوبتر وعددها واحد وخمسون طائرة.. منها ما يلي:

- 30 طائرة من طراز «سيكورسكي 55/ 58».
- 15 طائرة من طراز «الويت / 2 - ب / 47».

ومعنى هذه الأرقام ببساطة أن سلاح الطيران الإسرائيلي دخل الحرب عام 1967 وهو يملك - طبقًا للأرقام المعلنة خمسمائة وثماني وأربعين طائرة مختلفة الأنواع والأهداف والتسليح، وهي قوة لا يُستهان بها، بالقياس إلى حجم الدولة ذاتها، فضلًا عن أن هذه القوة الجوية تستطيع القيام بعملية هجومية ناجحة، إذا توفر لها أمران:

الأول: تخطيط جيد يستفيد إلى أقصى حد من إمكانيات هذه القوة وقدراتها الهجومية والقتالية بوجه عام.

والثاني: حساب دقيق لإمكانيات العدو ووسائل دفاعاته، بحيث لا تفاجأ الأسراب المهاجمة، خاصة وهي محملة بالذخيرة، بكمائن غير متوقعة، سواء من طائرات العدو الاعتراضية أو وسائل دفاعاته الأرضية.

ويدخل في ضمان العامل الثاني، أن يكون واضع الخطة الهجومية على معرفة - شبه كاملة - بأخطر ما يهدد الطائرات المغيرة سواء أكانت قاذفة، أو مقاتلة قاذفة، وهو ما يملكه العدو من وسائل الإنذار المبكر، بل أجهزته الإلكترونية والبشرية، ويضع نصب عينيه ابتكار الأساليب التي تضمن تعطيل هذه «العيون» و«الآذان» البالغة الحذر والخطر، قبل أن تدخل قواته الجوية المهاجمة في دائرة «تلصص أو تصنت» هذه الآذان والعيون.

وإذا لم يكن واضع الخطة الجوية الهجومية واثقًا من قدرته على تعطيل أجهزة الإنذار المبكر التي يملكها العدو، فإن البديل الوحيد هو أسلوب تحاشي هذه الأجهزة والابتعاد بالقوة الجوية المغيرة، عن أوسع مدى يمكن أن تصل إليه وسائل الإنذار المبكر، خاصة في رحلة الذهاب.

إن نجاح أو فشل الضربة الجوية يتوقف بالدرجة الأولى على قدرة العدو الجوي المهاجم على امتلاك ناصية المفاجأة، والاستفادة إلى أقصى مدى ممكن من نتائجها الهائلة، سواء في القدرة على خداع دفاعات العدو وما ينتج عنه من هبوط نسبة الخسائر بين القوة المهاجمة، مع ارتفاع حجم الإصابة لدى العدو المستهدف بالضربة، وما يؤدي إليه من حدوث شلل مؤقت في مراكز قيادات العدو، تفقده القدرة على التفكير السليم، وتضعف من سيطرته حتى على قواته التي نجت من الهجوم الجوي. وتتضاعف هذه النتائج الخطرة بالنسبة للعدو والمستهدف بالهجوم الجوي، إذا جاءت الإصابة مع الموجة الأولى للعملية الهجومية إصابة مباشرة فوق وسائل اتصالاته اللاسلكية، أو أجهزة السيطرة المركزية على باقي القوات، ففي هذه الحالة الفريدة يتحول الشلل المؤقت - الذي لا يستغرق في الأحوال العادية بضع دقائق تمثل الموجة الأولى من موجات الهجوم الجوي - إلى شلل ممتد، قد يطول لبضع ساعات، تمثل للعدو المهاجم فرصة العمر التي تتيح له توجيه ضربة قاصمة لعدو فقدت قيادته السيطرة على نفسها، وبالتالي على كل ما تملكه من قوات.

هذه بالتحديد هي القواعد المجردة لأية خطة تستهدف القيام بعملية جوية هجومية، إذا كان المخطط العسكري على دراية بقواعد العلوم العسكرية حتى يبتعد بنفسه وبقواته التي سيطلقها في أجواء العدو، عن الفشل، وربما.. الدمار.

فماذا صنع الجنرال «مردخاي هود» بالضبط وهو يرسم خطوط عمليته الهجومية «طوق الحمامة» التي عُرفت في تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي، باسم ضربة 5 يونية 1967؟

إن ما كان من المحتم على الجنرال الإسرائيلي «هود» أن يضعه نصب عينيه، وهو يضع الخطوط الأولية لعمليته الهجومية، هو عنصر التأمين لقواته الجوية التي ستقوم بالتنفيذ، سواء في ذلك الطائرات القاذفة أو المقاتلة القاذفة، أو حتى طائرات الاعتراض والحماية، التي تصحب القوة القاذفة المكلفة بالهجوم على الأهداف الأرضية للعدو. والعناية المسبقة بعنصر التأمين أثناء تنفيذ عمليات الهجوم الجوي - وهو العنصر الذي يُعرف علميًّا باسم الدفاع السلبي المسبق - أمر حيوي يتوقف عليه نجاح أو فشل أية خطة جوية.

ومن المعروف أن التأمين الإيجابي للقوات الجوية أثناء قيامها بمهاجمة العدو الأرضي يعتمد على طائرات الحماية - المقاتلة - التي تصحب الطائرات القاذفة أثناء تنفيذها مهامها الهجومية والتي تمثل الجانب الإيجابي في عنصر التأمين، الذي يتوقف على ما تملكه الدولة من طائرات الحماية عددًا ونوعًا.

إلا أن الجانب السلبي في عنصر التأمين السابق لعمليات الهجوم الجوي أكثر خطورة على العدو المستهدف بالضربة الجوية، رغم أنه لا يكلف واضع الخطة عبئًا ماديًّا، يثقل كاهل قواته الجوية، لأن التأمين السلبي يعتمد أولًا وأخيرًا على تعطيل أو تحاشي أجهزة الإنذار المبكر التي يملكها العدو المستهدف بالضرب، والتي يستطيع عن طريقها، أن يعرف مسبقًا ولو لبضع دقائق تسبق الهجوم أن هناك عدوًّا جويًّا في الطريق إليه. هذه الدقائق القليلة التي تفصل بين صيحات التحذير التي تطلقها أجهزة الإنذار المبكر، وبين وقوع الضربة الجوية التي يتوقف عليها نجاح أو فشل العدو الجوي المغير من جهة، ونجاة أو دمار العدو المستهدف بالهجوم من جهة أخرى.

وفي خطة الجنرال «مردخاي هود» سنجد عنصري التأمين - الإيجابي والسلبي - موجودين.. ولكننا نترك الحديث عن الجانب الإيجابي في التأمين، لنتناوله بالعرض عند تحليلنا لتفاصيل العملية ذاتها. ونقصر حديثنا هنا على الجانب السلبي في عملية التأمين،

وهو الدفاع السلبي الذي كان على الجنرال «هود» أن يوفره لقواته الجوية عن طريق تعطيل أو تحاشي أجهزة الإنذار المبكر على الجبهة المصرية، ضمانًا لمفاجأة وسائل الدفاع الجوي المصري - الثابت والمتحرك منها على السواء، وهنا تتضح لنا الحقائق التالية:

أولًا: أن مساحة جمهورية مصر العربية تبلغ 386 ألف ميل مربع من الرقعة الأرضية الثابتة، فإذا أضيفت إليها، طبقًا لأحكام القانون الدولي العام والقانون البحري الدولي، المساحات التي تخضع للسيادة المصرية من المياه الإقليمية في البحر الأحمر - الذي يشكل معظم الحدود الشرقية لمصر - والبحر الأبيض الذي يشكل ساحله الجنوبي الحدود الشمالية لمصر كلها، فإن المساحة الخاضعة لسيادة جمهورية مصر العربية ترتفع إلى ما يقرب من نصف المليون من الأميال المربعة تقريبًا.. ومثل هذه المساحة الهائلة تتطلب إمكانيات ضخمة من وسائل الإنذار المبكر، التي يجب انتشارها على الحدود الشرقية - سواء في سيناء أو على سواحل البحر الأحمر، شرقًا - وعلى امتداد الساحل المصري للبحر الأبيض من حدود قطاع غزة شرقًا، إلى مطروح والسلوم غربًا - لقطع الطريق على أية عمليات هجومية مفاجئة يقوم بها العدو الجوي معتمدًا على هذا الامتداد الهائل لحدودنا الشرقية والشمالية.

ثانيًا: لكي يتوافر لهذه الحدود البالغة الطول حزام الأمان المحكم من أية عمليات هجومية جوية مفاجئة يجب تنويع وسائل الإنذار المبكر من أجهزة رادار متقدمة ووسائل إنذار بشري - تعتمد على الرؤية المباشرة - إلى جانب وسائل الإنذار المتحركة، الممثلة في مظلات طائرات الحماية والاعتراض التي يجب أن تظل أسرابها معلقة في الجو طوال الأربع والعشرين ساعة، خاصة في مواجهة عدو يهرب دائمًا من المواجهة، ويتحين الفرص باستمرار لاقتناص الفرص للضربات المفاجئة التي يقدر أنها تحقق له أكبر قدر من النجاح بأقل قدر من الجهد والخسائر.

ثالثًا: كان من الواجب على العسكرية المصرية - في عام 1967، وقد تحملت مسئولية حماية الأرض المصرية - فضلًا عن التفكير في عملية ردع للغزو العسكري وجنون التوسع العدواني، الذي يمثل صلب العقيدة القتالية للمؤسسة العسكرية في إسرائيل.. أقول كان واجبًا على العسكرية المصرية في مواجهة كل هذه التحديات، التي تمثلت في حدود مصرية بالغة الطول، وفي حاجة ماسة للتأمين ضد الهجوم الجوي من عدو يفاخر بأنه يملك ذراعًا طويلة اسمها «الطيران الإسرائيلي» يعتمد عليها في تنفيذ مخططه العدواني.. أن تضع نصب

عينيهـا، وهـي تخطـط للدفاع عـن مصر، ما حققـه الطيران الحـربي في العالم، مـن خطوات واسعة المدى على طريق التقدم، سواء من حيث التسليح أو كمية الذخائر المحمولة بالنسبة للطائـرات القاذفـة - أو القدرة على المنـاورة والطيران على ارتفاعـات بالغة الانخفاض - بالنسبة لكل أنواع الطائرات الحربية بوجه عام.

لقد كان هذا يقتضي بالضرورة الاستماتة في الحصول على أحدث أجهزة الرادار القادرة على كشـف الأهداف المعاديـة التي تتحرك عـلى ارتفاعات منخفضة، ونـشر هذه الأجهزة في أنسـاق متتاليـة على امتـداد الحدود الشرقية والشـمالية لمصر، التي يمكـن أن يفكر العدو في اختراقهـا للقيـام بضربـة جويـة مفاجئـة.. وإلى جانب حـزام أجهزة الكشـف الراداري - القـادرة على إرسـال موجاتها عـلى ارتفاعات منخفضـة - كان من المحتم أيضًـا، العناية بأسـلوب الإنذار البشري بالعين المجردة، وهو - رغم ما قد يبدو من بدائيته أسلوب أثبت فعاليته في كثير من الأحوال، وقدرته على سـد الثغرات في حزام الأمان الذي تكونه أجهزة الرادار الحديثة.

الحقيقة الرابعة: التي كان من الواجب وضعها في الحسـبان، إذا أرادت العسـكرية المصرية في عام 1967 - أن تقي بها مصر جيشًا وشعبًا أية مفاجأة غادرة، خاصة مع تصاعد التوتر في الموقفين السـياسي والعسـكري مـع العدو - قبيل ضربة الخامـس من يونية - هي المرونة في وضع خطط الإنذار المتحرك الخاصة بمظلات طائرات الحماية والاعتراض، التي أثبتـت التجـارب العملية نجاحها في التغلـب على كثير من الصعوبات التـي تواجه أجهزة الإنـذار الأرضيـة الثابتة كعمليات التشـويش والإعاقة والتمويه التي قـد يلجأ إليها العدو ليعطل بها أجهزة الرادار، أو يصيبها بالعمى، فتعجز عن القيام بمهمتها الخطيرة في الإنذار المبكر باقتراب العدو الجوي.

ومـن هنـا كان وجود أسراب طائـرات الحماية والاعتراض، معلقـة في الأجواء المصرية - وعـلى طلعـات متفاوتة المواعيـد طوال الأربع والعشرين سـاعة - هو الضـمان الحتمي، لمواجهة أي احتمال لتعطيل أجهزة الرادار أو تضليلها.. ومعنى هذا بالضرورة.. هو المرونة في مواعيـد إقـلاع هذه المظلة الجوية وهبوطها.. وعدم ثبات هـذه المواعيد، بحيث لا يأخذ العـدو فرصة لالتقاط أنفاسـه ولا يسـتطيع تحديد وقـت معين تخلو فيه السماء المصرية من طائرات الحماية، يستطيع خلاله أن يضرب ضربته الجوية المفاجئة.

هذه الحقائق الأربع، التي كان من المحتم على العسكرية المصرية لو أنها أخذت بالقواعد العلمية في وضع خططها العسكرية للدفاع عن مصر جوًّا وأرضًا أن تعتبرها ركائزها الأساسية، هي نفسها الثغرات الأربع التي نفذ منها الجنرال الإسرائيلي «مردخاي هود» وهو يضع خطة عمليته الهجومية «طوق الحمامة» على الوجه التالي:

1 - بالنسبة للحقيقة الأولى المتمثلة في اتساع المساحة الخاضعة للسيادة المصرية، وهي تقترب كما ذكرنا من نصف المليون من الأميال المربعة وجد الجنرال الإسرائيلي ثغرات بالغة الاتساع في حزام الأمان الذي تكونه أجهزة الكشف الراداري، ولم تكن القيادة المصرية تملك القدر الكافي من هذه الأجهزة سواء من حيث العدد أو النوع المتطور البالغ الحداثة الذي ييسر لها تغطية الحدود الشرقية والشمالية بالذات، وهي مكمن الخطر في أية عمليات هجومية جوية محتملة، ونظرًا لقلة هذه الأجهزة فقد ركز معظم الموجود منها لخدمة هذا الغرض، وهذه حقيقة اعترف بها العدو نفسه فيما بعد.

وقد أدى تركيز المتوافر من أجهزة الكشف الراداري في مواقع معينة وخاصة في القطاع الشرقي من سيناء إلى خلق ثغرات بالغة الاتساع في حزام الإنذار المبكر، الذي يمثل صمام الأمن الأمامي للوقاية من الضربات الجوية المفاجئة... وتمثل هذه الثغرات الخطرة في مساحات بالغة الطول من سواحلنا المطلة على البحر الأحمر، ومساحات أخرى ممتدة على الساحل الشمالي، بين بورسعيد والإسكندرية من جهة، ثم غرب الإسكندرية إلى مطروح والسلوم من جهة أخرى... وكانت هذه الثغرات في حزام الإنذار المبكر المصري، تمثل أول خطأ استفاد منه «هود» خاصة أن القيادة المصرية عام 1967 لم تحاول تلافي هذا القصور في أجهزة الكشف الراداري، بالاستعانة الجادة بأسلوب الكشف البشري بالعين المجردة، وفي أنساق متتالية، ومواقع متقاربة كانت قادرة على تخفيف حدة الخطر إن لم تتمكن من تلافيه.

2 - بالنسبة للحقيقة الثانية الخاصة بتنوع وسائل وأساليب الإنذار المبكر فقد تحولت من ركيزة أساسية لخطط الدفاع المصري ضد الضربات الجوية المفاجئة، إلى ثغرة خطيرة أخرى استفاد منها جنرال «هود» وهو يضع خطته، لأن بعض القيادات المصرية في عام 1967 وما سبقه من أعوام كانت تعتمد على أسلوب غير علمي، سواء في وضع خططها العسكرية، أو في الحديث عن تصورها للموقف العسكري مع العدو.

إن أبسط دليل نسوقه على هذا الخطأ، أن هذه القيادات كانت تعتمد على عقد المقارنات العددية بين استعداد العدو واستعدادنا العسكري، متناسين عوامل أخرى لا تقل أهمية عند الممارسة القتالية عن العدو كنوعية العتاد والإمكانيات المتطورة، وكالتدريب، وكالمدى الذي يتحتم استخدام هذا العتاد لحمايته أو الدفاع عنه، وعلى سبيل المثال، فقد كان بعض القادة يعقد مقارنات عددية بين ما يملكه العدو الإسرائيلي من أجهزة الكشف الراداري وما تملكه مصر منها، ناسيًا أو متناسيًا أن مساحة الأرض التي تحتلها إسرائيل عام 1967 لم تكن تتجاوز 7978 ميلًا مربعًا، بينما يرتفع الرقم بالنسبة للمساحة الخاضعة للسيادة المصرية أرضًا ومياهًا إقليمية إلى نصف المليون من الأميال المربعة المصرية، ويعني هذا ببساطة أن ما تحتاجه إسرائيل من أجهزة وأساليب الإنذار المبكر إلكترونيًا وبشريًا يجب أن يتضاعف على الجانب المصري إلى أكثر من ستين مرة، إذا أردنا تحقيق التوازن العددي، الذي كان بعض القادة يتشدقون بأنهم تخطوه، ووصلوا باستعدادهم إلى مرحلة التفوق العددي.

وحتى هذا لو فرضنا جدلًا أن قياداتنا السابقة كانت قد حققت هذا التفوق العددي في أجهزة الإنذار المبكر ووسائله وهو أمر كان العدو نفسه يعرف عدم صحته فقد فاتهم الالتفات إلى نوعية هذه الأجهزة، واختلاف قدراتها الإنذارية من نوع إلى نوع، كما فاتهم أن ما يملكونه من أجهزة الكشف الراداري، يعتبر بالقياس إلى ما كان يملكه العدو وقتها متخلفًا، لأنه من الأنواع المعدومة القدرة على الكشف عن الأهداف المنخفضة، وحتى هذه الأنواع المحدودة القدرة والمدى من أجهزة الرادار لم يكن قد تم بعدُ استيفاؤها، وتدريب الأطقم الكافية لتشغيلها تدريبًا عاليًا، يسمح لهذه الأطقم بأن تعوض بمهارتها البشرية وقدراتها الخاصة ما في هذه الأجهزة من نواحي القصور.

أمر آخر ساعد على تأكيد الثغرة، وفتحها على مدى أوسع أمام «مردخاي هود» هو عدم الاهتمام بالقدر الكافي بأسلوب الإنذار البشري بالعين المجردة رغم فعاليته في كثير من الأحوال، خاصة في حالات الطيران على ارتفاعات بالغة الانخفاض قد يعجز عن اكتشافه أغلب أجهزة الكشف الراداري، وحتى المتطور منها.

3 - وبالنسبة للحقيقة الثالثة: وهي التطور الهائل في مجال الطيران الحربي، سواء من حيث

سرعـة الطائرات أو مـدى طيرانها، أو تسـليحها وكمية الذخيرة التـي تحملها الطائرة المهاجمة... أو من حيث الأجهزة الإلكترونية الحديثة التي زودت بها الطائرات الحربية وأعطتها قدرة شبه أسطورية،سواء على المناورة والإفلات من الهجوم المعادي، أو على دقة التنشين والتصويب على الأهداف، أو على الطيران على ارتفاعات بالغة الانخفاض تحاشيًا للوقوع في دائرة انتشار موجات الرادارات.

هـذه الحقيقـة الأولية في التخطيط لأي دفاعات سـليمة سـواء أكانت متحركـة أم ثابتة لم تأخـذ القـدر الكافي مـن عناية القيادة المصريـة قبل عام 1967، وعندمـا تصاعدت أزمة المضايق الشـهيرة في مايو من نفس العام بصورة تنذر بحتمية الصدام العسكري مع العدو، كان العـدو نفسـه واثقًا مـن قدرته على توجيه ضربة ناجحة وبأقل قدر من الخسـائر لا لأنه يملـك عبقريـة عسـكرية نـادرة الوجود، بل لأنـه كان مطمئنًـا إلى ما كان لدينـا من أجهزة الكشـف الراداري، يقتصر مدى كشـفه على الأجواء العليا فضلًا عن قلة هذه الأجهزة من حيث العدد، مما حتم تركيزها في أماكن معينة تركت باقي حزام الأمن الممتد لطول حدودنا الشرقية والشمالية مكشوفًا.

فإذا اسـتطاع واضع الخطة المعادية، أن يحدد لأسرابه المهاجمة مسـارات تبتعد عن أماكن تمركـز هـذه الأجهزة من ناحية وتحاشي الاصطدام بهذه الأجهـزة في طبقات الجو العليا من ناحيـة أخـرى، فقد نفـذ من ثغرة قاتلـة، وضمن لأسرابـه المهاجمة عمليـة هجومية ناجحة تمامًا.

4 - ونصل أخيرًا إلى الحقيقة الرابعة، والتي تمثل أخطر الثغرات، التي استفاد منها العدو إلى أبعد مدى، سـواء في التخطيط لضربته الجوية أو تنفيذها، ونعني بها: تحجر الأسـلوب العسكري وجموده عند بعض قياداتنا العسكرية السابقة، التي كانت تحتل مواقع بالغة التأثير على قواتنا المسلحة سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ.

ودليلنا على هذا أن تلك القيادات، ظلت حتى عام 1967 وبعد أن أخذت الإلكترونيات زمام المبادرة في أسلحة الحرب وعتاده وخاصة في مجال الحرب الجوية، ظلت هذه القيادات تتحرك على ضوء نظرية تقليدية من مخلفات الحرب العالمية الثانية تقول: إن أنسب ساعات الهجـوم الجوي هـو «أول ضوء» باعتبار أن هـذه اللحظات الدقيقة التي ينقشـع فيها ظلام

الليـل، ويبدأ فيهـا ضوء النهار، تمثـل للعدو المهاجـم فرصة جيدة للتصويـب المحكم على الأهداف في ضوء النهار الصافي.

كـما أن هذه اللحظات نفسـها تفصل عادة بـين قوتين من الرجال، النوبـة الأولى تكون في قمة الإجهاد بعد سـاعات من السـهر والحراسـة، والنوبة الثانية تكون مشغولة في تسلم مواقعهـا، ولم تتمركـز بعد، وبـين إجهاد أفراد النوبة الأولى، وانشـغال أفـراد النوبة الثانية، تهبط القدرة القتالية لوسائل الدفـاع الأرضي الثابتـة من أجهزة إنذار أو مدفعية تقليدية أو صاروخية.ومن هنا تأتي فعالية الهجوم الجوي في «أول ضوء».

هـذه النظرية التقليدية التي سـيطرت على ميادين القتـال في الحرب العالمية الأولى قللت مـن أهميتهـا إن لم تكن قد قضت عليها تمامًا التطورات والابتكارات الإلكترونية الحديثة في أسلحة الحرب وعتاده في مختلف الميادين.. البرية والبحرية والجوية والدفاع الجوي، ورغم هـذا فقـد كانت خطـط دفاعنا ضد العـدو الجوي في عـام 1967 تتحرك عـلى ضوء نظرية تناساها الفكر العسكري تقريبًا، وانتهى الاهتمام بها مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

ولهذا نجد أن حالة الاسـتعداد عندنا سـواء بين أجهزة الإنذار، أو وسائل الدفاع الثابتة والمتحركـة مـن مدفعية مضادة تقليديـة أو مدفعية صاروخية، أو طائـرات حماية واعتراض كانـت تبلغ مداها الأقصى، في تلك اللحظات التي كانت بعض قياداتنا تتصور أنها لحظات الخطر، من أول ضوء إلى الثانية صباحًا.. ثم تبدأ مرحلة من الاسترخاء، تهبط فوقها طائرات الحماية والاعتراض إلى الأرض، بحيث تخلو أجواؤنا من وسائل الدفاع المتحرك، ويتبع هذا بالـضرورة حـدوث فراغ رهيـب في دفاعاتنا يمكن أن يـؤدي إلى إحداث ضربـة قاتلة، إذا أحكم العدو استغلال هذا الفراغ.

هنا نجد أنفسنا أمام أخطر سؤالين طرحهما خبراء التخطيط للعمليات الهجومية الجوية في معاهد الدراسـات الاسـتراتيجية العالمية، كما طرح نفس السـؤالين عـلى الجنرال «هود» ومعاونيه الملحقون العسكريون الأجانب في تل أبيب، عقب ضربة 5 يونية 1967:

السؤال الأول: لماذا حددت إسرائيل ساعة الصفر لتنفيذ عمليتها الجوية لضرب الطيران المصري في الساعة الثامنة إلا الربع بتوقيت تل أبيب التاسعة إلا الربع بتوقيت القاهرة مثلًا لم يبدأ الهجوم قبل ذلك الموعد أو بعده بساعة؟

السؤال الثاني: يتناول جانبـين مهمين من العملية الهجومية الإسرائيلية، وهما: تحقيق

عنصر المفاجأة الكاملة تقريبًا لسلاح الجو المصري، ثم ارتفاع عدد الطلعات التي قامت بها الطائرات المغيرة في اليوم الواحد يوم 5 يونية بحيث حققت سلسلة متصلة الحلقات من الغارات شبه المستمرة على المطارات المصرية، جعلت منها طوقًا، أشبه بطوق الحمامة، وهو نفس الاسم الكودي للعملية الإسرائيلية.

وبالنسبة للسؤال الأول الخاص بتحديد ساعة الصفر في التاسعة إلا الربع بتوقيت القاهرة فقد اضطرت قيادة سلاح الجو الإسرائيلي وبعيدًا عن كل الدعاية وأساطير الحرب النفسية إلى الاعتراف بالحقيقة، وهي أن الجنرال الإسرائيلي «هود» استفاد من خطأ القيادة المصرية التي كانت طبقًا للنظرية العسكرية المتخلفة التي أشرنا إليها من قبل تحدد ساعة الخطر المرتقب «بأول ضوء».

لم يكن على «هود» سوى الابتعاد عن هذه الساعة الخطرة من وجهة النظر المصرية، والتي تبلغ فيها الدفاعات المصرية الثابتة والمتحركة أقصى مدى لها... وهذا ما فعله بالضبط، فقد ابتعد عن تلك اللحظة الحرجة بالنسبة لطياريه، والتي يحتمل أن يواجهوا فيها طائرات الحماية والاعتراض التي تحلق في الأجواء المصرية عقب أول ضوء ثم تهبط إلى قواعدها عند زوال الخطر كما تتصوره قياداتنا السابقة، كما أن الجنرال الإسرائيلي، استفاد من تقارير الأرصاد الجوية التي أكدت أن الممرات التي كان قد حددها كمسار لطائرات الموجة الأولى من موجات الضربة الجوية، وتقع في المدخل الشمالي للدلتا من ناحية البحر الأبيض ستكون مغطاة بضباب لن ينقشع قبل الساعة الثامنة صباحًا، وسيكتمل انقشاع هذا الضباب بعد ذلك بنحو نصف الساعة، فإذا بدأت الموجة أولى هجومها في التاسعة إلا الربع، فإن طياريها سيضمنون رؤية واضحة تمامًا لأهدافهم من ناحية، واسترخاء مداهم الجوي الذي تحكم قياداته نظرية بالية من مخلفات الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى.

بالنسبة للسؤال الثاني الخاص بتحقيق الطيران الإسرائيلي للمفاجأة الكاملة لسلاح الجو المصري، وارتفاع عدد الطلعات التي قامت بها الطائرات الإسرائيلية في اليوم الواحد فإن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل هذه الأساطير التي نسجتها أبواق الدعاية وأجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية، لتضخم ما حدث يوم 5 يونية. ذلك أن نجاح الطيران الإسرائيلي في مفاجأة الطيران المصري في ذلك اليوم، لا يرجع إطلاقًا إلى عبقرية عسكرية فذة، وليس معجزة يستحيل تكرارها.. الأمر أبسط من هذا وأكاد أقول أكثر سذاجة مما صورته

الدعايـات الإسرائيلية..وهو لا يخرج عن اسـتفادة جيدة من الإمكانيـات المتاحة للجنرال «هود» وسـلاحه الجـوي من ناحية، واسـتغلال الخطأ في التفكير العسـكري، والقصور في العتاد، وخاصة في أجهزة وأساليب الإنذار المبكر على الجانب المصري من ناحية أخرى.

ولـو أننا اسـتعدنا تفاصيل العمليـة الهجومية ذاتها كما خطط لها «هـود» ونفذها طياروه لوجدنـا أمامنـا الدليل القاطـع، الذي لا يقبل المناقشـة على صحة ما ذهبنا إليه من بسـاطة وتقليديـة خطة العملية الإسرائيلية، وخلوها مـن أي ملمح من ملامح العبقرية والإعجاز العسكري، إلا إذا جاز لنا أن نصف التلميذ الذي يحفظ جدول الضرب بأنه عبقري معجزة، إذا استطاع أن يعرف أن الرقم 144 مثلًا هو حاصل ضرب الرقمين 12 في 12.

إن «مردخاي هود» في تخطيطه لعملية 5 يونية، كان تلميذًا مجدًّا للعسكرية الأنجلوفرنسية، التي خططت لضرب سلاح الجو المصري عام 1956 الذي عرف باسم العدوان الثلاثي.. والـذي أخذت فيـه إسرائيل دور الشريك الأصغـر، الذي تعلق بذيل العربـة التي يقودها الشريكان الأكبر سنًّا، والأكثر ثراءً ومقدرة.

ففـي العمليـة الأولى التي نفذها الطيران الإنجليزي بالاشـتراك مع الطـيران الفرنسي، أتـت الطائـرات المغـيرة من البحـر الأبيض، ودخلـت الأجـواء المصرية من شـمال الدلتا، لتهاجـم المطارات المصرية، التي كانـت معروفة تمامًا، بكل تفاصيلهـا وتجهيزاتها للطيارين الإنجليز، الذين لم يكن قد مضى على مغادرتهم لهذه القواعد الجوية سوى فترة زمنية قصيرة لم تكـن تسـمح بتغيير معالم هذه المطارات، أو إنشـاء مطارات أخـرى غيرها، تكون مجهولة تمامًا للعدو المغير.

وقـد سـاعد الطيران الفرنـسي والإنجليزي عـلى إحداث عنصر المفاجـآت عام 1956 لسـلاح الجو المـصري، عملية التخدير السـياسي التي لعبتها السياسـة البريطانية، على عهد «إيـدن» بإحـكام ومهـارة، بحيث رسَّـبت عنـد القيادة المصرية على أعلى مسـتوى سـياسي وعسـكري في ذلـك الوقت، إحساسًـا قويًّا، باسـتبعاد قيـام الدولتين الشريكتـين، إنجلترا «إيدن»، وفرنسـا «جي موليه» بأي عمل مسلح لعرض وجهة نظرهما بالقوة في قضية تأميم القناة التي تفجر الصراع المسلح بسببها.

وكنتيجـة لهـذا الاطمئنان السـياسي، حدث نـوع من الاسـترخاء العسـكري امتد أثره بالضرورة إلى سـلاح الجو المـصري الذي لم تكن عنده أوامر بالدخـول في حرب أو احتمال

دخولها بسرعة..هذا هو ما حدث بالضبط في عام 1956، وبتخطيط سياسي وعسكري من العسكرية الأنجلو فرنسية... وكانت النتيجة ما نعرفه جميعًا، من إصابة سلاحنا الجوي بضربة قاصمة، وطائراته جاثمة على الأرض.

ماذا حدث في 5 يونية.. وبتخطيط وتنفيذ إسرائيلي بحت.. نفس الشيء تمامًا. ونفس الخطة نجدها كاملة، ونفس المسارين السياسي والعسكري بلا أدنى إضافة توحي بعبقرية، أو حتى بتجديد ذكي.

والدراسة المقارنة لكل من الضربتين اللتين وجهتا لسلاح الجو المصري في عام 1956، ثم في عام 1967 تؤكد أن الإسرائيليين لم يكونوا أكثر من تلامذة مجتهدين حفظوا الدرس الذي لقنه لهم أساتذتهم من قادة العسكرية البريطانية والفرنسية في عملية 1956 التي عرفت في المراجع العسكرية ومعاهد الدراسات الاستراتيجية باسم حرب أو عملية السويس.

وقد أعاد الإسرائيليون تنفيذ هذه العمليات الأنجلوفرنسية بحذافيرها.. وبلا أدنى محاولة للخلق أو الابتكار تخطيطًا أو تنفيذًا، مع فارق واحد بين العمليتين، هو أن طياري بريطانيا وفرنسا في عملية 1956 كان يملؤهم الغرور والثقة بالنفس، لأنهم الأجنحة الطائرة لدولتين من أكبر دول أوروبا الغربية من ناحية، ولأنهم يعرفون دقائق وتفاصيل المطارات المصرية التي يقصفونها، والتي كانت إلى عهد قريب، قواعد جوية بريطانية، حتى وقعت اتفاقية الجلاء في يونية عام 1954.

أما التلامذة الجدد «مردخاي» وطياروه فقد كانوا عند تنفيذ عمليتهم الهجومية، أو بمعنى أدق، عندما كانوا يعيدون تنفيذ نفس العملية في 5 يونية 1967 كانوا يدركون تمامًا، أن اللعبة أكبر بكثير من حجمهم، وأكبر بكثير من حجم إسرائيل ذاتها، وأن أي احتمال للفشل في إعادة تنفيذهم للخطة الأنجلو فرنسية يعني شيئًا رهيبًا بالنسبة للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية التي تتحكم في كل شيء في تل أبيب. وقد أخذوا أنفسهم بمنتهى الجدية في التدريب الشاق على تنفيذ العملية التي شاهدوا أساتذتهم ينفذونها عام 1956 واتَّبعوا نفس التخطيط السياسي والعسكري للتمهيد للعملية ثم تنفيذها.

ولعل المقارنة التالية التي تقوم على حقائق ثابتة لا يستطيع جنرال «هود» إنكارها تكشف للجميع حقيقة هذه الضربة التي طنطنت بها إسرائيل سنوات وسنوات... كما أن

هذه المقارنة المدعمة بالحقائق التاريخية الثابتة، ستفضح إلى الأبد، حقيقة المزاعم الخبيثة التي حاولت أن ترسب في وجدان الإنسان العربي، أكذوبة ضخمة اسمها عبقرية التخطيط العسكري الإسرائيلي، وهذه هي الأدلة:

1 - في 26 يولية عام 1956. أعلن المرحوم «جمال عبدالناصر» قراره بتأميم قناة السويس، وكان رد الفعل لدى حكومتي الدولتين صاحبتي المصلحة في عدم تنفيذ قرار التأمين عنيفًا، وعلى الفور بدأت الحكومتان البريطانية والفرنسية في «التشاور» لاتخاذ التدابير اللازمة لحفظ حقوق المساهمين في الشركة المؤممة، وكانت هذه التدابير اللازمة كما تكشَّف الأمر فيما بعد تعني التآمر في الخفاء والإعداد لعملية غزو مسلح للأراضي المصرية، يتم بمقتضاها احتلال قناة السويس، وإعادة الأمر إلى ما كان عليه قبل التأميم.

وحتى تتم إجراءات الإعداد العسكري لعملية الغزو المبيتة بدأت على الفور عملية تمويه سياسي في غاية الذكاء، وعلى الفور سعت الحكومتان إلى إنشاء ما سُمي وقتها بـ «جمعية المنتفعين بقناة السويس» وحضر إلى القاهرة «نزيس فرانس» رئيس وزراء أستراليا مبعوثًا لهذه الجمعية للتفاوض مع الحكومة المصرية في «الحلول السلمية» التي تكفل المحافظة على حقوق جميع الأطراف.

كانت تلك عملية تخدير سياسي متعمد، رُسمت بذكاء لاشك في حدته، لكي تؤدي إلى نتيجة واحدة لا بديل لها، وهي خلق نوع من الاطمئنان لدى القيادة السياسية المصرية بأن حكومتي بريطانيا وفرنسا، تفكران في اتخاذ الوسائل السياسية، وأنهما لم تحسما أمرهما على اللجوء لاستعمال القوة العسكرية، ومثل هذا الاطمئنان المؤقت من الناحية السياسية سينتقل تأثيره بالضرورة إلى الجانب العسكري، وسيؤدي إلى نوع من الاسترخاء بين القيادات العسكرية المسئولة عن إعداد القوات المصرية بجميع أسلحتها لعمليات عسكرية عاجلة. ومع وجود هذا الاسترخاء بين كبار القادة العسكريين، فإن من السهل على عدو يعد لعملية هجومية منذ زمن طويل أن يقوم بضربة مفاجئة تحدث رد فعل عنيفًا لاشك في تأثيره المدمر.

2 - ونفس المنهج اتبعته القيادة السياسية الإسرائيلية، وهي تمهد لعملية 5 يونية... فعقب

تفجر أزمة المضايق الشهيرة في مايو 1967، سارعت الحكومة الإسرائيلية بالتحرك الدبلوماسي على جميع الجبهات، وفي جميع العواصم، وكانت نغمتها واحدة لا تتغير.. إسرائيل في خطر.. والعرب وفي مقدمتهم مصر يستعدون لتدمير الدولة الصغيرة المسكينة.

وحتى في اللقاء الأخير الذي تم في واشنطن بين «أبا إيبان» وزير الخارجية الإسرائيلية وبين «ليندون جونسون» الرئيس الأمريكي وقتها كان الوزير الإسرائيلي يسير على نفس الدرب الذي سار عليه «إيدن» و«جي موليه» في عام 1956 من التظاهر بالرغبة في الوصول إلى حل سلمي عادل لقضية المضايق، ويؤكد أن إسرائيل لن تبدأ بالعدوان.. ما دفع بجونسون إلى نقل التأكيد الإسرائيلي إلى موسكو، ومن عاصمة الاتحاد السوفيتي طارت في نفس الليلة برقية عاجلة إلى القاهرة.. سارع السفير الروسي بإبلاغها في الفجر إلى جمال عبدالناصر... لن تكون إسرائيل هي البادئة بالعدوان.

ومن المؤسف أن القيادة المصرية صدقت هذا الوعد على المستوى السياسي ثم سرت عدوى التصديق والاسترخاء من المجال السياسي إلى المجال العسكري، وأحدثت أثرها الطبيعي الذي رتبت له إسرائيل، واستفادت منه عندما حلت ساعة الصفر.

والأمر هنا واضح لا يحتاج إلى تفسير أو حتى إلى تعليق.. لقد نقلت إسرائيل الجانب السياسي من عملية 1956. ونفذته بالحرف في التمويه السياسي لضربة 5 يونية 1967. مجرد تقليد حرفي من تلميذ لا يتمتع بأدنى قدر من العبقرية، لدرس سمعه من أستاذه، فحفظه عن ظهر قلب، وأعاد تقديمه.. بلا إضافة.. بلا ابتكار.. بلا إعجاز كما زعموا.

وعلى الجانب العسكري لكلتا العمليتين، نجد نفس التقليد الحرفي، يقوم به التلميذ الإسرائيلي «مردخاي هود» لخطة أساتذته من قادة الطيران الأنجلوفرنسي الذين خططوا لضرب سلاح الجو المصري في عملية 1956:

1 - في الساعة الخامسة من بعد ظهر الحادي والثلاثين من أكتوبر عام 1956 أقلعت الطائرات البريطانية والفرنسية المخصصة للعملية، من قواعدها محلقة شرقًا فوق البحر الأبيض المتوسط، وعندما وصلت إلى محاذاة وسط الدلتا انحرفت جنوبًا واخترقت المجال المصري في المنطقة الواقعة بين غرب بورسعيد، وشرق دمياط، وهي المنطقة التي تمثل بتكوينها الجغرافي، ثغرة طبيعية في حزام الأمن الذي تقيمه أجهزة

الإنذار المبكر.. بسبب بحيرة المنزلة التي تمتد شمال الدلتا وتغطي مساحة ضخمة لا يفصلها عن مياه البحر الأبيض سوى شريط ساحلي بالغ الضيق.

ومن هذا الممر الآمن، شقت الطائرات المغيرة طريقها في سماء مصر، لتصل بعد لحظات إلى قواعدنا الجوية المحدودة في ذلك الوقت في كل من منطقة القنال والدلتا والقاهرة، وهي قواعد ومطارات معروفة جيدًا للطيارين الذين تولوا تنفيذ العملية الهجومية حيث كانوا يقيمون بها قبل أن يرحلوا منها عقب تنفيذ اتفاقية الجلاء التي وقعت عام 1954.

في إطار هذه الملابسات والظروف العسكرية والسياسية المواتية، كان من المحتم أن تحدث الضربة المفاجئة أثرها الرهيب بالنسبة لسلاح الجو المصري، خصوصًا إذا تذكرنا ضآلة حجم ما كان متوافرًا لدينا من وسائل الدفاع الجوي الذي يتصدى لمثل هذه الضربات المفاجئة لإحباطها أو للتخفيف قدر المستطاع من آثارها التدميرية.

2 - وفي صباح 5 يونية 1967.. حدث نفس الشيء تمامًا، بلا زيادة أو نقصان... ونفذ «مردخاي هود» نفس الخطة بالحرف الواحد..من مختلف المطارات الإسرائيلية، أقلعت طائرات الموجة الأولى، متجهة غربًا فوق مياه البحر الأبيض وعندما وصلت إلى محاذاة الدلتا، انحرفت جنوبًا فوق نفس الثغرة في حزام الأمن المصري.. لتضرب المطارات والقواعد الجوية في منطقة القناة والدلتا، ثم في القاهرة.

وقد يثور هنا سؤال: إذا كان الإسرائيليون قد نفذوا في عام 1967 نفس العملية الهجومية التي قام بها الإنجليز والفرنسيون عام 1956.. فهل قاموا بهذا العمل بلا أدنى تجديد، سواء في تخطيط العملية أو تنفيذها؟

وللحقيقة والتاريخ والتزامًا بالموضوعية الكاملة التي التزمت بها منذ البداية أمام المواطن المصري والإنسان العربي بصفة عامة؛ فإنني أسجل هنا كطيار مقاتل يعرف أسرار المهنة ويجيد أسس التقييم العلمي للعمليات الجوية قتالية كانت أم هجومية الملاحظات الموضوعية التالية:

أولًا: إنني أنفي نفيًا قاطعًا، أي أثر للعبقرية أو الإعجاز العسكري، في عملية «طوق الحمامة» التي خطط لها «مردخاي هود» ونفذها طياروه صباح الإثنين الخامس من يونية عام 1967. فهي عملية تقليدية تمامًا ليس فيها أي ابتكار، أو خلق، ولكنها تجميع جيد

لجميع الأخطاء والقصور على الجانب المصري، واستفادة كاملة من الإمكانيات المتاحة لواضع الخطة والمشرف على تنفيذها.

ثانيًا: إنها تقليد حرفي سواء في التخطيط أو التنفيذ لخطة مماثلة سبق تنفيذها ضد نفس العدو سلاح الجو المصري وبنفس الأسلوب وفي نفس الظروف، وهي بهذا التقليد، عملية خالية من أي ابتكار أو تجديد.

ثالثًا: إن ما قد يبدو وللوهلة الأولى، وكأنه ابتكار أو إضافات خلاقة أضافها واضع النسخة الإسرائيلية من الخطة البريطانية الفرنسية لعملية ضرب الطيران المصري وهو جاثم على الأرض لا يخرج في حقيقته عن استفادة جيدة من ظروف مواتية، أو ابتكارات استحدثت في مجال الطيران الحربي، ولم تكن موجودة أثناء تنفيذ الأصل الأنجلوفرنسي للعملية عام 1956.

وهذه هي بعض الأمثلة الإضافية لمزيد من التوضيح:

1 - في 13 أكتوبر عام 1956، قامت الطائرات الأنجلوفرنسية بضرب المطارات المصرية بعد أن شقت طريقها في المجال المصري، وهي مقلعة على الارتفاعات التقليدية للطيران العسكري الذي يقوم بمثل هذه العمليات الهجومية، وهي نفس الارتفاعات التي كانت سائدة وقت تنفيذ الضربة.

وفي 5 يونية 1967، قام سلاح الجو الإسرائيلي باختراق المجال الجوي المصري من نفس الثغرة الموجودة في حزام الأمان المصري، ولكن على ارتفاعات منخفضة، وطنطنت الدعايات الإسرائيلية بأن هذا الطيران المنخفض أثناء تنفيذ العملية كان معجزة من معجزات العقل الإسرائيلي في المجال العسكري تخطيطًا وتنفيذًا، ونشر مروجو هذه الدعاية الكاذبة أو لعلهم تناسوا حقيقتين مهمتين، تنفيان تمامًا أي أثر للعبقرية في هذا العمل التقليدي البحت:

الحقيقة الأولى: أن السنوات الإحدى عشرة التي تفصل بين عملية 1956 الأنجلوفرنسية والنسخة الإسرائيلية المكررة لنفس الضربة عام 1967، هذه السنوات الطويلة، حدث فيها تطور هائل في مجال الطيران العسكري، واستحدثت خلالها ابتكارات شبه أسطورية في تصميم وبناء الطائرة الحربية وأعطتها إمكانيات هائلة،

وقدرات قتالية لم تكن تخطر على بال أحد.. وأبسط هذه الإمكانيات قدرة الطيار المقاتل على التحكم في طائرته وهو يُحلق على ارتفاعات بالغة الانخفاض، وهو آمن تمامًا من أي مفاجـآت، لأنه يطير في حماية أجهزة إلكترونيـة معاونة، تيسر له التحكم في طائرته على أي ارتفـاع وتحـاشي الاصطدام بأي نتوءات تصادفه أثنـاء طيرانه المنخفض، وكأجهزة الإنذار الموجودة بالطائرة والتي تنبه الطيار إلى وجود خطر يلاحقه أو يهدده.

الحقيقــة الثانية: أن التطور الذي لحق طوال السـنوات التي تفصل بين العمليتين الأصل الأنجلوفرنسي والتقليد الإسرائيلي استحدث في مجال الإنذار المبكر، خاصة في أجهزة الكشف الراداري، ابتكارات متلاحقة، جعلت من هذه الأجهزة خطرًا ساحقًا يهدد الطائرات المغيرة، بحيث لا تكون هناك فرصة للطيار المقاتل لكي يفلت من هذه الأجهزة إلا بالاسـتفادة من الفرصة الوحيدة، المتاحة أمامه، وذلك باستغلال قدرات طائرته على المناورة والطيران المنخفض.

مـن هاتين الحقيقتين، يتضح لنا أن اتخاذ أسـلوب الطـيران المنخفض الذي لجأ له طيارو إسرائيـل في 5 يونيـة، ليس دليـلًا على عبقرية فـترة في التخطيط أو التنفيذ، بل هو اسـتفادة من إمكانيات أتيحت لهم وقت تنفيذهم لعملية خططها أسـاتذتهم الإنجليز والفرنسـيون، ولم تكـن متاحـة مـن قبـل.. بل هو رضـوخ حتمي اضطـروا إليـه، ولكي ينجوا بأنفسـهم وبطائراتهـم مـن الوقوع في مصيدة الكشـف الراداري الذي يرسـل نبضاتـه المتلصصة على ارتفاعات عالية، ومن ثم اضطروا للطيران المنخفض في المستوى الذي يعرفون أن مصر لا تملك أجهزة الكشف الراداري القادرة على اكتشافهم فيه.

2 - مثال آخر ينفي عن إضافة إسرائيلية للخطة الأنجلوفرنسـية صفة الابتكار والتجديد، فضلًا عن العبقريــة أو الإعجاز العسكري.. وهو ما قيـل ونشر عقب ضربة 5 يونية من دقة تصويب للطيارين الإسرائيليين على الأهداف المصرية بحيث نجحوا في تدمير الجزء الأكبر من سلاح الطيران المصري، وهو جاثم على الأرض.. وقد أرجعت أبواق الدعاية وأجهزة الحرب النفسية المعادية هذه الدقة في التصويب إلى ما أسمته «بالقدرة الأسـطورية للطيار الإسرائيـلي على تحديد هدفـه والمناورة الثعبانيـة للوصول إلى هذا الهدف مهما كانت العوائق التي يضعها الخصم في طريقه».

وتجاهلت هذه الدعايات أن ما أبداه طيارو «مردخاي هود» من دقة تنفيذهم لعملية الحمامة إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى تزويد طائراتهم بأجهزة مستحدثة للإنذار بالخطر الذي يحدق بالطائرة أو يتهددها وأجهزة تحكم بالغة الحداثة وأخرى لإحكام التصويب والإطلاق على الهدف بطريقة لا فضل للطيار فيها تقريبًا.

وبدلًا من أن تعترف أجهزة الدعاية الإسرائيلية بكل هذه الحقائق المعروفة، عمدت إلى التفاخر بأن ما حدث يوم 5 يونية، إنما يرجع إلى ما أسمته «بالقدرة الأسطورية للطيار الإسرائيلي على تحديد هدفه.. إلخ».

ولا شك في أن هذه العبارة التي صُنعت بمهارة شديدة، توحي بوصف لبطل أسطوري، يفوق في قدراته الخرافية أبطال الأساطير الشعبية، وحكايات ألف ليلة الشهيرة.. ولكننا لو وضعناها على مائدة التشريح العلمي القائم على حقائق ثابتة لا يستطيع العدو نفسه إنكارها، لوجدناها، مجرد خيال جميل.. ولكننا نرفضها رفضًا قاطعًا، ونحن في مجال التقييم العلمي لعملية عسكرية، تخضع لقواعد وأسس التخطيط المتعارف عليها.. وهذا الرفض لا يصدر عندنا عن تحيز قوي ضد الطيار الإسرائيلي كخصم نحاربه.. ولكنه رفض تمليه مجموعة من الحقائق حاول العدو إخفاءها أو التهوين من أثرها؛ لكي يستمر في مباهاته بقدرات طياريه، والارتفاع بهم بلا وجه حق فوق مستواهم الحقيقي كطيارين مدربين، ولكنهم ليسوا بأية حال عباقرة أو معجزة في مجال الطيران الحربي.

إن أبرز الحقائق التي سعت عمليات الدعاية الإسرائيلية إلى إخفائها في ذلك الوقت عديدة، ومنها:

1 - أن أجهزة ووسائل الدفاع الجوي الثابتة التي كانت تملكها مصر وقت الضربة كانت من القصور، بحيث أعطت للطائرات المغيرة خاصة طائرات الموجة الأولى التي قامت بضرب المطارات المصرية في التاسعة إلا الربع من صباح الإثنين 5 يونية حرية في الحركة، لم تكن لتتاح لهذه الطائرات، لو أن المطارات والقواعد الجوية المصرية التي لم تكن تزيد وقت الضربة على بضعة عشر مطارًا كانت تملك القدر الكافي من وسائل الدفاع المضاد للطائرات، خاصة الأنواع الحديثة منها.

وعلى سبيل المثال، فقد كان أحدث سلاح تملكه مصر من أسلحة الدفاع في ذلك

الوقت ضد الطيران المهاجم، هو الصاروخ «سام 2: أرض جو»، وهو رغم قدرته التدميرية، كان عاجزًا عن حماية الطائرات المصرية الجاثمة على الأرض وقت تنفيذ العملية، لسبب بسيط، وهو أنه لا يعمل عمله المؤثر إلا ضد الطائرات المحلقة على ارتفاعات عالية، أما الطائرات الحديثة القادرة على التحليق على ارتفاعات منخفضة كطائرة «الميراج/ 3 الفرنسية» التي استخدمتها إسرائيل في الموجة الأولى لعملية 5 يونية فإن الصاروخ «سام 2» يقف عاجزًا تمامًا عن إصابتها، لأنها تطير على ارتفاع منخفض خارج قدرته التدميرية في الارتفاعات العالية.

ومن القواعد المعروفة في مجال الحرب الجوية أن الطيار الذي يهاجم وهو مطمئن إلى ابتعاده عن مجال الدفاعات الأرضية للعدو من صواريخ أو مدفعية مضادة تقليدية مع معرفته المسبقة بأن الدفاعات المتحركة من طائرات اعتراضية أو مقاتلة تجثم على الأرض، يتجه إلى هدفه وهو في أقصى حالات سيطرته على أعصابه، وبالتالي فلا عذر له إن لم يحسن التصويب على الأهداف المطلوب قصفها، خصوصًا إذا كان هذا التصويب يتم آليًا بواسطة أجهزة حديثة بالغة الدقة زودت بها الطائرة التي يقودها..ومثل هذا الطيار عندما يصيب هدفه، قد يُوصف بأنه طيار مدرب أو حتى جيد التدريب لكن وصفه بالإعجاز والعبقرية نوع من المبالغة.

2 - مثال آخر يؤكد أن ارتفاع نسبة الخسائر التي أصيب بها سلاح الجو المصري في 5 يونية 1967 خاصة في الطائرات التي ضربت على الأرض لا يرجع إلى قدرات خارقة للطيارين الإسرائيليين، وأن سببه الفعلي حقائق وأخطاء كانت موجودة على الجانب المصري، واستفاد منها العدو المهاجم ببساطة، ثم حاول إخفاءها، لكي يضفي على طياريه قدرات أسطورية.

مثال ذلك أن الأغلبية الساحقة من الطائرات المصرية، كانت ترقد على أرض مطاراتنا وقواعدنا الجوية.. في العراء.. مكشوفة تمامًا، كهدف ظاهر للعين المجردة حتى على ارتفاعات عالية، فضلًا عن طائرات معادية اتخذت في هجومها تكتيك التحليق على ارتفاعات منخفضة... وترك الطائرة الحربية مكشوفة ومتراصة على أرض المطار، بلا غطاء يحميها، بل وبلا تمويه فعال، يضلل الطيار المغير عن حقيقتها، غلطة قاتلة وقعت فيها القيادات المصرية عام 1967، ودفع ثمنها سلاح الجو المصري غاليًا.

ولو أن هذه الطائرات كانت ترقد بمحركاتها الساكنة داخل دشم حديثة مجهزة قوية البنيان، لتغيرت الصورة عما حدث صبيحة 5 يونية، ولعادت طائرة الموجة الأولى للهجوم الجوي الإسرائيلي، دون أن تحقق عُشر ما حققته من نتائج تدميرية، ضد طائرات تُركت في العراء، صيدًا ثمينًا وسهلًا، بلا غطاء يحميها شر التدمير وهي جاثمة على الأرض بلا حراك.

ولو أن هذا حدث فعلًا، وكانت هناك الدشم القوية ووسائل الدفاع القادرة على حماية طائراتنا من هول الضربة الأولى، لنجت الأغلبية الساحقة من طائراتنا الحربية، وهو أمر كان سيغير نتيجة العمليات العسكرية كلها، تغييرًا جذريًّا؛ لأن العدو الذي ينجح في امتصاص الضربة الأولى دون أن يفقد توازنه، أو يفقد سيطرته على قواته، وقدرته على تحريك هذه القوات بأعصاب ثابتة وفكر هادئ متزن، يكون أقدر على توجيه الضربة المضادة المميتة، التي تنجح في تكبيد العدو خسائر أفدح بكثير مما تكبد هو في الضربة الأولى التي نجح في امتصاصها ونجح في النجاة من رد فعلها العنيف وتأثيره على الروح المعنوية لقواته، وهو تأثير قد يكون أعنف من التأثير التدميري للضربة ذاتها.

وإذا عرفنا أن طائرات سلاح الجوي المصري كانت يوم 5 يونية مكشوفة في العراء تمامًا للطيار الإسرائيلي المهاجم على ارتفاعات منخفضة، وهو آمن من قدرة الصاروخ «سام 2» على التعامل معه، مع التسليم بأثر المفاجأة ذاتها على أطقم الدفاعات الأرضية بوجه عام، وعلى القيادات المصرية على أعلى مستوى وكل هذه حقائق ثابتة لا يستطيع العدو الإسرائيلي أن ينكرها فهل يُوصف مثل هذا الطيار الذي يهاجم في هذه الظروف المواتية تمامًا، بأنه طيار عبقري ومعجزة، عندما ينجح في إصابة أهداف مكشوفة، بلا حماية ذات فعالية من الدفاعات الأرضية.

3 - حقيقة ثالثة لا أظن أن كثيرين يعرفونها، رغم أنها ثابتة في ملفات سلاح الطيران الملكي البريطاني، وهي أن «عيزرا وايزمان» ثالث الجنرالات الإسرائيليين الذين تولوا قيادة سلاح الطيران الإسرائيلي بعد «أهارون ريمز» و«دان تولكوفسكي» عمل أثناء الحرب العالمية الثانية وقبيل قيام إسرائيل كدولة، كواحد من رجال سلاح الطيران الملكي البريطاني في القواعد الجوية التي كانت تحتلها القوات البريطانية في منطقة قناة السويس.

وحتى لا تسارع المؤسسة العسكرية في تل أبيب بالإنكار كعادتها وخاصة عندما تواجه بكشف حقيقة مؤلمة كانت تحرص على بقائها فى حيز الكتمان فإنني أحدد آخر مطار خدم به «الجنرال الإسرائيلي وايزمان» على الأرض المصرية أثناء خدمته بسلاح الطيران البريطاني وهو مطار «فايد». والحكم بيننا هو سجلات الخدمة بسلاح الجو الملكي في لندن.. وبالتالي كان يعرف هذه المطارات التي خدم بها وآخرها مطار فايد حق معرفة، ويعرف تفاصيل المنشآت بكل مطار خدم به.

ومثل هذه الحقيقة الرهيبة، حين نزنها بوزنها الصحيح في مجال التأثير على موقع الصراع على السيادة الجوية في المنطقة بين سلاحنا الجوي المصري، وسلاح إسرائيل الجوي، ستعطينا التفسير المنطقي، والسبب الحقيقي، لدقة الطيار الإسرائيلي في إصابة الأهداف المصرية من طائرات جاثمة على أرض المطارات، أو منشآت المطار وأبنيته المعاونة نفسها.

لقد طنطنت أجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية «عقب 5 يونية» بأن سلاح الجو الإسرائيلي كان قد بنى نماذج مجسمة لتفاصيل ومنشآت المطارات المصرية، وقام الطيارون الإسرائيليون بالتدريب المتواصل على مهاجمتها وقصفها على ارتفاعات متباينة بين الارتفاع والانخفاض، وفي أوقات مختلفة تتراوح بين ضوء الظهيرة الساطع، ومنتصف الليل بظلامه الدامس.

ووصل الغرور ببعض من كتبوا عن ضربة 5 يونية من أبواق الدعاية إلى حد القول بأن الطيار الإسرائيلي لكثرة ما تدرب على قصف نماذج المطارات المصرية، أصبح يعرف تفاصيلها كاملة، وبحيث كان بوسعه صباح 5 يونية أن يؤدي عمله على أكمل وجه حتى وهو معصوب العينين.. وقد أرجعت دعايات إسرائيل هذا إلى مهارة طياري الاستطلاع الإسرائيليين الذين تمكنوا من التقاط صورة كاملة للمطارات المصرية من ناحية كما أرجعوها إلى نبوغ مخابراتهم العسكرية التي أكملت باقي المهمة بوسائلها الخرافية من ناحية أخرى.

ونسي هؤلاء جميعًا أو تناسوا الحقيقة الرهيبة، التي لم تعطها قياداتنا المصرية قبل 1967 حقها من الاهتمام.. الخاصة بسابق خدمة «عيزرا وايزمان» قائد الطيران الإسرائيلي من 28 يولية عام 1958، إلى إبريل عام 1966 في مطار «فايد». لقد حمل «وايزمان» معه عند ذهابه لإسرائيل كل ما استطاع حمله من رسوم وخرائط تفصيلية لمنشآت وتجهيزات المطارات الواقعة في المنطقة كلها.

وأخطر من هذا، أن «وايزمان» بالذات تولى قيادة سلاح الجو الإسرائيلي في أخطر سنوات تكوينه الحقيقي، الذي انتقل هذا السلاح خلالها بالفعل من عصر الطائرات المروحية والطائرات ذات السرعة نصف الصوتية إلى عصر الطائرات النفاثة ذات السرعة فوق الصوتية، وأنه لم يترك قيادة سلاح الطيران إلا في عام 1966، ليتولى منصب رئيس عمليات الجيش الإسرائيلي، بعد أن ترك إكمال باقي المهمة التي أعد كل شيء لتنفيذها لتلميذه وخليفته في قيادة هذا السلاح الجنرال «مردخاي هود».

فإذا عرفنا أن المطارات والقواعد الجوية التي تسلمها الطيران المصري من سلاح الطيران البريطاني، بعد جلاء الإنجليز من مصر طبقًا لاتفاقية عام 1954، كانت تمثل أكثر من ثمانين في المائة من المطارات المصرية التي ضربت صباح 5 يونية عام 1967، وأن هذه المطارات التي عمل بها الجنرال «وايزمان» ظلت كما هي منذ تركها. ولم تُفكر القيادة المصرية مع بالغ الأسف في مجرد تغيير معالمها، حتى بعد أن ثبت من العملية الأنجلو فرنسية عام 1956 أن هذه المطارات بكل تفاصيلها ومنشآتها ليست سرًّا حربيًّا قوميًّا.. وأن هناك دولة أجنبية واحدة على الأقل هي إنجلترا تعرف كل أسرار هذه المطارات.

بقيت نقطتان لابد من الإشارة إليهما، لكي نستكمل تحليلنا العلمي لحقيقة ما حدث صباح الإثنين 5 يونية عام 1967، ورده إلى حجمه الطبيعي في مجال التخطيط والتنفيذ:

النقطة الأولى: تتمثل في ظاهرة لفتت الأنظار في ذلك اليوم المشئوم وكانت مثار الكلام كثيرًا في كل ما كُتب عن «حرب الأيام الستة» كما سُميت عمليات 1967..وهي تتابع موجات الهجوم الجوي الإسرائيلي على المطارات المصرية، من الثامنة إلا الربع بتوقيت إسرائيل حين وصلت طائرات الموجة الأولى فوق مطاراتنا، وبدأت في قصفها إلى أن رفع «مردخاي هود» سماعة التليفون، في مكتبه برئاسة عمليات السلاح الجوي الإسرائيلي، لكي يقول لإسحاق رابين رئيس أركان جيش إسرائيل عام 1967 «لقد تمت المهمة... لم يعد الطيران المصري قادرًا على القيام بأي عمل».

ثم يستطرد «هود» وقد أصابه النجاح الذي حققه بأبخس الأثمان، بأعلى درجات الغرور والاستخفاف بعدوه.. فيقول ساخرًا: «سأترك فرصة لتحليق ما تبقى من الطائرات المصرية، للاستهزاء بطياريها».. كان هذا التمام الذي قام بإبلاغه «مردخاي هود» لرئيس الأركان الإسرائيلي في الساعة العاشرة والنصف من صباح نفس اليوم، الخامس من يونية.

إذا رجعنـا إلى تقاريـر عمليـات الطـيران والدفاعـات الجويـة عـلى الجانبـين، المـصري والإسرائيلي في ذلك الوقت، فسنجد أن هذه المساحة الزمنية البالغة القصر والتي لا تتجاوز خمسًا وستين ومائة دقيقة قد تخللتها موجات متتابعة من الهجمات الإسرائيلية فوق الأهداف الحيوية لسـلاح الجو المصري من طائرات ومطارات ومنشـآت معاونة، وأن هذا التتابع في موجات الهجوم لم ينقطع لأكثر من عشر دقائق إلى ربع الساعة على الأكثر بين هجمة وأخرى في بعض الحالات، وأن بعض المطارات المهمة خاصة المطارات المتقدمة، أو القواعد الجوية لأنواع ذات تأثير اسـتراتيجي من الطائرات المصرية قد تعرضت لموجات هجومية وصلت في بعـض الحالات إلى عشر موجـات متوالية، بينما هبطت موجات الهجوم بالنسـبة لبعض المطارات ذات الأهمية الثانوية من وجهة نظر العدد إلى موجة أو موجتين فقط.

بهذا نجد أن جموع الموجات الهجومية التي قام بها الطيران الإسرائيلي في ذلك اليوم تصل إلى عدد يلفت النظر، ويسـتحق الوقوف عنده بالتسـاؤل..هل كان هذا التتابع والاستمرار في موجات هذه العملية الهجومية راجعًا إلى عبقرية فذة في التخطيط، أم أن هناك سـببًا آخر لهذا التتابع المنتظم في موجات الهجوم، من بدء العملية إلى نهايتها، وأن هذا السبب لا صلة له من قريب أو من بعيد بعبقرية التخطيط، أو الإعجاز في التنفيذ؟

إجابتي عن هذا السـؤال، سـتتجه منذ البدايـة إلى حقيقة لا سـبيل إلى إنكارها... وهي استنطاق «الأرقام» التي لا تعرف الكذب أو الخداع أو التضليل.

الأرقـام تقـول: إن الجنـرال الإسرائيلي «مردخاي هـود» كان تحت تصرفـه، وهو يضع اللمسات الأخيرة للعمليات الهجومية ثلاثمائة وخمس طائرات حربية، ما بين قاذفة، ومقاتلة قاذفة، وطائرات اعتراضية، تصلح للقيام بمهام العمليات الهجومية المطلوب تنفيذها.

وإذا كانـت المطـارات المصريـة المطلوب قصفهـا في ذلك اليوم تتراوح مـن حيث البعد والقـرب عن قواعد الطائرات الإسرائيلية المكلفة بتنفيذ العملية، كما تتراوح هذه المطارات أيضًـا، مـن حيث أهميتهـا أو عدم أهميتها مـن وجهة نظر الجنـرال «هود» فإن لغـة الأرقام التـي لا تعـرف الكذب تقول: إنـه كان يملك يوم 5 يونية، اثنتين وسـبعين طائرة من طراز «ميراج/ 3» المقاتلة الاعتراضية حاملة الصواريخ «جو أرض» و«جو جو» وأربعين مقاتلة قاذفة من طراز «أوراجان» وأربعًا وعشرين مقاتلة من طراز «وتور» وأربعًا وعشرين مقاتلة

من طراز «سوبر/ مستير» وأربعين مقاتلة من طراز «مستير/ 4»، بالإضافة إلى ستين طائرة من طراز «فوجا/ ماستير» تم تسليمها واستخدامها في نفس العملية.

كما أن المطارات المصرية التي تعرضت للقصف في هذه العملية هي على وجه التحديد، وبترتيب قُربها أو بُعدها بالنسبة لقواعد إقلاع الطائرات المهاجمة: مطارات العريش، وبير تمادة والمليز، والسر، وفايد، وكبريت، وأبوصوير، ثم أنشاص، وألماظة، وغرب القاهرة، ثم المنصورة ثم بني سويف، فالأقصر وأخيرًا مطار الغردقة تقريبًا.

وبمقارنة عدد المطارات المطلوب قصفها في عملية «طوق الحمامة» بعدد الطائرات المتاحة وخاصة الطائرات ذات السرعة فوق الصوتية فإن الأمر يخرج تمامًا من نطاق العبقرية أو الإعجاز، ليتحول إلى نتاج طبيعي لشيء اسمه التدريب الجيد، سواء بالنسبة للطيار المقاتل، أو للأجهزة الأرضية المعاونة له، كأطقم الصيانة التي تتولى الكشف الدقيق السريع على الطائرة بين الطلعة والطلعة، والإسراع بإصلاح ما يكون قد لحق بها من أعطال، وأطقم التموين بالوقود، والإمداد بالذخيرة، التي يتوقف على نجاحها أو فشلها في تحقيق سرعات قياسية لتحقيق مهامها المعاونة نجاح أو فشل الطيار في تحقيق العدد المطلوب من الطلعات المتتالية، وهو أمر يعرفه الطيار العادي سواء أكان طيارًا مدنيًّا أم مقاتلًا، فضلًا عن خبراء وأساتذة التخطيط الجوي في كل المعاهد الاستراتيجية العالمية.

هؤلاء جميعًا، يجمعون باستثناء أبواق الدعاية على أن تتابع الموجات في أية عملية جوية هجومية لا صلة له على الإطلاق بالعبقرية أو الإعجاز العسكري، ولكنه يتوقف أولًا وأخيرًا على مجموعة من العوامل، هي على وجه التحديد:

أولًا: العدد المتاح من الطائرات المخصصة للعملية الهجومية، مُقارنًا بعدد المطارات المطلوب قصفها.

وفي هذه الناحية نجد أن عدد المطارات المصرية التي تعرضت للهجوم باستثناء مطاري الأقصر والغردقة اللذين تأخر قصفهما حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ثلاثة عشر مطارًا، بينما يرتفع عدد الطائرات المخصصة للهجوم إلى رقم يزيد على الثلاثمائة طائرة طبقًا للأرقام المعلنة.. هذا مع استبعاد طائرات الهليكوبتر، وطائرات الإمداد والنقل.

ثانيًا: بُعد أو قُرب المطارات المطلوب قصفها، عن قواعد إقلاع الطائرات المغيرة مُقارنًا

بالسرعات المتباينة التي تتمتع بها هذه الطائرات، وكبر أو صغر حجم كل مطار، وما يتطلبه من كم معين من القذائف اللازمة لتدميره.

وبالنسبة لهذا العامل البالغ الحيوية في تنفيذ العمليات الهجومية، نجد أن معظم المطارات المصرية المطلوب قصفها طبقًا لخطة «مردخاي هود» تقع على مقربة من قواعد إقلاع طائراته المغيرة، مثل مطارات المليز، وبير تمادة، وفايد، وكبريت، وأبوصوير، بل إن بعض هذه المطارات كمطار العريش لم يكن يبعد عن قواعد إقلاع الطائرات المهاجمة بأكثر من بضعة كيلو مترات، وأكثر هذه المطارات بعدًا كمطاري المنصورة وبني سويف لم يكن يستغرق في الوصول إليه أكثر من بضع عشرة دقيقة، خاصة بالنسبة للطائرات ذات السرعة فوق الصوتية كطائرة «الميراج/ 3».

ثالثًا: قصر أو طول الفترة الزمنية التي تستغرقها الأجهزة المعاونة من صيانة وإمداد وتموين في إعداد الطائرة، بين كل طلعة وأخرى، واختزال هذه الفترة الزمنية إلى أضيق حيز ممكن، لا صلة له أبدًا بالعبقرية أو الإعجاز؛ لأن العمليات المعاونة كما هو معروف تعتمد على مهارات معينة تكتسبها الأطقم المكلفة بها، عن طريق الممارسة المستمرة، والتدريب المتواصل، فضلًا عن استخدام الوسائل الآلية والإلكترونية الحديثة في هذه العمليات.

والزعم بأن تشغيل أجهزة الإمداد والمعاونة الأرضية للطائرة، قبيل إقلاعها، يحتاج إلى عبقرية، قول ساذج يدعو للسخرية، أو هو مغالطة جريئة ومعتمدة لتحقيق أغراض تدميرية في نفس العدو.

رابعًا: التدريب الجيد، الذي يحصل عليه الطيار المقاتل، لكي يستوعب كل الإمكانيات المتاحة، التي تُوفرها له الطائرة التي يعمل عليها، بحيث يستطيع وقت اللزوم، أن يستفيد من كل ما لديه من إمكانيات وقت قيامه بتنفيذ المهام القتالية أو الهجومية التي يُكلف بها.

باستعراض العوامل الأربعة، المؤثرة في عدد وتتابع موجات الهجوم الجوي، نجد أنها جميعًا كانت في صالح الجنرال «مردخاي هود» وطياريه الذين قاموا بتنفيذ عملية «طوق الحمامة» ويتكشف لنا بالتالي من واقع الحقائق المادية التي لا سبيل لإنكارها، ومن واقع الأرقام التي لا تعرف الكذب أو المجاملة- أن نجاح سلاح الطيران الإسرائيلي، في القيام بهذا العدد من الموجات الهجومية المتتابعة، على مطاراتنا يوم 5 يونيو لم يكن معجزة ولا

إعجازًا، بل هو نتاج طبيعي لإمكانيات متاحة على الجانب الإسرائيلي، مضافًا إليها محصلة أخطاء على الجانب المصري.

والنقطة الأخيرة التي نختتم بها تحليلنا لما حدث صباح 5 يونية 1967، هي تأخر قياداتنا المصرية في ذلك الوقت في امتصاص الضربة الأولى، والتغلب على رد فعلها العنيف، سواء بين الأفراد في المواقع القتالية، أو بين القيادات في مراكز القيادة والسيطرة، ثم هذا الارتباك الواضح في تصرفات القيادة المصرية، وأكاد أقول الشلل التام الذي أصابها من هول المفاجأة، وما أدى إليه كل هذا، من عجز هذه القيادة عن استعادة ثقتها بنفسها، وثقتها في القدرة على عمل شيء تعيد به تصحيح الموقف العسكري المختل، وتستعيد به سيطرتها على ما بقي لديها من إمكانيات السلاح الجوي المصري، الذي أصيب في ذلك الصباح المشئوم بضربة عنيفة، هو بريء تمامًا منها، ومما سبقها من مقدمات أدت إلى وقوعها ونتائج ترتبت عليها وأدت إلى تغيير حاد في مجرى الأمور على مسرح العمليات العسكرية بصفة عامة.

والسؤال المطروح الآن، هو ببساطة.. لماذا حدث كل هذا الذي جرى صباح الإثنين الخامس من يونية عام 1967 سواء على الجانب الإسرائيلي، أو على الجانب المصري؟

الجانب الإسرائيلي أوفيناه حقه من التحليل العلمي، الذي يرد كل ظاهرة إلى مسبباتها الحقيقية، بدون استسلام للأساطير. كذلك حرصنا في تحليلنا للأصول والمنابع التي استقى منها الجنرال «مردخاي هود» خطته الهجومية بخطوطها العريضة وتفاصيلها الدقيقة على السواء، أن نبتعد تمامًا عن الوقوع في مصيدة الغرور، الذي كان من الممكن أن يصيبنا بعد النجاح الساحق الذي حققه سلاح الجو المصري في حرب أكتوبر المجيدة، بدءًا من الضربة المصرية القاصمة «صِدام» التي وجهناها للعدو ظهر السادس من أكتوبر، وطوال العمليات التي امتدت أيام القتال.

أمر آخر حرصنا عليه في تحليلنا، وهو عدم الاستسلام لإغراءات التحيز الأعمى، أو التعصب القومي، ضد خصم يتغذى مقاتلوه من عصارة نظرية متخلفة تقوم على التعصب الممقوت للجنس، وتؤمن بتفوق قلة قليلة من البشر، على من عداها من عباد الله جميعًا.

وقد التزمنا بكل موضوعية في منهجنا هذا ونحن نحلل ما حدث على الجانب المعادي لضربة 5 يونية، قبل أن ننطلق لتحليل ودراسة ما حدث يوم 6 أكتوبر وما بعده من أيام

مجيدة في تاريخ العسكرية المصرية خاصة، والتاريخ العسكري لأمة العرب بصفة عامة لأننا نؤمن أولًا: بأنه لا يصح إلا الصحيح وبأن التضليل والخداع قصير العمر دائمًا، ومصير المخادع والمضلل إلى الافتضاح في النهاية. ونحن نؤمن ثانيًا بأن هذا الشعب المصري ومن ورائه أمته العربية قاطبة من حقه أن يعرف كل شيء.. ما حدث من العدو من نواحي التفوق أو القصور وما حدث عندنا كذلك انطلاقًا من معرفة الحقيقة العارية، إلى تعميق أسباب التفوق والامتياز وتأصيل جذورها في أرض الواقع المصري والعربي، وتلافيًا لأسباب العجز والقصور، واقتلاعًا لجذورها من حياتنا إلى الأبد.

ومن هنا.. وشعورًا مني بخطورة الشق الثاني من السؤال الذي تتطلب الإجابة عنه، معرفة ما حدث على الجانب المصري - صباح 5 يونية 1967 - وهل كان - كما زعمت الدعايات - بسبب عجز الإنسان المصري وقصور العقل العربي عمومًا عن مجاراة خصمه الإسرائيلي في مجالات التخطيط والتنفيذ العسكري.. وأن هذا العجز المزعوم، قدر مؤبد لا فكاك منه، وعلى المواطن المصري، وشقيقه العربي بصفة عامة، أن يستسلما له استسلام الإنسان لقدره المحتوم؟

أم أن ما وقع على الجانب المصري في ذلك اليوم كان نتاجًا طبيعيًّا لأخطاء البشر وتقصير القيادات، ولا دخل للقدر المؤبد، أو المصير المحتوم، في نسج خيوط هذه الهزيمة البغيضة التي ألقت بظلالها السوداء في حياة أمتنا بشكل مفاجئ، كان من الممكن أن يؤدي إلى نتائج بالغة الخطر على الوجود العربي كله في المنطقة، لولا ما أثبته الإنسان المصري - في قمة أيام المحنة - من صلابة معجزة، وصمود أسطوري، وقف أمامه كبار المحللين السياسيين والعسكريين في العالم، وهم في حالة ذهول تام وعجز كامل عن فهم هذا الإنسان المصري الأسطورة.

إن واجب الأمانة والحياد العلميين - اللذين التزمنا بهما منذ البداية- يحتم علينا الآن أن نفرد فصلًا خاصًّا للإجابة عن السؤال، ورد ما وقع على الجانب المصري - يوم 5 يونية - إلى أسبابه الموضوعية الكاملة.. وهل كانت هذه الأسباب في حقيقتها قصورًا قدريًّا محتومًا، أم تقصيرًا بشريًّا مرحليًّا؟

”... إن الصواريخ والقنابل الإسرائيلية لـم تـدمر فقط طائراتنـا، بل دمرت وأحرقـت أيضًا كل ما يعوق سـلاحنا الجـوي من فكـرٍ عسـكري متخلف وأخطـاء في التخطيـط وإهمال في التنفيذ.. “

أبطال في بحر الأخطاء

نحن أمام سؤال واضح محدد: هل وقع ما وقع في 5 يونية على الجانب المصري بسبب القصور أم بسبب التقصير؟ هل يعود إلى قصور في العقل المصري خصوصًا والعربي عمومًا، كما روجت الدعاية الإسرائيلية.. أم إلى التقصير الذي تسببت فيه قيادتنا؟

ورغم ما في الإجابة عن هذا السؤال من مرارة على الناس، فإن واجبنا أمام الحقيقة، وواجبنا أمام المواطن المصري الذي صمد في شجاعة أسطورية، سواء للضربة أو لمتابعات الحرب النفسية الشرسة التي أعقبتها، وواجبنا أمام شجاعة الرجال من مقاتلي الأمة العربية، الذين لا ذنب لهم في الواقع في كل ما حدث، ثم.. واجبنا نحو الأجيال القادمة، والتي ستتحمل مسئولية وشرف الدفاع عن سلام الحضارة العربية في المنطقة، كل هذا يلزمنا بأن نقول كل شيء، وأن نكشف الحقيقة - مهما كانت قسوتها.. لأنها في النهاية - ولله الحمد سبحانه - لا تداين المواطن المصري، ولا تلحق بالإنسان العربي - عارًا - نقيصة العجز، أو عارًا لقصور، بقدر ما تكشف خطأ من وقعوا في الخطأ، وتعلن عن تقصير من قصروا في واجباتٍ، لو أنهم التزموا بأدائها على الوجه الأكمل، لسحبوا البساط من تحت أقدام العدو، ولتغيرت الصورة عام 1967، عما وصلت إليه تغييرًا جذريًّا.

منذ البداية، نقولها صريحة وبشكل قاطع، إن ما حدث على الجانب المصري يوم 5 يونية

وما تلاه - من هزائم سريعة، بدأت بضرب سلاح الجو المصري وانتهت بقبول وقف إطلاق النار يوم 9 يونية، بعد انسحاب غير منظم للقوات البرية من سيناء... كل هذا العناء الذي عشناه وقاسينا منه أيامًا طويلة، سببه الأول والأخير تقصير بعض القيادات.

ولـن نستشـهد على صحـة هذا الحكم القاطع، بـما حدث في حرب أكتوبر، منذ إشـعال شرارتهـا الأولى بضربـة الطـيران المصري السـاخنة للعدو، في السـاعة الثانية مـن بعد ظهر السادس من أكتوبر، وحتى نهاية العمليات... وما أثبتته هذه الحرب - بشهادة أعظم خبراء التخطيط العسكري العالميين، وأكبر الأساتذة والمحللين في معاهد الدراسات الاستراتيجية في العـالم - مـن عبقرية في التخطيط، لا مجال لإنكارها، وإعجـاز مشرف في التنفيذ المتقن، لأدق التفاصيل.

لـن نلجـأ لعمليـات أكتوبـر التي قدمـت للفكر العسـكري العالمـي، مقاييـس عديدة، تمثـل معجزة حقيقية على جميع المسـتويات، وبجميع الموازين، حتى أشـد الموازين خصومة وعداء...ولكننـا في ردنـا على الدعـوى الكاذبة - التي روجها الخصـم - عن قصور العقل العربي، سنتجه إلى عمليات 5 يونية ذاتها، وعن طريق التحليل العلمي الهادئ.

إن فكرة ضرب سلاح الطيران المصري، وإخراجه من مسرح العمليات، قبل الدخول في أية معارك تصادمية مباشرة مع الجيش المصري - قد نشأت في ذهن قادة المؤسسة العسكرية في تل أبيب عشـية حرب 1956 - التي عرفت باسم « حرب السويس»، والتي قامت فيها إسرائيـل بدور التابع النهم، الذي يتفرغ لجمع الأسـلاب والغنائم، دون أي جهد حقيقي، يكـون قـد بذله مع شركائه الكبار في معركة هي - في الواقع وبحكم مقاييس عام 1956 - أكبر من حجم هذا التابع الصغير، وحجم قدراته الهجومية والقتالية على السواء.

لقد اعترف «مردخاي هود» بنفسـه قبيل عمليات 1967، لكل من «بن يورا» و«يوري دان» - مؤلفي الكتاب الإسرائيلي «الميراج ضد الميج»، بقوله: «لن أندم قط على ذلك الاتفاق الشهير، الذي تم عقده في سبتمبر عام 1956، بين دافيد بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل في ذلـك الوقت وسـلومن لـورد وزير خارجية إنجلـترا في حكومة إيدن في مدينة «سـيفر» بشأن العمليات الجوية في حملة السويس».

ويسـتطرد «مردخاي هود» ليفسر سـبب اعتـزازه بهذا الاتفاق فيقـول: «لقد كان ذلك

الاتفاق يضمن لنا الغطاء الجوي، من جانب سلاح الطيران البريطاني.. كما أنه في نفس الوقت يحرم علينا اجتياز قناة السويس بطائراتنا».

ومع ضمان إسرائيل للغطاء الجوي الأنجلو فرنسي - خلال حملة السويس - دون أن تتحمل عبء الاشتراك في المعارك الجوية - تفرغ طيارو «مردخاي هود» تمامًا، لدراسة أسلوب ونتائج الضربة الجوية، التي وُجهت للطيران المصري الجاثم على الأرض، وكانت النتائج مشجعة للغاية - من وجهة النظر الإسرائيلية - التي تؤمن بعدم قدرتها - عدديًّا على الأقل - على تكوين جيش بري، قادر على الصمود - فضلًا عن الاندفاع والتقدم - في مواجهة الجيوش العربية التي تتمتع بحماية جوية فعَّالة لو ظل طيرانها سليمًا.

وزاد من اقتناع العسكرية الإسرائيلية، بأهمية - بل وحتمية - إخراج الطيران المصري من مسرح العمليات، قبل أية معركة قادمة مع مصر، ذلك التقارب الذي كان واضحًا بين تل أبيب وبين باريس، ذلك التقارب الذي خلق نوعًا من الإعجاب الفكري الذي تملك قادة العسكرية الإسرائيلية والعسكرية الفرنسية وفكرها، وقد دفع هذا الإعجاب بقادة إسرائيل العسكريين إلى الإيمان الكامل «بمبدأ بوفر» - أستاذ الاستراتيجية الشهير - المعروف في الفكر العسكري العالمي باسم «السيادة الجوية».

خلاصة مبدأ «بوفر»: أن العدو الذي ينجح في تدمير أجهزة ووسائل دفاعات عدوه الثابتة منها والمتحركة على السواء يضمن لطيرانه الحربي حرية جوية مطلقة، تمكنه من تحقيق الأهداف التالية:

أولًا: إخراج طيران العدو من المعركة حتى قبل أن تبدأ، مع مداومة ضربه، حتى بعد الضربة التدميرية الأولى، ضمانًا لاستمرار شلله، عملًا بقاعدة توالي الصدمات التي تحرم العدو من فرصة التقاط أنفاسه بعد الضربة الأولى.

ثانيًا: تمزيق دفاعات العدو الثابتة - من مدفعية تقليدية وصواريخ - بعد أن فقدت هذه الدفاعات الأرضية الثابتة أي معونة تساندها، من الدفاعات الجوية المتحركة، المختلة في الطيران الذي تم تدميره من قبل، وعقب نجاح الضربة الأولى المركزة.

ثالثًا: انطلاق الطيران المعادي بحرية كاملة بعد تحقيق هذين الهدفين الخطيرين، إلى تدمير باقي الأهداف الاستراتيجية للعدو التي يمكن أن تعينه على الصمود في المعارك البرية.

رابعًــا: تحطيم معنويات الجيوش البريــة المعادية، بإمطارها بوابل مــن الغارات المكثفة، التــي تمــزق أوصالها، بعد أن فقــدت الحماية الجوية التي ضاعت منهــا بضياع طيرانها الحربي وخروجه من المعركة.

وقــد خرجت إسرائيل عقب معارك 1956 وهي مؤمنة إلى أبعد مدى، بمبدأ «الســيادة الجويــة»، وزاد مــن اقتناعهــا بحتميــة الإعــداد لضربة قاصمة لســلاح الجو المــصري، تلك الواقعة التي ســنرويها، نقلًا عن أعتى خصوم مصر عام 1956 «ســير انطوني إيدن» رئيس وزراء إنجلترا خلال حملة السويس.

لقــد ســجّل في مذكراتــه هــذه الواقعــة المشرفــة للطيار المــصري المقاتل: «لقــد خرجت طائــرات الكانبرا الأربع وقت الفجر، وكانــت تطير على ارتفاع كبير، يصل إلى ثلاثين ألف قــدم، وكانــت مهمة هذه الطائــرات الأربع، أن تحــدد مواقع قوات العــدو - يقصد مواقع القــوات المصريــة - وتُصوِّرها إذا أمكن ولقد ذهبت الطائــرات الأربع إلى مهمتها، ولكنها رغــم ارتفاعهــا الضخم، وجدت أن أمرها قد انكشــف، وأن مواقعها هي قد تحددت، وأن الطائــرات المعادية من طراز الميج - المصرية - قد خرجت لمطاردتها وأطلقت عليها نيرانها، ولقد عادت الطائرات - الكانبرا - الأربع إلى قواعدها سالمة ولكن إحداها أصيبت بعطب، ولقــد كانت المطــاردة عملًا رائعًا، وعندما علمت بتفاصيلهــا في اليوم التالي لم أتمالك نفسي مــن القلق والتفكير... ولقد دعوت مجلسًــا لمناقشــة الموضوع، فربما كان طيــارون من دولة أخــرى هــم الذين يقــودون الطائرات الميج التي تعرضــت لطائراتنا في الفجــر، أثناء قيامها بعملية الاستكشاف».

والــذي لم يعــترف به «إيدن» عند تســجيله لهذه الواقعة أن اكتشــاف الطائــرات الكانبرا الأربــع، ومطــاردات المصرية لها، قد أحدث ارتبــاكًا هائلًا في مركز قيــادة القوات الأنجلو فرنســية التي كانت تستعد لغــزو مصر عام 1956 واحتــلال قناة الســويس بالقوة، وأدَّى هــذا الارتباك المفاجئ، الذي أحدثته براعة الطياريــن المصريين في مطاردة طائرات الكانبرا البريطانية وإصابة إحداها - إلى تأجيل ســاعة الصفــر، المحددة لبدء العمليات الحربية ضد مــصر بحيــث تأخــرت اثنتي عشرة ســاعة كاملة، وبدلًا مــن أن تبــدأ أولى موجات الهجوم الجــوي ضــد المطارات المصريــة، كما كان مقــررًا لها في الخامســة من صبــاح 31 أكتوبر عام 1956 مع أول ضوء، طبقًا للنظرية التقليدية في اختيار ساعة الهجوم.

لقد بدأت الموجة الأولى بالفعل في الخامسة من بعد ظهر نفس اليوم، بسبب هذا العامل الجديد الذي فاجأ قوات الغزو المشتركة، وأوقعها فريسة لتساؤل حائر، مؤداه أن هذه المهارة في استخدام الطائرة الميج، والقدرة على المناورة بها، والنجاح في مطاردة طياري الكانبرا البريطانيين - ينبئ عن وجود طيارين أجانب يعملون في خدمة سلاح الطيران المصري، ويستطيعون بالتالي تهديد أي غزو جوي لمصر بالفشل.

إنه نفس المعنى الذي سجله الملحق العسكري الإسرائيلي في باريس، في البرقية العاجلة التي وصلت إلى تل أبيب ظهر نفس اليوم وما زالت صورتها ترقد في الملفات السرية لحرب 1956، بشهادة فخرٍ للطيار المصري المقاتل حين يعترف العدو بقوله في هذه البرقية: «رغم رجاء الفرنسيين، قرر الإنجليز تأجيل الغارات الجوية إلى الساعة الخامسة بعد الظهر؛ والسبب هو أن دورية استطلاع بريطانية من طائرات الكانبرا، قوبلت فوق القناة بنيران مضادة قوية من الطائرات المصرية، التي أثبتت مستوى أرفع مما كان منتظرًا، وهذا يشير في رأي الإنجليز إلى وجود طيارين أجانب في مصر».

الوثيقة الثالثة الخاصة بنفس الواقعة المشهورة في تاريخ حرب 1956، هي البرقية التي بعث بها «شمعون بيريز» بأمر وبِاسم بن جوريون الذي كان يلازم الفراش - ردًّا على برقية الملحق العسكري الإسرائيلي في باريس: «إن تفوق المصريين قائم أيضًا بالنسبة لقواتنا نحن.. وهذا الأمر يضع وحداتنا في موقع خطير، وإننا نعتبر تأجيل الغارات عملًا تخريبيًّا خطيرًا، ونطالب بشدة بإصدار الأمر بالعمل فورًا».

هذه الوثائق الثلاث تعلن بوضوح لا يقبل الجدل الحقائق التالية:

أولًا: أن الطيار المصري - المقاتل - نجح في وقت مبكر جدًّا، في إثبات مهارته القتالية والهجومية، نجاحًا أربك القيادة الإنجليزية نفسها، وأرغمها على تأجيل بدء عملياتها الهجومية ضد الطيران المصري.

ثانيًا: القدرة الفائقة التي أبداها الطيارون المصريون وبسرعة غريبة في استيعاب وفهم أسرار طائرات الميج الجديدة عليهم في ذلك الوقت من عام 1956 خاصة إذا تذكرنا أن مصر لم تكن قد قررت كسر احتكار توريد السلاح للمنطقة العربية، قبل عام 1954.

ثالثًا: أن العدو الإسرائيلي - على لسان رئيس وزرائه بن جوريون - يعترف بتفوق

المقاتل المصري عليه، ويعتبر تأخر الإنجليز في ضرب المطارات المصرية عملًا تخريبيًّا.. ويطالب بالإسراع بإخراج الطيران المصري من مسرح العمليات؛ حتى لا تضطر إسرائيل إلى الدخول في معركة مع جيش مصر، وهو متمتع بحماية سلاحه الجوي الذي يقوده طيارون مهرة، أرعبوا طياري سلاح الجو الملكي البريطاني، بكل خبراتهم القتالية الطويلة.

في ضوء هذا فإننا نتقدم لوضع النقط فوق الحروف بشأن التقصير في ضربة 5 يونية 1967 من الجانب المصري على الوجه التالي:

أولًا: بالنسبة للأخطاء التي وقعت فيها القيادة:

بعض هذه الأخطاء، كان قديمًا، وسابقًا على عمليات 5 يونية، ولم تظهر نتائجه المخربة إلَّا في ذلك الصباح المشئوم.. كما أن هذه الأخطاء لم تكن كلها من نوع واحد، بل تنوعت في أشكالها وأحجامها، لكي تشترك كلها في صنع الهزيمة السريعة، التي استمتع العدو بنتائجها البالغة السهولة بالقياس إلى ما قدمه من تضحيات، أو تعرض له من مخاطر.

والنظرة الفاحصة لهذه الأخطاء ستكشف عن أن بعض هذه الأخطاء كان سياسيًّا، وبعضها الآخر كان عسكريًّا بحتًا، وقد تنوعت الأخطاء العسكرية بين الأخطاء الاستراتيجية، والتعبوية والتكتيكية.

إنني أرصد هنا بعض الأمثلة لكل نوع من الأخطاء، وحتى تأخذ أجيالنا القادمة عبرة من التجارب القاسية البالغة المرارة، وتعي درس التاريخ الذي كافح جيلنا لكي يعبر سنواته الصعبة.

1 - في مجال الأخطاء السياسية:

سنجد المثل الواضح في تلك النظرية المريضة، التي سادت حياتنا السياسية زمنا طويلًا، وتضاعف تأثيرها الهدام في مختلف أنشطة العمل الوطني في الداخل، بسبب تفشيها وانتشارها بشكل وبائي، لم يكن يسلم منه جهاز أو مؤسسة من مؤسساتنا القومية، ونعني بها نظرية «أهل الثقة وأهل الخبرة».

ومؤدى هذه النظرية الفاسدة التي تقترب في تحجرها من نظريات التعصب الجنسي المقموت - المفاضلة غير العلمية، بين الإنسان الكفء الذي يتمتع بالخبرة والكفاءة في مجال ما، وبين آخر لا ميزة لديه ولا كفاءة عنده، سوى ما قد يظهره أو يتظاهر به من ولاء

صادق أو أكاذيب لمن بيده الأمر، ولاء يكتسب به ثقة هذا المسئول، الذي يكون هو نفسه - وانطلاقًا من نفس النظرية المخربة - قد وصل في أغلب الأحوال إلى المنصب أو الموقع الذي يشغله، بالاستفادة من منطق النظرية العجيبة. «أهل الثقة أم أهل الخبرة».

ولن نتعرض الآن ونحن بسبيل التحليل العسكري لعملية هجومية محددة هي ضربة 5 يونية لتحليل الأسس الفلسفية لنظرية «أهل الثقة وأهل الخبرة»، كذلك لن نتعرض لتاريخها العسكري، والأصل الذي انحدرت عنه، وهل هو أصل ديمقراطي متطور أم فاشٍ متحجر ومعادٍ للحرية والديمقراطية، ولكنني أقصر حديثي الآن على التأثير المدمر لهذه الظاهرة في مجال العسكرية المصرية.

النتيجة هي أنه قفز كثيرون إلى مواقع بالغة الخطر، دون أن يكونوا أهلًا لتولي مسئوليتها، وتجميد بعض المواقع البالغة التأثير على مصير قواتنا المسلحة، بقصرها على أفراد معينين. في ذات الوقت الذي كان العدو دائم التجديد في قياداته ليضمن تطعيم قواته المسلحة باستمرار الدم الجديد، الذي يضمن لها الحيوية والشباب الدائمين، أُسوة بما هو متبع في العالم أجمع.

ومن هنا، فلم يكن غريبًا أن نشاهد بعض القيادات الكبيرة يستمر الواحد منهم في تولي منصبه البالغ الخطورة أو بمعنى أدق يستمر في تجميد هذا المنصب لسنوات عديدة، يتجمد معها الموقع كله بما يتبعه من جيوش وفرق وألوية.

2 - **وإذا انتقلت من مجال الأخطاء السياسية إلى الأخطاء العسكرية المباشرة،** بالنسبة لقواتنا المسلحة عمومًا، وبالنسبة للسلاح الجوي خصوصًا، وعلى جميع المستويات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية - فإننا نجد الأمثلة مع بالغ الأسف عديدة، ولكننا نكتفي ببعضها، لنتدلل على ما ذهبنا إليه، من أن ما حدث من خسائر فادحة على الجانب المصري صباح 5 يونية كان نتيجة للتقصير، وليس للقصور.

فعلى مستوى الأخطاء الاستراتيجية: نجد أن بعض القيادات السابقة ممن كانوا يتمتعون بأعلى مستويات الثقة يقعون في أخطاء فادحة، لا يتردى فيها أي دارس يعرف أولويات الاستراتيجية العسكرية المتطورة، فضلًا عن ملاحقة الابتكارات الخلاقة المستمرة في فنون الحرب وعلومها.. هنا أكتفي بإطلالة على بعض ما كان يجري في سلاح الجو المصري.

بعض القادة مثلًا، كانوا يرفعون تقاريرهم لأعلى مستوى عن دراستهم للموقف

العسكري مقارنًا بموقف العدو على أساس من الأرقام والأعداد وحدها.. عندنا كذا طيار.. وعند العدو كذا.. نمتلك كذا طائرة.. ويملك العدو كذا وكذا... لدينا كذا جهاز كشف راداري، ولدى العدو كذا.. دون أن يتوقف هؤلاء القادة عن شيء أولي اسمه نوعية الطائرة وسرعتها ومداها وتسليحها وأجهزتها المعاونة.. إلى آخر المعلومات التي يتحتم على القائد الدارس أن يضعها في حسبانه، قبل أن يسمح لنفسه بمثل هذه المقارنات العددية الجوفاء التي لا تجدي شيئًا عند المواجهة الفعلية على مسرح العمليات.

ولو أن الأمر اقتصر في مجال الخطأ على التقارير التي كانت ترفع للاسترضاء والحصول على المزيد من «الثقة» لهان الأمر وتضاءل الخطر.. ولكن الكارثة اكتملت عناصرها عندما تحول هذا الأسلوب الانتهازي في التفكير العسكري، إلى نهج ثابت تقوم على أساسه الخطط الاستراتيجية للسلاح الجوي، السري منها والمعلن على السواء، بحيث وصل الاقتناع الخاطئ عند بعض هؤلاء القادة بجدوى المقارنات العددية في مجال الحروب الفعلية إلى حد التصريح بل والطنطنة بأننا «نملك أكبر قوة جوية ضاربة في الشرق الأوسط، تستطيع تهديد الأسطول السادس الأمريكي ذاته».

ومن هنا كان عنف الصدمة في نفس المواطن العادي، بل والطيار المقاتل حين فوجئ الجميع بحدوث ما حدث صباح 5 يونية، ولم يكن من الممكن تفسير هذه الضربة التي تحولت إلى كارثة في نفس المواطن العادي، إلا بأحد أمرين يستطيع بهما تبرير ما حدث تبريرًا يقنعه عقليًّا:

فإما أن تكون قياداته غير دقيقة في تقديراتها حين أعلنت ما أعلنته على الملأ، من أنها تملك أكبر قوة جوية ضاربة في المنطقة، تستطيع ردع العدو الإسرائيلي، بل وتمتلك القدرة على إرهاب وتهديد الأسطول السادس بكل حاملات طائراته الضخمة، وبالتالي فإن عدم الدقة لدى هذه القيادات هو الذي دفعها إلى أن تعطي للمواطن، ومن خلفه العالم كله، صورة غير واقعية لإمكانات سلاح الجو المصري، وإذا فقدَ المواطن ثقته في قيادة قواته، فقد ثقته في قواته ذاتها، ثم يفقد ثقته في نفسه وهذا أكبر البلاء.

والتبرير الثاني الأكثر خطورة على نفسية المواطن إذا أحسن الظن ببيانات قياداته وتصريحاتها عن قدرات جيشه الوطني، هو أن قياداته الوطنية لم تكذبه القول، عندما طمأنته عن مدى فعالية قواته، ولكن قوة العدو التي كشفت عنها التجربة العملية أثبتت أنها أكبر

مـن كل ما كان لديه من سـلاح وعتاد وهنا أيضًا خطـأ في التقدير.. وهنا يجتاح اليأس قلب المواطن وعقله، وتلك كارثة الكوارث.

وننتقـل الآن إلى مجـال الأخطـاء التعبويـة التـي تردَّت فيهـا قيادات 1967، وسـهلت للعدو الجوي أن يحقق أهدافه ضد سلاحنا الجوي، في أسرع وقت وبأقل قدر من التعرض للمخاطرة.. وفي هذا المجال نجد أمثلة غريبة.

لقد ألمحت في الفصل السـابق إلى أن أبسـط مبادئ الدفاع السـلبي عن الطائرات توفير الحماية لها وهي جاثمة على الأرض، عاجزة عن الدفاع عن نفسـها، فضلًا عن حماية غيرها، عـلى أن تسـتمر حماية الطائرة إلى أن تـدور محركاتها، وترتفع عـن الأرض ثم تأخذ سرعتها في الجـو.. وهذه القاعدة البسـيطة التـي لم تعد تقبل الجدل أو المناقشـة تقتضي وجود بضعة عناصر مهمة، لتوفير الأمن والحماية اللازمة للطائرة وهي جاثمة على الأرض وعاجزة عن الدفاع عن نفسها، وهي:

1 – وضع الطائرة في دشمة قوية التسليح، تحميها من القصف الجوي المعادي.

2 – وجود دفاعات أرضية قوية، تعمل بالتناغم الكامل مع شبكة إنذار شديدة الحساسية، وقادرة على العمل بسرعة قبل فوات الأوان.

3 – التمويه الجيد واسـتخدام الطائرات «الهيكلية» التي تضلل الطيار المعادي، وتحرمه من تركيز ضرباته فوق الطائرات الحقيقية.

فإذا أضفنا إلى هذا، أن السنوات التي تلت حرب 1956، كانت سنوات ملتهبة وملأى باحتـمالات تفجـر الصراع المسـلح مع العدو الإسرائيـلي في أية لحظـة، إلى جانب الدروس المسـتفادة من العملية الأنجلوفرنسـية، فقد كان من الواجب على قيادة سلاحنا الجوي، أن تتصرف قبيل 5 يونية 1967 على ضوء الاعتبارين التاليين:

1 – إن معظم المطارات والقواعد الجوية المصرية، ليسـت سرًّا حربيًّا مصونًا على المسـتوى القومي، ولكنها قبل تفاصيلها وأدق منشآتها معروفة لدولة أجنبية واحدة كانت تحتل هذه المطارات وهي إنجلترا، وإن هذه الدولة الأجنبية كانت شريكًا للعدو الإسرائيلي في حـرب 1956 كما سـبق أن شرحـت.. وهذا أمر – من المفـروض – أنه كان معروفًا لمخابراتنا العسـكرية عمومًا، ولمخابرات السـلاح الجوي على وجه الخصوص.. وهنا

كان مـن المحتـم على القيادة المصريـة، أن تسـارع بالتخلي عن هذه المطارات، وإنشـاء بديـل لهـا تتوافر له السرية الواجب توافرها للمطـارات الحربية، أو على الأقل - وهذا أضعف الإيمان كما يُقال - الإسراع بتغيير معالم ومنشآت هذه المطارات، بحيث يتعذر على العدو أن ينال منها بسهولة، لو سولت له نفسه مهاجمتها.

2 - إن عمليـة ضرب الطيران المصري الجاثم على الأرض - التي تمت بنجاح سـاحق عام 1956 - كانـت تحتـم على قياداتنا أن توفر لهذا الطيران وسـائل الحماية السـلبية، أثناء تواجده على الأرض، سواء بالدعم أو بالتمويه.

ولكـن هـذه الدروس وغيرهـا، مرت دون أدنـى اسـتفادة منها لضمان الحمايـة اللازمة للطيران المصري، وتأمينه من تكرار نفس الضربة التي تعرض لها من قبل، ولنفس الأسباب التي كان من السهل تلافيها.

ونصل أخيرًا إلى الحديث عن الأخطاء التكتيكية التي تمتزج فيها أخطاء التخطيط القتالي، بأخطاء التخطيط المعنوي للقوات المسلحة عمومًا والقوات الجوية بالذات.. لقد تردت القيادة المصريـة - وعلى أعلى مسـتوى مع الأسـف - في هاوية. خطأ غريـب كان تأثيره من الناحيتين العسكرية البحتة والنفسية بالغًا، سواء على نفس المقاتل المصري، أو المواطن المدني.

يتمثـل هذا الخطأ في التظاهر بالاسـتعداد للهجوم لردع العدو، مـع تبييت النية في واقع الأمـر، ومـن واقع الخطط الفعلية على الاكتفـاء بإرهاب العدو، والتصدي لـه بالدفاع، إذا أقدم هو على الهجوم.

وقد يتصور بعض المتفائلين، أن هذا التناقض بين ما فعلته القيادة والتظاهر بالاسـتعداد للقيـام بعمليـات هجومية لردع العدو، فضلًا عن تدميره كـما قيل أيامها.. وبين تبييت النية عـلى الاكتفـاء بالدفاع - كان تناقضًا ظاهريًـا فقط، هدفه القيام بحرب نفسـية ضد العدو، لإرهابـه وإرغامه على التراجع عن مواقفه العدوانية ضد سـوريا التي كانت تتعرض وقتها لغـارات مسـتمرة من العدو الإسرائيـلي ولكن الحقيقة الفعلية لا تتفق مع الأسـف مع هذا الافتراض الحسن النية الذي تنفيه الحقائق التالية:

1 - في بداية تفجر الأزمة - في مايو 1967 - تلقت قيادات الوحدات والأسلحة المختلفة الأمر اليومي رقم «1» الذي يعلن حالة الاسـتعداد القصوى ابتداءً من يوم 15 مايو، وطالـب هذه الوحدات بأن تتجه إلى مناطق التجمع والانتشـار المخصصة لكل منها، استعدادًا للقتال على الجبهة الإسرائيلية، طبقًا لسير العمليات.

وفي الوقت الذي يصدر فيه هذا الأمر اليومي، الواضح الدلالة على الاستعداد للقيام بعمليات هجومية، تصدر الأوامر لهذه الوحدات بأخذ مواقع انتشار هجومية، مما يضع هذه القوات من الناحية النفسية - على الأقل - في حالة تعبئة لا مجال لتفريغ شحنتها طبيعيًّا، إلا بدفعها ضد العدو، إذا أردنا حماية هذا المقاتل من صدمة نفسية تفقده الثقة في نفسه، وفي سلاحه، وفي قيادته على السواء.

2 - لم تكتف القيادة بهذا الأمر اليومي - السري - بالاستعداد وأخذ مواقع الهجوم، بل حولت الأمر إلى مظاهرة علنية، سواء في التصريحات التي تهدد العدو بالفناء، أو في استعراض القوات الذاهبة إلى الجبهة، وكأنها ذاهبة إلى مهرجان أو عيد، وليست متجهة لمواجهة تصادمية مع العدو.

3 - في الوقت الذي أخذت فيه القوات - البرية على الأقل - وضع الانتشار للهجوم، كانت الأوامر العليا السرية - بناء على الاتصالات السياسية الدائرة وقتها سواء مع سكرتير الأمم المتحدة، أو مع الاتحاد السوفيتي - تقضي بالوقوف موقف الدفاع، وعدم البدء بالهجوم.. والفرق رهيب، بين مقاتل يأخذ موقف الهجوم وقيادته تبيت النية على الدفاع فقط، وبين مقاتل يأخذ موقف الدفاع فعلًا؛ لأن قيادته لا تبيت النية على البدء بالهجوم.

4 - وحتى لا يكون هناك أدنى شك في صحة ما نذهب إليه من حدوث هذا التناقض بين إعلان الاستعداد للهجوم، وتبييت النية على الاكتفاء بالدفاع، فإنني أقرر هنا - للحقيقة والتاريخ وحدهما وكشاهد على 5 يونية وما جرى فيه من أخطاء، إنني كقائد للواء القاذفات الاستراتيجية الثقيلة، وحتى الساعة 9.20 من صباح الإثنين 5 يونية 1967 - لم يكن عندي أي إخطار أو حتى مجرد تلميح من غرفة العمليات المركزية للقوات الجوية المصرية، باقتراب الحرب، أو مجرد احتمال نشوب العمليات في وقت قريب، ولو كانت قيادة القوات الجوية - في ذلك الوقت - عندها أي تصور لهذا الاحتمال، لما أعطتني التصريح بالطلعة التدريبية التي صحبت فيها خمسة من طياري اللواء في التاسعة والربع من ذلك الصباح المشئوم حينما فوجئت بعد خمس دقائق من مغادرة طائراتنا للقاعدة اللواء التي انطلقنا منها، بخبر ضرب الطائرات الإسرائيلية لها.

وقد يحاول البعض أن يرجع تلك الهزيمة غير الطبيعية إلى عوامل القصور في الإمكانيات المتاحة - وهو ما أسلفنا الحديث عنه - كالنقص العددي الملحوظ في وسائل الدفاعات الأرضية الثابتة كالمدفعية المضادة للطائرات، أو نقص الإمكانيات في الأسلحة الحديثة التي تم تزويد هذه الدفاعات بها، كالصاروخ أرض - جو «سام/ 2» الذي كان عاجزًا بحكم تصميمه عن التعامل مع الطائرات ذات الارتفاعات المنخفضة، مع العجز المتوفر من أجهزة الكشف الراداري عن اكتشاف الأهداف المتحركة التي تقترب من ارتفاعات منخفضة، كما فعلت طائرات الموجات الأولى في ضربة 5 يونية.

ورغم ما في هذا الدفاع من صدق وواقعية، لا نستطيع معها أن ننكر أنه كانت هناك عوامل قصور في الإمكانيات والمعدات المتاحة صباح 5 يونية - فإن هذا العجز في الإمكانيات لا ينفي الحقيقة الأساسية التي تقول:

إن السبب الأول والرئيسي في هزيمة 5 يونية، هو ضخامة حجم الضربة التي تعرض لها سلاح الطيران المصري في ذلك الصباح.. وأن هذه الضربة كان من الممكن توقيفها، أو على الأقل حصر آثارها التدميرية في أضيق الحدود، بحيث يستطيع سلاح الجو المصري أن يمتص الصدمة الأولى، وينهض بسرعة للرد عليها بعنف مميت.. لو أن قيادات 5 يونية، كانت جميعها على مستوى المسئولية التي تصدت لحملها.. سواء من ناحية قدراتها الفكرية البحتة، وتسلحها بأحدث نظريات الفكر العسكري المعاصر، أو من ناحية أدائها الكامل للواجبات الملقاة على عاتقها واعتبار هذه الواجبات وأدائها بالصورة الصحيحة بلا تواكل أو تقصير - حتى في أدق التفاصيل - هي الدرع الوحيدة التي تحمي هذه القيادات، وتضمن لها الاستمرار المؤثر في مواقعها القيادية الخطيرة.

ولكن هذه القيادات السابقة لم تقم بواجبها، على الوجه الذي يحمي سلاحنا الجوي المصري من الوقوع فريسة لضربة هجومية مفاجئة - كما حدث صباح الإثنين الخامس من يونية عام 1967 - وبدلًا من أن تسعى هذه القيادات إلى الارتفاع بمستوى ما لديها من إمكانيات بشرية وعتاد، عن طريق التدريب المستمر، والتسلح بأحدث نظريات الفكر العسكري الحديث، مع التزام الدقة الكاملة سواء في التخطيط، أو في التقارير التي تُرفع إلى المستويات الأعلى في القيادتين العسكرية والسياسية..

بدلًا من كل هذا وجدنا بعض القادة يحرصون على رضاء المستويات الأعلى - ضمانًا

لاستمرارهم في مواقعهم - ولو كان ثمن هذا الرضا تقديم البيانات غير الدقيقة، حتى في أخطر اللحظات وأكثرها حرجًا بالنسبة لقواتنا المسلحة عمومًا، وسلاحنا الجوي على وجه الخصوص.

استرجع الآن ما ورد في كتاب «حرب الأيام الستة» الذي نشره الصحفي الإنجليزي «راند دلف تشرشل» - ابن السياسي البريطاني الشهير ونستون تشرشل، حيث قال «موشي ديان» بأن من «أكبر أخطائه التي كان من الواجب عليه ألا يتردى فيها عدم عبور قواته لقناة السويس، والاندفاع في صحراء السويس نحو القاهرة».

إن إقراري المرير بعديد من الأخطاء التي وقعت من جانبنا، لايعني أبدًا أن أقبل ما في هذا القول من تفاخر كاذب، أساسه المبالغة المفضوحة، التي يعرف دايان نفسه عدم صحتها، وعدم قدرة قواته على التقدم شبرًا واحدًا وسط الأرض المصرية المأهولة بالسكان، خشية أن تغرق هذه القوات في بحر الكثافة السكنية لأبناء مصر، القادرين على التعامل جيدًا مع العدو، دفاعًا عن أرضهم.

تلك حقيقة أثبتتها معارك أكتوبر المجيد، عندما اندفع «آريل شارون» بقواته غرب القناة في الثغرة التي اخترقها بمعركته التليفزيونية الشهيرة - كما أسماها بحق جنرال بوفر أستاذ الاستراتيجية الفرنسي الشهير - حيث واجه الجنرال الإسرائيلي المغامر مقاومة ضارية من أبناء الشعب، جعلت من المستحيل على قوات إسرائيل أن تقتحم مدينة السويس، بل إن هذه المقاومة الشعبية في معارك أكتوبر، أثبتت لجنرالات إسرائيل أن هذه الثغرة التي كانوا يفاخرون بها، هي أكبر خطأ عسكري فادح ارتكبوه في حرب أكتوبر، واضطروا للهروب من نتائجه الرهيبة التي كانت تنتظرهم، أن يسرعوا بالانسحاب إلى الشرق من القناة.

ومن هذه الحقيقة العظيمة التي أكدها أبناء شعبنا الذين تصدوا للقوات الإسرائيلية - التي ارتكبت حماقة الغرق في بحر الكثافة السكانية - في أكتوبر 1973، نقول للجنرال ديان: إن الخطأ الحقيقي الذي وقعت فيه المؤسسة العسكرية بتل أبيب في عمليات 5 يونية 1967 ليس هو الوقوف على الضفة الشرقية، وعدم عبور القناة ثم الاندفاع في طريق القاهرة؛ لأن هذه الحماقة لو تمت كانت كفيلة بتحويل النصر الرخيص الذي حصلت عليه إسرائيل عام 1967 إلى هزيمة منكرة حين تغرق قواتها في بحر الكثافة السكانية المصرية سواء في مدن القناة، أو في الطريق إلى القاهرة.

إن الخطأ الحقيقي الذي تردت فيه العسكرية الصهيونية في 5 يونية هو تنفيذها الحرفي للخطة الأنجلوفرنسية لضرب الطيران المصري عام 1956.. مع الفارق الشاسع بين أهداف الخطة الأصلية، وأهداف التقليد الإسرائيلي للخطة الأوروبية المستعارة.

ولو أننا استعدنا في الذاكرة الظروف والملابسات السياسية التي سبقت حرب 1956 سنجد أنها بدأت بصدد قرار تأميم شركة قناة السويس، وما تلاه من ثورة حكومة إيدن الإنجليزية وحكومة جي موليه الفرنسية، على قرار التأميم، تلك الثورة التي وصلت إلى ذروتها بالعمليات العسكرية التي كانت بدايتها ضرب سلاح الطيران المصري مساء الحادي والثلاثين من أكتوبر عام 1956 .

وهذا يوضح لنا طبيعة الهدف الكامن وراء العمليات العسكرية التي شنتها القوات الأنجلوفرنسية ضد مصر في ذلك الوقت، وهو إلغاء قرار تأميم الشركة الفرنسية بالقوات المسلحة، أو على الأقل الوصول إلى ضمان المصالح البريطانية والفرنسية السابقة في القناة، باعتبار الدولتين من أكبر المساهمين في الشركة الفرنسية المؤمنة.

هو إذًا هدف اقتصادي وسياسي بحت، ولا صلة له باستعمار استيطاني لقطعة من الأرض المصرية، أو اقتطاع جزء من التراب المصري، وابتلاعه إلى الأبد في جوف الجنسية الغازية. ونحن لا نقول هذا الكلام مجاملة أو تخفيفًا من وقع العمل العدواني الذي قامت به جيوش الحكومتين في ذلك الوقت؛ فالعدوان عدوان مهما كانت دوافعه، والعدوان أسلوب مُدان، سواء في التعامل على مستوى الأفراد، أو الجماعات أو الدول، ولكننا للحقيقة والتاريخ لا نتردد في الاعتراف بأن الهدف الأول لعمليات 1956 العسكرية كان هدفًا تكتيكيًّا وهو إرغام الحكومة المصرية على التراجع عن قرار اتخذته تحقيقًا لمصالح وطنية بتأميم شركة قناة السويس الفرنسية، وهو هدف اقتصادي بحت .

أما بالنسبة للمؤسسة العسكرية في تل أبيب، حين أقدمت على تقليد الخطة الأنجلوفرنسية، ونفذتها في 5 يونية 1967، فإن الهدف الاستراتيجي كان مختلفًا تمامًا، وإسرائيل كانت تستهدف بالدرجة الأولى تحقيق مزيد من التوسع على حساب الأرض العربية وانتزاع أجزاء جديدة من الوطن العربي، وسلخها تمامًا وضمها للجسم السرطاني الذي سعت الصهيونية العالمية إلى إقامته حول تل أبيب.

وهذا الاختلاف البين في الهدف الاستراتيجي لكل من العمليتين الأنجلوفرنسية عام

1956، وتقليدها الإسرائيلي عام 1967، كان يحتم على العسكرية الإسرائيلية وهم ينفذون عملية «طوق الحمامة» ألا يكتفوا بضرب الطائرات والممرات، ثم يسرعوا بالعودة واثقين من أنهم نجحوا في التخلص إلى الأبد من عقدة «ماسادا» الشهيرة، ونقلوها إلى الوجدان العربي الذي أصيب بصدمة دامية سببتها المفاجأة أكثر مما سببتها الضربة ذاتها صباح 5 يونية.

كان على طياري «هود» في ذلك الصباح، لو أنهم كانوا على مستوى فهم الموقف الذي وضعوا أنفسهم أمام تحديده، وتمشيًا مع الطبيعة الدموية للهدف العدواني المرسوم لهم، أن يضربوا تجمعات الطيارين والفنيين المصريين في المطارات التي قاموا بقصفها في ذلك الصباح.. ولو أنهم تنبهوا إلى أهمية هذا الهدف، ودرسوا البيانات الدقيقة التي سُربت لهم لاستطاعوا بالفعل أن يقتربوا من تحقيق الهدف الاستراتيجي لعمليات 5 يونية الجوية والبرية على السواء؛ لأن إبادة العنصر البشري المدرب – في أية قوات جوية في العالم – تعني شللًا رهيبًا لهذه القوات، لا تستطيع النهوض منه، إلا بعد سنوات وسنوات، إذا قُدر أن تقوم لها قائمة بعده أصلًا.

فإذا تذكرنا أن سلاح الجو الإسرائيلي هو – كما تسميه دعايات العدو – ذراع إسرائيل الطويلة القوية، فإن إبادة القوة البشرية المعادية التي تعد العماد الأساسي في أي سلاح جوي، تعتبر فرصة العمر التي لا تُعوض لإسرائيل، ولو أن طياري «مردخاي هود» كانوا على مستوى التحدي الذي واجهوه صباح 5 يونية، وتصدوا لإبادة الطيارين والفنيين المصريين وهم على الأرض، لأُصيب سلاحنا الجوي بضربة العمر فعلًا، ولتأخرت صحوته سنوات لا يعلم إلا الله وحده مداها، وهي سنوات كانت كافية لكي تدع لسلاح إسرائيل الجوي أن يفرض على الإنسان العربي من حوله، كل ما تريد المؤسسة العسكرية بتل أبيب، أن تفرضه من قرارات التوسع والاستعمار الاستيطاني الذي لا حدود لجشعه.

إنها غلطة العمر، وقع فيها – لحسن الحظ – «هود» وطياروه لقصور في الخيال العسكري الإسرائيلي.

ولو أن الجنرال «هود» كان على مستوى الموقف من ناحية الفهم السياسي والعسكري لأهداف عملية «طوق الحمامة» وعرف أنها عملية إبادة ضد قوات العدو الجوية – بشرًا وعتادًا – وليست كالعملية الأنجلوفرنسية، مجرد عملية تعطيل لقدرات العدو القتالية، تمهيدًا

لانتزاع قرار اقتصادي وسياسي محدد.. لو عرف هذا الفارق الجوهري، وسعى للحصول على البيانات اللازمة الضرورية وأمر طياريه بضرب الطيارين والفنيين المصريين، قبل الاهتمام بضرب الطائرات والمعدات، لكان 5 يونية نهاية مؤلمة لسلاح الجو المصري، كسلاح فعَّال في الحرب، وبداية لعقدة عربية رهيبة، تتوارثها أجيال الطيارين العرب إلى الأبد.

ولو لم يرتكب جنرال الجو الإسرائيلي «هود» وطياروه هذا الخطأ القاتل بالنسبة لهم، ونجحوا في ضرب الطيارين والفنيين المصريين - لكان في وسعهم بعد أن تخلصوا من هؤلاء الرجال الشجعان أن يكذبوا ما شاء لهم الكذب، ويدعوا ما شاء لهم الادعاء عن بطولات رهيبة، يبذرونها في عقل الإنسان العربي يصنعون بها «ماسادا» عربية رهيبة.

لقد زعم العدو الإسرائيلي وقتها أنه نجح في القضاء على سلاح الجو المصري في عام 1967 - بعد إصابته بضربة 5 يونية - وأنه نجح بهذا في إخراج الطيران المصري من المعركة تمامًا، بعد أن عجز الطيار المصري عن مواجهة خصمه الإسرائيلي. هذه أيضًا إحدى الأكاذيب الضخمة التي صاحبت 5 يونية وانتشرت في ضبابه الذي صنعته أجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية؛ إذ لم يحدث إطلاقًا أن اختفى الطيران الحربي المصري عن المعركة، وحتى في يوم 5 يونية بالذات - وهو اليوم الذي يمثل قمة المفاجأة وذروة الصدمة لسلاحنا الجوي - أثبت الرجال الشجعان أنهم أجنحة مصر القوية، القادرة على التحليق حتى في مواجهة أشد العواصف عنفًا وغدرًا.

وحتى نكون ملتزمين بأصول الفكر العسكري، في حديثنا عن هذه النقطة بالذات، فإننا نشير إلى أن تعبير «اختفاء الطيران من المعركة» معناه العلمي والعملي على السواء «شلل القوات الجوية شللًا تامًّا يؤدي بها إلى توقف جميع العمليات الجوية هجومية كانت أم قتالية؛ بسبب عجز السلاح الجوي عن القيام بأية طلعات تقتضيها العمليات العسكرية، سواء طلعات الحماية والمعاونة للجيوش البرية، أو طلعات الهجوم لتدمير أهداف العدو الثابتة أو المتحركة».

وعلى هذا المستوى العلمي لتعريف اختفاء الطيران، فإن سجلات غرف العمليات على الجانبين - المصري والإسرائيلي على السواء - تقطع بأن الطيران المصري لم يختف عن المعركة عام 1967. رغم عنف الضربة المفاجئة التي تلقاها سلاحنا الجوي صباح 5 يونية، ورغم ارتباك القيادات المصرية في ذلك الوقت، وتأخرها في استعادة قدرتها على التفكير السليم

واستعادتها للسيطرة على قواتها، ورغم قلة العدد في غرف العمليات الفرعية للقوات الجوية بكل تجهيزاتها البدائية في ذلك الوقت، ورغم تأخر هذه القيادات في إخطار المطارات التي لم تكن قد تعرضت للقصف الجوي، ببدء العمليات الهجومية المعادية في التاسعة إلا الربع من صباح 5 يونية.

لقد أثبت الطيار المصري المقاتل أنه جدير بالثقة التي منحها له الشعب، وأنه قادر فعلًا على تأكيد وجوده، وإثبات قدراته القتالية والهجومية في ظروف لو تعرض لها خصمه الإسرائيلي لأسرع بالهرب بعد أن يلقي بحمولته من الذخيرة بعيدًا عن الهدف، كما كان الطيارون الإسرائيليون يفعلون في حرب أكتوبر، نجاة بأنفسهم من جحيم الدفاعات المصرية الثابتة والمتحركة على السواء.

ولو أننا عكفنا على حصر كل ما ورد في سجلات العمليات الجوية في 5 يونية، من عمليات شجاعة قام بها طيارونا الأبطال لاستغرقنا العديد من المجلدات المليئة بصفحات الفخار، ولكننا نكتفي بتسجيل بعض الأمثلة لشجاعة هؤلاء الرجال الذين سجلوا بعملياتهم سطور ملحمة بالغة الروعة بأي المقاييس العسكرية، حتى أشد هذه المقاييس عداوة للمقاتل المصري الشجاع:

1 - رائد طيار «محمد سعيد شلش» وزميله النقيب طيار فتحي سليم كانا يعسكران بمطار فايد - القاعدة الرئيسية لطائرات الميج 19 في ذلك الوقت - وكانت مظلة الحماية الجوية قد هبطت إلى أرض المطار في تمام الساعة 8.15 صباح 5 يونية، بعد أن زال الخطر - طبقًا لنظرية الهجوم مع أول ضوء التقليدية!! وفجأة وفي الساعة 8.47 بدأت الطائرات الإسرائيلية تقصف المطار.

ويسرع الرائد «شلش» والنقيب «فتحي» كل إلى طائرته - اللتين نجتا من التدمير - لكي يقوما بعمليات قتالية شجاعة يومي 5 و6 يونية.. وفي يوم 7 يونية - حيث كانت القيادة السابقة قد استعادت توازنها - يصدر الأمر للطيارين الشجاعين (شلش وفتحي) بالقيام بطلعة اعتراضية بالغة الخطورة.

إن إسرائيل تحاول إسقاط قوات مظليين في منطقة الممرات بسيناء، بواسطة طائرات «نور أطلس» تصاحبها مظلة حماية ضخمة من طائرات الميراج الحديثة.. وعلى الطيارين «شلش» و«فتحي» أن يعترضا هذه العملية فورًا.

ويسرع البطلان بتنفيذ الأمر، ويشتبكان مع طائرات العدو، وينجح الرائد سعيد شلش في إسقاط طائرة نقل بحمولتها من الرجال المظليين بمعداتهم، كما يسقط طائرة ميراج. أما زميله النقيب «فتحي سليم» فيوفق في إسقاط ثلاث طائرات، واحدة من طراز ميراج، واثنتان من ناقلات المظليين، ثم يستشهد عند عودته إلى قاعدته - بعد أن أدى مهمته على أكمل ما يؤدي الرجال مهامهم شجاعة ومقدرة - ويكون استشهاده أثناء نزوله إلى مطار فايد، بسبب حفرة في الممر.

ما رأي الجنرال الخصم «مردخاي هود» في هذين البطلين.. يقومان بما قاما به من عمليات إثر ضربة جوية قاصمة مُني بها سلاحهما الجوي صباح 5 يونية؟! هل يستطيع رغم خصومته وعدائه الشديد لكل ما هو مصري، أن ينكر شجاعة وبطولة مثل هذين البطلين من أبناء شعبنا الأصيل؟ وهل يجرؤ الجنرال الخصم على الادعاء بأن بين طياريه من يستطيع إبداء مثل هذه البطولة في مثل هذه الظروف التي تهزم أشجع الرجال؟

لسنا في حاجة إلى رد الجنرال فنحن نعرف رجالنا وقدرهم، ونعرف أيضًا أن طياريه يعرفون الحقيقة التي حاولت أبواق الجنرال أن تغطي عليها.

2 - الرائد طيار «مدحت المليجي» تنجو طائرته من الضربة الأولى صباح 5 يونية، فيقلع البطل بطائرته - السوخوي - ليقوم بأكثر من طلعة في نفس اليوم.. وفي الصباح المبكر من يوم 6 يونية، يندفع بطائرته إلى عمق إسرائيل، ليقصف أحد المطارات الإسرائيلية، فيدمر طائرتين جاثمتين على أرض المطار، وعددًا من السيارات والمنشآت، ثم ينجح في الإفلات من مطاردة الطائرات المعادية التي تعقبته، حتى يصل سالمًا إلى الأجواء المصرية فوق قاعدته الجوية في مطار فايد، ولكنه يستشهد في اللحظة الأخيرة؛ لأن وقود طائرته نفد وهو في الجو قبل هبوطه بلحظات.

3 - رائد طيار «حشمت» وزميله الملازم أول طيار «سعد» يشتبكان بطائرتيهما - الميج 19 - مع دورية إسرائيلية مكونة من اثنتي عشرة طائرة من طراز الميراج، قرب مطار المليز - يوم 8 يونية - وينجح البطلان المصريان في إصابة ثلث القوة الإسرائيلية، ويضطران الطائرات الثماني الباقية للفرار، بعد معركة جوية شرسة، وعندما ينفد وقود الطائرتين المصريتين يهبط «حشمت» وزميله «سعد زغلول» بالمظلة.

ويتمكن «حشـمت» من العودة وهو جريح - بعد قصة هرب تفوق قصص السينما في براعتها وروعتها - أما «سـعد» فيقع في الأسر، ويقوم الإسرائيليون بتقسيم الأسرى الذين كان بينهم «سـعد» إلى مجموعتين متساويتين بالعدل والقسطاس..على أن تُجرى عمليـة اقـتراع بـين المجموعتـين.. بحيث تعـدم المجموعـة الأولى وتنجـو المجموعة الثانيـة - بعد أن يُفرج عنها - ليعود أفرادها حاملين معهم قصص العدو القادر الذي لا حدود لقدرته.. أملًا في خلق عقدة في عقل ووجدان الإنسان المصري. ويشاء القدر أن يكون نصيب الطيار سعد في المجموعة المحظوظة التي تقرر الإفراج عنها..وبضربة حظ لا أكثر عاد البطل «سعد» إلى زملاء السلاح.

4 - نقيـب طيـار «عروض» كان يقود إحدى طائرات الميـج 21، وكانت قاعدته الجوية في مطار أبوصوير، ورغم عنف الصدمة النفسية التي أُصيب بها كغيره من الرجال، وهو يرى طائرات العدو تضرب قاعدته الجوية - بعد أن زال وقت الخطر، كما صورت لهم قيـادات 1967 - فإنه اسـتعاد قدرته على التفكير السريـع، ليمتطي طائرته الميج 21، ويسارع إلى الاشتباك مع الطائرات المهاجمة.

وينجح البطل في إسقاط طائرة ميراج في الطلعة الأولى، وينزل إلى أرض المطار ليتزود بالوقود والذخيرة، ليكون على استعداد لمواجهة العدو في الموجة التالية، ويشتبك فعلًا مـع طائرات الموجة الثانية، ويصيب إحداهـا.. ولكن طائرته تصاب وهي على ارتفاع منخفض لا يتجاوز الخمسمائة متر - أثناء قيامه بمناورة عدوه - ويشاء القدر أن يهبط البطـل إلى أرضـه الغاليـة حيًّا، ورغم أنه أُصيـب بعجز بالغ فإنه أصر على الاسـتمرار في الخدمـة، وقـدَّر له سـلاح الجو المـصري بطولته وإصراره على الاسـتمرار في خدمة الطيران الحربي، فتقرر بقاؤه في الخدمة حتى اليوم.

5 - الرائد طيار «جلال» وزميلاه: النقيب طيار «شـحاتة» والنقيب طيار «خميس»: يصدر الأمـر للثلاثة يـوم الأربعاء 7 يونية، بالإقـلاع بطائراتهم السـوخوي، لضرب المغارز المتقدمـة من قوات العدو في سـيناء على القطاع المواجه للإسـماعيلية - شرقي القناة - وفجأة وهم فوق مدينة الإسـماعيلية - بعد أن أقلعوا من قاعدتهم الجوية - يصدر لهم الأمر وهم في الجو، بالتوجه إلى العريش لضرب أهداف معادية حُدِّدت لهم.

ماذا يصنع الرجال وهم في هذا الموقف؟ الوقود الذي جُهزت به طائراتهم - السوخوي

أُعـد أساسًـا لرحلة محـددة شرقي الإسـماعيلية.. والأمر الصـادر صريح التوغـل بعيدًا إلى الشرق، والوقود لا يكفي.

لقد سارع الشجعان الثلاثة إلى تلبية الأمر الصادر لهم من قيادتهم، وتوجهوا على الفور لضرب الأهداف التي حددها لهم الأمر الجديد حول العريش، وفجأة ظهرت أمامهم مظلة ضخمـة من طائرات الميراج، واشـتبك الشـجعان الثلاثة مع الدوريـة المعادية التي تفوقهم عـددًا، في معركة جوية رهيبة أصابوا فيها، وأُصيبوا ولم يتخلوا عن أداء واجبهم، حتى آخر نقطة في وقود طائراتهم، وحتى آخر طلقة يملكون توجيهها إلى صدر عدوهم، الذي عاش عمـره يهـرب من المواجهة ولا يُفكـر أبدًا في الدخول في عملية عسـكرية تضطره إلى القتال الحقيقي، رجلًا لرجل، وسلاحًا لسلاح.

ونصـل أخـيرًا إلى مثل أعتقد أنـه لايزال حيًّا - وبشـكل بالغ الإيـلام - في ذهن العدو الإسرائيـلي، وأعنـي به العمليات الهجوميـة البطولية، التي قام بها سـلاحنا الجوي المصري في معـارك 14 و15 يوليـة عام 1967، وهي المعارك التي بددت إلى الأبد أحلام المؤسسـة العسـكرية بتـل أبيـب، في إمكانيـة شـفاء الوجـدان الصهيوني المخـرب من عقدة ماسـادا القديمة، مع زرع هذه العقدة الرهيبة في الوجدان العربي.

ففي ذلك اليوم الذي أثبت صلابة البناء النقي للمقاتل المصري، كان الصلف الإسرائيلي قد بلغ ذروته، وكانت نشوة النصر السهل الذي حصلت عليه إسرائيل في 5 يونية قد وصلت إلى قمة عبثها بالعقل العسكري الإسرائيلي، فتفتق ذهن قادة إسرائيل عن لعبة جديدة يتسلى بها جنودهم الذين كانوا يستحمون في مياه القناة.

وخلال يومي 12 و13 يولية عام 1967 - وجرح الهزيمة في قمة إيلامه للنفس المصرية - أحس رجالنا الرابضون في قطاع السويس، بأن شيئًا غير عادي يجري على الضفة الشرقية التي يحتلها العدو.

كانت عمليات التشـوين للمؤن والذخائر وجلب العتاد من الخطوط الخلفية للمقدمة، مسـتمرة طـوال هذيـن اليومين.. ومعنى هذا ببسـاطة أن العـدو يعد نفسـه لعملية جديدة ستكشـف السـاعات القادمة عن طبيعتها، وفجـأة وبدون مقدمات فوجـئ الرجال الذين تغلبـوا عـلى جرح الهزيمة بشـجاعة أسـطورية، بالعدو ينـزل إلى مياه القناة بقـارب به عَلَم إسرائيـلي، وحبس رجالنا أنفاسـهم في انتظار ما يقصده العدو بهـذه الحركة المسرحية، وإذا

بالقارب الصغير يتجه إلى إحدى الشمندرات العائمة التي تتوسط مياه قناة السويس، ليتوقف بجوارها، بينما يحاول أحد جنود العدو تثبيت العلم الإسرائيلي بالشمندورة.

لقد وضح الأمر إذًا أن العدو في قمة اعتزازه بقوته العسكرية، يحاول أن يفرض بالقوة - على طريقته - أمرًا واقعًا جديدًا وهو تثبيت علمه في منتصف مياه القناة إعلانًا لملكيته لهذه المياه، ورغم ما في هذا التصرف الاستفزازي من سلوك طفولي، لا يقوم عليه فكر عسكري متزن، مهما كان إحساس أصحابه بقوتهم وتفوقهم على العدو الذي يواجهونه، فإن رجالنا لم يطيقوا مشاهدة هذا العبث وهم يقفون موقف المتفرج، ورغم أن قواتنا المسلحة بجميع أفرعها، كانت تجتاز أخطر مراحل إعادة بنائها بعد هزيمة يونية بحجمها الهائل فإن أن أبطال مصر لم يترددوا لحظة واحدة في التعامل مع العدو، رغم معرفتهم الكاملة بالفارق الهائل بين الإمكانيات المتاحة من العتاد والذخيرة على كلا الجانبين.

ومع اندلاع نيران القتال الضاري، كان لا بد لسلاحنا أن يسارع بمد يد العون لمقاتلي مصر الشجعان، رغم أن هذا السلاح كان يمر في الأيام الأولى بفترة نقاهة عصيبة، بعد ضربة 5 يونية الساحقة، وكان ظهور طيراننا الحربي في ذلك الوقت هو مفاجأة المفاجآت للعدو.

وبدأ طيارونا ضرباتهم الهجومية المركزة على قوات العدو شرقي القناة وفي ذهن كل منهم هدف محدد لا بديل له أن يكون لمصر سلاح جوي قادر على إثبات وجوده، أو لا يكون. وفوجئ العدو الذي كان يفاخر بأنه يملك ذراعًا طويلة قادرة، اسمها الطيران الإسرائيلي، بأن في مواجهته ذراعًا أخرى لا تقل قوة وبطشًا، بل لعلها أكثر قوة واقتدارًا - إذا راعينا الظروف العصيبة التي كان سلاح الجو المصري قد واجهها صباح 5 يونية - وإذا بهذا السلاح الذي كان العدو يحلم بأنه قضى عليه أو أصابه بالشلل، يظهر إلى الوجود بشكل مفاجئ، كما يحدث في القصص السينمائية.

مائتا طلعة هجومية - تقريبًا - تمت كلها بنجاح، ودمر فيها طيارونا الشجعان آلاف الأطنان من الذخائر والمؤن، وعشرات النقط الإدارية ومواقع المدفعية والصواريخ والدبابات ونقط الإنذار، تم تدميرها بالكامل؛ بحيث استمرت الحرائق مشتعلة في مواجهة قطاع السويس لبضعة أيام، استمتع بمشاهدتها أبناء المدينة الباسلة أيامًا عديدة.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الجحيم الذي صبَّه الطيران المصري على العدو في هذه

المعـارك - لكـي يعاون قواتنـا البرية في صمودها الباسـل - أن عرفـت إسرائيل لأول مرة في تاريخها شـيئًا اسـمه طلب إيقاف القتال، بعد أن وجدت نفسـها في مواجهة نيران ضارية لم تكـن تتوقعها، ولأول مرة في تاريخ إسرائيل تسـتنجد بمراقبي الأمم المتحدة ليسـعفوها بطلـب إيقـاف القتال بعد أن اضطـر جنودها إلى الانسـحاب شرقًا من سـيناء كلها تقريبًا؛ حتـى وصلوا في انسـحابهم إلى العريش، هربًا من ضراوة النيران التـي صبها عليهم المقاتل المصري جوًّا وبرًّا.

الـذي نسـتطيع أن نؤكـده الآن، أن هـذه النيران التـي صبها رجالنا عـلى العدو في هذه المعركة، لم تدمر ذخائر العدو ومعداته فحسـب، ولم تحرق رجاله وما يمتلكونه من سـلاح فقط، ولكنها أحرقت ودمرت قبل كل شيء، جنون العظمة الذي كان قد استبد بجنرالات المؤسسـة العسـكرية في تل أبيب.. واسـتطاع رجالنا بشـجاعتهم الأسـطورية وسـيطرتهم الكاملـة عـلى ما كان متاحًا لهـم في ذلك الوقت من طائرات، أن يبـددوا حلم جنرالات تل أبيب في شـفاء الوجدان الصهيوني من عقدة ماسـادا الشـهيرة، كما أثبتت هذه المعارك بلغة ضارية أن الوجدان الأصيل للمقاتل المصري الشجاع يستعصي على الانهيار.

هنـاك كلمـة حق لا بد أن نقولها في ختام هذا الجزء، بعـد أن قمنا بتحليل لعملية «طوق الحمامة» تحليلًا علميًّا هادئًا، بعيدًا عن ضجيج الدعايات المغرضة، واسـتطعنا بهذا التحليل الموضوعـي - القائم على قواعد الفكر العسـكري الحديـث المعترف به منا ومن العدو - أن نكشـف الأصـل الأنجلوفرنسي الذي نقل عنـه الجنرال «مردخاي هـود» عمليته الهجومية نقلًا حـرفيًّا، ووقع خلالـه في غلطـة لا تغـتـفـر، حين غفل عن الفارق الهائل بين الهدف الاستراتيجي للأصل الأنجلوفرنسي والتقليد الإسرائيلي.

إن واجـب الإنصاف - حتـى للخصم - يفرض علينا الآن، أن نقول كلمة حق لا مجال لإنكارها؛ لقد كان للجنرال «مردخاي هود» - وطياريه الذين نفذوا عملية 1967 دور بالغ الأهمية في النجاح السـاحق الذي حققه سـلاح الجو المصري في العملية الهجومية «صِدام» التي نفذها طيارونا المقاتلون بإحكام بالغ ظهر السادس من أكتوبر عام 1973 .

ونحـن لا نقول هذا الكلام من باب السـخرية بالعدو، ولا نسـوق هـذا القول من باب الشـماتة بخصم نِلْنا منه في 6 أكتوبر، في اللحظة التي وصل فيها هذا الخصم إلى قمة غروره وتعاليـه وتطاوله على مقاتلينا، بالسـخرية التي تجاوزت حدود السـفـه، فـضلًا عن حدود

الاتـزان التـي يجب ألا يتخطاها عـدو عاقل يؤمن بأن الخصـم عنده دائمًا مـا يخفيه. ولكننا نسجل للحقيقة والتاريخ، أنه لولا ضربة 5 يونية الإسرائيلية بكل مرارتها على نفس المقاتل المصري، لما تحقق النجاح الساحق الذي تحقق لنا في ضربة 6 أكتوبر الهائلة.

نقولها الآن صريحة وبلا مواربة: إنه كان من المسـتحيل أن يبقى سـلاح الجو المصري إلى ما لا نهاية، خاضعًا لسـيطرة النظريات العسـكرية البالية التي سادت الحرب العالمية الثانية، وانتهت من الوجود بانتهاء تلك الحرب.

وكان من المستحيل أيضًا، أن يظل سلاحنا الجوي أسير النظرية المفاضلة بين «أهل الثقة وأهل الخبرة» التي فرضتها على مجتمعنا مراكز القوى، بكل ما جرته هذه النظرية من حظوة من لا يسـتحق، وتجاهل من يسـتحق، وما سـببته تلك النظرية من مخاطر وكوارث وصلت إلى ذروتها صباح 5 يونية.

وكان لا بـد مـن نار هائلة تحرق هذه الأخطاء، وتزيح كل مـا يعوق الطريق، لكي يتابع شعبنا مسيرته بلا أخطاء وبلا معوقات.

لم يكـن طيـارو «مردخاي هـود» يتصورون أنهـم صباح 5 يونية عـام 1967، يقدمون لسـلاح الجو المصري - بل لشـعب مصر كله - خدمة العمر. لم يكن طيارو مردخاي هود يتصـورون أن مئات الصواريخ وقنابل الممرات التي ألقوا بها على المطارات المصرية، كانت تفسح الطريق أمام جيل جديد من القادة، وأمام فكر عسكري جديد، طال بسلاحنا الجوي انتظار وصوله.

إن الصواريـخ والقنابل الإسرائيلية لم تدمر فقط طائراتنا، بل دمرت وأحرقت أيضًا كل ما كان يعوق سلاحنا الجوي، من فكر عسكري متخلف، وأخطاء في التخطيط، وإهمال في التنفيذ، وإذا كانت الحياة لا تنشأ من عدم، ولا تعيش في فراغ، فقد فرض الأمر الواقع نفسه، وفتح الباب على مصراعيه لجيل جديد من القيادات المسلحة بالفكر والموهبة والممارسة.

جيل كان قد استوعب تمامًا درس النكسة بكل مراراتها، وتقدم ليسير في الطريق الطويل طريـق الألـف ميل، الذي كان محتمًا أن يصل به إلى ملحمـة 6 أكتوبر الرائعة، ملحمة كانت مقدماتها الرائعة في سـنوات الإعداد والبناء، التي سماها قائدنا الأعلى - الرئيس محمد أنور السادات: سنوات الصبر والصمت.

"... إن أقسى ما تواجهه النفس البشرية هو الاعتراف بالخطأ. وما نرجوه من وراء هذه العملية القاسية على النفس أن نضع أمام الأجيال المقبلة من مقاتلينا، خريطة دقيقة وأمينة لأحداث يوم لن يتكرر في حياة الأمة العربية.."

كشــف حســاب الهزيمـــة

قال الرئيس أنور السـادات في ورقة أكتوبر: «ليكن واضحًا أننا نبني ولا نهدم، نصحح ولا نحطم، نطور وندعم كل ما هو إيجابي، بقدر ما نصفي ما هو سـلبي، نكشـف الأخطاء في غير مغالاة، ونرفض كل محاولة لتركيز الأضواء كلها على الجوانب السـلبية، حتى تختفي من الصورة كل الجوانب المشرقة».

والدارس المحقق لعبارة الرئيس السادات يجد فيها المعنى الذي تأكد في سنوات الصمود والإعـداد قبـل المعركة، أو خلال المعركة نفسـها أو بعـد إيقاف القتـال. إن الأمم العظيمة لا تبنيهـا إلا الآلام العظيمـة.. والخيط الدقيـق - الوحيد - الذي يفصـل بين صغار الأمم وكبارهـا، هو كيفية اجتيازها للمحن الكبيرة، والروح التي تواجه بها الآلام العظيمة، التي تمتحن بها الأمم في المواقف الحاسمة من تاريخها.

إن بعض الأمم تنهار عند أول نازلة تلمُّ بها، لكن البعض الآخر يستعصي على الانهيار، ويتأبـى على التحلل والضيـاع. والأمة ذات الأصل العريق الضـارب في أعماق التاريخ تمد الفرد أولًا وأمته من بعده، بالدرع التي تقي الفرد والأمة على السواء بأسباب البقاء وتسلحه بعناصر المقاومة اللازمة لاجتياز المحنة مهما عظمت، وتخطي الهزيمة مهما اتسع حجمها.

التاريخ البشري مليء بالأمثلة الحية على هذه الظاهرة الفريدة.. ويكفي أن نذكر شـعوبًا

كاليابان والألمان، اجتازت أخطر ما يواجه الشعوب من محن، وهو الهزيمة الساحقة في حرب لا تتوقف إلَّا بالاستسلام الكامل لشروط الخصم المنتصر.. ورغم قسوة هذه الشروط فإن اليابان أو ألمانيا سرعان ما استعادت نفسها، وضمدت جراحها، لتنطلق من جديد مؤكدة وجودها المادي والحضاري كقوة ثالثة أو رابعة لعالمنا المعاصر.

إن ظاهرة التفوق على المحنة، واجتياز الهزيمة السريعة - شبه الساحقة - تحققت كذلك على أرضنا المصرية بصورة رائعة أكثر إعجازًا، وأكثر اقترابًا في حجمها المضيء، من جو الأسطورة التي يصعب على العقل تصديقها، لو أخضعنا الحوادث والمقدمات لمقاييس النتائج المنطقية المترتبة عليها.

ولعل بداية التفوق المبكر على المحنة التي حدثت بسبب ضربة 5 يونية، كان هو المواجهة الصريحة مع النفس، التي بدأت بالتغيير الجذري الذي تم في أعلى مستويات القيادة العسكرية يوم 12 يوليو 1967 وبعد ثلاثة أيام فقط من قبول القيادة السياسية المصرية لقرار وقف إطلاق النار، الذي كان مجلس الأمن قد أصدره.

إن تغيير القيادة - في أي مجال من مجالات العمل البشري مدنيًّا كان أم عسكريًّا - يعني بالضرورة تغييرًا حتميًّا في الفكر الذي تنتهجه القيادة الجديدة، وما يؤدي إليه تغيير الفكر من تغيير في مناهج التخطيط وأساليب التنفيذ معًا. والتغيير الجذري الذي تم في القيادة العسكرية المصرية على أعلى مستويات هذه القيادة - بدءًا من القائد العام للقوات المسلحة كلها، إلى قادة الأسلحة المختلفة، ورؤساء الأركان وغرف العمليات - أدى إلى ظهور روح جديدة طال بقواتنا المسلحة الشوق إليها، وتجلت هذه الروح الجديدة الشابة في وضع خطة عاجلة لمواجهة المهمة الخطيرة، التي ألقتها الحوادث والظروف على كامل القيادة الجديدة.

كان شعب مصر - ومن ورائه الأمة العربية - يعيش أفظع محنة واجهها في تاريخه الحديث.. كانت هزيمة يونية أبشع من أن تُحتمل، وتكفلت أجهزة الحرب النفسية لدى العدو بتضخيم حجم الهزيمة بشكل رهيب، ما دفع بالرئيس الراحل «جمال عبدالناصر» - إلى إعلان تخليه عن موقعه كرئيس للجمهورية، متحملًا وحده - كما أعلن في بيان تنازله مساء الجمعة التاسع من يونية - مسئولية الهزيمة الرهيبة.

كان هول الصدمة قد أشاع الضباب الذي تضيع فيه الرؤية الصحيحة، بحيث لم يجد

المرحـوم الرئيس السـابق «جمـال عبدالناصر» في ذلـك الوقت - أمامه مـن طريق للخروج بمصر - وبالأمة العربية سوى قرار الاستقالة، ليفسح المجال أمام رئيس جديد قد تلوح له فرصة الخروج - بشكل أو بآخر - بالشعب من هذا الطريق المسدود.

إلاَّ أن الشعب المصري - بكل أصالته العريقة، وبصلابة أسطورية معجزة أذهلت الخبراء والمحللين - رفض هذا الحل، وأعلن الشعب - وشاركته الأمة العربية في مظاهرات تاريخية لا تُنسى - أن استقالة عبدالناصر ليست الطريق السوي الموصل إلى الحل الصحيح؛ لأن أي تغيير داخلي في شكل الحكم وقيادته، وفي هذه الظروف العصيبة، يعني قبول الشعب لحل أجنبي فرضه العدو بقوة السلاح.

هذا الشعب المصري بكل عناده وبكل صلابته التي تحطمت على شواطئها كل موجات الغزو الأجنبي طوال عصور التاريخ، ليس بالرخو الذي يقبل الهزيمة، أو يستسلم لحلول أجنبية تفرضها الهزيمة مهما كان اتساع حجمها. وكان رد الشعب المصري في يومي 9 و10 يونية حاسمًا وقاطعًا.. لا قبول للهزيمة، ولا اعتراف بها، ولا استسلام لنتائجها، وبالتالي.. فلا رضًا بالأسباب التي أدت إلى وقوع الهزيمة وحولتها إلى ما يشبه الكارثة.

استجابت القيادة السياسية المصرية لقرار الشعب، فتراجع عبدالناصر عن قرار الاستقالة من جهة، وأسرع باتخاذ الخطوات الضرورية لتلافي أسباب الهزيمة من جهة أخرى، وكانت أولى هـذه الخطـوات.. قـرار إعفاء القيادات العسـكرية السـابقة، وفتح الطريـق أمام جيل جديد من القيادات، ليتولى المسئولية في أخطر الساعات التي واجهها شعب مصر في تاريخه الحديث.

لقد أدى الشعب واجبه، فرفض الهزيمة، ورفض الحلول الأجنبية التي كان يتحتم عليه أن يقبلها لو أنه استسلم لتلك الهزيمة.. وعلى القيادة الجديدة أن تقوم هي الأخرى بواجبها بنفس الشجاعة والصلابة.. وواجب القيادة العسكرية الجديدة كان يتلخص في عبارة بسيطة في كلماتها، رهيبة في معناها ومدلولها العملي.. وهي «إعادة بناء القوات المسلحة»... عملية كانت تقتضي بناءً سليمًا وعلى أساس صحيح، يؤمن بالفكر الحديث ومناهجه في بناء الجيوش برًّا وبحرًا وجوًّا.

كان عـلى الجيل الجديـد من قادة العسكرية المصرية إذا أراد النجـاح في مهمته الصعبة، أن يُنفذ في حرفية صارمة القواعد التي ينادي بها الفكر العسكري الحديث، عند إعادة بناء

الجيوش التي خرجت من هزيمة مرة، أملًا في وضع هذه الجيوش على الطريق الذي يؤدي بها إلى النصر، وتتلخص هذه القواعد في النقاط التالية:

أولًا: تحديد الأخطاء التي أدت إلى وقوع الهزيمة، تحديدًا دقيقًا يخلو تمامًا من أي أثر للمجاملة التي تدفع أحيانًا إلى إخفاء بعض الأخطاء إخفاء تامًّا - كما كان يحدث قبل 5 يونية - أو التهوين من خطرها لو تم عرضها بسرعة وإيجاز.

كما يجب أن تخلو عملية تحديد الأخطاء - وحصرها - من الوقوع في براثن المغالاة والتضخيم - سواء بدافع الكراهية للقيادات التي تسببت بأخطائها في وقوع الهزيمة، أو بدافع الإحساس المدمر بالذنب، الذي يتحول في كثير من الحالات إلى عقدة نقص رهيبة تدمر نفسية الإنسان المهزوم - مدنيًّا كان أم عسكريًّا - وتدفعه لا شعوريًّا إلى التضخيم من حجم أخطائه بنفس القدر الذي يتضخم به حجم انتصار الخصم.

هذا المنزلق الخطر - الذي تعرضت له بعض الشعوب المهزومة يؤدي بها في النهاية إلى الاستسلام الكامل للهزيمة، والقبول بمنطقها الظالم، الأمر الذي ينتهي بمثل هذه الشعوب في الغالب إلى فترة ركود حضاري، قد تمتد إلى ما لا نهاية، وقد تصل بالشعب الذي أسلم نفسه - عقب الهزيمة - لعقد الإحساس بالذنب إلى التحلل والضياع في بحر الوجود البشري الواسع.

ثانيًا: الانتقال من تحديد الأخطاء - سواء في التخطيط أو التنفيذ إلى تحديد حجم الخسائر الناتجة عن الأخطاء التي تردت فيها القيادات المهزومة، وهذه العملية بالذات تعتبر من أخطر العمليات التمهيدية التي تسبق مباشرة الانطلاق في عملية البناء العسكري للجيوش التي اكتوت بنار الهزيمة.

والسبب في أهمية عملية حصر الخسائر، وتحديد حجمها بدقة أنها تضع أمام القيادة العسكرية الجديدة - التي تتصدى لإعادة البناء خريطة شاملة لموقفها العسكري، وتساعد بالتالي على تحديد حجم الجهد المطلوب من هذه القيادة، وبمعرفة المساحة الزمنية المتاحة أمامها لتحقيق البناء الجديد لقواتها.

ومن هنا فإن عملية «حصر الخسائر وتحديد حجمها» - عقب الهزيمة - يجب أن تسير في مجموعة من الخطوط المتوازية، التي تتحرك كلها في وقت واحد، وفي اتجاه واحد، يؤدي إلى

نتيجة لابد من الوصول إليها، وهي.. معرفة ما حدث بالضبط وعلى وجه الدقة.. وتحديد ما ضاع.. وما بقي بين يدي القيادة الجديدة. وكل هذا يحتم أن تشمل عملية حصر الخسائر النوعيات التالية:

1 - الخسائر المادية في المعدات العسكرية من سلاح وذخيرة وحجم الخسارة في كل نوع بالتحديد.

2 - الخسائر البشرية في المقاتلين - استشهادًا أو إصابة - مع تحديد نسبة الخسائر في كل نوعية من المقاتلين.

3 - الخسائر الاقتصادية، التي تعرضت لها الوحدات الاقتصادية والإنتاجية - داخل الوطن - وتحديد أثر هذه الخسائر على حركة الاقتصاد الوطني وقدرته على الوفاء باحتياجات القوات المسلحة، وخاصة في مرحلة إعادة البناء العسكري.

4 - وأخيرًا - وليس آخرًا - يتحتم القيام بعملية تحديد بالغة الدقة لحجم الخسائر المعنوية التي أصابت نفسية المواطن - مدنيًّا كان أم عسكريًّا - من أثر الهزيمة العسكرية.

إن المدارس التقليدية - في الفكر العسكري - لا تُعنَى العناية الكافية بعملية حصر الخسائر المعنوية الناتجة عن الهزيمة، سواء أكانت هزيمة استراتيجية شاملة، أم هزيمة تكتيكية مرحلية، لكن المدارس الحديثة تعطي لهذه العملية المعنوية أهمية قصوى تتوازى تمامًا مع حجم الضربة العسكرية المعادية، إيمانًا من الفكر المعاصر بخطورة الحرب النفسية الحديثة وقدرتها التدميرية الفائقة التي تفوق في كثير من الأحيان قدرة أخطر الأسلحة على الفتك والتدمير.. لأن هذه الحرب النفسية البشعة لا تستهدف تدمير ما أقامه الإنسان على أرضه من مظاهر الحياة ومؤسساتها، ولكنها تتجه مباشرة إلى هذا الإنسان ذاته تقتل روحه، وتدمر نفسه، وتتركه حطامًا مشلولًا، لا نفع فيه لنفسه ولا خوف منه ولا خطر على خصمه.

ثالثًا: تحديد الهدف المقصود تمامًا من عملية إعادة البناء العسكري. ورغم أن هذه الخطوة قد تبدو في ظاهرها خطوة سياسية بحتة، وخارجة على نطاق العمل العسكري التقليدي لأية قيادة حربية؛ لأنها مرتبطة بالرسالة والهدف الاستراتيجي القومي للجيوش،

وهو هدف ترسمه القيادة السياسية العليا للدولة، وتستوحيه من ضمير الأمة ورسالتها الحضارية التي تؤمن بها على المستويين: الإقليمي المحلي، والإنساني العالمي.

فإن هذا المظهر السياسي الخارجي لرسالة الجيوش يحوي في حقيقته مضمونًا عسكريًّا خالصًا، ويضع على كاهل القيادة العسكرية أخطر مَهَامِّها من الناحيتين - الاستراتيجية والتعبوية - لأن تحديد المهمة المطلوبة من أي جيش، سواء أكانت هذه المهمة دفاعية أم هجومية، هو الذي يرسم الخطوط العريضة التي يتحتم أن تسير فيها عملية بناء هذه الجيوش، إعدادًا وتدريبًا وإمدادًا. كما أن تحديد الهدف من إعادة بناء الجيوش، هو الذي يضع خريطة الموقف العسكري الذي يحدد للقيادة الجديدة مسرح العمليات المحتملة، وحجم هذه العمليات واحتياجات القيادة التي تضع الخطط المستقبلية من العتاد والرجال كمًّا ونوعًا.

رابعًا: تأتي مرحلة إقامة البناء المستهدف بعد كل هذه الدراسات الدقيقة، وهي مرحلة التنفيذ وتحويل الخطط إلى واقع ملموس ينتقل بالأرقام المجردة على الورق إلى أعداد هائلة من الرجال والنساء، تلك القدرة - كمًّا ونوعًا - على فرض الإرادة الوطنية على العدو، وتحول الهدف القومي الذي ضحى المواطن العادي من أجله إلى واقع مشرف لهذا المواطن، يعطيه الإحساس بالأمن على أرضه، والثقة بنفسه وبقواته المسلحة، والرضا الكامل عن كل ما بُذل وقُدم من تضحيات.

وإذا كانت المراحل الثلاث السابقة - القائمة على التخطيط البحت - تستلزم الدقة الكاملة في إعطاء البيانات، ورسم الخطط المستهدفة، فإن المرحلة الرابعة والأخيرة - وهي مرحلة التنفيذ العملي لكل ما سبق رسمه من خُطط وأهداف - تحتاج في نجاحها إلى ثلاثة عوامل مهمة لابد من توافرها، لكي تتم مرحلة التنفيذ بأكبر قدر من النجاح، الذي يحول عملية إعادة البناء العسكري من مجرد حُلم قومي، إلى واقع عملي يسعد به الشعب، ويكتوي الخصم بناره المحرقة، وهذه العوامل الثلاثة هي على وجه التحديد:

1 - الدقة الكاملة في تنفيذ الخطط الجزئية ومشروعات التدريب دقة لا تعرف التساهل، ولا تتغاضى حتى عن أبسط الأخطاء خاصة ما نشأ عن الإهمال أو التقصير.. وهذه مهمة القيادة على جميع المستويات، ابتداءً من قائد الجماعة الصغيرة، وانتهاءً برؤساء الأركان وكبار القادة.

2 - الصبر - الذي لا يعرف الملل - على مشاق التدريب ومصاعبه طوال مراحل إعادة البناء، وهذه مهمة كل الرجال.. القادة والمقاتل العادي سواء بسواء.

3 - المرونة التي لا تتوقف أمام المشاكل الطارئة التي تتكشف أثناء التنفيذ العملي للخطط والمشاريع التدريبية.

عامل المرونة من أخطر العوامل في عملية إعادة البناء العسكري للجيوش؛ لأن القائد المرن - مثل المقاتل المرن - لا يعترف بالمستحيل، ولا يتعلل حتى أمام نفسه بالمصاعب، بل يعمل جهد طاقته على تخطِّي كل ما يواجهه إن كان فردًا مقاتلًا أو يواجه رجاله من عقبات إن كان قائدًا مسئولًا، والفرق الجوهري بين المقاتل الجامد الفكر - الذي يقع أسير الواقع المحدود، أو فريسة لنظرية تقليدية جامدة - وبين القائد المرن، المتحرر فكرًا وممارسة، أن الأول يستسلم لمنطق العجز عندما يواجه بما لم يكن يتوقعه ولم يحسب حسابه، سواء في مشاريعه الميدانية وقت السلم، أو عند مواجهته الصدامية مع الخصم على مسرح العمليات.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إلى أي مدى نجحت القيادة الجديدة للعسكرية المصرية في القيام بالمهمة التي كُلفت بها عقب 5 يونية 1967؟

الإجابة عن هذا السؤال - على إطلاقه - تقتضي توسيع دائرة البحث، لكي نقدم صورة شاملة لما جرى داخل أسوار العسكرية المصرية كلها - برًّا وبحرًا وجوًّا - وتلك مهمة بالغة الشمول والاتساع، والتصدي لها يخرج عن دائرة هذا الكتاب الذي اتجهنا فيه إلى قواتنا الجوية على وجه التحديد، ورغم ما في الصورة الشاملة - لإعادة بناء الأسلحة المختلفة لقواتنا المسلحة - من جمال وروعة وشموخ، فإن اقتصارنا على رسم صورة أمينة لعملية إعادة البناء في سلاح الجو المصري - بعد ضربة 5 يونية - سيعطي مثالًا مكثفًا لما جرى في باقي أفرع القوات المسلحة المصرية خلال سنوات الصبر والصمت - التي أعقبت 5 يونية، ومهدت للسادس من أكتوبر - وهو مثال مشرف للعسكرية على أي مستوى عالمي.

بعد هذا الإطار النظري، أنتقل إلى الجانب العملي. إن أقسى ما تواجهه النفس البشرية هو الاعتراف بالخطأ.. وما نرجوه من وراء هذه العملية القاسية على النفس أن نضع أمام الأجيال المقبلة من مقاتلينا خريطة دقيقة وأمينة لأحداث يوم لن يتكرر في حياة الأمة

العربية.. لكي يأخذوا منها عبرة التاريخ ودرسه الذي يُحدد لهم معالم الطريق إلى مستقبل بلا أخطاء وبلا تقصير، وبلا أيام ظالمة لهم ولأمتهم كيوم الخامس من يونية عام 1967.

كانت النكسة باعتراف الجميع بمثابة جرس الإنذار الهائل الذي أفاقت على دقاته الأمة العربية بعد سُبات طويل، كما انهالت بطرقاتها المدوية على أرض الواقع العربي، فغطى دويها على ما يتردد من أصداء الخلاف المفتعل بين أبناء الأمة الواحدة. وفتح العرب أعينهم على حقيقة مرعبة لم تكن تخطر لهم على بال... لقد انتهز العدو فرصة الإغفاءة العربية، فسرق منهم نصرًا هائلًا في حجمه، رخيصًا في ثمنه وفي التضحيات التي بُذلت لتحقيقه.

ولسنا من السذاجة بحيث نصدق ما زعمته إسرائيل عشية الخامس من يونية 1967، من أنها كانت تستهدف بضربتها الغادرة تحطيم القوات المسلحة العربية، وتقليم أظافرها الناتجة على الجبهات الثلاثة.. المصرية والسورية والأردنية. لقد كان هذا تبريرًا دعائيًا كاذبًا، أرادت به أجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية أن تقنع العالم كله أنها قامت بها قامت به دفاعًا مسبقًا عن النفس، لا من قبيل العدوان على جاراتها العربيات.

وإذا كان المجتمع الدولي سواء بدافع من التغافل عن حقيقة العدوانية الإسرائيلية، أو بدافع المجاملة، أو الخضوع لسيطرة أجهزة الدعاية الصهيونية قد صدق الأكذوبة وابتلع الطعم، فإن أمتنا العربية عامة وشعبنا المصري خاصة كانا أكثر ذكاءً من أن يغفلا عن حقيقة الهدف الذي أحكمت إسرائيل إخفاءه وتمويهه وراء ضربتها المفاجئة عام 1967.

لقد أدرك العرب والمصريون بحكم أصالتهم الحضارية، وبدافع من معرفتهم بحقيقة الدعوة – إسرائيلَ ومكوناتها العنصرية، وعقدها القديمة أنها حين قامت بها قامت به صباح 5 يونية، لم تكن تريد إجهاض القوة العربية النامية، أو تقليم أظافرها، ولم تكن تريد تأمين حدودها كما زعمت، إنما كانت تستهدف أولًا وأخيرًا تدمير الشخصية العربية من الداخل تدميرًا نفسيًّا شاملًا يحول الإنسان العربي إلى كائن مشوه عقليًّا ونفسيًّا ويجعل منه مخلوقًا ضعيف الإرادة، مهزوز الفكر، تحكمه عقد نقص هائل، وإحساس مميت بالخوف من عدوه الذي لا يُقهر.

ويؤدي هذا الهدف ببساطة إلى أن ينزع العرب من المنطقة بأسرها إذا أمكن هذا.. أو يتحولوا إلى قطيع من الكائنات شبه الإنسانية المشوهة، لها من الإنسان شكله وصورته، وليس لها من عقله ووجدانه السوي أدنى نصيب، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى خلق

«جيتـو عربي» ينعزل فيه الإنسـان العربي عن حضارة العصر انعـزالًا يؤدي به في النهاية إلى التحجر ثم الانقراض؛ لتخلو منطقة الشرق الأوسط بأسرها لإسرائيل.

يؤكد تحليلنا هذا للأسـباب الكائنة وراء ضربة 5 يونية، أن صقور تل أبيب رفضوا كل الفـرص التي أُتيحـت لهم وهم في موقع المنتصر لتحقيق سـلام عادل، كـما يؤيد رأينا ذلك الصلف والغرور الذي انتاب العسكرية الإسرائيلية عشية الخامس من يونية، ما دفع ببعض جنـرالات تل أبيب إلى التفاخر بأن المقاتل الإسرائيلي أعظم مقاتل في العالم، وأنه مقاتل من نوع خرافي لا قبل لأحد بالوقوف أمامه.

إن التهديـد الخفي الذي يكمن وراء الأسـاطير التي نُسـجت حول القـرارات الخرافية للمقاتـل الإسرائيـلي لم يكـن موجهًا للإنسـان الـروسي أو الأمريكي مثـلًا، ولكن مخططي الحرب النفسـية في تل أبيب كانوا يسـتهدفون به أولًا وأخيرًا، نفسـية المقاتل العربي خاصة، ونفسـية أمتـه العربية عامة، ومـن هنا.. كان من المحتـم أن تتجه الشـخصية العربية سريعًا للدفاع عن النفس ضد ما يراد لها من تفكك وتحلل، وبما يدبره لها من ضياع وهوان.

كانـت القـوات المسـلحة المصرية هي عنـصر الامتصـاص الرئيسي الـذي حول ضربة 5 يونيـة مـن بداية «عقـدة عربية» كما كان العـدو يتمنى إلى نهاية غير مأسـوف عليها لعصر الارتجال والأخطاء في تاريخ العسكرية المصرية.

إن الضربـة التـي وُجهت إلى المطارات المصرية عام 1967 بكل ما أحاط بها من ظروف وملابسـات على الجانبين المصري والإسرائيلي، لم يكن ليقدر على صدها أقل من مائة طائرة معلقة في الجو كدوريات حراسـة، فضلًا عن عدد هائل من أجهزة الإنذار المبكر ووسـائل الدفـاع الأرضي الثابت لم يكن مُتاحًا وقتها؛ وهذا العدد الضخم من الطائرات الاعتراضية يتعذر توافره في وقت واحد في الجو، حتى للدول الكبرى.

وفي إطـار السرية التي تفرضها دواعـي الأمن القومي لقواتنا المسـلحة عمومًا، وقواتنا الجويـة على وجه الخصوص، نسـتطيع القـول بأن القيـادة المصرية الجديدة التـي أُخذ عنها الأسـلوب العلمي في إعادة بناء الجيوش وجدت نفسـها على المستوى العسكري البحت، وبـصرف النظر عن الأخطاء السياسـية أمـام الأخطاء التالية التي عجلت بوقوع النكسـة، وساعدت على تضخيم حجمها بشكل غير طبيعي:

أولًا: مغـالاة بعـض القيـادات في تقديـر قوتنـا العسـكرية في مختلف مجالات التسـليح

بالنسبة لقوة العدو، اعتمادًا على بعض المؤثرات والمقارنات العددية السطحية، التي دفعت ببعض المسئولين إلى التصريح بأنه أصبح لدينا سلاح جوي يعتبر أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط.

هذه التصريحات المبالغ فيها كان من نتيجتها المحتمة إشاعة نوع من الثقة الزائدة بالنفس، يمكن أن تؤدي في كثير من الأحوال إلى نوع من الاسترخاء بدرجة أو بأخرى ينشأ عن اغترار القوي بقوته، واستهانته بخصمه... وهو الخطأ الذي استفدنا منه بعد 1967، بينما نجد أن العدو وقد تردى فيه بشكل قاتل.. وفي الوقت الذي أخذت فيه القيادة المصرية الجديدة جانب الحذر سواء في تقديرها لقوتها، أو لقوة الخصم... كان العدو مستسلمًا تمامًا لدواعي الغرور بقوته والاستهانة بقوتنا، حتى استيقظ فجأة على ضربة السادس من أكتوبر.

إن القائد العسكري الذي يباهي علنًا بقوته لا يفعل أكثر من أن يسيء إلى قواته دون أن يدري؛ لأنه بعقد هذه المقارنات الهوجاء يستفز مخابرات العدو لكشف ما عنده من رجال وعتاد، وهو خطأ استفادت منه القيادة المصرية الجديدة، فلم تكرره أبدًا طوال سنوات الإعداد والبناء العسكري، بل إنها على العكس أتقنت نقيضه تمامًا، ونجحت في تسريب المعلومات المضللة المصوغة بعناية كاملة بحيث اقتنع العدو، قبيل المعركة أن سلاح الجو المصري يعاني من الهزال والضعف بسبب عجز الإمكانيات ونقص قطع الغيار بصورة تجعله غير قادر على التصدي لأية عملية هجومية يقوم بها سلاح الجو الإسرائيلي ضده، فضلًا عن مجرد التفكير في الإقدام على حماقة الهجوم على قوات إسرائيل التي تحتل سيناء في مواجهته.

ثانيًا: عدم حساب قدرات العدو القتالية على أساس الدراسة العلمية والعملية لأساليب التدريب المتبعة في سلاح الجو الإسرائيلي، وما تتيحه هذه الأساليب للطيار الإسرائيلي، من إتقان لفنون القتال ليلًا أو نهارًا، والتمرس على الطيران في الأجواء المنخفضة بنفس القدرة على الطيران المرتفع.. وإهمال هذا الجانب من التعرف على القدرات الفعلية للطيار المعادي، خطأ لا يُغتفر.. لأن العبرة في حساب الفرد المقاتل والطيار المقاتل بالذات ليست بحساب الحكم العددي، بل بحساب القدرات والمهارات التي يتقنها المقاتل ويجيد استخدامها على مسرح العمليات.

وقد أثبتت عمليات السادس من أكتوبر المجيدة أن الطيار المصري المدرب تدريبًا عاليًا، والمتمرس على كل فنون القتال الجوي، قادر على ضرب أرقام قياسية معجزة، سواء في عدد الطلعات الجوية التي يقوم بها، أو في الكفاءة القتالية البالغة الارتفاع التي يدير بها عملياته القتالية والهجومية على حد سواء، الأمر الذي جعل المحصلة النهائية لجهود هؤلاء الطيارين الشجعان تفوق بكثير الحساب العددي المجرد لهؤلاء المقاتلين كأفراد.

ولو أن جانب الكفاءة القتالية للطيار المعادي، كان موضع اهتمام قبل 5 يونية، لما وقعنا في خطأ المقارنات العددية المجردة، وحساب قدرة العدو الجوية بعدد طياريه، بصرف النظر عن طبيعة التدريبات التي تلقوها والأساليب القتالية التي أتقنوها، وخاصة في مجال القتال الليلي والطيران المنخفض.

ومن هنا كان على القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري أن تضع في اعتبارها ضرورة التعرف على خطط التدريب التي يمارسها الطيار المعادي، والأساليب القتالية المستحدثة في تدريبه.. ونستطيع مع احتفاظنا بالسرية التي تقتضيها دواعي الأمن أن نقول عن يقين أكدته معارك أكتوبر المجيدة إن سلاح الجو المصري استطاع بعد 5 يونية أن يتعرف بدقة كاملة على خطط وأساليب التدريب المتاحة للطيار الإسرائيلي المقاتل، وأن يضع على ضوئها وفي مواجهتها خطط التدريب المضادة التي تتيح للطيار المصري المقاتل اكتساب المهارات القتالية التي تجعل منه خصمًا شرسًا يحسب له العدو الجوي ألف حساب، قبل أن يفكر في الدخول ضده في معركة تصادمية في الجو.

ولا يفوتنا أن نشير في هذا الصدد، إلى «حرب الاستنزاف» التي يمكن اعتبارها بداية حقيقية لصراع المواجهة بين سلاح الجو الإسرائيلي، وبين قواتنا الجوية التي استفادت إلى أقصى حد ممكن من معارك هذه الحرب في التعرف على القدرات القتالية الفعلية للطيار الإسرائيلي، والأساليب التي اتبعت في تدريبه، والمهارات التي أتقنها.

ولا أفشي سرًّا، إذا قلت الآن إن كل معركة قتالية دخلها طيارونا خلال حرب الاستنزاف مع طياري العدو كانت بكل ما دار فيها بنتائجها، موضع الدراسة والتحليل الكامل من جانبنا، بحيث نخرج منها بالدروس المستفادة التي توضح جوانب القصور والتفوق، سواء من جانبنا أو من جانب العدو، الأمر الذي جعل من هذه المعارك بالنسبة

لطيارينا «مدرسـة ممارسة»، اسـتطاعوا أن يتعرفوا خلالها على أساليب عدوهـم، ومهاراته، وأن يعرفوا هذا العدو معرفة كاملة، يسَّرت لهم عندما حلت سـاعة الصفر في السـادس من أكتوبر أن يلقنوه درس العمر، الذي أعاد له صوابه ونزع من رأسه إلى الأبد أحلام السيادة الجوية على المنطقة.

ثالثًا: انطلاقًا من النقطة السـابقة، وضعت القيادة المصرية بعد الخامس من يونية يدها على خطأ المقارنات العددية المجردة بين ما يملكه العدو من عتاد وسـلاح، وما نملكه نحن بالفعـل..وفي مجال السـلاح الجوي بالـذات، يتضح لنا خطأ المقارنـة العددية المجردة، التي تعتمـد على حسـاب قوة العـدو بعدد ما يملكه من طائـرات، دون النظر بعـين الاعتبار إلى نوعيـة هذه الطائرات ومدى طيرانها، وتسـليحها، والأجهـزة المعاونة التي تجهز بها الطائرة لتيـسر للطيـار المقاتل أن يقوم أو يعجز عـن القيام بمختلف المهام القتاليـة والهجومية التي يُكلف بالقيام بهما.

ودون أن ندخـل في تفاصيل تخل بدواعي الأمن، يكفي أن نشـير إلى أن المقارنة العددية بين ما كان يملكه العدو من طائرات حربية قبل 5 يونية وما كان متاحًا لنا.. أغفلت تمامًا أن سـلاح الجو الإسرائيلي كان يملك وقت هذه المقارنات العددية السـاذجة، عددًا لا يُستهان به من أحدث طائرات القتال البعيدة المدى، كالميراج 3/ س «65 طائرة» والسـوبر مسـتير «خمسـين طائرة»، والمستير 4/ 1 «خمسـين طائرة»، فضلًا عن خمس وخمسين طائرة من طراز أوراجـان فوسـت وعشريـن طائرة من طـراز فوتور وذلـك طبقًا للأرقـام المعلنة، وهي في مجموعهـا طائرات تمثل في ذلـك الوقت أحدث ما أنتجته مصانع الطـيران الحربي في العالم، مـن حيث بعد المدى، أو كمية التسـليح أو الأجهزة المعاونـة التي تيسر للطيار المقاتل القيام بالمهام الموكولة إليه بيسر وسهولة.

رابعًا: من القواعد المسـلم بها في الفكر العسـكري قديمه وحديثه على السـواء أن القائد الناجـح هـو الذي يؤمن بأن العـدو عنده دائمًا ما يخفيـه.. كما ذكرت سـابقًا.والالتزام بهذه القاعدة يستوجب الحرص في وضع الخطط العسكرية تكتيكية كانت أو استراتيجية حرصًا يدفـع بالقائد الذكي إلى توقع المفاجأة من خصمه، وافـتراض البحث عن البدائل والحلول السريعة والممكنة في نفس الوقت، التي تيسر للقائد الناجح عدم الوقوع في مصيدة المفاجآت التي يضعها الخصم في طريقه على مسرح العمليات.

وتبينت القيادة المصرية الجديدة، أن هذه النظرية لم تكن قد أخذت حظها من العناية اللازمة وأثبتت ضربة الخامس من يونية، أنه في الوقت الذي كان العدو يؤمن فيه بعنصر المفاجأة ويرسم خطط عملياته الجوية والبرية على السواء على أساس من المفاجأة الكاملة للقوات العربية.. كانت العمليات العسكرية في الجانب العربي عمومًا تغفل هذا الجانب تمامًا.

إن توقع المفاجأة من العدو يثير خيال المخطط العسكري ويلهب قدرته على تصور كل الاحتمالات الممكنة على مسرح العمليات حتى لو كانت بعيدة الاحتمال، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى نبذ الأساليب النمطية البالية في التخطيط والتسلح بالمرونة اللازمة لامتصاص أية صدمة تحدثها مفاجآت الخصم وألاعيبه المستحدثة على مسرح العمليات.

أما إغفال عنصر المفاجأة، وعدم توقعها من الخصم في أية لحظة، سواء في ساعة الصفر التي تبدأ فيها العمليات، أو في الأساليب والوسائل التي يستخدمها الخصم أثناء قيامه بتنفيذ عمليته الهجومية، فإنه يوقع القائد العسكري ويوقع هيئة أركانه وغرف عملياته كلها فريسة للشلل الذي تحدثه الصدمة.

وكلما كانت المفاجأة التي يلجأ إليها الخصم غريبة أو مستحدثة، سواء في التخطيط لها أو في تنفيذها، طالت مدة الشلل الذي يستولي على القيادة التي لم تحترم عنصر المفاجأة ولم تضعه في حسابها... وطول مدة الشلل الذي تقع فيه القيادة أو قصرها هو الذي يحدد مصير هذه القيادة، ويرسم لها طرق النجاح في امتصاص صدمة المفاجأة أو الفشل في اجتيازها.

يكفي على سبيل المثال، أن نذكر الأثر الذي أحدثه استخدام العدو لسلاح مستحدث في ذلك الوقت هو «قنبلة الممرات».

وحتى لا يفهم كلٌّ منا خطأً، فإن احترام عنصر المفاجأة لا يعني أن يتحول المخطط العسكري إلى «ضارب ودع» أو ساحر يستلهم ظهر الغيب، ويسخر الشياطين في قراءة أفكار عدوه، وكشف ما يخفيه من خطط وما يخبئه من مفاجآت وإنما نعني أولًا وأخيرًا باحترام عنصر المفاجأة وتوقعها من الخصم: أن على المخطط العسكري الذي يريد أن يحمي نفسه ويحمي قواته من صدمة المفاجأة أن يسأل نفسه سؤالًا افتراضيًّا محددًا:

ما المفاجأة الغريبة التي يصعب توقعها، والتي يمكن أن يلجأ إليها الخصم لشلِّ قواتي، وتقييد حريتها على التحرك لمواجهته، بحيث تستطيع قوات هذا الخصم أن تتحرك في حرية

كاملـة، وتنطلق نحو تحقيق أهدافها التكتيكية أو الاسـتراتيجية وهـي في مأمن تمامًا من أي ردع أو عقاب؟

لو أن هذا السـؤال البسـيط كان قد طرح للبحث على السـاحة المصرية قبل 5 يونية، مع التصاعد المسـتمر في الموقفين السـياسي والعسـكري الذي كان يؤكد قـرب وقوع المواجهة السـاخنة مع العدو، لوجد المخطط العسـكري نفسه في مواجهة الاحتمالات الآتية التي لن تخرج صورة العمليات المقبلة وخاصة في مجال الحرب الجوية، على واحد منها بالتأكيد:

1 - **الاحتمال الأول:** هو قيام العدو بعمليات هجومية مفاجئة تستهدف ضرب الطيران المـصري وهـو جاثم على الأرض ضربـة مكثفة يعجز عن امتصاصهـا، ثم يحرك قواته البريـة بعد ذلك لـضرب القوات المصرية المنتشرة أمامه في سـيناء، بعد أن تفقد الحماية الجوية اللازمة.

2 - **والاحتمال الثاني:**أن يكتفي العدو الإسرائيـلي بالوقوف موقف المراقب المتحفز في مواجهة انتشار القوات البرية المصرية على طول الحدود البرية المشتركة، وما يؤدي إليه هـذا التحفز من الجانبين من احتمالات الصدام البري الذي يؤدي إلى اشـتعال الحرب الجوية بين الجانبين بعد ذلك.

ومن المؤسـف أن ما حدث في 5 يونية، أكد بما لا يدع مجالًا للشـك، أن القيادة المصرية العليا على المسـتويين السـياسي والعسـكري كانت قد رجحت هذا الاحتمال السـاذج اعتـمادًا منهـا على ما كانت قد تلقته مـن تأكيدات خارجية بـأن إسرائيل لن تكون هي البادئة بالعمليات.

3 - **والاحتمـال الثالث:** والأكثـر خطورة هو الـذي نفذته إسرائيل بالفعـل... هو قيام العـدو بضربـة جوية مفاجئة، تسـتهدف كل المطـارات المصرية في وقت واحد، لشـل حركة سـلاح الجو المصري، في نفس الوقت الذي تتحرك فيه قوات الجيش الإسرائيلي لضرب القوات المسـلحة المصرية العارية من أي غطاء جوي، مع البحث عن وسـيلة تضمن لها أن يمتد تأثير الضربة الأولى التي يتلقاها سلاح الجو المصري إلى أطول ساحة زمنية ممكنة، بحيث يظل الجيش المصري فريسـة سـهلة لعبث الطيران الإسرائيلي بها، وتحدد مصيرها على أرض المعركة، وفقًا لما خططته المؤسسة العسكرية الإسرائيلية.

هنـا.. لعبـت.. قنبلة الممـرات.. دورهـا الخطير الذي حسـم المعركة جوًّا وبـرًّا لصالح

إسرائيل لمدة طويلة نسبيًّا ولكنها كافية بقياس الحرب الحديثة، لكي تحصل إسرائيل على نصر حاسم في المجال الجوي.. ثم في العمليات كلها رغم توفر أعداد كبيرة من الطائرات المصرية التي لم يصبها التدمير، ولكنها كانت عاجزة عن الاشتراك في المعركة اشتراكًا مؤثرًا في سير العمليات لعجزها عن الإقلاع فوق الممرات التي تم تدميرها بواسطة «قنبلة الممرات» المستحدثة.

حتى لا يتصور البعض أننا نبالغ في تقدير الدور الذي لعبته «قنبلة الممرات» في العمليات الهجومية التي قام بها سلاح الطيران الإسرائيلي ضد المطارات المصرية صباح 5 يونية.. نشير إلى حقيقة معروفة في الفكر العسكري، وهي أن العدو الذي ينجح في امتصاص الضربة الأولى التي يوجهها له الخصم، ويصمد في مواجهة آثارها المادية والنفسية، يستطيع أن يوجه لهذا الخصم المعتدي ضربة مضادة تكون في أغلب الأحيان أشد فتكًا وأكثر ضراوة من الضربة المفاجئة التي تلقاها هو في البداية ونجح في امتصاصها.

ومن المؤكد أن هذه الحقيقة كانت موضع اهتمام من العدو الإسرائيلي، وهو يخطط لعملياته الغادرة في 5 يونية، ومن هنا اتجه تفكيره إلى البحث عن وسيلة مستحدثة تؤخر استعادة القوات الجوية المصرية لتوازنها بعد الضربة الأولى، وتعطل قدرتها على امتصاص هذه الضربة، وتمنعها بالتالي، من القيام بضربة مضادة قد تكون أكثر ضراوة وفتكًا من ضربتها المفاجئة.

وإذا كانت الحاجة، كما يقول المثل العربي القديم، هي أم الحيلة، فقد وجد العدو الإسرائيلي فرصته النادرة للنجاة من الضربة الجوية المصرية المضادة في «قنبلة الممرات» التي عطلت معظم الطائرات المصرية التي نجت من التدمير، وجعلتها عاجزة عن الحركة والإقلاع للاشتراك في المعركة بعد أن تم تدمير ممراتها بفعل القنبلة المستحدثة.

وقد يتساءل البعض: وما الذي كان بوسع الجانب المصري أن يقوم به إزاء سلاح مستحدث، يتم استخدامه لأول مرة في تاريخ الحروب الجوية كقنبلة الممرات المذكورة؟ ورغم ما في هذا السؤال من منطقية وبساطة إلا أن الإجابة عنه لا تقل بساطة ومنطقية عن السؤال نفسه.

كان على الجانب المصري أن يضع في حساباته الدقيقة الاحتمالات الممكنة والحيل المفاجئة التي يمكن أن يفكر العدو في القيام بها للحيلولة بين سلاح الجو المصري وبين

القيـام بضربة مضادة تعقب قيـام إسرائيل بالضربة الأولى التي كانت واردة كاحتمال متوقع عند نشوب العمليات.

التفكـير في هذه الاحتـمالات كان كفيلًا بـأن يفرض على الجانب المصري سـؤالًا محددًا عـن الأسـباب التي يُمكـن أن تمنع أي سـلاح جوي من التقاط أنفاسـه بعـد تلقيه الضربة المضادة لخصمه الجوي الذي بادره بالاعتداء المفاجئ، هذه الأسباب لا تخرج بأي حال من الأحوال عن واحد من ثلاثة:

1 - نجـاح العـدو المهاجم نجاحًا أسـطوريًّا في القضـاء على كل أو معظـم طياري الخصم الـذي توجه ضده الضربـة الأولى، بحيث يعجز عن توفير العـدد اللازم من الطيارين للقيـام بالضربـة المضـادة الانتقامية.. وهو احتـمال بعيد الوقوع إن لم يكن مسـتحيلًا، إلا إذا افترضنـا أن العـدو المهاجـم كان يملـك قبـل قيامـه بالضربـة الأولى الوسـائل والمعلومـات الكاملة، التي تيسر له تحديـد أماكن تواجد طياري الخصم تحديداً كاملًا، يضمـن لـه التخلـص منهم جميعًـا أو مـن أغلبيتهم السـاحقة خلال ضربتـه المفاجئة، بحيـث لا يسـتطيع العدو الذي يقع فريسـة للضربـة الأولى أن يفكر، مجـرد تفكير، في القيام بعمليات هجومية مضادة قبل انقضاء فترة زمنية طويلة، يتم خلالها إعداد جيل جديـد من طياري القتال الذين يتصدون للخصم، ويحاولون الثأر للجيل السـابق من الطيارين الذين قضت عليهم تلك الضربة الأسطورية.

2 - الاحتمال الثاني: الذي يمكن أن يؤدي إلى تعذر القيام بالضربة الجوية المضادة أن ينجح العـدو المهاجم خلال ضربتـه الأولى في تدمير كل ما يملكه الخصم من طائرات حربية تدمـيرًا كاملًا، بحيث يتركه بلا سـلاح جوي تمامًا، سـواء بالـشراء أو التصنيع، وهذا الاحتمال لا يقل استحالة عن سابقه.

3 - الاحتمال الأخير: هو أن ينجح العدو المهاجم سواء خلال قيامه بالضربة الجوية الأولى أو عقبهـا مبـاشرة في إحـداث الوسـائل التـي تكفل إعاقـة طيران الخصم المسـتهدف بالضربة المفاجئة ومنعه من امتصاص الصدمة الأولى والانطلاق بعدها للقيام بالضربة الانتقاميـة المضادة... وهو الاحتمال الأقـرب إلى الواقعية وإمكانية التنفيذ، وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه العدو ضدنا في عمليات الخامس من يونية.

فرغم نجاة الأغلبية السـاحقة من طيارينا المقاتلين من آثار الضربة الأولى في ذلك اليوم

ورغم نجاة العديد من الطائرات المصرية من الإصابة بالصواريخ والقنابل التي صبتها الطائرات الإسرائيلية على مطاراتنا في ذلك الصباح.. فإن قيادة الجو المصرية عجزت عن القيام بتوجيه الضربة الانتقامية المضادة، وكان العامل المرجح في تلك الساعات الحاسمة، هو «قنبلة الممرات» التي أحدثت استخدامها تدميرًا رهيبًا في الممرات اللازمة لإقلاع الطائرات المصرية لكي تشترك في المعركة اشتراكًا مؤثرًا، يكفل الحماية الجوية اللازمة للقوات المسلحة المصرية التي كانت تتعرض منذ الساعات الأولى من صباح 5 يونية لضربات مركزة من طيران العدو، أفقدتها القدرة على الصمود في مواجهة القوات البرية الإسرائيلية التي كانت تتحرك تحت حماية جوية كاملة.

ومع التسليم بأن قنبلة الممرات كانت تستخدم في عمليات 5 يونية لأول مرة في الحروب الجوية ومع الاعتراف بأنه ليس من العدل مع أنفسنا ولا مع الخصم أن نحاسب القيادة المصرية لأنها لم تكتشف سر هذه القنبلة قبل استخدامها لأن مثل هذا الرأي يفترض في الخصم السذاجة وعدم الحرص على إخفاء سر خطير بالغ الحداثة كسرِّ هذه القنبلة الجديدة، كما أنه يفترض في القيادة المصرية أن يتحول رجالها إلى سحرة يسخرون الشياطين وأبالسة الجحيم في قراءة أفكار الخصم وابتزاز ما عنده من خطط ومفاجآت.

ولم يكن خصمنا ساذجًا، ولم يكن قادة الجو المصريون سحرة.. ولكنهم بلا شك عسكريون دارسون، والفكر العسكري في أبسط قواعده يعترف بشيء بدائي اسمه عمليات التخريب لإعاقة الخصم وعرقلة مجهوده الحربي.. والتخريب المتوقع في مجال الحرب الجوية يتجه إلى الطائرات الحربية كسلاح أساسي في المجهود الحربي للدولة، وفي مقدمتها ممرات الإقلاع.. التي بدونها تتحول الطائرة إلى جسم هامد لا نفع فيه للصديق، ولا ضرر فيه على العدو.

ومن المعروف أن أبسط وسائل التأمين ضد عمليات تخريب الممرات، إعداد وسائل الصيانة وإعادة إصلاح هذه الممرات إصلاحًا فوريًا يختزل فترة تعطلها عن العمل إلى أقصر حيز زمني ممكن.

ولو أننا أخذنا في الاعتبار قبل 5 يونية ما تحتمه بدهيات الفكر العسكري الحديث في مجال الحرب الجوية من ضرورة توفير الأطقم الفنية المدربة تدريبًا عاليًا على صيانة الممرات ضد عمليات التخريب المحتملة أثناء العمليات الحربية، ووفرنا لهذه الأطقم البشرية

الوسائل الآلية المستحدثة في مجال الخدمة الأرضية للطيران المقاتل.. لاستطعنا أن نشل فاعلية هذه القنبلة المستحدثة ونردها إلى حجمها الطبيعي كوسيلة من وسائل التخريب قد تكون متطورة.

هذا الخطأ الذي دفعنا ثمنه غاليًا عام 1967 تنبهت لخطورته قيادة الجو الجديدة، وهي تتصدى لإعادة البناء العسكري، وعملت على تلافيه تمامًا وبشكل حاسم ظهرت نتائجه المشرفة في عمليات 6 أكتوبر وهو ما سنعود إليه عند الحديث عن أسرار العملية «صدام» وما سبقها من إعداد في جميع المجالات، وخاصة في مجال التجهيزات العسكرية والمعدات الهندسية التي تقدم الخدمات الأرضية المعاونة للطيار المقاتل، على أحسن وجه وفي أسرع وقت قياسي ممكن.

خامسًا: وضعت قيادة الجو المصرية الجديدة، وهي بسبيل الدراسة الموضوعية لحقيقة ما حدث في 5 يونية أسبابه ونتائجه، يدها على ذلك التناقض العجيب الذي أسلفنا الإشارة إليه، وهو: أن الخطة العسكرية للقوات المسلحة المصرية قبل 5 يونية كانت خطة هجومية بشكل عام، وكتطبيق عملي لهذه الخطة الهجومية فقد كانت القوات المسلحة بمختلف أسلحتها موزعة توزيعًا يسمح لها بالهجوم، وهذا.. في الوقت الذي كان كبار القادة وحدهم.. وبناء على قرارات سياسية محضة تنزع إلى موقف الدفاع، لتلقي الضربة الأولى عند وقوعها، وامتصاصها.

لقد كان لهذا التناقض أثر بالغ في النتائج التدميرية للضربة المفاجئة التي قام بها العدو ضد قواتنا المسلحة - بجميع أفرعها وأسلحتها - بالقياس إلى حجم الجهد العسكري الذي بذله العدو في تنفيذ هذه الضربة. وقد عاد هذا إلى حقيقتين عمليتين مهمتين:

- **الحقيقة الأولى:** مستمدة من أحدث ما توصل إليه علم النفس الحربي من نتائج سبقتها دراسات مستفيضة على نفسية الفرد المقاتل في مختلف الظروف والأحوال التي يمكن أن يتعرض لها فرد القوات المسلحة، وخاصة في مجالي التقدم للهجوم، والتمركز أو الارتداد استعدادًا لأخذ مواقع دفاعية أفضل.

لقد أكدت جميع الدراسات النظرية، والتجارب العملية أن فرد القوات المسلحة - ضابطًا كان أو جنديًا - إذا أُعد نفسيًّا بشكل علمي سليم لموقف الدفاع في الحرب عن

طريق المصارحة الكاملة بظروف الموقف العسكري في الموقع الذي يتواجد فيه، وفي إطار - الاحتفاظ بالسرية الواجبة.. فإن إحساس هذا الفرد بثقة قيادته فيه، وإيمانه بالمسئولية الملقاة على عاتقه ثمنًا لهذه الثقة، يخلق لديه من الناحية النفسية كفاءة قتالية غير عادية، تجعله قادرًا على تحمل أية مشاق مهما عظمت وهو يخوض معركة يعرف أنها دفاعية منذ البدء.

هذه الكفاءة النفسية المرتفعة - هي ما يُسمى إعلاميًا بارتفاع الروح المعنوية لدى الفرد المقاتل - وهي الكفاءة النفسية التي يعتمد عليها القائد الذكي، في صمود رجاله وصدهم للعدو، مهما ارتفعت موجات الهجوم.. وعلى هذه الكفاءة النفسية التي ولدتها الصراحة واحترام عقلية الفرد المقاتل يرتكز القائد الناجح، حين ينتقل من مرحلة صد الهجوم وامتصاص موجاته، إلى مرحلة الهجوم المضاد، الذي تكسبه الكفاءة النفسية المرتفعة ضراوة وعنفًا يحولان الدفاع الصامد إلى هجوم ناجح.

ومن الثابت علميًا وعمليًا، أن ارتفاع الكفاءة النفسية لدى الفرد المقاتل يؤدي إلى ارتفاع كفاءته القتالية، ويزيد من قدرته على التعامل مع سلاحه والتحكم فيه بنسبة الضعف على الأقل. على العكس من ذلك فإن الفرد المقاتل الذي يتحول فجأة من موقف الهجوم إلى موقف المدافع الذي يطلب منه صد هجمات لم يتوقعها، ولم تنبهه قيادته إلى احتمال تعرضه لها، فإنه يصاب بانخفاض مفاجئ في كفاءته النفسية، يؤدي بالضرورة إلى تدهور كفاءته العسكرية كمقاتل.. ما يشبهه أساتذة «علم النفس الحربي» بالصدمة التي يُصاب بها الإنسان أحيانًا في غرفة العمليات الجراحية، فتؤدي إلى انخفاض مفاجئ في الضغط، يهدد حياة المريض، وقد تعقبه الوفاة، إذا لم يكن المصاب قوي البنيان بشكل غير عادي.

- **الحقيقة الثانية** التي توضح العلاقة بين تناقض القرارات - هجومًا ودفاعًا - وبين تزايد حجم التدمير الذي تحدثه الضربة المفاجئة، مستمدة من أولويات الفكر العسكري، التي تقول إن هناك فروقًا هائلة بين القوات التي تصدر لها الأوامر بالاستعداد للهجوم، وبين قوات تعد نفسها منذ البداية لأخذ مواقع دفاعية، تستطيع خلال تمركزها فيها أن تصمد للضربة الأولى وتنجح في امتصاص موجاتها الهجومية.

هذه الفروق تشمل نوع الأسلحة المطلوبة في كل من الهجوم والدفاع، وكمية ونوع

الذخائر المستخدمة، وأماكن انتشار القوات أو تمركزها، وتجمعات إمدادها بالذخائر وبالمؤن ونقطها الإدارية، وأسلحة الخدمات المعاونة.

كما أن أوليات الفكر العسكري تفرق أيضًا بين قوات أُعدت للدفاع حين تنجح في صد الضربة الأولى وامتصاصها ثم الانتقال من الدفاع إلى الهجوم المضاد وبين قوات تصدر لها الأوامر بالانتشار وتوزيع قواتها استعدادًا للهجوم، ثم تفاجأ بضربة ساحقة، تضطرها تحت تأثير الصدمة إلى الانتقال المفاجئ من الاندفاع والتقدم إلى التراجع والانسحاب غير المنظم.

كما كان من العوامل التي ساعدت على زيادة حجم الخسائر في مجال القوات الجوية بالذات، أن بعض القادة قد وقعوا في محظور المبالغات غير المقبولة علميًّا ومنطقيًّا، حين قدروا الخسائر المحتملة في القوات الجوية، إذا قامت إسرائيل بالضربة الأولى ضد الطيران المصري، فزعموا أن خسائر هذه الضربة الأولى لا يُمكن أن تزيد بحال من الأحوال عن عشرة في المئة فقط.

وأكبر الظن عندي، أن هذا التهوين في نسبة الخسائر المحتملة إذا كانت إسرائيل هي البادئة بالضربة الجوية الأولى، هو الذي سهل للقيادة السياسية الاستمرار في إصرارها على الوقوف موقف الدفاع ما دامت هذه الضربة الأولى لن تزيد خسائرها عن عشرة في المائة، تنطلق بعدها التسعون في المائة التي تبقى سليمة من طائرات سلاح الجو المصري - لتقوم بالضربة الانتقامية المضادة، التي تؤدب إسرائيل، وتثبت لها وللجميع أن أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط، مازالت قادرة على فرض سيطرتها وإثبات وجودها وتأكيد سيادتها الجوية على المنطقة.

هذه التقديرات غير المستساغة عن نسبة الخسائر التي يمكن أن تؤدي إليها ضربة جوية معادية ضد سلاحنا الجوي، لو وُضعت أمامي وأنا جالس بغرفة العمليات المركزية بقيادة القوات الجوية في عام 1973، لترددت كثيرًا في تصديقها، مع الفارق الهائل بين وضع وظروف سلاحنا الجوي في عام 1967 وبين الإمكانيات التي كانت مُتاحة أمامي، سواء في مجال الطائرات الحربية نفسها، كمًّا وكيفًا، أو في مجال الدفاعات الثابتة والمتحركة عن مطاراتنا، أو حزام الأمن المحكم حول مجالنا الجوي، والمتمثل في أجهزة الإنذار المبكر بكل وسائله، أو في وسائل تأمين الطائرات وحمايتها من القصف، ثم في وسائل الصيانة والإصلاح العاجل في حالة وقوع الإصابة، سواء للطائرة، أو للمطار بممراته العديدة، وأبنيته وأجهزته المعاونة.

رغم الفارق الهائل بين موقف قواتنا الجوية عام 1973 - بعد أن كانت قد استوعبت درس النكسة، وأُعيد بناؤها على أساس علمي بالغ السلامة - وبين موقف هذه القوات عام 1967، بكل ما كانت تعانيه من نقص في السلاح والعتاد والأجهزة المعاونة، فإنني لم أكن مستعدًّا لكي أقبل ببساطة نسبة العشرة في المائة كخسائر محتملة لضربة جوية مفاجئة يقوم بها العدو الجوي على كل مطاراتنا وفي وقت واحد، في الوقت الذي تكون فيه قواتنا - بحكم الأمر السري الصادر لقادتها الكبار - في وضع دفاعي بحت، وغير مهيأ نفسيًّا، ولا مُجهز عسكريًّا للهجوم.

لقد كان هذا التقدير الجزافي واحدًا من الأخطاء الكبيرة التي استفاد منها العدو إلى أبعد حد، وهو يشعل حربه النفسية التي قادها ضدنا عقب 5 يونية، بشراسة ووحشية لا تعرفان الرحمة، ولولا صلابة الإنسان المصري - مهما اختلف موقعه جنديًّا بسيطًا كان، أم قائدًا كبيرًا - لانهار تمامًا، حين يصدم بالفارق الرهيب بين نسبة العشرة في المائة التي قيل إنها الحد الأعلى الذي يمكن أن تصل إليه خسائر الضربة الأولى وبين الواقع المؤسف الذي حققته هذه الضربة.

من هذا الخطأ، أخذت القيادة الجديدة - التي تحملت أمام الشعب المصري، وأمام الأمة العربية كلها مسئولية إعادة البناء العسكري على أساس علمي سليم - درس العمر، والتزمت بالدقة الكاملة في كل ما تتصدى له من عمل عسكري تخطيطًا وتنفيذًا.

رب ضارة نافعة، وقد يأتي الخير من الشر، وصدق الله العظيم حين قال في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾. ولقد كانت القيادة المصرية الجديدة، عازمة على إحداث التغيير المطلوب في حياة العسكرية المصرية كلها، إعدادًا، وتخطيطًا، وتنفيذًا، وكان أول ما استحدثته من تغيير، هو الصراحة مع النفس، والمواجهة الشجاعة مع الحقيقة مهما كانت قاسية، والاعتراف بالخطأ.

ومن هنا.. بدأت بتحديد الأخطاء، لا من باب الشماتة بمن وقع في الخطأ، بل من باب كشف المرض، وتحديد مكمن الداء. ومن تحديد الخطأ، بدأت القيادة الجديدة خطواتها على طريق الألف ميل.. الذي كانت نقطة الوصول السعيدة في نهايته، هي الساعة الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر المجيد.

"... كنـا مملوئيـن بطاقة الأحرار في اسـتعادة مـا فقدناه، وبيـنـما كانت الـروح تعـود، فإننا لكـي نعيـد بنـاء أنفسـنا، كـان أن تجـاوزنـا إحـدى أهـم نقـاط التقصيـر التـي تسـببت فـي هزيمـة 5 يـونـية، بأن نتسـلح بالمعرفة.."

عــودة الــروح والمعــرفــة

إذا كانـت دراسـتي المهنية المتخصصة كطيار مقاتل لم تُيسر لي التعرف الكامل على أدبنا العربي، إلا أنني - ولحسن الحظ - لم أُغفِل الاطلاع على بعض الأعمال الأدبية، التي يُمثل كل منها ملمحًا خاصًا من ملامح أدبنا الحديث، وهو ما أنصح به زملائي المقاتلين في الجو والأرض والبحر؛ لأن الأعمال الأدبية الجيدة تعطي المقاتل صورة أمينة ودقيقة لآمال أمته وأحلامها، وتضع يده على نبض هذه الأمة التي حمّلته أمانة الدفاع عن سلامة حدودها، والذود عن كرامة وشرف أبنائها.

تلك ليست رومانسية مغرقة في الخيال، لا يتسع لها وقت المقاتل عمومًا، والطيار المقاتل على وجه الخصوص.. ذلك أن تجربتي الشخصية - وبالذات في الأيام العصيبة التي تلت 5 يونية - أكدت لي أن المقاتل المسلح بثقافة عصره، والمطلع على تاريخ أمته وثقافتها، وأدبها في حدود ما يسمح به وقته يكون في العادة أقدر على التعرف على الشعب الذي ينتمي إليه، والاستجابة السريعة لنبض أمته، خاصة في الأزمات وأوقات المحن، التي تستدعي الترابط بين أبناء الوطن الواحد، جسدًا، وفكرًا، ووجدانًا.

إن قراءة رواية «الأيام» لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أعطتني في الأيام العصيبة التي كنا نجتازها معنى عظيمًا.. وكشفت أمامي عن صلابة الإنسان المصري، ونقاء

معدنـه وقدرته على الصمود أمـام أقصى المحن، وقدرته على تحويل الظلام إلى نور، واليأس القاتل إلى أمل عريض في الحياة.. وفي مستقبل الإنسان.

بصـورة مـا كان ما يحـدث في قواعدنـا ومطاراتنا بعد الهزيمـة قهرًا لليأس، كـما أنه كان بمثابـة «عودة الروح» التي رسـمها الأسـتاذ الكبـير توفيق الحكيم.. عـودة الروح المصرية إلى النهـوض وإلى الحركة البناءة، التي ترفض الهزيمة، وتصر على عبورها، سـعيًا إلى تحقيق النصر العظيم الذي قُدر لها أن تحققه في السادس من أكتوبر المجيد.

وكـما فعـل بطل «الأيـام» حين انطلـق إلى هدفه البعيـد، الذي كادت الظـروف والمحن الطارئـة أن تحجبـه عنـه... تخلص الإنسـان المصري داخـل القوات الجوية من الإحسـاس بمـرارة الهزيمة التي فُرضت عليه صباح 5 يونيـة، وبدأ يعيد تنظيم صفوفه، وتحديد هدفه، ثم رسم الخطوات المؤدية إلى تحقيق هذا الهدف الذي كاد يضيع في ضباب الحوادث.

بعد تفنيد الأخطاء، ومن ثم حصر الآثار التدميرية للضربة وحساب الخسائر بدقة، تبين للقيادة الجديدة للقوات الجوية أنه رغم فداحة ما تكبدناه من السلاح والمعدات أن ما تبقى بـين يديهـا كان كافيًا لصنع نقطة البداية في إعادة بناء السـلاح، بـل كان كافيًا – مع التوجيه السليم، والتخطيط العلمي – للقيام بضربات مؤثرة ضد المجهود الحربي للعدو، كما حدث في معارك 14، 15 يوليو 1967 وبعد شهر واحد تقريبًا من ضربة 5 يونية حين قامت قواتنا الجوية بتوجيه ضربات شرسـة ضد العدو، بحيث اضطرت قواته إلى الانسـحاب المفاجئ غير المنظم وإخلاء سيناء كلها والهرب شرقًا حتى وصلت إلى مشارف العريش.

تبـين أيضًا أن الخسـائر في الأفراد سـواء أكانـوا طيارين أم فنيين كانت محـدودة إلى أبعد مـدى، الأمـر الـذي وضع بين يـدي القيادة النـواة الحقيقية التي سـاعدت القـوات الجوية المصريـة عـلى اسـتعادة روحها القتاليـة بسرعة فائقة بسـبب توفر الكـوادر الفنية في مختلف التخصصات القتالية، والتخصصات الفنية المساعدة، بحيث اقتصر جهد القيادة على إعادة توزيع ما وجدته متوفرًا لديها من الرصيد البشري على التشكيلات الجديدة، والانطلاق بها في مجـال التدريـب السريع على أحدث مناهـج الحرب الجوية، اسـتعدادًا للمعركة التي يثأر فيها الرجال لسـلاحهم الجوي، الذي ظُلم مرتين متتاليتين، بسبب أخطاء لا دخل للرجال فيها.

أمـا الجانـب الثالث، والأكثر أهميـة – أي المجال النفسي والمعنـوي – فإن عملية رصده

تستوجب وقفة تأمل واعية تستبطن دقائق الأمور، وتبحث عن الجذور البعيدة، ولا تكتفي بالوقوف أمام المظاهر السطحية لآثار 5 يونية على الشخصية المصرية. إنني أستطيع أن أؤكد وبدون أي استسلام لدوافع التعصب للقومية المصرية أو القومية العربية أنه إذا كان التدمير الإسرائيلي قد أحدث خسائر كبيرة على المستوى العسكري فإنه فشل في الوصول إلى هدفه الاستراتيجي المختفي وراء عملية «طوق الحمامة»، وهو كما شرحت سابقًا: تحطيم معنويات المقاتل المصري والإنسان العربي عمومًا والهبوط بمعنوياته هبوطًا فجائيًّا يشبه الصدمة العصبية فتؤدي إلى انعدام مقاومته، ثم إلى نهايته.

لقد تجلى فشل العدو في هذا المجال النفسي والمعنوي سواء على المستوى العسكري المحدود أو المستوى المدني الشامل في النقاط التالية:

على المستوى العسكري: لم ينجح العدو في إصابة المقاتل المصري بالذعر من عدوه، وفشل تمامًا في إصابة المقاتل بعقدة النقص أمام عدوه الذي قال إنه لا يُقهر. وكان الإحساس الوحيد الذي نجح العدو في إشعال ناره في نفوس مقاتلينا، هو الرغبة الملتهبة في الثأر، والشوق المتأجج لمواجهته في معركة تصادمية، تعلن بنتائجها الواضحة، أي الخصمين أقدر على خوض المعارك وأي الخصمين أكثر شجاعة وأطول صمودًا، وأبعد صبرًا، وأقوى تحملًا.

كانت ضربة الخامس من يونية من وجهة نظر المقاتل المصري الشجاع إهانة ظالمة لقدراته أكثر منها طعنة غادرة في الظهر، وكان على هذا المقاتل المصري - وقد استرد روحه، واستعاد لياقته النفسية والقتالية بسرعة فائقة - أن يُعد نفسه مهما طالت سنوات الإعداد، ومهما تحمل من مشاق الإعداد ومصاعب التدريب، ليوم المواجهة المحتومة مع خصم عاش حياته يهرب من المواجهة الصريحة ويجنح دائمًا، لضربات الظلام، يحقق بها نصرًا سريعًا خاطفًا في مدته، رخيصًا في ثمنه، ولكنه في النهاية نصر يجيد المتاجرة به دعائيًّا، واستغلاله نفسيًّا.

وفي كل مكان وجدت فيه قاعدة جوية كبرى أو مطار صغير على امتداد الوادي شماله وجنوبه كان أبناء القوات الجوية يتحركون بإصرار مذهل نحو الهدف.. وبإقبال حماسي على استيعاب الفكر العسكري الحديث الذي فتحت أمام أعينهم أبوابه وتحمل أسطوري لمشاق التدريب المستمر على فنون القتال الجوي، وخططه وأساليبه المستحدثة.

وفي كل مكان كنت أذهب إليه، كنت أحس بأن هناك خيطًا غير منظور يربط بين قلوب الرجال، وأقرأ في عيونهم عهدًا صامتًا، أقسم الجميع على الوفاء به مهما كان الثمن.. الثأر.. علنًا.. وفي وضح النهار، ثأرًا شريفًا لا خسة فيه ولا استخفاء؛ لأنه ثأر الرجال الشرفاء.

أما الجانب المدني من شعبنا، فقد كان موقفه من ضربة 5 يونية، يدعو إلى العجب والإعجاب معًا. ففي الوقت الذي كان العدو الإسرائيلي يأمل فيه، أن يرى انهيار جبهتنا الداخلية، وتفككها تمامًا، في هذا الوقت بالذات، بدا المواطن المصري في الداخل أكثر ما يكون صلابة، وأقوى ما يكون تحملًا في مواجهة أقسى المحن والشدائد.

وتجلت صلابة الإنسان المصري في مواجهة أحداث 5 يونية في مظهرين، قد يبدو أحدهما مناقضًا للآخر تمامًا، ومغايرًا له كل المغايرة.

1 - مظاهرات يومي «9، 10» يونية 1967، التي عبَّر بها شعبنا بعفوية أصيلة عن رفضه للهزيمة، وإصراره على عبورها وتخطي محنتها، واستعداده الكامل لدفع ثمن الصمود حتى النصر.

2 - المظهر الثاني الذي يبدو مغايرًا للمظهر السابق في شكله ومضمونه معًا فهو موجة «النكت» التي سادت أيامها، والتي استغل فيها شعبنا قدرته الخارقة على صنع النكتة وتذوقها، إلى أبعد مدى ممكن.

نتوقف أمام تساؤل مهم: إذا كان الشعب المصري قد نجا بالفعل من المصير التعس القاتم الذي أراده له العدو الإسرائيلي بضربة 5 يونية فكيف استسلم هذا الشعب للأحزان التي جرتها الهزيمة بهذا الشكل الذي عبرت عنه موجة النكت القاسية بل... الجارحة التي سادت أيامها؟ وما تعليل هذا التناقض غير المفهوم، بين رفض الشعب المصري للهزيمة، كما أعلنت مظاهرات 9، 10 يونية، واستسلام هذا الشعب نفسه لدواعي الهزيمة استسلامًا محزنًا، عبرت عنه النكت المؤلمة، التي كان الإنسان المصري يعذب نفسه بإلقائها أو سماعها؟

هذا التناقض الظاهري بين الموقفين كان يحيرني كما حير غيري في البداية على الأقل.. ولكن المعرفة الواعية بحالة شعبنا، وبروحه الصلدة ذوبت تلك الحيرة. وهنا أعرض لوجهة نظر مطولة حول ذلك التناقض.

في يقيني أنه لم يحدث في تاريخ الحروب - وبكل ما حفلت به سجلاتها من هزائم وانتصارات - أن ظُلم مقاتل ما كما ظُلم المقاتل المصري بصفة عامة، والمقاتل الطيار على وجه الخصوص. ولو أننا تتبعنا تاريخ المواجهة بين المقاتل المصري وخصمه الإسرائيلي، منذ بداية الصراع، لوجدنا أن المحصلة النهائية للحروب التي اشتعلت بين طرفي الصراع - في أعوام 48، 56، 1967 - كانت في صالح إسرائيل تمامًا. وذلك نتيجة للظروف التي أحاطت بهذه المعارك وكانت في مجملها مضادة للمقاتل المصري.

في عام 1948، كان الرأي العام العالمي منحازًا تمامًا لفكرة قيام إسرائيل - كحل ظالم لعقدة الذنب التي نجحت الصهيونية العالمية في غرسها في الضمير العالمي - نتيجة لما أنزلته النازية بيهود ألمانيا، ولقد وجد الرأي العالمي في مساندته لقيام إسرائيل، الحل السعيد - من وجهة نظره - لهذه المشكلة، دون أدنى تفكير في أن مساعدة الصهيونية العالمية على انتزاع فلسطين من أصحابها العرب، ومنحها دون وجه حق لهم يحل مشكلة اليهودي التائه ليخلق مشكلة الفلسطيني المشرد.

ولا يجوز الاستهانة بانحياز الرأي العام العالمي لأحد طرفي الصراع في مشكلة معاصرة؛ لأن هذا الانحياز يمثل - على أرض الواقع - قوة سحرية لا حدود لقدرتها على المعاونة المادية وقت اشتعال الحرب، الأمر الذي أكدته نتائج حرب 1948، حين استغلت القوتان العظميان: الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي، مباركة الرأي العام العالمي لقيام إسرائيل، واندفعتا في سباق مؤسف لاستقطاب الدولة الوليدة - إسرائيل - وتقديم جميع المساعدات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي يسّرت للوكالة اليهودية، أن تتحول إلى دولة، وسهلت لعصابات «الهاجاناه» و«الأرجون زفاي ليومي» و«شتيرن» أن تتحول إلى جيش حديث منظم مسلح بأحدث ما وصل للجيوش المتحالفة - في الحرب العالمية الثانية - من أسلحة الدمار التي سحقت جيوش المحور المتكبرة.

في مواجهة هذه الظروف بالغة الصعوبة، كان من المحتم على الجيش المصري، أن يبطئ في زحفه المنتصر - الذي بدأ به معارك 15 مايو 1948 - ثم يتحول هذا الزحف البطيء، إلى عجز عن الحركة لينقلب إلى ارتداد فانسحاب من معظم الأراضي التي كان قد حررها من فلسطين وكل هذا بفعل الظروف العالمية المعادية له، والظروف الداخلية الأكثر عداءً،

سواء في الساحة المحلية في مصر، التي كانت تعاني من فساد القصر والأحزاب أو في الساحة العربية التي كانت تمزقها الخلافات والأهواء.

إذا انتقلنا إلى الحربين اللتين خاضهما المقاتل المصري عام 1956، حيث كان يواجه بالدرجة الأولى العسكرية الأنجلوفرنسية المتحالفة مع إسرائيل، وعام 1967، بكل ما أحاط بمعاركها من ظروف سيئة، سنجد أنفسنا أمام حقيقة مؤكدة، لا مجال للتشكيك فيها، حتى من أشد المحللين انحيازًا ضد المقاتل المصري وهي: أن هذا المقاتل الشجاع، ظُلم دائمًا في كل حلقات الصراع العربي - الإسرائيلي.

ظلمته الظروف المواتية لخصمه، والظروف المعادية له، وظلمه خصومه حين أشاعوا ما أشاعوا من نقص في قدراته القتالية، وفي الوقت الذي كانت أجهزة الحرب النفسية المعادية تنسج فيه الأساطير والقصص التي تقترب من الخرافات حول بطولات وهمية للمقاتل الإسرائيلي الذي لا يُقهر.. تفتق الوجدان المصري الأصيل عن حيلة بالغة الذكاء والبراعة، يبرر بها - بينه وبين نفسه على الأقل - ما لحق بمقاتله المصري من هزائم غير مقبولة ولا معقولة.. تمثلت في موجة النكت التي اجتاحت الشارع المصري - عقب هزيمة الخامس من يونية، والتي اجتر بها الإنسان المصري إحساسه المؤلم بهذه الهزيمة، وغضبه الساحق ممن تسببوا في إلحاقها به، كما تمثلت هذه الحيلة - التي لجأ إليها الإنسان المصري ليبرر بها هزيمة مقاتله - في موجة القصص التي انتشرت حول «أخطاء بعض القيادات وتقصيرها في أداء واجبها».

ورغم ما في كثير من هذه الأقاصيص من مبالغات وقسوة، فإنها في النهاية تؤكد أحدث ما وصلت إليه دراسات علم النفس الاجتماعي من نتائج، وتؤكد في نفس الوقت سلامة البناء النفسي للمجتمع المصري، وأصالته وعراقته.

إن المجتمعات البشرية، حين تواجه بأزمة حادة تهدد وجودها كجماعة بشرية بالخطر، تتجه لا شعوريًّا إلى تحميل الأخطاء التي تسببت في وقوع الأزمة والأضرار التي نتجت عنها، لأشخاص بعينهم في الجماعة البشرية، باعتبارهم الخطأة الذين يحملون وحدهم وزر ما حدث، وعليهم دون غيرهم من أفراد الجماعة، أن يدفعوا ثمن ما ارتكبوه من أخطاء.. وكان عقاب الجماعة البشرية لهؤلاء الخطأة يصل أحيانًا - في المجتمعات البدائية - إلى حد الإحراق بالنار، وتقديم أجسادهم قربانًا للآلهة الغاضبة، إطفاءً لنار غضبها على الجماعة..

أما المجتمعات المتحضرة، فإنها تتجه عادة إلى تقديم من يخطئون في حقها أخطاء مصيرية إلى المحاكمة العلنية، ليعرف الشعب كيف ولماذا حل ما حل به من هزائم أو أزمات.

والنتيجة النهائية - التي يصل إليها علم النفس الاجتماعي في مثل هذه الحالة - أن الجماعة البشرية حين تحاسب الخاطئين فيها، لا تفعل هذا عن حقد شخصي عليهم، ولكنها حين تحملهم وحدهم وزر ما حل بها من كوارث، إنما تدافع عن كيانها، وعن أصالة مقوماتها كجماعة بشرية جديرة بالبقاء، وهو دفاع غريزي عن النفس، يعرفه الكائن الحي - نباتًا كان أم حيوانًا أم إنسانًا - ويعرفه الفرد الواحد، كما تعرفه الجماعة المتعددة الأفراد، وهذا الإحساس الغريزي بأحقية الجماعة للبقاء، هو الذي يحمي المجتمع الأصيل من التفكك ويقيه من عوامل التحلل والبقاء.

والدارس المحلل لموجة القصص التي انتشرت - عقب هزيمة يونية - سيجد فيها ملامح بارزة لموجة دفاع غريزي عن النفس، كان المجتمع المصري البالغ الأصالة يقوم بها بضراوة وإصرار، وكأنه يقول - من خلال هذه القصص الشبيهة في مبالغاتها وقسوتها - إننا نحن الشعب المصري الشجاع، لا نعرف الضعف ولا نعرف الخوف من المواجهة الصريحة مع الخصم، ولهذا فإننا أبرياء من هذه الهزيمة التي حلت بمقاتلينا؛ لأنها فرضت عليهم بسبب تقصير من قصروا وأخطاء من وقعوا في الخطأ.

لقد تعرضت شخصيًا لمثل هذا النوع من القصص التي أُطلقت شعبيًا.. ففي صباح أحد الأيام العصيبة - التي أعقبت ضربة الخامس من يونية - أُخطرت بقرار تعييني رئيسًا للجنة التحقيق العسكرية، التي شكلتها القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، لمعرفة ما حدث في «قاعدة أنشاص الجوية - مساء الأحد 4 يونية» - أي في الليلة السابقة مباشرة لعملية 5 يونية ضد المطارات المصرية.

وكان أمر الحفل الساهر الذي أقيم في «قاعدة أنشاص» في تلك الليلة، قد انتشر بين جماهير الشارع المصري، بشكل روائي مثير، وتلقفته أجهزة الحرب النفسية المعادية بذكاء بارع، ونسجت حوله ما شاء لها خيالها الخبيث من مزاعم، ووصلت - في الكتاب الذي نُشر خصيصًا حول هذا الموضوع - إلى حد الزعم بأن هذا الحفل الساهر، كان السبب الرئيسي في النجاح الذي حققته الضربة التي وجهها ضدنا طيارو «مردخاي هود» وأن هذا الحفل أُقيم بتدبير محكم من المخابرات الإسرائيلية، نفذه تاجر صهيوني، استطاع أن يكسب ود

كبار القادة في سلاح الجو المصري، واستطاع إقناعهم بإقامة هذا الحفل الساهر، الذي دعا إليه جميع قادة المطارات والقواعد الجوية المصرية - كما زعم كتاب المخابرات الإسرائيلية.

ويمضي الكاتب الإسرائيلي فيقول: إنه في هذا الحفل الصاخب، الذي سهر فيه الجميع وسكروا حتى مطلع الفجر، نجح العميل الإسرائيلي في أن يحرم معظم الطيارين المصريين الذين احتشدوا جميعًا كما زعمت سطوره من لياقتهم للطيران، ولو ليوم واحد فقط هو يوم 5 يونية، بحيث تلقوا الضربة الإسرائيلية الساحقة، وهم عاجزون تمامًا عن مقاومتها، فضلًا عن التفكير في ردها.

كان من الطبيعي - بل من المحتم - ومرارة الإحساس بالهزيمة تملأ النفوس، أن تسارع القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، بتشكيل لجنة تقوم بالتحقيق الموضوعي العاجل، لمعرفة حقيقة ما حدث في تلك الليلة، وشرفتني القيادة برئاسة هذه اللجنة، وعلى الفور بدأت المهمة الشاقة.

ولم يكد التحقيق يبدأ - سواء مع العسكريين أو المدنيين من الفنانين الذين حضروا الحفل للترفيه عن رجال القاعدة الجوية - حتى تأكد لي بما لا يدع مجالًا للشك، أن الصورة لم تكن بالسواد الذي لونتها به الدعاية المعادية - وأن الصورة المصاحبة المزعومة، لم تخرج عن حفل ترفيهي عادي، تقوم به أفرع التوجيه المعنوي والشئون العامة، في مختلف وحدات القوات المسلحة وأسلحتها.

وبالتدريج، ومع تقدم التحقيق، وتوالي الشهود، بدأت اللجنة ترى الصورة على حقيقتها، وأخذت الأقاصيص المخترعة، والأساطير الفلكلورية التي نُسجت حول الحفل، تتهاوى واحدة تلو أخرى.. حتى جاء ذلك اليوم الذي وقفت فيه عاجزًا عن تحديد مشاعري وأنا أستمع لإحدى الشاهدات وقد تملكتني الحيرة، بين الإحساس بالسخرية لسذاجة القصة التي روتها الشاهدة، وبين الحزن لقسوة القصة وضراوة نسيجها ضد الضحية الذي حيكت القصة حوله.

كانت واحدة من المطربات، إحدى الشاهدات اللائي استدعتهن اللجنة لسماع أقوالهن في التحقيق، باعتبارها، من الفنانات اللائي اشتركن في إحياء حفل «أنشاص» الشهير.. وفوجئت بالمطربة المثقفة، تقول في نهاية أقوالها في التحقيق، وقد بلغ بها الانفعال قمته:

- إنني واثقة من أن ما حدث لنا في 5 يونية، لم يحدث نتيجة لضعف المحارب المصري أو عجزه عن مواجهة عدوه.

سألتها بهدوء: وما هو السبب إذن - من وجهة نظرك - في حدوث ما حدث لنا من هزيمة، إذا كنت واثقة إلى هذا الحد من شجاعة المحارب المصري وقدرته على مواجهة عدوه؟ وأجابت الشاهدة بأسف وحزن واضحين: ماذا يصنع أشجع الرجال، إذا لم تكن لديهم القيادة القادرة على مواجهة الموقف والارتفاع إلى مستوى المسئولية؟

عدت أسأل الشاهدة بنفس الهدوء، لكي أدفعها للإفصاح عن مشاعرها وتفصيل ما أجملت:

- ماذا تقصدين يا سيدتي بحديثك عن انتقاد القيادة؟

وعاودت الشاهدة الإحساس بالأسف والحزن وهي تستطرد: إذا كان ما حدث في حفل أنشاص - وقد شاهدته بنفسي وشاركت في إحيائه - أمرًا عاديًّا، فإن طيارينا في مختلف المطارات والقواعد الجوية، كانوا مع الأسف تحت قيادة رجال أقل من الموقف، وأدنى من المسئولية التي كانوا يواجهونها.

وكتمت غيظي لهذا التعميم القاسي، وقلت للشاهدة:

- أريد مثالًا محددًا.. هذا التعميم في الحكم على القيادات، فيه قسوة بالغة، وهو مرفوض تمامًا.

ونظرت إلى الشاهدة في دهشة، وقد امتزج في عينيها الإشفاق عليّ والشك في مدى جديتي وأنا أرفض اتهامها الذي أسقطته على رأس الجميع دون أن تدري. وأحسست أن في نفس الشاهدة ما تريد أن تُدلي به، ولكنها حائرة بين التصريح به، والسكوت عنه.. فأسرعت أقول لها بإخلاص لا شك أنه حرك أنبل مشاعرها كمواطنة مصرية:

- أرجوك أن تصارحي اللجنة بكل ما عندك من معلومات قد تساعدنا في كشف الحقيقة، ولا تنسي أنك فنانة مثقفة، ومسئولة عن كل ما تقولينه.. ثم.. إن هذا الحكم الشامل لكل القيادات، فيه إهانة وظلم للشخصية المصرية لا ترضاه مواطنة مثلك، مفروض فيها بحكم دراستها الجامعية للقانون، أن تلتزم بميزان العدالة الصارم، وحين تلقي باتهام معين، يجب أن تحدد المقصود به بالذات، ولا تتركه معلقًا فوق رءوس الجميع.

وأجابتني الشاهدة بغضب، وقد عذب ضميرها القومي، دفاعي عن الشخصية المصرية:

- إذا كنت يا سيدي تريد مثالًا محددًا، فيكفي أن تعرف ما حدث في قاعدة بني سويف الجوية، صباح 5 يونية.

حبست أنفاسي، وتغلبت على مشاعر الدهشة التي تملكتني وأنا أسمع الشاهدة تتحدث عن قاعدة بني سويف، وسألتها بهدوء مفتعل:

- وما الذي حدث في بني سويف في ذلك اليوم.

فاندفعت تقول في عبارات أقرب إلى الصراخ:

- تصور يا سيدي، أنه في الوقت الذي كانت كل الدلائل تشير فيه إلى قرب اشتعال الحرب بيننا وبين إسرائيل، الأمر الذي يُحتم على كل قائد أن يعيش بين رجاله ليل نهار، يدرس معهم الموقف، ويستعد لكل احتمال، كان قائد مطار بني سويف ينام ليلة 5 يونية في شقة خاصة استأجرها بعاصمة المحافظة، بعيدًا عن رجاله، وعندما وقعت الكارثة في الصباح، استيقظ القائد على صوت القنابل والصواريخ التي وصل صوت انفجارها المدمر، إلى المدينة، وبدلًا من أن يستجمع شجاعته ويسارع بالذهاب إلى قاعدته الجوية التي أحرقها العدو، ليحاول عمل شيء، إذا به يفقد صوابه، ويندفع جاريًا في الشوارع «بجلابية النوم»، مما اضطر المسئولين في محافظة بني سويف إلى الجري وراءه في الشوارع للإمساك به ووضعه في سيارة ابتعدت به بسرعة عن الجماهير التي أذهلها وأثار غضبها هذا المنظر المؤلم لواحد من قادة الطيران كان من المفروض في تلك الساعة، أن يكون في مقر قيادته الجوية ليقوم بتوجيه رجاله لرد اللطمة للعدو، الذي صنع بنا ما صنع؛ لأنه يوجد بيننا مثل هذا القائد....

وقبل أن تنطق الشاهدة باللفظ الجارح، الذي كان من المحتم أن تقذف به في أسماع اللجنة، بعد أن استبد بها الغضب، أسرعت أسألها:

- هل شاهدت هذه الواقعة بنفسك..؟!

وأجابت الشاهدة في إصرار:

- لقد شاهدها كل سكان مدينة بني سويف يا سيدي، وهي منتشرة ومعروفة لكل مواطن في مصر.. صدقني يا سيدي، أعرف طبعًا أنها قصة مؤلمة ولكنها حقيقية.

وتبادلت ابتسامة سريعة مع أعضاء اللجنة، ثم عُدت أسأل الشاهدة وقد انتابني نوبة مفاجئة من المرح والرغبة الأصيلة التي تتملكنا نحن المصريين في إلقاء النكتة، كلما وجدنا أنفسنا أمام موقف نعجز عن التعبير عنه بغير النكتة التي اشتهرنا بها:

- وهل تعرفين اسم هذا القائد، الذي يجيد الجري في الشوارع أكثر مما يجيد قيادة رجاله؟

ولعل الشاهدة لم تلاحظ نبرة السخرية في سؤالي، أو لعلها تجاهلتها عن عمد، واعتبرتها نوعًا من الدفاع السلبي عن بطل الأسطورة التي نسجها الوجدان الشعبي ليبرر بها تدمير قاعدة بني سويف؛ ولهذا لم أفاجأ حين اندفعت الشاهدة تقول في غضب:

- وماذا يعنيني اسم هذا القائد يا سيدي! المهم عندي كمصرية، أنه ترك قاعدته تضرب وهو بعيد عنها، وحين فاجأه العدو فقد صوابه، ولم يفكر في تصرف ينقذ به ما يمكن إنقاذه، بل سارع إلى الجري في الشوارع بملابس النوم بشكل مؤسف ومحزن.

ووجدت نفسي - ربما دون قصد مني - أقول للشاهدة في عتاب هادئ:

- ولكنني أؤكد للشاهدة، أن قائد قاعدة بني سويف، مظلوم تمامًا، وبريء تمامًا من كل ما أُلصق به من تهم.. فلم يحدث أن كانت له شقة في المدينة، ولم يحدث أن ضُربت قاعدته وهو بعيد عنها، ولم يحدث أن جرى في الشوارع بملابس النوم حين ضربت قاعدته، والذي أعرفه عنه وتعرفه كل قيادات الطيران أنه متزمت إلى حد الصرامة، في تنفيذ قواعد الضبط والربط العسكريين بين رجاله، وأنه على سبيل المثال لم يكن يسمح لرجاله من طياري قاعدة بني سويف بالنزول إلى المدينة إلاَّ في حالات الضرورة القصوى، فضلًا عن إصراره الحاسم على عدم السماح لأي منهم باستئجار سكن في عاصمة المحافظة، ولو لقضاء إجازته الأسبوعية، وليس من المعقول أن يتمكن من فرض هذه التعليمات على رجاله، إلَّا إذا كان يُنفذها على نفسه بصرامة أشد.

ولم تستسلم الشاهدة بسهولة وعاجلتني بالسؤال في سخرية سخيفة.

- هل وجد الجرأة ليُكذب ما حدث.. وهل صدقته يا سيدي؟

وقلت لها بهدوء وأنا أبتسم في إشفاق وأسف وعتاب حزين:

- نعم يا سيدتي صدقته.. لأنني أنا هذا القائد الذي تتحدثين عنه.

فغرت الشاهدة فمها دهشة وذهولًا لهول المفاجأة، ولكن الذي ضاعف ذهولها حقًّا، هو ما سمعته بعد ذلك، وعرفت منه، أن قائد قاعدة بني سويف، الذي قالت الأسطورة عنه ما قالت، لم يكن نائمًا في مدينة بني سويف بعيدًا عن مقر قيادته ولم يجرِ في الشوارع هلعًا وقت تدمير قاعدته الجوية، لسبب بسيط وهو أن هذا القائد المظلوم - الذي هو أنا..!! - كان مُعلقًا في الجو ضمن الطائرات الخمس من طراز «ت/ ي/ 16 القاذفة الثقيلة» التي تقرر قيامها بطلعة تدريب بطياريها الخمسة كما ذكرت.

الذي يعنيني هنا: هو تحليل أمثال هذه القصص المختلقة من أساسها، والتي أعمل فيها الوجدان الشعبي كل قدراته على التخيل والاختراع.. لكي نصل إلى نتيجتين مهمتين:

- **الأولى**: تحديد الأساطير الشعبية التي حاكها الوجدان المصري الخالص، كتعبير عفوي عن رفضه للهزيمة التي فُرضت على الجيش ثم على الشعب كله بعد ذلك.
- **الثانية**: استخلاص القصص المسمومة - التي دستها أجهزة الحرب النفسية المعادية وسط موجة الأساطير الشعبية - لكي تزيد من بلبلة المواطن العادي، وتزرع في نفسه الشك في قدرة قواته على مقاومة هذا العدو الأسطوري الذي لا يمكن مقاومته.

والملاحظ بصفة عامة، أن الخيط الأساسي الذي يربط بين الأقاصيص التي تنسجها أجهزة الدعاية المعادية، هو المزج الذكي بين قدر محدود من الحقيقة، يعرفه الرأي العام الذي توجه ضده الحرب النفسية، ولا يستطيع أحد إنكاره، وبين قدر غير محدود من الأكاذيب والسموم النفسية التي تُنسج ببراعة شيطانية تجعل من الأكذوبة المخترعة، كيانًا رهيبًا يسيطر على عقل الرأي العام الذي تستهدفه الأكذوبة، ويستحيل على أجهزة الإعلام القومية أن تقاوم تأثيره الهدام؛ لأن الأساس الذي بُنيت عليه الأكذوبة معروف أساسًا، ولا سبيل إلى إنكاره.

والتحليل العلمي لمدلول هذه الأكذوبة وهدفها، يصل بنا إلى نتيجة واحدة لا مجال للهرب منها وهي:

أن هذا الحفل المزعوم - لو كان قد أُقيم بالفعل بالصورة التي رسمتها المخابرات الإسرائيلية في كتابها - يعني أن كل طياري سلاح الجو المصري من القاعدة إلى القمة، غير أمناء على المسئولية التي حملها لهم الشعب، وغير جديرين بشرف الدفاع عن سماء مصر،

لأن قادتهم سمحوا بإقامة مثل هذا الحفل الصاخب الذي لا يُقام مثله في أكثر أوقات السلم هدوءًا واستقرارًا؛ ولأن باقي الطيارين استسلموا لإغراء الخمر بهذا الشكل الصبياني البعيد عن أدنى إحساس بالمسئولية بحيث أصبح صباح 5 يونية وهم سكارى لم يفيقوا بعد من تأثير العشرات من صناديق الويسكي التي وزعها عليهم قادتهم المتهورون.

ولا تكتفي الأسطورة الإسرائيلية بهذا السواد الذي رسمته لصورة «حفل أنشاص» بل تزيد الصورة سوادًا في عيني المواطن المصري حين يشير الكتاب المزيف - الذي وردت به هذه الأكذوبة الضخمة - إلى أن فكرة الحفل، نبتت أساسًا في مقر المخابرات الإسرائيلية بتل أبيب، ونقلها ببراعة أحد العملاء من اليهود، نجح في اكتساب الحظوة لدى قادة سلاح الجو المصري.

فإذا انتقلنا من الأكذوبة الإسرائيلية الذكية، التي يمتزج فيها قدر بسيط ومعروف من الحقيقة، بقدر هائل من الأكاذيب والافتراءات، إلى الأقاصيص الشعبية، التي صاغها الوجدان الشعبي دفاعًا عن الشخصية المصرية وحماية لها من الإحساس بمرارة الهزيمة، فإن السمة المشتركة التي نراها تربط بين هذه الأقاصيص هي الدفاع الضمني عن الجماعة، والاتجاه بملامح البطل الشرير، وتركيزها كلها حول شخص واحد فقط، تُحمله الأسطورة الشعبية كل الخطايا والأوزار، وكأن الوجدان الشعبي يقول: إننا نحن الشعب المصري أبرياء من مثل هذا البطل الشرير؛ لأن مجموعنا خير لا يميل للشر، وشجاع لا يعرف الجبن، ومقدام لا يقبل الفرار.

إن أقل الناس دراية بعلم النفس الاجتماعي ونظرياته، حين تطرح أمامه هذه الأسطورة الشعبية البسيطة، سيحني رأسه إعجابًا وتقديرًا لهذا الشعب العظيم، الذي تفتق خياله الأصيل عن هذا الدفاع القوي عن أصالته كشعب، ليُحمِّل الوزر في كل ما حدث صباح 5 يونية لأفراد قلائل، لولا تقصيرهم، لاستطاعت الجماعة المصرية النبيلة أن تؤدي واجبها في إيقاف العدو عند حده، ثم إعطائه درس العمر.

نعم.. أنا مدين لأسطورة قائد مطار بني سويف - الذي قيل إنه هرب في الشوارع صباح 5 يونية - بالإيمان العميق وبلا حدود، بعظمة شعبنا المصري وأصالته، ورفضه القاطع للهزيمة، ولكل الأخطاء التي تسببت في وقوع الهزيمة أو عجَّلت بها، ثم ضاعفت من حجمها حين حلت ساعتها النكراء. وأنا مدين لهذه الأسطورة، بالإيمان العميق -

وبلا حدود – بأصالة الشخصية المصرية، وبقدرتها على أن تصنع المستحيل، إذا تهيأت لها الظروف المواتية، والقدوة الحسنة.

وأنا مدين لهذه الأسطورة – قبل كل شيء وبعد كل شيء – بالإيمان العميق وبلا حدود بأهمية العلم والمنهج العلمي، في بناء سلاح جوي عصري، وإعداد مقاتل طيار بالغ العصرية والحداثة. وقد يتساءل البعض قائلًا: وما صلة الأسطورة التي روتها الشاهدة أمامك، عن هرب قائد مطار بني سويف، بإيمانك العميق بالعلم والمنهج العلمي في بناء قوات جوية عصرية. والإجابة عن هذا التساؤل، نستمدها من نسيج الأسطورة الشعبية نفسها، حين نتذكر أن الخيال الشعبي جعل الرجال المرابطين في القاعدة الجوية يتلقون وحدهم ضربة العدو المفاجئة، دون أن يكون معهم القائد الذي يلم شملهم ويقودهم ويوجههم نحو ما كان يجب أن يوجهوا إليه من رد على العدو، وانتقام.

ومعنى هذا، أن شعبنا يُعلن – خلال الأسطورة التي دافع بها عن نفسه ضد الهزيمة – أن الإنسان المصري في مجموعه مخلص وقوي وقادر على صنع الكثير، إذا تهيأت له الظروف والقدرة.. وهنا، يثور أمامي هذا السؤال، يلح على ذهني، ويطاردني بقوة: ما هي هذه الظروف المواتية التي رمزت إليها الأسطورة، لكي تبرز في الإنسان المصري أحسن ما فيه، ليكون مقاتلًا طيارًا عصريًا بمعنى الكلمة؟

هل هي المظهرية في الأعداد؟ أم هي الشعارات العريضة نملأ بها رءوس طيارينا ونحشو بها أدمغتهم عن قوتنا الجوية، التي أثبت 5 يونية أنها لم تعد – وربما لم تكن أبدًا – أكبر قوة جوية ضاربة في الشرق الأوسط.

إن واجب الأمانة مع نفسي كطيار مقاتل، ومع شعبي المصري وأمتي العربية من ورائه – يضعني أمام إجابة حتمية لا بديل لها لأنها الإجابة الصحيحة الوحيدة عن كل هذه التساؤلات.. إنه العلم ولا شيء غير العلم، هو السبيل الوحيد والشاق الذي يُمكن أن يصل بسلاحنا الجوي إلى العصرية التي تجعله ندًّا قويًّا لما يُسمى بذراع إسرائيل الطويلة الطائرة.

لقد كنا في القوات المسلحة مملوئين بطاقة الإصرار، وبكل الإرادة الراغبة في استعادة ما فقدناه، أرضًا وعسكريًّا ومعنويًّا وحضاريًّا.. وقد كانت كل المظاهر حولنا تضيف إلينا طاقة جديدة. وبينما كانت «الروح تعود»، فإننا لكي نعيد بناء أنفسنا كان أن تجاوزنا أحد

أهم نقاط التقصير التي تسببت في 5 يونية بأن نتسلح بالمعرفة، باعتبارها السلاح الأمضى القادر على تحقيق النصر الذي نريده.

ولعل خير ما وصفت به معارك أكتوبر المجيدة، أنها - كما كتب أحد المراسلين الحربيين الأجانب في بدايتها - «لم تكن مجرد صراع بين عدوين، يهدف كل منهما إلى إخضاع الآخر لسيطرته، وليست مجرد صدام مسلح بين خصمين، يريد كلاهما أن يفرض سلطانه وينفذ إرادته.. ولكنها كانت في الحقيقة صراعًا فريدًا بين نظريات علمية بالغة التطور، وعلى أساسها أخرجت أكبر المصانع الحربية أحدث ما عرفه العالم من أسلحة الحرب الإلكترونية والكيميائية.. والشيء المؤكد أن النصر النهائي في هذه الحرب سيفوز به الطرف الذي يثبت مقاتلوه تفوقًا في استيعاب السلاح الرهيب المعقد الذي بين أيديهم؛ ويؤكدون بسيطرتهم على هذا السلاح تعمقهم في فهم النظريات العلمية التي تكمن وراء تصميمه وإنتاجه».

وإذا كان هذا المراسل الحربي الذكي، قد تنبأ تقريبًا بالنتائج المشرفة التي حققها المقاتل المصري في حرب أكتوبر - كنتيجة حتمية لسيطرة هذا المقاتل على سلاحه، سيطرة نابعة من فهمه للأسس العلمية التي تحكم عمل هذا السلاح وتوجهه - فإن هذه النتائج الباهرة، التي خرجت إلى حيز الوجود في أكتوبر 1973، كواقع مشرف للمقاتل المصري، كان التخطيط لها قد بدأ في عام 1967 وعقب هزيمة الخامس من يونية مباشرة.

إن القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، التي تولت مسئولية إعادة بناء القوات الجوية المصرية، وضعت نصب عينيها هدفًا محددًا، لا بد من الوصول إليه مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات، وهو استرداد شرف الطيار المصري المقاتل، الذي ظُلم مرتين في عملية غادرة نفذها العدوان الإنجلوفرنسي عام 1956 - وأعاد تنفيذها «مردخاي هود» صباح الخامس من يونية عام 1967.

وكانت تلك القيادة تعرف جيدًا أن عصر الحروب العنترية ذات الشعارات العريضة الجوفاء لن يؤدي بها إلا لمزيد من الهزائم المتلاحقة، والطريق الوحيد أمامها هو الأخذ بالأسلوب العلمي - الذي يقترب من الجفاف في حياده وموضوعيته - والتخلي إلى الأبد عن كل ما ليس علميًّا، سواء في التخطيط أو التدريب أو التنفيذ النهائي للعمليات.

والواقع أن إيمان الجيل الجديد من قادة العسكرية المصرية - بالعلم - لم يكن مجرد تعبير

ضمني عن رفض أسلوب قديم أثبت فشله مرتين متتاليتين، ولكنه كان تعبيرًا عن إدراك ذكي للتطور الهائل الذي لحق بعلوم الحرب وفنون القتال الحديثة، بعدما استفادت هذه الفنون إلى أبعد مدى من معطيات العلم الحديث في مختلف مجالاته وأبحاثه.

وإذا كان القائد الناجح في العصور القديمة والوسيطة - هو القائد الذي يجيد إشعال حماسة رجاله، ويستثير روح القتال فيهم بخطبه الرنانة وكلماته الملتهبة، فإن مواصفات القائد الناجح في العصر الحديث تختلف عن هذا اختلافًا كبيرًا، ربما يصل إلى حد التناقض، بالقياس إلى مواصفات القائد القديم؛ لأن القائد المعاصر يحتاج أول ما يحتاج للنجاح في مهامه تخطيطًا وتنفيذًا إلى الإحاطة الكاملة بعلوم فنه القتالي، كما يحتاج أيضًا إلى الإلمام بالعلوم المكملة لمادة تخصصه العسكري.

ولعلي لا أبالغ إذا قلت إنه ما من مهنة يحتاج صاحبها إلى ما يحتاجه المقاتل - برًّا وبحرًا وجوًّا - من إحاطة واسعة بشتى ألوان المعرفة، سواء اتصلت هذه المعرفة بطبيعة عمله بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

والسبب في هذا، أن المقاتل هو الإنسان الوحيد الذي يتحمل أقسى تجربة يتعرض لها البشر في الأوقات العصيبة وساعات الخطر.. لأن هذا المقاتل يتحتم عليه وهو يواجه الموت، واحتمالات الفناء، أن يتماسك، ويحكم السيطرة على أعصابه وتفكيره، ليصل إلى اتخاذ القرار المناسب، الذي يرى بحكم خبرته، وبحكم علمه ومعرفته، أنه القرار المؤدي إلى النجاة والفوز في معركة قد يكون خطها سائرًا في الاتجاه المضاد لأهدافه.

ومن المعروف علميًّا أن الإحساس بالخطر، يحرك في الإنسان العادي غريزة حب البقاء، وكلما كان هذا الخطر سريعًا مفاجئًا من جهة، وعنيفًا ساحقًا من جهة أخرى، كان رد الفعل الغريزي الذي يقوم به الإنسان للدفاع عن نفسه وحمايتها عشوائيًّا وأقرب إلى التخبط وعدم الإحكام؛ بسبب عدم قدرة الإنسان في ظروف الخطر المفاجئ على التركيز، وإحكام التفكير.

هكذا تتضح خطورة المسئولية الملقاة على عاتق المقاتل، الذي يتحتم عليه الإسراع باتخاذ القرار وهو يواجه الموت في ساحة القتال، ويزيد حجم هذه المسئولية، إذا كان المقاتل مسئولًا كقائد عن غيره من الأفراد، وعليه أن يتحمل أمام ضميره، وأمام الوطن والتاريخ، مسئولية القرار الذي يتحتم عليه اتخاذه وسط المعركة، وبسرعة لا تيسر للإنسان العادي

أن يحكم تفكيره خلالها، ورغم كل هذه الظروف القاسية ينبغي على القائد أن يقول كلمته وبسرعة.. هل يصمد رجاله ويقاتلون حتى النصر أو الشهادة.. أم يتراجعون إلى حيث يمكنهم أن يتخذوا مواقع أفضل في مواجهة العدو.

هذه اللحظات المتناهية في الصغر من حيث مساحتها الزمنية بقياس الساعات والأيام والسنين تبدو أمام المقاتل الذي يخوض المعركة دهرًا لا آخر لـه، ولا حدَّ لطوله، ورغم قسوة هذه اللحظات البالغة الخطر، فإن على المقاتل أن يجتازها بسرعة ليصل إلى قرار يتحمل وحده مسئوليته، وهنا تبدو حاجة المقاتل العصري إلى التزود بالعلم والمعرفة سواء في علوم الحرب وفنونها، أو في غيرها من المعارف، وكلما زاد نصيب المقاتل - خصوصًا القائد المسئول عن غيره - من المعرفة الإنسانية، كانت سرعته في اتخاذ القرار الصائب.

إن المقاتل العصري (في لحظة الإحساس بالخطر والحاجة إلى اتخاذ القرار) يسترجع مخزونه من المعرفة والعلم كما تقول أحدث دراسات علم النفس الحربي بسرعة تفوق سرعة العقل الإلكتروني في استرجاع مخزونه من المعلومات عشرات المرات.

هذه الحقيقة النفسية التي قد تبدو غريبة للبعض، تفسر لنا السر الحقيقي وراء الابتكارات المذهلة، التي يتوصل بعض المقاتلين لاكتشافها، خصوصًا في مجال المعارك الجوية، حين يكون الطيار المقاتل معلقًا بين السماء والأرض، لا يفصله عن الحياة أو الموت، سوى القرار السريع الحاسم، الذي يتعين عليه إصداره وتنفيذه في جزء من الثانية، مهما بدا هذا القرار في الظروف العادية غريبًا، بل غير مقبول.

مثالًا على هذا أسوق واحدًا من أوسمة الشرف العديدة التي وضعها الطيار المصري المقاتل على صدر أمته العربية، خلال معارك السادس من أكتوبر.. تأكيدًا على أننا خلال سنوات الصبر والصمود قد استعدنا الروح ونفضنا ما علق بمخزوننا من آثار منعت استرجاعه، واكتسبنا المعرفة التي ينبغي أن تكون حاضرة في لحظة القرار العصيب.

في يوم الأحد السابع من أكتوبر عام 1973 وهو ثاني أيام حرب رمضان أقلع تشكيل جوي، بقيادة المقاتل طيار «نجيب...» لمهاجمة قُول إسرائيلي مدرع، كان يتحرك على الطريق الشمالي بأقصى ما يملك من سرعة، مستهدفًا نجدة القوات الإسرائيلية البرية المشتركة في معركة دامية مع قوات الجيش الثاني التي كانت تتقدم في زحفها المنتصر شرقًا، بعد أن تمكنت بنجاح ساحق من إقامة رءوس الكباري والمعابر اللازمة للتدفق إلى سيناء.

في هـذه المرحلـة المبكرة مـن المعركة، كان طـوق النجاة الوحيد أمام العـدو الإسرائيلي، هـو تدعيم الأنسـاق الأولى من قواته التي تواجه الضربات السـاحقة التـي تكيلها له قواتنا الزاحفة، خصوصًا بعد أن انهارت الخطوط الإسرائيلية الأولى، وتمزق معظمها.

أدرك الطيـارون المصريـون بحسـهم الصـادق أن حرمـان العـدو مـن وصـول النجدة إليـه، يحتل رأس القائمة في المهام التي سـارعوا للقيام بها. ولم يكـد القول الإسرائيلي المدرع ينكشف، حتى هاجمته طائرات التشكيل الذي يقوده المقاتل «نجيب» بضراوة، وبكل حمولة الطائرات من القنابل والصواريخ، بحيث قضى على معظم القُول المعادي.

وعندمـا لاحـظ قائد التشـكيل أن بعض وحـدات القُول لا تزال سـليمة لم تدمر، وهي مسـتمرة في السـير غربًـا أملًا في نجدة الخطـوط الإسرائيلية المنهارة، أمـر طياريه على الفور باكتسـاح هذه الوحدات الهاربة بالمدافع، ونجح التشـكيل الشجاع بالفعل في تحقيق مهمته بنسبة مائة بالمائة، حيث قضى على جميع وحدات القول المدرع، ولكنه فوجئ بمشكلة طارئة مـن نوع غريب، تسـبب في خلقها حماس التشـكيل وإصرار قائده عـلى عدم إفلات مدرعة واحدة من مدرعات العدو من الصواريخ المصرية المدمرة.

ظهر تشكيل من مقاتلات العدو، ليعترضه في الجو، في الوقت الذي لا يملك فيه الدفاع عن نفسـه، بعد أن فقـد ذخيرة مدافعه التي قد أفرغها في جسـد المدرعات الإسرائيلية التي حاولت الإفلات من الدمار.. تشـكيلان جويان معاديان يلتقيان في حرب دامية، اشـتعلت نيرانها فجأة، بعد سنوات من الصمت الطويل.

أحد التشـكيلين ينتمي إلى سـلاح جوي كان قد ابتز نصرًا إن يكن سـهلًا في ثمنه إلا أنه كان وقتهـا نصرًا سـاحقًا، وفيه طيـارون يركبون أحدث ما عرفته الحـرب الجوية من أنواع الطائـرات، وأجودهـا قـدرة وتسـليحًا. في مواجهة هـذا التشـكيل المختال المغـرور يتقدم التشـكيل المصري، يحمل في صـدره رجالًا، طالما عذبهم الإحسـاس بالإهانـة التي لحقت بسـلاحهم الجـوي المظلوم في عـام 1956، ثم في عام 1967، وهم مـصرون على محو هذه الإهانـة عـن جبين قواتهم الجويـة، وعن وجه أمتهـم العربية كلها، مهـما كان الثمن، ومهما عظُمت التضحيات، ومهما تضاءلت إمكانيات العتاد المتاح لهم.

في الظروف العادية، قد تبدو هذه المواجهة التصادمية بين التشكيلين محتملة، وقد يستطيع التشـكيل الأقوى إيمانًا، والأكثر شـجاعة، أن يصمد في المعركة، وأن يعوض بإصراره على

الانتقام، ما قد ينقصه من إمكانيات في السلاح الذي يستخدمه. أمّا وهذه المواجهة المفزعة تتم في الجو، بين تشكيلين أحدهما يملك ذخيرة وفيرة، بينما يحلق الآخر في الجو، وقد فقد ذخيرته كلها، بعد أن أفرغها في بقايا المدرعات الهاربة، فإن الموقف يخرج عن كونه مجرد معركة جوية بين خصمين قد يفوز فيها أحدهما، وقد يهزم، ليتحول الموقف إلى كارثة محققة للفريق الذي يحلق في الجو وهو أعزل وعاجز تمامًا عن الدفاع عن نفسه، حتى لو فكر في الهرب، فضلًا عن التفكير في الصمود أمام عدوه أو مهاجمته.

وفي الأحوال العادية، فإن القواعد التقليدية المتبعة في القتال الجوي، تقضي بحل واحد في مواجهة مثل هذا الموقف العصيب، ويتمثل هذا الحل التقليدي في ابتكار وسائل بارعة لمحاولة الإفلات بأي شكل، والهرب بأقصى ما يتاح للطائرة العزلاء من سرعة ممكنة. ولو أن الطيار «نجيب» اختار لتشكيله هذا الحل، لينقذ ما يمكن إنقاذه من طائراته، لما كان مخطئًا أو مقصرًا، ولكنه اتخذ قرارًا مفاجئًا وغريبًا، بل يبدو مناقضًا لكل ما يحيط به من ظروف.

أصدر أمره فجأة بمهاجمة العدو للاشتباك معه.. وبلا تردد انفرط عقد التشكيل المصري، وراح كل من مقاتلينا الطيارين، يتصيد إحدى طائرات العدو مناورًا، ليركبها ويمسك بها من ذيلها..وبروح التصميم على تحقيق المعجزة، أبدى كل طيار مصري إصرارًا فذًّا في المناورة ومتابعة خصمه، وكأنما هو مزود بالذخيرة الكافية لتدمير عدوه والقضاء عليه.وبروح الخذلان التي تملكت العدو بعد أن فوجئ بضربة السادس من أكتوبر أسرع طيارو التشكيل الإسرائيلي المعادي، بالهرب فجأة بأنفسهم من فوهات المدافع المصرية التي تطاردهم وهي خالية تمامًا من أي ذخيرة.

لقد كان الحل المبتكر الذي توصل إليه المقاتل الطيار «نجيب» في ساعة الخطر مغامرة بكل ما في الكلمة من معنى. ولو أن هذه المغامرة التي قد يعجز عن ابتكارها أبرع المؤلفين خيالًا، انتهت بانتهاء هذه المعركة، لجاز لقائل أن يقول، إنها ضربة حظ لا أكثر.. ولا دخل فيها لسيطرة المقاتل على أعصابه، وفكرة تلك السيطرة التي يستمدها من جودة التدريب وسعة العلم وشمولية المعرفة..ولكن الذي حدث في اليوم الثاني عشر من أكتوبر وبعد خمسة أيام فقط من المعركة السابقة ينفي أي احتمال للحظ في النتيجة الباهرة التي حققتها هذه الظاهرة القتالية الانتحارية التي ابتكرها خيال الطيار المقاتل «نجيب».

ففي نهاية الأسبوع الأول من حرب رمضان المجيدة، وعلى وجه التحديد، يوم الجمعة الثاني عشر من أكتوبر، اكتشفت قوات الاستطلاع المصرية، ظهور قُول إمداد إسرائيلي، يتقدم إلى جبهة القتال، حاملًا شحنة من صواريخ «س/ س 1» الرهيبة، لتدعيم قوات العدو. وعلى الفور صدرت الأوامر لأحد تشكيلاتنا الجوية بالإقلاع لمهاجمة قول الصواريخ الإسرائيلي، وتدميره قبل أن يصل إلى جبهة القتال، وشاء القدر أن يكون التشكيل الجديد، هو نفسه التشكيل الذي يقوده الطيار المقاتل «نجيب».

وكرر التشكيل نفس العملية بنفس الخطوات تقريبًا... تدمير القول المعادي بضربه بالقنابل والصواريخ، ثم قصف البقية الباقية منه بالمدافع لتدميرها وإحباط محاولتها اليائسة للإفلات بحمولتها الرهيبة. وفي اللحظة التي يفرغ فيها التشكيل المصري من تحقيق مهمته الهجومية على الوجه الأكمل، يفاجأ بظهور تشكيل جوي معادٍ يعترضه بعد أن فرغت ذخيرته تمامًا... وبلا أدنى تردد وربما بحسم أكثر، وبإصرار يستمد من نجاح التجربة الأولى يأخذ الطيار «نجيب» نفس القرار، ويأمر بمهاجمة التشكيل الإسرائيلي، وتصيد طائراته، والإمساك بها من الذيل.

ومرة ثانية، يتمكن الفزع من قلوب الطيارين الإسرائيليين، ويسرعون بالهرب، نجاة بأنفسهم وبطائراتهم جيدة التسليح، من فوهات المدافع المصرية التي كانت خالية تمامًا من كل ذخيرة.

ويعود المقاتل «نجيب» هو وتشكيله، سالمًا إلى قاعدته الجوية، ليؤكد بعودته الظافرة، أن المقاتل العصري خصوصًا إذا كان قائدًا مسئولًا عن غيره يحتاج إلى المعرفة الواسعة بفنون تخصصه القتالي، كما يحتاج إلى العلم بكل ما يزيد من معرفته بالحياة من حوله، لكي يستطيع الوصول إلى الحل الأمثل لكل ما يواجهه من مشكلات طارئة وقت المعركة، وفي أضيق مساحة زمنية ممكنة.

ولو أن المقاتل «نجيب» كان قد اقتصر في معرفته، على الإلمام بفنون القتال الجوي فحسب، ثم واجه أبشع ما يواجهه الطيار المقاتل حين يفاجأ بظهور عدوه أمامه في الجو وهو أعزل من الذخيرة، لاتجه تفكيره على الفور إلى القيام بمحاولة يائسة للهرب.. ولكن معرفة الطيار المصري، بالمكونات الخفية لشخصية خصمه الإسرائيلي، والعقد الكامنة التي تحكم نفسية هذا الخصم.. ثم ما حدث من تصدع مفاجئ في البناء النفسي للمقاتل الإسرائيلي،

وهو يفاجأ ظهر السادس من أكتوبر، بانتفاضة العملاق العربي، وخروج المارد المصري من قمقم الصبر الذي حبس نفسه فيه طوال ست سنوات كاملة.. كل هذه المعرفة الإنسانية الشاملة إلى جانب المعرفة المتخصصة بقواعد الهجوم الجوي لا شك أنها كانت السبب الذي دفع المقاتل المصري الطيار «نجيب» إلى ابتكار الحل المناسب، في الوقت المناسب، وحمل مسئوليته أمام ضميره، وأمام قيادته، وأمام أمته العربية كلها.

ومن هذا المثال العملي لأهمية التزود بالمعرفة الذي ظهرت نتائجه المشرفة في حرب أكتوبر نعود إلى الوراء بضع سنوات لنلقي نظرة فاحصة على الجانب المصري من طرفي الصراع، ونتعرف على الجهود المضنية التي بذلتها القيادة الجديدة، لكي تغرس في نفوس أبناء القوات الجوية الإيمان الكامل، بأهمية العلم والمعرفة، واعتبار المنهج العلمي هو الطريق الوحيد الموصل إلى بناء سلاح جوي قادر على مواجهة العدو في معركة لا بد منها، لكي يستعيد الطيار المصري المقاتل سمعته، التي ضاعت منه ظلمًا في غبار عملية واحدة تكررت رغمًا عنه مرتين.

”... كان مـــن أهم ما نســتطيع به إثبــات وجودنـــا كمقاتلين عصريين هو الاســتعداد الكامل لملاقاة العدو، ثم منافســته في الميــدان الذي كان يطنطــن بأنه تفــرد به وحــده، ألا وهو ميدان البحث العلمي في مجال الحرب الجوية.. “

مديـرًا للكليــة الجـويــة

كان العلـم - بكل ما تتسـع له كلمـة العلم من معانٍ - هو أملنـا الوحيد، لتحقيق حلم الانتصـار، الـذي حولته ضربة الخامس من يونيو إلى واجـب حتمي لا بد من الوصول إليه وتحقيقه مهما يكن الثمن.

ولقد أتاح لي القدر - وبأسرع مما كنت أتصور - أن أشارك مع زملائي من خيرة الرجال في سـلاحنا الجوي، في شرف تحويـل الحلم الكبير إلى حقيقة مضيئـة، تفجَّر نورها العظيم، حين حلت الساعة الموعودة فيما بعد.

لـن أنسـى ما حييتُ يـوم 2 نوفمبر 1967، ذلك اليوم الـذي وضعني فيـه القدر أمام واحدة من أخطر المهام التي تحملت مسئوليتها أمام الله وأمام ضميري القومي.

في ذلك التاريخ - الذي سيظل محفورًا في ذاكرتي ما حييتُ - عُينت مديرًا للكلية الجوية، لأجد نفسي فجأة، وجهًا لوجه أمام الحلم الكبير الذي كثيرًا ما داعب خيالي كطيار مصري مقاتل.. وهو العمل بكل الوسائل على إعداد جيل من مقاتلي الجو المصريين، يؤمنون بالعلم، ويتوقـون للمعرفـة التي لا تقف عند حد، بل تتجاوز حـدود التمكن من أسرار المهنة.. إلى آفـاق المعرفة الإنسـانية الرحبة، التي تصقل شـخصية المقاتل، وتيسر لـه القدرة على معرفة خصمـه معرفـة حقيقية، وتطـوع له القدرة عـلى مواجهة هذا الخصـم في أي زمان ومكان،

وتعينـه على اجتيـاز الصعوبات التي قد يخلقها خصمه ويضعها في طريقه وهو منطلق لأداء واجبه القومي في ردع هذا الخصم ثم دحره وإعادته إلى حجمه الطبيعي.

كانت الفلسـفة التي تحكم منهجي كمدير للكلية الجوية، منذ توليت إدارتها هي: العلم النظري الواسـع بفنون القتال الجوي وأسراره، والتدريب العملي الشاق والمتواصل لتطبيق العلـم النظـري المجرد على أرض الواقع العمـلي الملموس.. ثم.. الانطـلاق بمدلول كلمة العلـم إلى أوسـع مـدى تيسر الظـروف أن تنطلق إليـه من آفاق المعرفة الإنسـانية الشـاملة والإحاطـة الدقيقة بالعدو، ككائن بشري له مكوناته الخاصـة، وخلفيته التاريخية المؤثرة في حاضره المعاصر.. مع دراسـة واعية لكل ما يمكن الوصول إليه من أسـاليب هذا العدو في الفن العسكري فكرًا وممارسة قتالية.

وطوال الفترة التي عملت خلالها بالكلية الجوية، لم أتهاون لحظة في تحويل هذه الفلسفة الصارمـة، إلى واقع عملي جاد، وأشـهد أن كل الزملاء الذين عملـوا معي من رجال كليتنا الجوية، كانوا نعم العون على تحقيق هذا الهدف الكبير.

من أحدث طالب مسـتجد بالكلية الجوية، إلى كبير المعلمين بها، كان الجميع يعملون في تجانس تام، وبحماس غريب، وكأنهم فريق سيمفوني عميق الدراسة، جيد التدريب، يعزف لحنًا عذبًا محببًا إلى قلوبهم شـخصيًّا، فهم يتعاونون على إخراج هذا اللحن في أكمل صوره، ليسعدوا به شخصيًّا، قبل أن يُسعدوا غيرهم من المستمعين.

خمـس دفعـات كاملة من أجنحة مصر القويـة، القادرة بعلمها الواسـع وتدريبها الجيد، ومعرفتهـا الكاملـة بخصمهـا، تخرجـت في الكلية الجوية، خـلال الفترة التي سـعدت فيها بإدارتهـا. وإذا كنـت قد سـعدت وقتهـا - كما سـعد الزملاء الذيـن عملوا معـي في الكلية بتخريج هذه الدفعات الخمس من طيارينا المقاتلين، فإن سعادتي كانت تتضاعف باستمرار لشيء أجل وأخطر من تخريج خمس دفعات، أو حتى خمسين دفعة من الطيارين.

كان أروع مـا يجـري أمامـي في سـلاحنا الجـوي - الـذي نجـح في امتصـاص الصدمة واسـتعادة توازنـه بسرعـة فائقة بعـد ضربة 5 يونية - هـو سريان الإيـمان بالعلم والبحث، إيمانًا لا يقف بالطيار المقاتل عند مرحلة الدراسـة النظرية بالكلية وهو طالب ملزم بالقراءة والاطـلاع والاسـتذكار، ليجتـاز امتحانًـا أو ينجح في اختبـار مفروض عليه، بـل يتجاوز حدود الجبر والإلزام، إلى الإقبال الاختياري على الدراسـة والعلم، للوصول إلى كل ما هو

جديـد، بل والسـعي إلى خلق هذا الجديـد وابتكاره.. وكانت هذه غايـة الغاية لدى القيادة الجديدة لسلاحنا الجوي.

كانـت الأمنيـة التي تراود أحلامنا جميعًا، هي خلق جيـل من الباحثين المصريين في مجال الحرب الجوية، يثبتون بأبحاثهم المبتكرة في فنون القتال الجوي وعلومه، أن الإنسان المصري قـادر على إثبات وجوده، وتحقيق امتيازه كمفكر عسـكري مبتكـر، إذا أتيحت له الظروف التي تيسر له الخلق والابتكار.

وكان الوصـول إلى هـذا الهدف الكبير، هـو الرد العملي على الأكاذيـب التي حاولت أجهزة الدعاية المعادية، أن تغرسها من حولنا، لكي تثني الإنسان المصري عن قدراته الحقيقية الكائنة.

إن الهزيمـة في معركـة - برية كانت أو جوية أو بحريـة - لا تعني عجزًا أو قصورًا لدى المقاتـل الـذي مُنـي بالهزيمة، بقـدر ما تعني أنـه كان ضحية لظروف معاكسـة عـلى جانبه، أو لظروف مواتية على جانب الخصم المنتصر.

والهزيمة في معركة، لا تخلق خطرًا على شـخصية الشـعب الذي مُني جيشـه بالهزيمة - خاصة إذا كان هذا الشعب يتمتع بشخصية أصيلة تُيسر له عبور الهزيمة إلى النصر - ولكن الخطـر الحقيقـي الـذي يتعرض له الشـعب المهزوم، هو في إحساسـه بالنقص أمـام عدوه، وشعوره المرضي بتفوق هذا الخصم عليه.

ولقد حاول العدو بكل قدرة أجهزة دعايته على التضليل، أن يغرس في أعماق الوجدان المـصري خاصـة - والعربي عامة - الإحسـاس بالعجز الذهني أمام تفـوق مزعوم للعقلية الإسرائيلية، وكانت أجهزة الحرب النفسـية في تل أبيب، تعمل جاهدة، لكي تخدع المواطن المصري عن حقيقة قدراته، وتغرس في نفسيته - مدنيًّا كان أم عسكريًّا - الذعر المجنون من عدوه الإسرائيلي ذي القدرات العبقرية.

وقـد كان واجبنا نحن أبناء السـلاح الجوي - الذي حـاول الخصم أن يجعل منا في نظر الشـعب الشـاعة التي تعلق عليها أوزار الهزيمة - أن نثبت لأمتنا أننا نسـتحق شرف إيمانها بنا ووقوفها بجانبنا ساعة المحنة.

وكان من أهم ما نسـتطيع بـه إثبات وجودنا كمقاتلين عصريين هو الاسـتعداد الكامل لملاقـاة العدو، حتى تحين لحظة اللقاء، ثم منافسـته في الميدان الـذي كان يطنطن بأنه تفرد به وحده، ألا وهو ميدان البحث العلمي، في مجال الحرب الجوية.

ولقـد انطلقت أجهزة البحـث في قواتنا الجوية، لتحقيق هذا الهدف العلمي الجليل بكل

طاقتها، مستعينة بالإمكانيات الواسعة التي أتاحتها لها القيادة الجديدة، ومستفيدة إلى أقصى حد ممكن من «روح البحث العلمي» التي سرت بين رجال السلاح الجوي كله.

وكان أول ما اهتم به «البحث العلمي» في سلاحنا الجوي، هو الدراسة المستفيضة لقدرات العدو، وأساليب قواته المستحدثة، خاصة في المجالات التي كان يفاخر بها، باعتبارها مجال تفوقه التكنولوجي، كالإعاقة الإلكترونية، وأساليبها المستحدثة، والتطورات التي يدخلها عليها أولًا بأول، وكالبالونات الخداعية، التي تستعملها القوات الإسرائيلية، ودراسة نواحي القوة والضعف في الأسلحة الإسرائيلية بشكل عام.

وفي إطار السرية التي تستلزمها دواعي الأمن القومي فإننا نستطيع القول بأن الدراسات والأبحاث، التي عُني بها الجيل الجديد من الباحثين في قواتنا الجوية، خاصة في الفترة التي أعقبت معارك 1967 تشير كلها إلى أن الأساس الصلب لبناء قوات جوية عصرية، كان قد تم وضعه داخل أسرار العسكرية المصرية الجديدة، التي تقدمت لحمل مسئولية إعادة البناء العسكري، حفاظًا منها لجميل الشعب الأصيل الذي لم يتخل عن قواته المسلحة إبان المحنة التي فرضت عليها.

إن البحوث التي أسوقها الآن - على سبيل المثال لا الحصر - تعطي القارئ الدليل الحاسم، على أن سلاحنا الجوي، قد تجاوز إلى الأبد مرحلة الشعارات العنترية، ليدخل بالعمل الجاد، وبالتدريب الشاق المتواصل، وبإصرار شباب الباحثين فيه على اقتحام عصر الخلق والابتكار، وأن مرحلة استيعاب نظريات الآخرين وتطويعها للواقع المصري قد تم تجاوزها بدخول مرحلة النظريات المصرية الأصيلة، التي نجح في الوصول إليها الجيل الجديد من طيارينا المقاتلين، الذين شغفوا حبًّا بالبحث العلمي.

وهذه بعض الأبحاث التي قام بها العقل المصري الخالص، في مجال الحرب الجوية، لتحقيق المزيد من التفوق لقواتنا الجوية على المستويين النظري والعملي:

- دراسة دقيقة لمواصفات وخصائص الطائرات والأسلحة، والمعدات المستخدمة في القوات الجوية.
- دراسة حول «تنظيم طيران الجيش» بالقوات المسلحة لبعض الدول الأجنبية.
- بحث حول «الوسائل المستحدثة»، والتي يمكن استحداثها لإنقاذ الطيارين المقاتلين من سمك القرش، إذا أرغموا أثناء العمليات الجوية إلى الهبوط الاضطراري في أعالي البحار.

- دراسة مستقبلية، تتضمن التصور التخطيطي، للتكوين القتالي للقوات الجوية، خلال السنوات العشر القادمة.
- بحث مقارن يتناول بالدراسة الإحصائية والتحليلية: أسلوب تطوير الطائرات والمعدات في القوات الجوية.
- دراسة تحليلية، تتناول أساليب استخدام الطائرات «الهليكوبتر» في تنفيذ عمليات الإبرار الجوي.
- دراسة تحليلية شاملة، للأساليب الخاصة بتأمين عمل «طائرات اختبار المساعدات الملاحية».
- دراسة تحليلية موسعة، للعوامل التي تؤثر على عملية إسقاط القنابل من الارتفاعات المنخفضة وبسرعات عالية.
- دراسة لوضع أسلوب ونظام الدفاع عن مرافق القواعد الجوية، وحماية الوحدات التابعة لسلاح الجو.
- بحث يدور حول «عمل ستائر معدنية» مهمتها القيام بعمليات الإعاقة ضد الطائرات المغيرة.
- دراسة مفصلة، حول «استعمال المناطيد بشكل موسع، في عمليات إعادة الإذاعة»!!
- دراسة حول «الأساليب الجديدة، المستحدثة في مجال التنبؤ بالأحوال الجوية، باعتبارها من أخطر المهام التي تلزم لضمان سلامة وتأمين الطيار المقاتل أثناء قيامه بمهامه القتالية والهجومية على السواء.
- دراسة حول «تعديل الأجهزة الشرقية لفحص وتفسير الأفلام الجوية».
- دراسة حول «طرق وقاية المعدات من التأثر بالعوامل الجوية المختلفة وخاصة الصدأ، بحيث تحتفظ هذه المعدات بقدرتها على الأداء المرتفع، في جميع الأحوال».
- بحث تطبيقي حول «استخدام الحواسب الإلكترونية في مختلف نشاطات القوات الجوية».
- دراسة للأسباب المختلفة للقفز المظلي من الطائرات، وخاصة القفز من الطائرات الهليكوبتر.
- دراسة حول تنظيم العمل بسرايا مهندسي الطائرات.

هذه النماذج التي ذكرتها - في إطار الحفاظ على السرية التي تفرضها دواعي الأمن -

تمثل رحابة المدى الذي انطلقت إليه الأبحاث العلمية، في سلاحنا الجوي الجديد، بحيث تناولت هذه الأبحاث مختلف مجالات الفكر العسكري والحرب الجوية.

إن الظاهرة مشرقة حقًّا، لا لقواتنا الجوية وحدها، ولا لشعبنا المصري فحسب، بل لأمتنا العربية جمعاء.. كما أن الجيل الجديد من باحثي قوات الجو المصرية، لم يكتفِ بالتحليق النظري المجرد في مجال البحث العلمي، ولم يتعلق بأستار النظرية الأكاديمية البحتة، بل اقتحم هؤلاء الباحثون الأبطال مجال التطبيق العملي، وسخروا بحوثهم العلمية لخدمة سلاحهم الجوي الفتي وحل مشاكل التطبيق التي واجهت إخوانهم من مقاتلي الجو المصريين، أو المشاكل التي توقعوا أن تواجههم عندما تحل لحظة اللقاء المرتقب مع العدو.

وتحقيقًا لهذه الأهداف البالغة الخطر، خصصت أطقم عديدة للبحث القائم على التطبيق العملي، بعضها متفرغ تمامًا للبحث، وبعضها نصف متفرغ وتعاون الجميع بحماس لا يتأتى إلا عند الإحساس الكامل بروح الفريق الواحد.

ولقد توالت النتائج العلمية، لمعطيات العقل المصري الذي أثبت قدرته على الخلق والابتكار والتطوير في مجال الحرب الجوية بكل فنونها وأساليبها.

وهذه بعض النماذج التي تسمح بها السرية الواجبة في مثل هذا المجال الدقيق:

1 - نجح باحثونا في إنتاج «قنابل الممرات» وتصنيعها محليًّا، وبمواصفات مصرية وتنفيذ مصري بحت، ولقد كان لهذه القنابل أثر قوي بالغ الفعالية، في العمليات التي استخدمت فيها خلال حرب أكتوبر، خاصة في تدمير ممرات العدو، الأمر الذي شل حركة مطاراته التي تم قصفها بقنبلة الممرات المصرية في الضربة الجوية المركزة التي قام بها سلاح الجو المصري في الساعة الثانية ظهر السبت السادس من أكتوبر 1973.

2 - توصل باحثونا إلى تصنيع قنابل محلية، كان لها أثرها البالغ في زيادة فاعلية التسليح التي تتمتع بها طائرات تشكيلاتنا الجوية، وعلى الأخص في طلعات عمليات قذف القنابل من الارتفاعات المنخفضة.

3 - نجح باحثونا في تصميم خزانات الحريق و«طباتها» وقد تولت مصانعنا الحربية القيام بتنفيذ التصميم المصري المستحدث، وتم تحميل هذه الخزانات في الطائرات المختلفة، واستخدمت بالفعل خلال عمليات أكتوبر 1973، وبأعداد وفيرة، وقد أثبتت هذه

الخزانات فاعليتها المؤثرة في إشعال النيران بمواقع العدو ومعداته، وإحراقها بصورة تدميرية شاملة.

4 - من المعروف أن جانبًا كبيرًا من القدرة الهجومية والقتالية لأي سلاح جوي معاصر يتوقف على طول أو قصر المدى الذي تستطيع الطائرات العسكرية المستخدمة في هذا السلاح أن تصل إليها، ومن الحقائق المعروفة أيضًا في مجال الطيران عمومًا والعسكري على وجه الخصوص أن زيادة أو نقص عدد ساعات الطيران التي تحققها الطائرة في الطلعة الأولى، يتوقف بالدرجة الأولى على كمية الوقود التي تتسع لها خزانات الطائرة الأساسية والاحتياطية.

ومن هاتين الحقيقتين المعروفتين لكل من له صلة بعالم الطيران.. انطلق باحثونا المصريون في محاولة جادة لحل المشكلة الأساسية التي كانت تواجه سلاحنا الجوي، والتي تمثلت في قصر المدى الذي تصل إليه أنواع معينة من الطائرات التي تستخدمها، بسبب قلة الوقود الذي تحمله خزاناتها... وبالإصرار والمثابرة، تمكن باحثو سلاح الجو المصري من إجراء تعديلات جوهرية في طائرات التشكيلات الجوية، ساعدت على تزويدها بخزانات وقود إضافية، هيأت لهذه الطائرات زيادة ملحوظة في المدى التكتيكي الذي تحققه في طيرانها.

كما نجح علماء الجو المصريون في إجراء تعديلات على طائرات التشكيلات الجوية، لتحقيق الزيادة المؤثرة في مجال تسليح هذه الطائرات، وتزويدها بقنابل ممرات مصرية التصميم والتنفيذ، عالية الجهد في مجال القدرة التدميرية.

5 - إذا كانت طائرات الهليكوبتر، قد اقتصر الانتفاع بها - في بداية استخدامها في الطيران الحربي على مجالات محدودة، فإن التطور المستمر في تصميم هذا النوع من الطائرات، أدى بها إلى اقتحام مجالات جديدة ومتنوعة في مجال الحرب، سواء منها العمليات الهجومية والقتالية المباشرة أو العمليات المعاونة لمجهود الحرب الأساسي، وقد وضح دور الهليكوبتر بشكل مؤثر وفعّال خلال معارك الحرب الكورية، عندما حولها سلاح الجو الأمريكي إلى ما عرف في الفكر العسكري الحديث «بفرسان الجو» الطائرة.

وقد وضع باحثونا المصريون أمامهم، كل ما نشر أو أمكن الوصول إليه من حقائق ومعلومات عن التطور المستحدث في استخدامات الهليكوبتر، واحتمالات المستقبل

بالنسبة لهذا النوع من الطائرات ومن هذا الأساس العلمي القويم انطلق هؤلاء العلماء الشبان في بحث دائب؛ بهدف الوصول إلى تطوير جديد لاستخدام الهليكوبتر في سلاح الجو المصري.

ونتيجة لجهد الجيل الجديد من الباحثين المصريين في قواتنا الجوية تحقق لنا تطوير مؤثر في مجال الهليكوبتر، كان من ثماره نجاح تشكيلات هذا النوع من الطائرات في القيام بواجباتها في عمليات الإبرار الجوي، والمهام الخاصة التي كلفت بها خلال عمليات حرب رمضان، والأمر المشرف لكل مصري وعربي أن هذه التعديلات التي تقتضي دواعي الأمن عدم إذاعة تفاصيلها تمت كلها: تصميمًا وتنفيذًا بعقول وبأيدٍ مصرية، وأنها ساعدت طائرات الهليكوبتر المصرية المعدلة على القيام بمهامها الهجومية والقتالية بأعلى مستوى من الكفاءة والنجاح.

كما أن هذه التعديلات المصرية الصميمة يسرت لطائرات الهليكوبتر المصرية أن تنجح نجاحًا ساحقًا في الدفاع عن نفسها ضد هجمات العدو الجوية، بل ويسرت لها أن تتصدى لأخطر أنواع الطائرات المعادية خلال معارك السادس من أكتوبر، بل ونجحت الطائرة الهليكوبتر بعد التعديلات المصرية في إسقاط إحدى الطائرات الفانتوم.

6 - من الحقائق المشرفة التي يعرفها أبناء سلاح الجو المصري والتي تدعو كل مصري وعربي للفخر بها حين يعرفها أن باحثي الجو المصريين تمكنوا بجهد مصري خالص المصرية تصميمًا وتنفيذًا، من حل واحدة من أعقد المشاكل التي واجهت سلاح الجو المصري سواء في فترة حرب الاستنزاف أو في فترة التحضير والإعداد لمعارك السادس من أكتوبر، ونعني بها مشكلات الاستطلاع الجوي على العدو لمعرفة مواقعه وتشكيلاته الثابت منها والمتحرك والحصول على الصور الجوية اللازمة لوضع بيانات دقيقة عن جهد العدو واستعداده، بحيث تضع قيادة الحرب العليا في قواتنا المسلحة المصرية خططها الاستراتيجية العامة وتفاصيلها التعبوية والتكتيكية على أساس من الحقائق والأرقام التي تصور موقف العدو بدقة.

ولهذه المشكلة والحل المصري الصميم لها قصة طريفة، ترجع بداية القصة إلى الوقت الذي بدأت فيه القيادة العسكرية العليا في مصر تخطط لعمليات العبور الشامل التي

نُفذت بنجاح ساحق في السادس من أكتوبر 1973، وكان من المحتم على القيادة المصرية الجديدة، وهي تضع خططها على أساس سليم يعتمد على المنهج العلمي الصارم في علميته، والذي يحترم أحدث نظريات الفكر العسكري، أن تجيب عن هذا السؤال الذي يسبق أي تفكير في وضع خطة حديثة لعملية هجومية واسعة النطاق كعملية العبور العظيم.

وهذا السؤال الذي نعنيه يتلخص في العمليات القليلة التالية: «ماذا عند العدو؟» وإذا بدا للمواطن العادي أن يستهين بهذا السؤال، فإن المقاتل الحديث، الذي يحترم قواعد الفكر العسكري وخاصة في مجال التخطيط القتالي يعرف جيدًا مدى خطورة هذا السؤال، ومدى أهميته.. التي تنبع من حتمية التعرف الكامل أو القريب من الكمال على ما يملكه العدو من إمكانيات في الرجال والعتاد، لأن هذه المعرفة الدقيقة لما يملكه العدو، هي التي تحدد الجهد المطلوب من واضع الخطة العسكرية، وتحدد كمية ونوع الرجال والعتاد المطلوب لتحقيق هذا الجهد بشكل يضمن معه واضع الخطة العسكرية النجاح لرجاله في تنفيذ مهمتهم، وحمايتهم قدر المستطاع من المفاجآت التي يجدون أنفسهم في مواجهتها، إذا لم يكن واضع الخطة يعرف تمامًا أو على وجه يقرب من التحديد من هو العدو الذي سيحاربه وماذا عنده.

ومن هذا المنطلق العلمي الذي يسبق أي خطة عسكرية تستحق علميًّا بمقتضى قواعد الفكر العسكري المعاصر أن تُوصف بأنها «خطة عسكرية»... بدأت قيادة قواتنا المسلحة في طلب «بيانات معينة» من جميع الجهات المتخصصة في «الاستخبار» و«الاستطلاع»وكان على سلاح الجو المصري، أن يقوم بواجبه الأساسي في هذا المجال، عن طريق تحقيق «الاستطلاع» المباشر، الذي يحققه التصوير الجوي لمواقع العدو وقواته.

وهنا.. نشأت المشكلة التي بدت في البداية وكأنها مستعصية على الحل ثم انتهت إلى النتيجة المشرفة لكل مصري وعربي.وكانت المشكلة التي واجهها سلاحنا الجوي، تتمثل في أننا لم نحصل على طائرات من الاتحاد السوفيتي مجهزة بآلات الاستطلاع وأجهزة التصوير الجوي، المتطورة التي تتكافأ مع ما يملكه العدو في هذا المجال.

كان هذا واقعًا في الوقت الذي كان العدو الإسرائيلي، يملك فيه أحدث الأنواع العالمية

من طائرات الاستطلاع المجهزة بأدق وأعقد ما وصل إليه العلم الحديث من وسائل الاستطلاع والتصوير الجوي البعيد المدى.

ولم يقف باحثونا المصريون أمام هذه المشكلة الخطيرة مكتوفي الأيدي، صحيح أن الاتحاد السوفيتي لم يبع لنا هذا النوع من الطائرات، والموجود عندنا من أنواع الطائرات الصالحة للاستطلاع لم يزود بالأجهزة المتطورة للتصوير الجوي، ولكن الحلم لا يعرف المستحيل.. والجيل الجديد من علماء سلاح الجو المصري يرفض الاستسلام والعجز أمام أية مشكلة مهما بلغ من تعقيدها.. وأمام الإرادة والتصميم وباستعمال الخيال المصري القادر على الابتكار، تم حل المشكلة.

إننا نملك الطائرة السوفيتية الصنع ولكن بعض الدول الغربية الصديقة ليس لديها مانع من أن تبيع لنا أجهزة التصوير والاستطلاع المتطورة التي تُمكن الطائرة السوفيتية من تحقيق الهدف المطلوب.

فما الذي يمنع من إجراء تعديل فوري على طائرات الاستطلاع السوفيتية الصنع بحيث يمكن تركيب الأجهزة الغربية عليها بصورة تجعلها صالحة لتحقيق المهمة؟

ومع ما قد يبدو في هذا السؤال من بساطة، إلا أن تحويله إلى حقيقة واقعة أمر بالغ الصعوبة؛ لأن «أجهزة الاستطلاع الغربية» صُممت أساسًا لكي توضع في «طائرات غربية» ذات مواصفات خاصة، تتفق في الجهد الذي تحققه مع المواصفات التي روعيت في تصميم هذه «الأجهزة الغربية».. ولكن باحثينا المصريين لم يترددوا وبدءوا في التجريب والمحاولة يضعون التصميمات، ويحولونها إلى نماذج مجسدة يجرون عليها تجاربهم الواحدة تلو الأخرى، حتى وصلوا في النهاية إلى الحل الناجح للمشكلة.

ولأول مرة في تاريخ الطيران الحربي، حلقت في الجو طائرة استطلاع سوفيتية الصنع، تعمل عليها أجهزة استطلاع وتصوير جوي تم تصنيعها في مصانع «غربية».

والجدير بالتقدير حقًّا أن هذه «المصالحة» بين طائرة الاستطلاع «الروسية» وأجهزة التصوير «الغربية».. لم تقلل من كفاءة الطائرة ولم تؤثر على الإمكانيات الفنية لأجهزة الاستطلاع، وذلك نتيجة للتعديلات التي أدخلها باحثو الجو المصريون والتي تحتفظ بها في إطار السرية وكان من نتيجتها تحقيق زيادة واضحة في الكفاءة الاستطلاعية للطائرة، بحيث تمكن طيارو الاستطلاع المصريون، وهم يستعملون الطائرة المعدلة،

من استخدام الكاميرات «الغربية» المركبة في طائراتهم «الروسية الصنع» استخدامًا دقيقًا، سواء في حالات الطيران المرتفع أو المنخفض، بحيث تمكن هؤلاء الأبطال من الحصول على صور بالغة الدقة لمواقع وأهداف العدو، واستعداداته العسكرية، وترجمت هذه الصور الدقيقة إلى بيانات كاملة وُضعت أمام قيادة قواتنا المسلحة، وكان لها دورها المؤثر في التعامل مع العدو، سواء في فترة الإعداد للمعركة، أو أثناء القتال.

7 - من أهم الواجبات التي نجحت الطائرة الهليكوبتر في القيام بها في الحروب الحديثة، مهمة البحث والإنقاذ السريع، وخاصة في مجال البحث عن طياري الطائرات المقاتلة، أو القاذفة، الذين يضطرون للهبوط الاضطراري بالمظلة، عقب إصابة طائراتهم، وكان العدو الذي أخذ هذه الفكرة عن سلاح الجو الأمريكي بعد أن طبقها بنجاح في عمليات الحرب الكورية يفاخر بنجاحه في هذا المجال بشكل لا يمكن اللحاق به.

ولكن باحثي الجو المصريين استطاعوا أن يحققوا نصرًا علميًّا تم تنفيذه بشكل عملي ناجح في مجال إعداد الطائرة الهليكوبتر لمهام البحث والإنقاذ السريع، وأدخلوا تجهيزات مستحدثة زودت هذا النوع من الطائرات بأجهزة بحث وتوجيه متطورة، وأجهزة أخرى للبحث والإنقاذ السريع في الأحوال الطارئة، وقد تم هذا بنجاح كامل ظهرت نتائجه المشرفة طوال عمليات المعاونة والإنقاذ التي قامت بها طائرات الهليكوبتر المصرية طوال العمليات الحربية في معارك السادس من أكتوبر.

كما نجح باحثونا في سلاح الجو المصري وفي مجال تطوير الطائرة الهليكوبتر أيضًا في تركيب البواعث الضوئية، التي تؤدي إلى المحافظة على هذا النوع من الطائرات أثناء قيامها بالطلعات الليلية خلال العمليات.

8 - أذكر لباحثي الجو المصريين جهدهم المشرف في المعاونة على حل مشكلة من أخطر المشكلات التي تعترض القوات الجوية بمهامها الهجومية والدفاعية على السواء وأعني بها مشكلة الاتصال المستمر وبكفاءة بالغة الارتفاع بين التشكيلات الجوية العاملة وبين محطات المراقبة الأرضية وأجهزة الإنذار.

وتؤكد الحلول العملية الناجحة التي توصل إليها علماؤنا الشبان في هذا المجال مدى استيعابهم لمعطيات العلم الحديث في مختلف تخصصات الحرب وفروعها ومدى نجاحهم في

تحويل هذه النظريات إلى واقع عملي تستفيد به قواتهم المسلحة، وتزداد به صلابة وصمودًا، وقدرة على مواجهة العدو وردعه، ورده إلى حجمه الطبيعي.

كما تؤكد هذه الحلول العملية التي توصل إليها باحثونا المصريون في سلاحنا الجوي مدى تغلغل الروح العلمية في قواتنا الجوية، ومدى إيمانهم بالعلم الحديث نظرية وتطبيقًا. وقد يكفي أن أسوق للقارئ هذه الأمثلة المحددة:

(أ) نجح باحثونا في إعادة إذاعة المعلومات عن طريق استخدام الطائرات لزيادة وتوسيع مدى الاتصال وتوضيحه بين التشكيلات الجوية العاملة، وبين محطات المراقبة الأرضية، بحيث تحولت هذه الطائرات المستخدمة في إعادة الإرسال كمحطات تقوية لاسلكية معلقة في الجو.

إن هذا يؤدي إلى وضوح الاتصال اللاسلكي، ومقاومته لأي تشويش أو تداخل من جهته، كما يؤدي إلى تضليل العدو عن المصدر الحقيقي لهذه الاتصالات الصادرة بعد إعادة إذاعتها من مصادر إرسال متحركة في الجو، ويصعب رصدها أو تعقبها لإصابتها أو تعويقها.

(ب) من الحقائق التي أسفرت عنها معارك السادس من أكتوبر واضطر العدو نفسه إلى الاعتراف بها، وأكدها المراسلون العسكريون الأجانب أن الخسائر الناجمة عن الغارات الجوية التي قام بها العدو، خلال تلك المعارك، هبطت على الجانب المصري إلى درجة مثيرة للدهشة وداعية للتساؤل.. وقد حان الوقت لكي يعرف المواطن المصري والإنسان العربي بل والعالم كله، السر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ الحروب الحديثة، والسبب الحقيقي في انخفاض نسبة الإصابة على الجانب المصري، نتيجة لغارات العدو الجوية أثناء معارك حرب رمضان.

والسر الذي نعلنه الآن والذي يبرر هذه الظاهرة يرجع ببساطة إلى نجاح علمائنا الشبان بسلاح الجو المصري في تصميم وسائل بالغة التطور لتحقيق الإنذار الفوري المبكر ضد طائرات العدو المهاجمة، وبشكل يعطي وسائل الدفاع الجوي المصري الثابتة والمتحركة الفرصة الكافية للتعامل السريع مع الطائرات المهاجمة قبل أن تتاح لها الفرصة لتحقيق أهدافها، كما أن نجاح هذه الأجهزة المصرية تصميمًا وتنفيذًا في تحقيق مهامها في الإنذار الفوري كان ييسر للمواقع المصرية المستهدفة بالهجوم اتخاذ وسائل التخفي السريع والتمويه

العاجـل، التي تزيـد من صعوبة الطائرة المعادية التي تجـازف باختراق حائط الدفاع الجوي المنيـع، الذي بـادر إلى العمل بكفاءة بالغـة الارتفاع، عقب تلقيه الضـوء الأحمر من أجهزة الإنذار الفوري، التي صممها ونفذها الجيل الجديد من باحثي الجو المصريين.

لقـد أشـاد الخبراء العسـكريون، ومحـررو الصحف العالميـة ومراسـلوها الحربيون على الصعيـد الـدولي، بدقـة التعديلات والابتـكارات التي قامـت بابتكارهـا وتصميمها نخبة الباحثين بالقوات الجوية المصرية، بالتعاون مع الأجهزة المختلفة في القوات الجوية.

وقـد تم تنفيذ هذه الابتكارات والتعديلات المسـتحدثة، التي أدخلها العقل المصري في مجال الطيران العسكري، بأيدٍ مصرية صميمة، سواء في المصانع الحربية المصرية، أو مصانع الطائـرات، أو الـورش الرئيسـة للطائـرات بالقـوات الجويـة، وكان التنفيـذ الدقيق، لهذه التصميمات والذي ثبتت سـلامته بنسـبة مائة في المائة عند المواجهة الساخنة ضد العدو يتم بإشراف المهندسين المصريين، وبأيدي العمال والفنيين المصريين.

ولعـل العـدو يعـرف الآن التفسـير الحقيقي للظاهـرة التـي دوخته وأدهشـت الخبراء العالميـين خلال معارك أكتوبر، وهـم يرون طائرة سـوفيتية الصنـع، معروفة الجهد والقدرة القتاليـة، كطائـرة «الميـج» وهي تمرح في سـماء المعركة بجهد يفوق جهدهـا المعروف في كل معاهد الدراسـات الاسـتراتيجية العالمية، وتعمل بكفاءة تفوق الكفاءة المعروفة عنها للعالم أجمع.

الـسر ببسـاطة يكمـن في الثـمار الطيبة التـي حققها علـماء مـصر الشـبان، وباحثو الجو المصريـون، واسـتطاعوا بهـا أن يدخلوا تعديـلات جوهرية عـلى الطائـرات «الميج» لم يحن الوقت لكشف أسرارها بعد...

ويكفي أن يعرف المواطن المصري أن قواته الجوية لم تدخل معركة السـادس من أكتوبر 1973، ولم تضرب ضربتها القاصمة للعدو في ذلك اليوم وما تلاه من أيام، إلا وهي مرتكزة عـلى أرض ثابتة من العلم والمعرفة، هيأها لسـلاحنا الجوي جيل جديد من الباحثين انطلق للبحـث والابتكار عندما وجد المناخ الصالح والتربة الطيبـة، وتلك كانت البداية الحقيقية لانطلاقة سلاح الجو المصري نحو الهدف.. العلم أولًا.. والعلم ثانيًا.. والعلم دائمًا.

"... لا أكون مُغاليًا إن قلت إن عملية زيادة المطـارات المصـرية إلى العـدد المطلوب بسلاح جـوي لـه ظروف السلاح المصري وعليه واجباته، كانت من أروع الملاحم التي كتبها الشـعب المصري في تاريخه الحديث.."

مطـارات فـي كـل مصـر

في صباح الإثنين الخامس من يونية عام 1967، تعرضت المطارات المصرية للضربة الجوية الإسرائيلية المكثفة.. وعلى الرغم من ذلك، وفي الوقت الذي تصور فيه العدو أن سلاح الجو المصري قد قُضي عليه تمامًا ـ نتيجة لتلك الضربة الجوية التي تلقاها في ذلك اليوم المشئوم - كان هذا السلاح العنيد يقوم بعمل آخر يختلف تمام الاختلاف عن كل ما توقعه العدو، أو فكر فيه.

على امتداد الأرض المصرية، وفي جميع المطارات التي تعرضت للقصف الجوي المعادي، كان أبناء مصر الشجعان من مهندسي الطيران، والضباط الفنيين، والميكانيكيين الجويين، قد تغلبوا تمامًا على روح اليأس.. وانطلق أبناء قواتنا الجوية الشجعان إلى العمل الجاد، بجهد أسطوري يصعب على الصديق فضلًا عن العدو تصديقه، بالقياس إلى الظروف التي بُذل فيها هذا الجهد.

كانت البداية التي انطلق منها الرجال هي إسراعهم بإصلاح ما تم تدميره من المطارات القديمة، واعتبار هذه المطارات هي نقطة البدء في العمل الكبير الذي صمموا على تحقيقه، وقد يُدهش القارئ وهو يطالع على صفحات هذا الكتاب أن أيام العمليات عام 1967، أو ما تلاه من أيام، لم يخل يوم واحد منها من طلعات انتحارية قام بها طيارونا المصريون

الشـجعان، بعضهـا هجومـي، وبعضهـا قتـالي، تمت كلهـا بشـجاعة الرجال، سـواء منهم الطيـارون المقاتلون الذين تصدوا وقتها لطيران معادٍ أسـكرته نشـوة النـصر الذي تحقق له في بداية العمليات، أو المهندسـون الأرضيون الشـجعان ومساعدوهم من العمال والفنيين، الذين قاموا بجهد أسطوري في إصلاح المطارات المدمرة في أوقات قياسية، وإعداد ما تبقى من الطائرات بسرعة فائقة لتكون صالحة للاشتراك في العمليات.

وعندمـا بـدأت الطائـرات الجديـدة التـي تعاقـد عليهـا سـلاح الجو المـصري عقب 5 يونيـة في الوصول إلى مصر، كان مهندسـو الطـيران المصريون يسـتقبلونها في نقط التجميع والتركيـب والاختبـار، التي أقاموهـا على عجل، حيث كانـوا يقومون بعمليـة تجميع هذه الطائـرات وتركيبها، بجهد يجاوز حـدود الواجب التقليدي، إلى حـدود التضحية بالوقت والنفـس، بحيث تمت هذه العمليات في أوقات قياسـية، تجـاوز في كثير من الحالات الزمن القياسي المتعارف عليه في العالم بالنسبة لتجميع قطع الطائرات وتركيبها.

كانت المهمة في مجموعها شاقة وعسيرة، ولكنها أمام الإصرار لم تكن مستحيلة أبدًا، ولما كانـت القيادة الجديدة لسـلاح الجو المصري تعرف أبعاد المهمـة التي وكلت إليها، فقد كان مـن المحتم على هذه القيادة، أن تضع خطتها لإعادة بناء السـلاح الجوي على أسـس علمية سـليمة، تحـترم قواعد الفكر العسـكري الحديـث، ولا تغفل الدروس المسـتفادة من ضربة 5 يونية بأسبابها ونتائجها.

ومن هنا انطلقت قيادة الجو المصرية إلى التحرك في عملية بناء السلاح الجوي على ثلاثة محاور أساسية، سار العمل فيها بجهد متوازٍ تمامًا، بحيث لا يتحقق تصور على أحد المحاور يؤدي إلى انكماش الجهد المبذول فيه عن الجهد المبذول في المحورين الآخرين.

1 - وكان المحـور الأول: هـو الإسراع بإصلاح وترميم ما أصيب من المطارات ومنشـآتها المعاونـة، والعمـل السريـع في نفـس الوقت على اسـتعادة ما تم تدمـيره أو إصابته من طائرات السلاح، بحيث تجد القوة البشرية من الطيارين والمهندسين والفنيين السلاح والعتـاد الذي تسـتأنف به تدريبها على أسـس جديدة، تختلف تمامًا عن الأسـس التي كانت سائدة من قبل.

صحيـح أن قيـادة السـلاح الجـوي، كانـت تدرك تمامًـا، أن عـدد المطـارات الموجودة، قليل جدًّا بالنسـبة لاحتياجات دراسـة واسـعة الرقعة لبلدٍ كمصر، وصحيح أيضًا أن هذه

المطارات بكل تفاصيلها ومنشآتها كانت معروفة تمامًا لسلاح الجو الملكي البريطاني الذي أنشأ معظمها أيام وجوده في مصر قبل توقيع اتفاقية الجلاء عام 1954 الأمر الذي يجعل من هذه المطارات سرًّا غير حصين بالنسبة لسلاح الجو الإسرائيلي وقد كان من قادته من عمل بمطارات القنال قبل رحيل القوات البريطانية عنها.. ولكن القيادة المصرية الجديدة، لم يكن أمامها فرصة للاختيار.

كان من الواجب أن تبدأ ولو من نقطة الصفر.. وكانت المطارات القديمة هي نقطة الصفر التي بدأ العمل بإصلاحها لتستقبل الأفواج الجديدة من الطائرات التي بدأ وصولها لتعويض الخسائر الفادحة التي لحقت بطائراتنا.

ورغم أن هذه المطارات، كانت تقليدية في تخطيطها، وفي المنشآت المعاونة الملحقة بها، ورغم أن حظائر الطائرات الموجودة بهذه المطارات القديمة ثبت عدم فاعليتها في حماية الطائرات من القصف الجوي، لأنها حظائر معدنية، يسهل على أبسط أنواع القنابل والصواريخ تدميرًا أن يخترق درعها المعدنية، ويصل إلى الطائرة نفسها ليدمرها تمامًا... فلم يكن هناك مفر من استخدام هذه المطارات بكل عمومها، وعلنية تفاصيلها، وقصور إمكانياتها، ولو باعتبارها فقط تجميعًا وتركيبًا للطائرات الجديدة من ناحية ومحطات تدريب أولى للأفواج الجديدة من الرجال الذين بدأ تدريبهم بسرعات قياسية على مختلف تخصصات الحرب الجوية من ناحية أخرى.

وللحقيقة والتاريخ فقد أدت هذه المطارات القديمة بعد إصلاحها جميع المهام التي نيطت بها على أكمل وجه، كما أن وجود هذه المطارات العتيقة في تصميمها ومنشآتها، قدم لقيادة الجو المصرية الجديدة خدمة رائعة، لأن وجود هذه المطارات بقلة عددها، وانتشار تفاصيلها وذيوع هذه التفاصيل كان يقدم للقيادة الجديدة باستمرار الدليل الحي على الأخطاء التي يجب عليها أن تتجنب الوقوع في حبائلها، وفي سبيل إعادة بناء قواتنا الجوية.

وكانت أبرز هذه الأخطاء التي تجسدها المطارات القديمة تتمثل فيما يلي:

أولًا: قلة عدد المطارات بالقياس إلى احتياجات الدفاع عن وطن واسع الأرجاء كبلادنا، فضلًا عن احتياجات العمليات الهجومية.

ثانيًا: القصور في تجهيزات هذه المطارات، سواءً في غرف العمليات المحلية بكل مطار

والتـي كانـت تبدو في غاية العجز من حيث الإمكانيات الآلية الحديثة أو في وسـائل الدفاع عنها، أو في منشآتها المعاونة في مختلف تخصصات الحرب الجوية.

ثالثًا: القصور الواضح في أجهزة الإنـذار المبكر العاملة بهذه المطارات، أو في الأماكن المحيطـة بها، قصورًا وضحت آثاره في جثامة الآثـار التدميرية التي أحدثتها ضربة 5 يونية، بسبب عجز أجهزة الإنذار المبكر عن العمل في الوقت المناسب، وبكفاءة مرتفعة تحيط هذه المطارات بحزام أمان يصعب على الطائرات المغيرة أن تخترقه دون افتضاح أمرها.

رابعًا: ضعف وسـائل الاتصال بين غرف العمليات الفرعية بالمطارات القديمة وغرفة العمليـات المركزية بقيادة السـلاح الجوي المـصري، ضعفًا واضحًا، ظهرت آثاره المؤسـفة صباح 5 يونية، عندما انقطعت الاتصالات أو كادت بين قيادة الجو المصرية، وبين القيادات المحليـة في المطـارات بشـكل أدى إلى زيـادة حجـم الضربة الجويـة المعاديـة، ووقوع بعض المطارات البعيدة نسـبيًا فريسـة للقصف، ولو كانت الاتصالات بينها وبين غرفة العمليات المركزية قوية وذات فاعلية مستمرة، لأمكن إنقاذ هذه المطارات تمامًا، أو على الأقل تحذيرها قبل فوات الأوان.

خامسًا: وهذا هو أفدح الأخطاء التي جسـدتها المطارات القديمـة، متمثلًا في الحظائر المعدنيـة لإيـواء الطائرات، حيث ثبت من تجربة 5 يونية القاسـية، أن هـذه الحظائر المعدنية كانـت مقابـر للطائرات الجاثمـة داخلها، ولم تكن بأي حـال من الأحـوال درع أمان يقيها هجـمات العدو المغير... فقد كانت صواريخ العدو تحيل الألـواح المعدنية التي تتكون منها هـذه الحظائر إلى ألـواح من الجحيم المصهور، يحـاصر الطائرة الجاثمة بـلا حراك، وينقض عليهـا بالدمار، انقضاض الوحش على فريسـته. وكان درسًـا قاسـيًا وعته القيـادة الجديدة، وعلى ضوئه تحركت للعمل على المحورين.. الثاني والثالث.

2 - وقـد تمثل المحـور الثاني: في زيـادة عدد المطـارات و«الممرات الجوية» بالقـدر اللازم، الذي يغطي الاحتياجات الحقيقية لسلاحنا الجوي.

وقـد يتصـور البعـض أن هـذه العملية من السـهولة بمـكان، وأنها لا تخـرج عن كونها عملية إمكانيات مادية تيسر القيام ببناء أي عدد من المطارات، ما دامت الرسـوم موجودة، وما دامت الأموال والأيدي العاملة موجودة.

ولكـن الأمـر في حقيقتـه أكثر صعوبـة وتعقيـدًا.. ولا أكـون مغاليًا إن قلـت إن عملية

زيادة المطارات المصرية إلى العدد المطلوب بسـلاح جوي له ظروف السلاح المصري وعليه واجباته، كانت من أروع الملاحم التي كتبها الشعب المصري في تاريخه الحديث.

هذه الملحمة الرائعة، بدأت عشية النكسة باستطلاع جوي شامل، جمع أراضي جمهورية مـصر العربيـة، وعلى ضوء هـذا الاسـتطلاع الواسـع المدى، تم وضـع الخرائط المسـاحية الدقيقة، التي تحدد بدقة بالغة أنسب المواقع لإقامة المطارات والممرات الجديدة، التي رُوعي في تحديـد أماكنها عدد من العوامـل المؤثرة، بعضها اسـتراتيجي وبعضها تعبوي، وبعضها تكتيكـي، بحيث تؤدي الصـورة النهائية لخريطة المطارات الجديدة بعد الفراغ من إنشـائها إلى إقامة كيان متكامل من القواعد الجوية، القادرة على أداء لحن متناسق عندما يصدر إليها الأمر المرتقب.

وعقب إتمام الخطوة الأولى، بوضع الخرائط التفصيلية، لتوزيع المطارات الجديدة، بدأت على الفور الخطوة التالية، بعملية اسـتطلاع أرضي على الطبيعية لكل موقع على حدة، لجس الأرض، والتعـرف على طبيعتها، بواسـطة المختصين في العمليات الجويـة والملاحة الجوية وإنشـاء المطارات، لتقرير الصلاحية النهائية ثم تصدر إشـارة البدء، وتدور آلة العمل، ليل نهار، رجالي أقسموا ألا يعوقهم عائق عن أداء الواجب الذي فرضه عليهم حبهم لوطنهم، وإصرارهم على أن يكون لوطنهم سـلاح جوي حديث قادر على مواجهة خصمه وردعه، ثم انتزاع السيادة الجوية منه.

لقـد كتب عالم المصريـات والمؤرخ البريطاني الشـهير «جون بريسـتيد»: «هذه الجحافل مـن البشر، التي فاقـت في دقتها ونظامها وتتابعها دقة النمل.. أي دافع سـحري كان يحرك فلاحـي مصر القديمـة، ويزودهـم بقوة سـحرية تعينهم على رفع أحجار الهـرم الأكبر التي يزن الواحد منها عشرات الأطنان..أي قوة خفية سرت في عروق هؤلاء الفلاحين البسطاء فحولـت أذرعهم النحيلة إلى آلات رفع جبارة، أحكمت وضع هذه الصخور بعضها فوق بعض بدقة معجزة ونظام محكم، كانت ثمرته الأسطورة هذا الهرم الجليل.. معجزة الهندسة في فجر الحضارة، ومعجزة الإرادة البشرية، عندما يريد البشر».

أتوقـف عن متابعـة الحديث عن ملحمة بنـاء المطارات والممرات الجويـة الجديدة، وأنا أسترجع هذه العبارات المؤثرة التي كتبها مؤرخ بريطاني شهير، وصور بها إحساسه بالدهشة

والانبهار، أمام عظمة «هؤلاء الجبابرة» من فلاحي مصر القديمة، الذين بسواعدهم المعروقة بنوا معجزة العالم القديم في الهندسة والمعمار.. هرم خوفو الأكبر.

أتوقف لأسأل: ترى لو قُدر لهذا المؤرخ البريطاني «جون بريستيد» أن يشاهد ما حدث على أرض مصر وثمرة العقل المصري، والأيدي المصرية الخالصة عندما انتشرت على طول وادي النيل من جنوب أسوان، إلى شواطئ البحر الأبيض ومن حدودنا الغربية في الصحراء، إلى شواطئنا الشرقية على البحر الأحمر شبكة من المطارات والممرات الجوية، صممت ونُفذت على أحدث ما يكون التصميم والتنفيذ في العصر الحديث، وبأسرع ما يكون التصميم والتنفيذ.

ترى ما الذي كنا سنقرأ من وصف رائع يصور به هذا المؤرخ البريطاني خشوعه ورهبته أمام المعجزة الجديدة التي حققها في الستينيات من القرن العشرين أحفاد الجبابرة الأولين من بناة الهرم الأكبر.

يكفي أن نعرف أن الجهد الذي بُذل في إقامة هذه المطارات والممرات الجديدة وما يتبعها من منشآت وحظائر مستحدثة، يعادل الجهد الذي بُذل في إقامة الأهرامات كلها عشرات المرات. وأن نعرف أن الإرادة المصرية التي لا تعرف المستحيل استطاعت خلال زمن قياسي، وفي ظروف بالغة القسوة، نفسيًّا وسياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا أن تصب في هذه المطارات والقواعد المصرية بضعة ملايين من الأمتار المكعبة من الخرسانة المسلحة، التي احتاجتها القواعد الجوية والمطارات الجديدة، بما فيها من دشم، وملاجئ لحماية الطائرات والمعدات الفنية.

إن العمل في إقامة شبكة المطارات الجديدة كان يجري رغم أنف العدو، وتحت الهجمات المتكررة من طائراته المغيرة، وكلما ازداد العدو الجوي شراسة في قصفه لمواقع بناء هذه القواعد كان أبناء مصر الشجعان عسكريين ومدنيين من العاملين في هذه المواقع يزدادون إصرارًا على إنجاز المهمة، ويزدادون شراسة في أدائها، لأنهم كانوا على يقين، من أنهم في سباق تاريخي مع الزمن، ومع العدو الذي يريد أن يثبط همتهم، وهو سباق رهيب جائزته الحياة والنجاة وإقامة درع الأمان لمصر كلها، وخسارته رهيبة أيضًا، لا معنى لها سوى تأكيد سيطرة العدو الجوية على سماء المنطقة كلها.

لقد فزنا في السباق التاريخي عن جدارة، ومن جوف الأرض وعلى امتداد رقعة الأرض

المصرية الغالية طفت على السطح شبكة هائلة من القواعد والمطارات والممرات الجوية الحديثة في تصميمها وفي تنفيذها، وفي المنشآت الحديثة التي زودت بها، وكان النجاح في هذا السباق التاريخي دليلًا حاسمًا على فشل أجهزة الحرب النفسية المعادية ضدنا، فضلًا عن فشل هجماته الجوية التي استهدفت إعاقة الجهد المصري والإرادة المصرية الجبارة، كما أكد هذا النجاح في إقامة هذه المطارات الجديدة، أن روح مصر الخالدة، التي يسرت لأجدادنا الأقدمين إقامة الأهرامات في فجر الحضارة أسرت إلينا عبر عصور التاريخ، لكي تصرخ في أعماقنا... لا تضعفوا وانتصروا.. فلم نضعف وانتصرنا.

3 - ونصل أخيرًا إلى المحور الثالث: في عملية إعادة بناء السلاح الجوي ولعله أروع انتصارات الإنسان المصري فكرًا وعملًا التي حققها هذا الإنسان المعجزة، في سنوات الإعداد للمعركة، وقبل أن يفاجئ العالم أجمع بمعجزة العبور التاريخي لقناة السويس.. لعل أروع هذه الانتصارات في مجال الهندسة العسكرية، يتمثل في إقامة الدشم الخرسانية المسلحة وملاجئ حماية الطائرات، التي كانت ثمرة خالصة للفكر الهندسي المصري الصميم، وللتنفيذ المصري الذي يبلغ حد الإعجاز في دقته..

لقد كانت البداية عقب عمليات الخامس من يونية عام 1967 مباشرة، حين وضعت القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري يدها على واحد من أكبر أخطاء ما قبل الضربة الإسرائيلية المكثفة، وهو «الحظائر المعدنية» لإيواء الطائرات، تلك الحظائر التي فشلت فشلًا ذريعًا في تحقيق الغرض منها، وكان لابد من البحث عن بديل سريع، يضمن السلامة لطائراتنا، ويكمل حمايتها الكاملة في حالة إفلات العدو الجوي من حائط الدفاع الجوي الثابت، ومظلة الدفاع الجوي المتحركة، بحيث تجد طائرات العدو المغيرة نفسها عاجزة تمامًا عن الوصول إلى هدفها بتدمير أو إصابة أي من طائراتنا.

وسرعان ما نبتت الفكرة، وعرضت على بساط البحث، أمام مجموعة من العقول المصرية المتخصصة في هندسة الإنشاءات، بعضها من المهندسين العسكريين، وبعضها من خبراء «جهاز إنشاء المطارات» إلى جانب عدد من أساتذة الهندسة بالجامعات المصرية.

وقد وضعت قيادة الجو المصرية، أمام هذا الحشد من الخبراء العسكريين وأساتذة الجامعات، الهدف الأساسي الذي يجب عليهم الوصول لتحقيقه بأي شكل، وبأية صورة يتفتق عنها خيالهم وعلمهم، وبأي ثمن مهما غلا الثمن وعظمت التضحيات.

وكان على هؤلاء الخبراء أن يتوصلوا بسرعة إلى وضع تصميم سريع ومحكم لبناء هندسي يضمن تمامًا سلامة ما يوضع داخله من طائرات أو معدات.. مهما توالت الضربات الجوية الموجهة ضده، ومهما بلغ من عنفها وقوتها التدميرية.

وعندما أعلن مهندسونا وخبراؤنا أنهم توصلوا إلى تصميم «الدشمة الخرسانية المسلحة» التي تضمن تحقيق الهدف المطلوب، فوجئوا بقيادة الجو المصرية تطلب منهم أن يتولوا الإجابة الدقيقة عن الأسئلة التالية:

1 - ما هو على وجه الدقة، الموقع الذي يرشحونه لإقامة الدشم بالنسبة لكل ممر من ممرات المطار، وبشكل يضمن سلامة وضع الطائرات موضع الاستعداد في حالتيه الأولى والثانية؟

2 - ما هو تصورهم عند تنفيذ التصميم المقترح للأسلوب السليم لدخول وخروج الطائرة من الدشمة، علاوة على طريقة الجر أو الدفع الذاتي؟

3 - ما هي الوسائل التي تضمن تأمين وسلامة أطقم الفنيين الأرضيين المسئولين عن تجهيز وإعداد الطائرة داخل الدشمة خاصة بالنسبة لعادم الطائرة، عند دوران محركها قبل خروجها من الدشمة؟

4 - ما هي وسائل تأمين الطائرة داخل الدشمة، ضد العوامل الجوية والأتربة...؟

5 - البحث عن وسائل تضمن حماية الطائرة وعدم إصابتها عن طريق المداخل المكشوفة بدون بوابات.

كانت هذه مجرد نماذج من الأسئلة التي وضُعت أمام خبرائنا، وكان عليهم أن يجدوا لكل سؤال إجابة مقنعة من الوجهة النظرية، وقابلة للتنفيذ من الوجهة العملية.

وتوالت التصميمات والتعديلات، حتى قدر للجميع أن يعلنوا في النهاية كلمة العلم بموضوعية صارمة.. نجح العقل المصري الخلاق في تحقيق المعجزة، وظهرت الدشمة المسلحة إلى الوجود، تحديًا عمليًا صارخًا، لكل ما أشاعه العدو عن تفوقه في مجال العلم الحديث والتكنولوجيا، وعجز العقل العربي عن اللحاق به، فضلًا عن منافسته أو التفوق عليه.

كانت النتائج الباهرة التي حققتها هذه الدشم خلال عمليات السادس من أكتوبر،

ومسارعة القوى الكبرى والدول التي تسير في فلكها، إلى تغيير استراتيجيتها في وسائل حماية طائراتها، دليلًا أكيدًا على نجاح العقل المصري في تحقيق المعجزة التي صمم على الوصول إليها فكان له ما أراد.

وإذا كانت قطاعات مختلفة من خبراء الإنشاءات الهندسية عسكريين ومدنيين قد تعاونت في وضع التصميم المبتكر لهذه الدشم الجبارة، فالجدير بالتقدير والعرفان أيضًا، أن جميع القطاعات الإنشائية في الدولة وكذلك قطاعات النقل المختلفة سواء بالسكك الحديدية أو بالطرق البرية قد تعاونت جميعها مع أبناء القوات الجوية في تنفيذ هذه المهمة التاريخية.

ولا يستطيع منصف أن ينسى أبدًا، أن هذا الشعب العظيم رغم كل الظروف القاسية التي مر بها اقتصاده الوطني عقب هزيمة يونية لم يتردد لحظة واحدة في توجيه كل إمكانياته لخدمة البناء العسكري، خاصة في محيط بناء السلاح الجوي من جديد، وعلى سبيل المثال فقد مر بنا وقت كانت جميع مصادر الإنشاء ومواد البناء تخصص كل إنتاجها تقريبًا لخدمة التحصينات والمطارات الجديدة والدشم الخرسانية، التي احتاج بناؤها إلى ملايين الأمتار المكعبة من الخرسانة المسلحة والخرسانة العادية، بما فيها من أسمنت وحديد تسليح، وزلط ورمال.. وقبل كل هذا وبعده جهد عشرات الآلاف من الرجال الذين عملوا في صمت وإسرار وفدائية تنحني أمامها الرءوس إجلالًا وإكبارًا.

كانت المهمة صعبة، وكان الجهد المطلوب لتحقيقها عقليًا وعمليًا بالغ الصعوبة.. ولكن الإرادة المصرية قهرت المستحيل، لتحصل في النهاية على ما أرادت الوصول إليه:

- وقاية كاملة للطائرات من الهجوم الجوي المعادي، سواء بالصواريخ أو القنابل بمختلف أحجامها وقوتها التدميرية أو النابالم أو الضرب بالأسلحة الصغيرة... وقد تحقق هذا بعد تجربة العديد من التصميمات، والتعديلات المستمرة، على ضوء الملاحظات التي برزت خلال مراحل تدريب التشكيلات الجديدة لسلاح الجو المصري، تجاوبًا مع مطالب الأجهزة المختصة بصيانة وتشغيل الطائرات والمعاونة الأرضية.
- لم تقتصر مهمة الخبراء المصريين على إقامة الدشم المسلحة لحماية الطائرة من القصف الجوي المعادي فحسب، بل امتدت إلى البحث عن وسائل مستحدثة لإخفاء وتمويه

الطائرات نفسها، عن طريق استخدام أحدث ما وصل إليه في الخداع والتمويه من أساليب مبتكرة، إلى جانب الأساليب النمطية المعروفة مثل شباك التمويه، وشكائر الرمل، والدهانات المتنوعة، لإدماج الطائرة من حيث اللون، مع البيئة والأرض المحيطة بها، وبناء الحظائر السرية، التي تأخذ من حيث الشكل الخارجي طراز المنشآت والمباني الريفية في المناطق الزراعية التي تقام بها هذه الحظائر السرية، وكذلك الحرص على استخدام أغطية الطائرات في جميع مراحل تحريكها، هذا إلى جانب تحقيق مبدأ الانتشار بالنسبة للطائرات الجاثمة على الأرض، تفاديًا لأسلوب التكدس الذي ثبت خطره الساحق على الطائرات.

هذه الدشم الخرسانية أدت خدمات جليلة في مجال حماية الطائرات وأجهزة المعاونة والمعدات العسكرية خلال معارك السادس من أكتوبر، وأشير هنا إلى واقعة محددة، جرت يوم الأحد السابع من أكتوبر عام 1973، أي في ثاني أيام القتال مباشرة.

كان العدو الجوي قد بدأ في الإفاقة الجزئية من آثار الصدمة الرهيبة التي أصيب بها نتيجة للضربة الجوية المركزة، التي وجهتها طائراتنا لقواعده الجوية ومختلف مواقعه العسكرية في سيناء، في الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر، وما أعقبها من ضربات ساحقة كالتها له قواتنا المسلحة التي عبرت القناة على امتداد طولها، عقب نجاح الضربة الجوية المصرية «صدام».

وكان أول ما فكر فيه العدو الإسرائيلي استخدام ما كان يسمى بذراع إسرائيل الطويلة، في عملية هجومية مركزة تستهدف ضرب أكبر عدد ممكن من المطارات والقواعد الجوية المصرية. كانت تلك واحدة من أخطائه الكبيرة في معارك السادس من أكتوبر، التي دخلها المقاتل المصري وقد تسلح بفكر جديد، وأسلوب قتالي جديد، بعد أن استوعب جيدًا درس النكسة الظالمة التي فرضت عليه في معارك الخامس من يونية، والتي بدأت وانتهت دون أن تتاح لهذا المقاتل برًّا وجوًّا وبحرًّا الفرصة الحقيقية والعادلة، لإثبات وجوده على أرض المعركة.

حاول سلاح الجو الإسرائيلي إحداث ضربة مركزة، يحقق بها ما سبق أن حققه عام 1967، من شلل كامل لسلاح الجو المصري، تمهيدًا لإخراجه من المعركة، لينطلق الطيران الإسرائيلي بعد هذا للعربدة في سماء المعركة، ويلقي بكل ثقله ضد قواتنا البرية التي عبرت

القناة، فيوقف زحفها المنتصر، ثم يدفع بها إلى الوراء، منسحبة أمام العدو الإسرائيلي الذي كان يترنح من هول الضربات التي تلقاها.

مغامرة مجنونة، ولا أقصد بهذا التعبير مجرد تعبير جارح أشتم به خصمي، وأنفس به عن غضب قومي، ولكنني كطيار مقاتل، يعرف أصول المهنة وأسرارها، على جميع مستويات التخطيط والتنفيذ للعمليات الهجومية والقتالية أؤكد من باب العلمية الصارمة، أن العملية الهجومية التي حاول سلاح الجو الإسرائيلي القيام بها صباح الأحد 7 أكتوبر 1973 كانت مجرد «مغامرة مجنونة» ولا يمكن أن ترقى حتى إلى وصفها بأنها مهمة انتحارية وذلك للأسباب الآتية:

أولًا: أن العملية التي يقوم بها أي سلاح جوي مهاجم ضد خصمه لكي تكتسب احترام الخبراء في التخطيط للحرب الجوية من جهة، ولكي توصف بأنها عملية سليمة - سواء أدت إلى تحقيق أغراضها كاملة أو قصرت عن أداء الغرض منها من جهة ثانية - يجب أن تتوافر فيها العناصر التالية:

1 - أن يحرص مخطط العملية منذ البداية - وقبل الدخول في أية تفاصيل - على تحديد الهدف المطلوب تحقيقه من الضربة الجوية تحديدًا كاملًا، لا يترك فرصة أمام الطيارين المقاتلين المكلفين بالمهمة للوقوع في براثن الارتجال، أو الاجتهاد السريع، وهم معلقون في الجو فوق الهدف، بحيث يفرغ الطيار المهاجم - فكرًا وعملًا - لأداء المهمة المرسومة له بدقة.

2 - أن تكون لدى واضع الخطة المعلومات الدقيقة عن دفاعات العدو الثابتة والمتحركة، التي يتوقع قيامها بالتصدي للعملية واعتراضها ومحاولة إجهاضها قبل أن تحقق أغراضها، وعناية المخطط للعملية الهجومية الجوية بهذا العنصر بالذات هي الخط الدقيق الذي يفصل بين الفشل والنجاح ويوحي بالمصير الذي ستئول إليه الخطة النظرية عند وضعها موضع التنفيذ على مسرح العمليات.

ولا نعني بأهمية حساب المخاطر التي تهدد العملية، أن واضع الخطة مسئول عن توفير البيانات اللازمة عن دفاعات العدو، ومسئول بالتالي عن سلامة هذه البيانات، وصدقها في التعبير عن الصورة الواقعية للموقف الذي يتمتع به العدو، فتلك مسئولية أجهزة جمع المعلومات والاستخبار، ولكن الذي نعنيه بمسئولية واضع الخطة في هذا الصدد، ألا يتجاهل ما تضعه أجهزة المخابرات العسكرية عامة والجوية بصفة خاصة عن العدو الجوي

الذي يخطط لضربه، بل يجب عليه أن يسعى للحصول على هذه المعلومات ويطلب سد ما فيها من قصور، إن رأى أن فيها قصورًا أو نقصًا.

ومسئولية المخطط في هذا الصدد، ليست مسئولية صاحب المهنة المتخصص فحسب - وما توجبه المهنة على صاحبها من ضرورة اتباع القواعد السليمة للعمل - بل إن مسئولية المخطط في التعرف الكامل على موقف دفاعات العدو، ترتفع إلى مستوى المسئولية القومية التي توجب على المخطط العسكري أن يضع في حسبانه دائمًا أن الفشل غير العادي على مسرح العمليات قد يؤدي إلى كارثة قومية لا يتوقف تأثيرها المدمر عند مجموعة المقاتلين الذين فشلوا في تنفيذ الخطة - بسبب قصورها أو عجز أو إهمال مخططها - بل يمتد هذا الدمار إلى الوطن كله.

وأخيرًا وليس آخرًا، فهناك مسئولية المخطط أمام ضميره العسكري كمقاتل، وضميره البشري كإنسان مسئول عن توفير أكبر قدر من السلامة للرجال الذين وثقوا في أمانة وقدرة المخطط - العسكري - ثقة عمياء، قد تدفعهم إلى تنفيذ خطته دون مناقشة أو مراجعة.

ثانيًا: أن التطبيق الموضوعي المحايد لهذه القواعد النظرية على العملية الهجومية التي قام بها سلاح الطيران الإسرائيلي.. ضد مجموعة من المطارات المصرية، يوم الأحد 7 أكتوبر 1973 - أي في ثاني أيام معارك السادس من أكتوبر - يؤكد أن هذه العملية، لم تكن بأي حال من الأحوال عملية هجومية سليمة من وجهة النظر العلمية لقواعد التخطيط للحرب الجوية، كذلك لا يُمكن وصفها - ولو من باب التجاوز - بأنها عملية انتحارية، قامت بها جماعة من الفدائيين، يعرفون مقدمًا هول المخاطر التي سيتعرضون لها، ولكن حماسهم الوطني، واندفاعهم القتالي تجاوز معرفتهم المسبقة بمخاطر الدمار الكامل الذي يترصدهم على مسرح تنفيذ العملية الانتحارية التي تطوعوا للقيام بها.

وإذا لم تكن هذه العملية، هجومًا جويًا جرى تخطيطه وتنفيذه على أسس سليمة، وإذا لم تكن أيضًا عملية انتحارية، يستحق القائمون بها تخطيطًا وتنفيذًا، التقدير الذي يحظى به كل فدائي يقوم على تنفيذ مهمته الانتحارية برحابة صدر، واستهانة بالموت المحقق الذي يترصده، فلم يبقَ أمامنا - ودون أدنى استسلام لدواعي التعصب القومي، أو تجاهل النظرة العلمية المحايدة - إلا أن نصف هذه العملية بوصفها الصحيح، وهي أنها مجرد مغامرة مجنونة، اندفع إليها قادة سلاح الجو الإسرائيلي، بالطيش، والاستهتار - حتى

بـأرواح طياريهم المقاتلين - واندفعوا إليهـا بأخطر ما يقع فيه المقاتل الحديث، وهو الغرور بالنفس والاستهانة بالخصم.

وجريًـا على منهـج العلمية الصارمة في التحليل لموقفنا وموقف العدو على السـواء أضع الأدلـة التاليـة التي تدين هذه المغامـرة المجنونة التي صدر الأمر بتنفيذها من قيادة السـلاح الجوي الإسرائيلي، دون أدنى اعتبار للواقع الجديد الذي كشـفت عنه الساعات القليلة التي مضت منذ اشتعال الحرب في الساعة الثانية من بعد ظهر السبت 6 أكتوبر، ودون أدنى مراعاة للعوامل السياسية والعسكرية التي طرأت على الموقف في المنطقة قبيل اندلاع الحرب.

بالنسبة للموقـف العسكـري نفسـه، كان علـى القائـد الإسرائيلـي الذي أصـدر أمره بالهجوم على المطارات المصرية صباح الأحد 7 أكتوبر أن يتوقف أمام الحقائق التالية:

1 - في السـاعة «205» الثانيـة وخمـس دقائق من بعد ظهر السـبت 6 أكتوبـر، عبرت القناة مائتـان واثنتان وعـشرون طائرة مصرية قناة السـويس، لتقوم بضربـة جوية مركزة على مختلف القواعد والمواقع الإسرائيلية في سـيناء، وتنجح في أداء مهمتها، نجاحًا سـاحقًا، أكده انخفاض نسـبة الخسـائر بين الطائـرات المصرية المهاجمة إلى واحـد في المائة - وهي نسـبة تمثل رقمًا قياسـيًّا عالميًّـا، لم يحدث من قبل في تاريخ الحـروب الجوية - كما أكد هذا النجاح الساحق، ارتفاع نسبة إصابة الأهداف إلى رقم يجاوز الخمسة وتسعين في المائة.

2 - فـإذا أضفنـا إلى هذه الحقائـق المعروفة للعدو، نجـاح هذا العدد الضخم مـن الطائرات المهاجمة في العودة بسلام بعد تنفيذ المهمة، واختراق حائط الجحيم الذي أشعلته المدفعية المصرية المرابطة - وقتها - على الضفة الغربية للقناة، دون أن تسقط طائرة مصرية واحدة - ولو من باب الإصابة الخطأ - وهي تحلق على ارتفاع منخفض، لا يجاوز ارتفاع السد الترابي الذي أقامته إسرائيل على الضفة الشرقية للقناة إلا ببضعة أمتار قليلة.

كيـف نجحـت هذه الطائرات المصرية - عند عودتهـا في اختراق هذا الجحيم الذي كان يتدفـق ببشـاعة عـلى رءوس العدو.. دون أن تسـقط منها طائـرة واحدة.. سـؤال قد يبدو بسـيطًا، ولكن الإجابة عنه، تحمل سرًّا - لاشـك أنه دوخ قادة الجو الإسرائيليين - وهو ما سنكشف عنه عند تحليلنا لأبعاد الضربة المصرية «صدام».

والذي يعنينا هنا من هذا السـؤال هو: تجاهل قادة إسرائيل لهذه الظاهرة التي تدل بها لا يدع مجالا للشك على أمرين:

الأول: مهـارة المدفعية المصرية في التصويب عـلى أهدافها، بدقة تبلغ حد الإعجاز، ولا تسـمح بالخطـأ في اقتناص الهـدف، أو بالابتعـاد بالقذيفـة أو الصاروخ شـعرة واحدة عن الغرض المستهدف بالتدمير.

ولـو أن رجال المدفعية والصواريخ المصريين، كان يتسـامحون في تحديدهم لمكان الهدف ولـو لأمتـار قليلة، لتسـاقطت طائراتنا بالعشرات أثنـاء عودتها الظافرة بعـد قيامها بتوجيه الضربة «صدام».

والأمر الثاني: مهارة الطيـار المصري المقاتل، في إصابة أهدافه والتصويب عليها بدقة بالغـة، ثم قدرته العاليـة الكفاءة، على التحكم في طائرته، والمناورة بها، وتحديد مسـارها - يمينًا ويسـارًا، وارتفاعًا وانخفاضًا - بصورة مشرفة وضحت آثارها، في نجاته من المقاومة اليائسـة التـي أبدتها فلول العـدو الجوي أثناء تنفيذ الضربة المصريـة «صدام»، كما وضحت مهـارة الطيـار المصري بصـورة تشرفه وتشرف كل مـصري وعربي، في قدرتـه المعجزة على اخـتراق حائط الجحيـم الذي أقامته المدفعيـة المصرية على القناة، والعودة سـالمًا إلى قاعدته الجوية.

3 - وننتقـل إلى الحقيقـة الثالثة - التي تجاهلهـا القائد الإسرائيلي الذي أمـر طياريه بالقيام بمغامـرة مجنونـة لـضرب المطـارات المصرية صبـاح الأحـد 7 أكتوبـر - وتتمثل هذه الحقيقـة في ثلاث ظواهر مؤكدة، أثبتتها غرف العمليـات الجوية على الجانبين المصري والإسرائيلي، وشهد بصحتها المراسلون العسكريون الأجانب - وتتمثل فيما يلي:

أولًا: أن الجانب المصري، كان يتمتع - منذ الثانية الأولى لاشتعال الحرب يوم 6 أكتوبر - بنظـام إنذار مبكـر، ذي كفاءة عاليـة الارتفاع يسرت للقوات المسـلحة المصريـة - بجميع أفرعها البرية والبحرية والجوية والدفاع الجوي - أن تأخذ حذرها في وقت مبكر جدًّا، ضد أي هجوم متوقع وأن تكون على استعداد لإجهاض أية هجمة معادية، ثم ردها على أعقابها والقضـاء على القوة المهاجمة، بمجرد تحرك هذه القوة من قواعد تمركزها الأسـاسـية، وذلك على النقيض تمامًا، مما حدث يوم 5 يونية 1967 .

ثانيًا: أن الدفاع الجوي المصري - بوسـائله الثابتة والمتحركة - أثبت للعدو الإسرائيلي

أن عصر السيادة الجوية لإسرائيل قد ولى إلى الأبد وأن «حائط الصواريخ» المصرية المتمركزة على القناة، و«غابة الصواريخ» المتحركة على أكتاف فلاحي مصر الشجعان، قد أعدت قبرًا لكل طائرة إسرائيلية تقترب، وحفرت قبرًا مماثلًا في هوله لكل طيار إسرائيلي يفكر بالطيش أو بالغرور في الهجوم على جيش مصر الزاحف.

ثالثًا: ما أبداه الطيار المصري المقاتل، من مهارة وخبرة وشراسة في القتال، سواء في حمايته الكاملة للطائرات التي قامت بالضربة المصرية «صدام» التي تمت في الساعة «205» ظهر 6 أكتوبر، أو اعتراضه المؤثر للمحاولات اليائسة التي قام بها سلاح الجو الإسرائيلي للاقتراب من مواقع القوات المسلحة البرية التي عبرت القناة.. وكانت مهارة هذا الطيار المصري المقاتل، واحدة من أروع المفاجآت التي صدمت العدو الإسرائيلي منذ الدقيقة الأولى لاشتعال القتال.

لا نقول هذا الكلام من باب التعصب للمقاتل المصري، ولا من باب التحيز ضد العدو، ولكننا نقرر حقيقة ثابتة، أكدها ارتفاع الخسائر بصورة مرعبة بين الطائرات الإسرائيلية، التي حاولت الاقتراب من أرض المعركة في الساعات الأولى من عبور القوات المصرية للقناة، كما أكدتها أقوال الأسرى الإسرائيليين أنفسهم، وشهادة المعلقين والخبراء العسكريين الدوليين، وفيهم المتعاطف مع إسرائيل.

موشي ديان نفسه - وهو فيلسوف المؤسسة العسكرية في تل أبيب، ومعبودها الذي تحطم على صخرة 6 أكتوبر - يعترف في مرارة بأن «هذه حرب صعبة.. معارك المدرعات قاسية.. ومعارك الجو فيها مريرة.. إنها حرب مريرة بأيامها، وثقيلة بدمائها».

صحيفة نيويورك تايمز تعترف بأن «إسرائيل فقدت لحظة اندلاع الحرب نحو خمس ما كانت تملكه من طائرات.. وتتمثل هذه الخسائر في المقاتلات الفانتوم، وقاذفات القنابل الهجومية من طراز سكاي هوك».

الأسير الإسرائيلي: ملازم أول طيار «أوري يوسف آذار» يعترف في مرارة بما حاولت قيادته أن تخفيه عن الجميع، ويفضح هذه القيادة حين يقول: «لقد أذهلنا المستوى الممتاز للطيارين المصريين.. كما أذهلتنا كفاءتهم القتالية العالية».

حتى قادة طائرات الاستطلاع الإسرائيلي - وهم يمثلون عادة مستوى عاليًا من الخبرة والكفاءة في الطيران الحربي عمومًا يعترفون بأن قيادتهم الجوية ضللتهم بالمعلومات

الخاطئة، وهذا هو طيار الاستطلاع الإسرائيلي الأسير ملازم أول وان مائير روزين يقول في غضب: «لقد كانت معلوماتنا أن الفانتوم أحسن من الميج - وأن كفاءة الطيار المصري لا تقارن بكفاءتنا. - وقد أكدت الحرب أن هذا خطأ».

نقيب طيار «أسير» أينبرج - وهو من طياري «سكاي هوك»، يصرح في مرارة بقوله: «لم أكن أعتقد أننا ستتكبد هذه الخسائر في الطائرات».

حتى جنرال بارليف - صاحب فكرة الخط المشهور.. يضطر رغم أنفه إلى الاعتراف بالحقيقة التي صدمته بروعتها فيقول: «لقد كان مستوى طيران المقاتلات القاذفة المصرية عظيمًا، وكانت هجماتها بالغة الدقة ومدمرة».

وبخلاف اعترافات قادة إسرائيل العسكريين وطياريها المقاتلين الذين ذاقوا بأنفسهم مرارة الهول الذي صبته عليهم وسائل الدفاع الجوي المصري، ونيران المقاتلات المصرية قرأت شهادات بعض الخبراء العسكريين، سواء منهم المحايد، أو المتعاطف مع إسرائيل:

المراسل العسكري لصحيفة «و.أ. التشيكية» يقول: «إن عدد الطائرات الإسرائيلية التي أُسقطت - في معارك أكتوبر 1973 - لا مثيل له في تاريخ الحرب في الشرق الأوسط».

الجنرال الأمريكي «ميدلتون» الذي يعتبر واحدًا من الخبراء العسكريين الدوليين، يقول: «إن مفاجأة المعركة هي عجز الطيران الإسرائيلي عن التفوق، وهو الأمر الذي كانت الولايات المتحدة والسلطات العسكرية الإسرائيلية تأخذه كأمر مسلم به».

ثم يقول «ميدلتون» في موضع آخر من تحليله لمعارك السادس من أكتوبر: «إن القوات الجوية العربية ظهرت على مستوى عالٍ، وبصورة لم تكن متوقعة.. فقد أظهر الطيارون - العرب - أنهم لا يفتقرون إلى الخبرة والجسارة.. بينما أظهرت الأطقم الأرضية أنها قادرة على تشغيل الطائرات المعقدة».

وقد قال نجم الدبلوماسية الإسرائيلية «أبا إيبان» الذي اضطر للاعتراف بالسر الكامن وراء العقدة التي سيطرت على عقول قادة إسرائيل، ودفعوا ثمنها غاليًا في معارك أكتوبر. إن أبا إيبان يعترف صراحة بقوله: «لقد كان هناك إحساس بأن طيارينا يستطيعون الانتصار في المعركة، حتى بدون طائرات.. وكانت النتيجة أننا عشنا ست سنوات في عالم غير واقعي».

وإلى جانب تجاهل الحقائق العسكرية، تجاهل قادة إسرائيل التطورات السياسية الجديدة في منطقة الصراع.

في مذكراته كتب دكتور «حاييم وايزمان» بشأن قضية الوحدة بين العرب، وأثر وحدة الصف العربي تجاه الإحساس بالخطر الصهيوني، كجسم سرطاني متعطش إلى الزيادة المستمرة في جميع الاتجاهات، وابتلاع كل ما يمكن ابتلاعه من الأرض العربية. وقد أطلق صرخته الشهيرة في كتاب «التجربة والخطأ» مخاطبًا قادة بريطانيا والولايات المتحدة: «يا قوم أعطونا - نحن اليهود - نصف فرصة فقط.. وسنثبت لكم أن قوة العرب.. ووحدة العرب.. أمور كلها كذب.. في كذب.. في كذب».

كان يجوز لحاييم وايزمان، أن يقول مثل هذا الكلام في عام 1950 - سواء كان مؤمنًا فعلًا باستحالة الوحدة بين أمة العرب واستحالة تجمع الصف العربي في مواجهة الخطر الصهيوني، أو كان كلام وايزمان في ذلك الوقت من باب الخداع للقوى الكبرى، وتضليلها - فقد كان هناك في الساحة العربية ما ييسر لوايزمان أن يقول هذا الكلام الذي ينكر فيه على العرب أي قوة، وينفي عنهم أي أمل في وحدة الصف، ووحدة الإرادة في وجه الخطر الإسرائيلي.

ولكن، بعد سنوات طويلة من هذا، ما هو عذر قادة إسرائيل حين يتجاهلون - عام 1973 - الظواهر الجديدة التي بدأت تفرض نفسها على ساحة الواقع العربي؟! والتي كانت تؤكد كلها أن العرب قد نزعوا عن أنفسهم ثوب الفرقة والخلاف، وأن وحدة الصف العربي - في مواجهة الخطر الإسرائيلي على الأقل - قد أصبحت أمرًا مؤكدًا، تقطع به التحركات السياسية الشهيرة التي قام بها الرئيس محمد أنور السادات في الفترة السابقة على المعركة، وتؤيده الاستجابة الواضحة - سواء من قادة العرب أو المواطن العربي العادي- للدعوة المخلصة إلى دفن ماضي الفرقة بكل ما فيه، والانطلاق إلى مستقبل عربي جديد تجتمع فيه إرادة العرب وكلمتهم في مواجهة خصم لا يعيش إلا على الفرقة وبذر الخلاف بين الأشقاء.

إن السبب الجوهري في هذا الخطأ الذي وقع فيه قادة إسرائيل جميعًا - عسكريين ومدنيين حين تصوروا أن وحدة العرب مستحيلة، وأن قوة العرب كتجمع هائل غني بالموارد البشرية والموارد المادية مجرد وهم، وأن إسرائيل ستواجه عام 1973 على أرض

المعركـة وفي سـمائها دولة عربيـة واحدة، أو دولتين على الأكثر - يرجـع بالدرجة الأولى إلى داء التعصـب الذي قامـت عليه النظريـة الصهيونية منذ البداية، وحولت الشـخص الذي يعتنقها إلى كائن مشـوه عقليًّا، يتقوقع حول نفسـه، داخل وهم من الآراء والأفكار البالية، يقـف عندها، ولا يملك القدرة على مغالبة سـحرها، والخروج إلى دنيا الأحياء بما فيها من فكر متجدد، وآراء متطورة.

هنـا نضـع يدنـا على واحد مـن أخطر الأسـباب، التـي أدت بإسرائيل إلى المـأزق الذي وجـدت نفسـها فيه، خـلال معارك أكتوبـر.. حين فوجئت بـأن كل حسـاباتها عن العرب كانت غير دقيقة، بل كانت حساباتها خطأ من الأساس:

- ففـي الوقت الذي بنت فيـه إسرائيل موقفها المتصلب - بل المغـرور المتعالي - على أسـاس أنها تواجه دولًا عربيـة مفككة، إذا بها تواجه بكلمـة عربية واحدة، وإرادة عربية موحدة، وتضطر إلى مقاتلة قوة عربية تمثل - ولو بالفصائل الرمزية - جيوش الأمة العربية كلها تقريبًا.

  ومعنـى هذا ببسـاطة - كـما ظهر خلال معـارك أكتوبر وبعدها مبـاشرة - أن على القوى الكبرى أن تضع في حسابها تمامًا، أن أي مساندة سافرة أو مستترة لإسرائيل تعنـي التحدي السـافر لأمة العرب جميعًـا، بكل ما يجره هذا التحـدي على الدولة التي تنزلق إليه من مخاطر ومصاعب اقتصادية في مجال الطاقة والأرصدة والتجارة بوجه عام.

- وفي الوقـت الـذي قدرت فيـه إسرائيل أنها تسـتطيع القيـام فجر الأحـد 7 أكتوبر بضربة مكثفة ضد المطارات المصرية، تتمكن خلالها من شـل سـلاح الجو المصري وإخراجه من المعركة - كما فعلت في 5 يونية 1967 - إذا بها تفاجأ بأن هذه الضربة التي علقت عليها كبير الأمل قد تحولت إلى باعث من بواعث اليأس، حين تساقط الجزء الأكبر من قوتها المهاجمة قبل أن يصل إلى هدفه، بينما عجزت الطائرات القليلة التـي نجحت في الاقتراب من مطاراتنا عن القيـام بأي عمل هجومي مؤثر، نتيجة لفاعليـة الدفـاع الجوي المـصري الثابـت والمتحرك - الـذي يحمي هـذه المطارات مـن جهـة - ونتيجة لمفاجـأة المفاجآت التي أطـارت صواب قادة السـلاح الجوي الإسرائيلي، وهي «الدشـمة المسلحة» التي ابتكرها العقل الهندسي المصري ونفذتها

السـواعد المصرية القوية، فحمت طائرات مصر من أن تدمر على الأرض، كما كان يحدث من قبل.

وإذا كنا - نحن الشعب المصري - نحب «النكتة» اللاذعة.. ونجيد الاستماع إليها، كما نجيد ابتكارها وخلقها، فليسمح لي قادة الجو الإسرائيليون بوقفة مرحة أروي فيها للمواطن المصري - والإنسان العربي عامة - عبارة صرح بها أحد الأسرى الإسرائيليين من طياري القاذفات الهجومية «سكاي هوك» وصور بها مشاعر زملائه حين فوجئوا بمناعة «الدشم الخرسانية المسلحة» وقدرتها على حماية ما بداخلها من طائرات ومعدات.. «شعرت بالغيظ ينتابني، وأنا عاجز عن الوصول إلى ما تحويه هذه الدشم الجهنمية من طائرات.. وأحسست ساعتها - وقبل كل انقضاض فاشل أقوم به على الهدف - أن هذه الدشم اللعينة تخرج لسانها لي ولسلاح الجو الإسرائيلي كله..».

فإذا كان هذا هو الواقع الجديد على مسرح العمليات - من الناحيتين السياسية والعسكرية - قوة عربية متماسكة ومتساندة سياسيًّا وعمليًّا. وقوة عسكرية تم بناؤها على أحدث الأسس العلمية لبناء الجيوش الحديثة.. وفاعلية مؤكدة لطيران هذه القوة العسكرية ودفاعها الجوي النشط بكل أجهزته الثابتة والمتحركة وبوسائل إنذاره المبكر، التي أثبتت يقظتها الدائمة واستجابتها الفورية للتعامل مع أي جسم غريب يدخل مجال عملها. فما هو الدافع الحقيقي وراء العملية الهجومية التي فكر قادة سلاح الجو الإسرائيلي في القيام بها ضد مطاراتنا صباح 7 أكتوبر 1973؟

من المؤكد أن القائد الذي أصدر الأمر بتنفيذ هذه العملية، بعد أن خطط لها - إن كان قد خطط أصلًا.. قد تجاهل تجاهلًا مثيرًا للدهشة، كل القواعد الأساسية التي يفرضها الفكر العسكري الحديث في مثل هذه الظروف.

1 - فهو أولًا، لم يحترم المدلول الحقيقي للضربة المصرية «صدام» التي قامت بها أكبر مجموعة من طائرات الهجوم سجلها تاريخ الحروب الجوية الحديثة، وما تعنيه هذه العملية - التي سيأتي تحليلها كاملًا فيما بعد - من تمتع سلاح الجو المصري، بفكر عسكري حديث وقدرة على التخطيط عالية المستوى، وقدرة قياسية على التنفيذ البالغ الدقة والإحكام.

2 - وهو ثانيًا: لم يحترم المدلول العملي لنجاح قوات الدفاع الجوي المصري في شل فاعلية الطيران الإسرائيلي وإصابته بالعجز الكامل، عندما حاول تخفيف الضغط الواقع على

القوات الإسرائيلية المحاصرة داخل حصون ودشم خط بارليف، بحيث فقد سلاح الجو الإسرائيلي في المرحلة الأولى وحدها من المعارك 103 طائرات، تساقطت جميعها دون أن تحقق واحدة منها هدفها في إيقاف الزحف المنتصر لقواتنا البرية.

ولو أن القائد الإسرائيلي - الذي أصدر الأمر المجنون بالهجوم على المطارات المصرية صباح الأحد 7 أكتوبر - تذكر وهو يصدر هذا الأمر لطياريه التعساء، أن قوات الدفاع الجوي المصري، قد تصدت بكفاءة عالية لنحو ألفي وخمسمائة طلعة هجومية، حاول العدو الجوي القيام بها في المرحلة الأولى من القتال، وأن هذه الطلعات البائسة باءت جميعها بالفشل، مع أنها كانت مجرد محاولة اقتراب من الخطوط الأمامية للجبهة المصرية .

لو تذكر القائد الإسرائيلي كل هذه الحقائق - وكان عنده أدنى قدر من احترام الفكر العسكري السليم وأدنى قدر من الإيمان بضرورة المحافظة على حياة طياريه المقاتلين وحمايتهم من الاندفاع إلى مغامرات مجنونة لن تقدم ولن تؤخر في سير العمليات، ولو حاول هذا القائد الإسرائيلي أن يسأل نفسه ولو بسرعة: ما احتمالات المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها طياروه، وهم يخترقون جحيم الدفاعات الجوية المصرية، التي أطارت صواب طياريه منذ اشتعال القتال؟

ما احتمالات النجاح في إصابة الأهداف بالنسبة للطائرات التي تفلح في التسلل إلى سماء مصر، وأخيرًا.. لو أنه سأل نفسه.. إذا كانت هذه هي صلابة الدفاع الجوي المصري في مقدمة الجبهة، فما هي وسائله المكثفة للدفاع عن المطارات المصرية في الخطوط الخلفية، التي سيضطر طياروه إلى التعامل معها؟

هنا أؤكد بحياد علمي كامل أن المخطط الإسرائيلي لو فكر في كل هذه الأسئلة - لما فكر على الإطلاق في الإقدام على مغامرة مجنونة كمغامرة ضرب المطارات المصرية صباح 7 أكتوبر، التي فشلت فشلًا ذريعًا، ودفع السلاح الإسرائيلي ثمنها غاليًا من الطائرات والطيارين، ونحن هنا في مصر - نعرف جيدًا، كما يعرف جنرالات الجو الإسرائيليون، ما هو الثمن الرهيب الذي دفعوه لهذه المغامرة المجنونة، التي لم تؤد إلا إلى مزيد من فضح العسكرية الإسرائيلية، التي ضبطت - خلال معارك أكتوبر - وهي متلبسة بالجهل الكامل بحقيقة القوة العربية الجديدة، ومستسلمة تمام الاستسلام لأحلام اليقظة الكاذبة، التي صورت لها، بالوهم والغرور، أن عجلة الزمن قد توقفت عند انتصارها الرخيص عام 1967.

"... إذا كانت ست سنوات فحسب من 1967-1973 ليست بأي حال من الأحوال بالزمن الذي يسمح بانتقال سلاح جوي من النقيض إلى النقيض قدرة وتدريبًا، ومهارة، وفكرًا وتنفيذًا.. فما التعويذة السحرية التي استخدمها سلاح الجو المصري، وحقق بها هذه المعجزة؟!"

جامعة «حرب الاستنزاف»

يعتبر التقرير الذي قدمه «هوارد كولا داي» وزير الجيش في الولايات المتحدة الأمريكية خلال حرب أكتوبر من أدق التقارير العسكرية، التي تصدت بالتحليل والدراسة العلمية لمعارك السادس من أكتوبر عام 1973، لما اتصف به من علمية صارمة، وتحليل دقيق لجميع الظواهر العسكرية الجديدة التي فرضها الفكر العسكري المصري خلال تخطيطه وتنفيذه لمعارك أكتوبر على الفكر العسكري العالمي بمختلف مدارسه شرقًا وغربًا.

يقول كولا داي: «إن الحرب في الشرق الأوسط - يقصد معارك أكتوبر - قد بدَّلت الكثير من الأفكار العسكرية.. فلأول مرة في التاريخ الحديث تتمكن قوة عسكرية من إنجاز عملية عبور ضخمة لقناة السويس التي تماثل نهرًا في مواجهة عدو تزود بسلاح طيران عصري، دون أن تفقد القوات التي عبرت أي طائرة من طائراتها».

ما يعنيني كطيار مصري مقاتل من هذا التقرير وشهادة صاحبه وغيرهما مجموعة من الحقائق التي لم تعد مجالًا للمناقشة أو التشكيك حتى من إسرائيل في مدى صحتها:

- **الحقيقة الأولى:** أن القوات المسلحة المصرية التي عبرت قناة السويس ظهر السادس من أكتوبر عام 1973 لم تزلزل كيان المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وحدها، ولم تحطم نظرية الأمن الإسرائيلية بكل ادعاءاتها عن الحدود الآمنة

فحسب، ولكنها زلزلت الكثير من قواعد الفكر العسكري المعمول بها في العالم، وحطمت العديد من نظرياته التقليدية التي كانت سائدة قبل اندلاع «الشرارة» في حرب أكتوبر.

- **الحقيقة الثانية:** أن ظهور «القوات الجوية المصرية» بالمظهر المشرف الذي بدت عليه خلال معارك أكتوبر، كان واحدًا من أخطر المفاجآت التي حطمت الغرور الإسرائيلي، وأذلت كبرياء العسكرية الإسرائيلية، حين وجدت نفسها في مواجهة سلاح جوي مصري بالغ العصرية في قدرته القتالية، وفي تمرس طياريه على فنون الحرب الجوية، وفي شجاعة هؤلاء الطيارين المصريين المهرة بإصرارهم على انتزاع التفوق الجوي من أنياب عدوهم، في الوقت الذي اضطر فيه سلاح الجو الإسرائيلي إلى الوقوف شبه مشلول، وقد أصابته أجهزة الدفاع الجوي المصري، وبراعة طياري القتال المصريين بالعجز عن تقديم الحماية الجوية لفلول الجيش الإسرائيلي، فتحول إلى فلول هاربة شرقي القناة، ذاقت لأول مرة في تاريخ الصدام «العربي الإسرائيلي»، مرارة الحسرة التي تشيع في نفس الجندي المقاتل، حين يحرم من الغطاء الجوي الذي يقيه من هجمات السلاح الجوي المعادي، التي لا تنقطع ليل نهار.

- **الحقيقة الثالثة:** أن براعة الطيار المصري المقاتل، ومهارته في استخدام طائرته على أحسن وجه يمكن، والتحكم فيها إلى أبعد مدى لم تكن الظاهرة الوحيدة التي فرضت نفسها على مسرح العمليات خلال معارك أكتوبر، وأن هناك ظاهرة أخرى لا تقل أهمية وفعالية، في قيام سلاح الجو المصري بمهامه الهجومية والقتالية على الوجه الأكمل، وفي نجاح هذا السلاح الذي أعيد بناؤه من الصفر تقريبًا في تجاوز الأرقام القياسية العالمية سواء في انخفاض نسبة الخسائر بين أفراده ومعداته، أو ارتفاع نسبة إصابته للأهداف المعادية في كل عملية يقوم بها، وسواء في زيادة عدد الطلعات التي يقوم بها طياروه المقاتلون في اليوم الواحد، أو في انخفاض الوقت اللازم لإعادة تموين الطائرة بالوقود والذخيرة والكشف الدقيق على أجهزتها للتأكد من سلامتها وصلاحيتها الكاملة قبل أن تعاود الطيران من جديد، وأن هذه الظاهرة الفريدة، والمشرفة للإنسان المصري هي براعة «الأطقم الأرضية» العاملة في المطارات والقدرة الفائقة التي أبداها أفراد هذه الأطقم، في تقديم الخدمات

المعاونـة، سـواء في الإمـداد والتموين، أو الصيانـة والإصلاح السريـع للطائرات التـي تتعرض للإصابـة أثناء العمليـات، وفي غيرها من العمليـات الفنية المعاونة، التي يقدمها هذا الجيش من الفنيين والمهندسـين الأرضيين، الذين يمثلون العصب الحساس للسـلاح الجوي الذي يؤمن بأهمية الوقت، ويحترم العلمية في كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل عمله.

هـذه الحقائق الثلاث تضعنا في مواجهة مجموعة أسـئلة جوهرية، لابد من الإجابة عنها بوضوح، قبل أن نتقدم لتحليل الضربة الجوية المصرية «صدام»، التي نفذت ظهر السادس مـن أكتوبر، وكانت بحمـد الله وعونه البداية الموفقة لحرب العاشر من رمضان. إن الإجابة عن هذه الأسـئلة سـتيسر لنا فيما بعد ونحن نتصدى بالتحليل للعملية الهجومية «صدام»؛ أن نعـرف المقدمات الأساسـية التـي مهدت لهذه الضربـة المحكمة، والأبعـاد الحقيقية لها، والفكر العسـكري المبتكر الذي قامت على أساسـه، والنتائج العملية التي حققتها «صدام» وفرضت بها واقعًا جديدًا على قواعد التخطيط العلمي للعمليات الهجومية الجوية المركزة، التي تمتزج فيها الأهداف الاسـتراتيجية بالأهداف التعبوية والتكتيكية، في مزيج متناسـق، لا يسمح لهدف بأن يطغى على غيره من أهداف الخطة المرسومة.

وأما الأسئلة فهي:

- كيـف انتقـل سـلاح الجـو المـصري مـن هزيمـة يونيـو الكبـيرة، إلى نـصر أكتوبـر الساحق؟
- ما الرحلة الشاقة التي قطعها هذا السلاح الجوي، من الساعة التاسعة والربع صباح الاثنـين 5 يونيـو 1967، إلى السـاعة الثانيـة وخمـس دقائق من بعد ظهر السـبت، السادس من أكتوبر عام 1973؟
- كيف تحول هذا السلاح الجوي الذي ظلم في الماضي كثيرًا من سلاح يستدر إشفاق الأصدقاء عام 1967 إلى سلاح ينتزع إعجاب العالم كله، ويثير حسد الأعداء عام 1973؟
- إذا كانت سـت سنوات فحسـب من 1967، إلى 1973 وبالقياس العادي لإعادة بنـاء الجيوش، ليسـت بـأي حال من الأحوال بالزمن الذي يسـمح بانتقال سـلاح

جوي من النقيض إلى النقيض قدرةً وتدريبًا، ومهارة، وفكرًا وتنفيذًا..فما التعويذة السحرية التي استخدمها سلاح الجو المصري، فحقق بها هذه المعجزة ؟!

من موقع الخبرة النظرية والعملية كطيار مقاتل يعرف أصول مهنته، ومن موقع الممارسة الفعلية التي صاحبت فيها سلاحنا الجوي في رحلة الألف ميل، التي بدأها من هزيمة يونيو، وأنهاها بنصر أكتوبر.. أقول إن السر الذي يكمن وراء النجاح الساحق الذي حققته قواتنا الجوية في الانتقال الفعلي من عصر الشعارات وحرب «الكلمات الضخمة» التي لا تعبر عن واقع حقيقي إلى عصر العمل الدائب في صمت وإصرار، استعدادًا لخطة العمل الحقيقي الذي يرغم العدو قبل الصديق على إكباره واحترامه.

ويرجع هذا إلى عاملين أساسيين عاشهما سلاح الجو المصري على الطبيعة، وتعامل معهما على أرض الواقع، واستفاد منهما إلى أبعد ما تكون الاستفادة.

- **الأول:** «درس النكسة» عام 1967 وما أحدثته الضربة الجوية المكثفة التي تلقيناها صباح 5 يونيو من آثار تدميرية.. ثم.. ما خلفته هذه الضربة من دروسٍ مستفادة، وعاها سلاح الجو المصري، وأقبل على تحليلها بموضوعية كاملة، بعيدًا عن كل مجاملة للنفس، أو أي تحامل على العدو.
- **الثاني:** يتمثل في المدرسة بل الجامعة الضخمة التي دخلها سلاح الجو المصري.. جامعة «حرب الاستنزاف».. حيث استطاع أن يستوعب بفهم كامل، وحرص شديد على التزود بالمعرفة كلَّ ما قدمته له من بيانات نظرية ودروس عملية.

لقد التحق بتلك الجامعة سلاح الجو المصري بكل أفراده عام 1969، وتخرج فيها يوم 6 أكتوبر عام 1973، حاملًا شهادة التفوق والامتياز، التي منحها له العالم كله، بكل خبرائه الحربيين، وبكل معاهد الدراسات الاستراتيجية.

بداية القصة ترجع إلى يوم 8 مارس عام 1969، عندما اشتعلت على جبهة قناة السويس نيران حرب شرسة بيننا وبين العدو الإسرائيلي، عرفت في تاريخ الصراع الدامي بين العرب وإسرائيل بالاسم الشهير «حرب الاستنزاف».

لقد فقدت مصر في اليوم الثاني لقيام تلك الحرب بطلًا عزيزًا علينا جميعًا، هو الشهيد العظيم الفريق أول عبدالمنعم رياض، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في

ذلك التاريخ، الذي توجه يوم 9 مارس 1969، ليشرف بنفسه على سير معارك «حرب الاستنزاف» في ثاني أيامها، فسقط شهيدًا، كأنبل ما يكون استشهاد القائد وسط رجاله.

- ولم تكن هذه الحرب في حاجة إلى إعلان أو إنذار مما تعارف عليه المجتمع الدولي في تلك الأحوال، حين يتوقف الحوار بين الأطراف المتصارعة ليبدأ القتال.. والسبب أن الحرب بيننا وبين إسرائيل لم تكن قد توقفت.

على المستوى الرسمي، أعلنت مصر يوم الخميس 8 يونيو 1967، قبولها لقرار مجلس الأمن إيقاف القتال في الشرق الأوسط، إلا أن كلا الجانبين مصر وإسرائيل وعلى المستوى العملي والواقعي، كان يملك الأسباب التي تدفعه بل تضطره إلى اعتبار أن الحرب لم تنته من وجهة نظره؛ لأنها لم تحقق الأهداف التي قامت من أجلها بالنسبة له.

وإذا كان الطرفان قد استسلما ظاهريًّا لقرار وقف إطلاق النار كتعبير شكلي بحت، عن احترام المجتمع الدولي الممثل في مجلس الأمن الذي أصدر القرار إلا أن الشواهد كلها كانت تشير إلى توقع بل حتمية حدوث الانفجار الدامي بين الطرفين المتحاربين؛ لأن كلًّا منهما لاتزال لديه الأسباب التي تدفعه إلى استئناف القتال، ولأن الهدنة المؤقتة التي يحرسها مراقبو الأمم المتحدة على جانبي الصراع كانت هشة، قابلة للاختراق في أي ثانية.

بالنسبة لإسرائيل، كان قادتها جميعًا من العسكريين والسياسيين على ثقة كاملة من أن الحجم الهائل للهزيمة السريعة التي فرضت على القوات المسلحة المصرية خلال معارك يونيو 1967 كان كافيًا من وجهة نظر العسكرية الإسرائيلية لفرض الإرادة السياسية لإسرائيل على النظام الحاكم في مصر، لدرجة أن «موشي ديان» وزير الدفاع الإسرائيلي وقتها قال في ثقة كاملة بأنه «يقضي وقته الآن عقب توقف القتال بجوار التليفون في انتظار المكالمة التي ستأتيه من القاهرة لسماع شروطه لتوقيع الصلح بين مصر وإسرائيل».

إن الفكر السياسي يقول إن «الحرب لا تقوم بين طرفين إلا لفرض إرادة أحدهما على الآخر بالقوة»، وكان منطق الحوادث يفرض على مصر الاستسلام، وهذا المنطق نفسه هو الذي دفع قادة إسرائيل وعلى رأسهم موشي ديان إلى انتظار المكالمة التليفونية من القاهرة. لكن إرادة الشعب المصري ولأسباب خارجة عن تمنيات إسرائيل.. منعت ورود هذه المكالمة التليفونية التي عاش قادة إسرائيل يحلمون بها طويلًا.

معنى هذا ببساطة ومن وجهة النظر التقليدية أن «حرب الأيام الستة» لم تنته بعد، لم تصل إلى نتيجتها المرتقبة.. لا أقصد المكالمة.. بل فرض الإرادة السياسية الإسرائيلية المنتصرة عسكريًّا على الإرادة السياسية المصرية التي هزمت على مسرح العمليات... وحيث إن هذه النتيجة لم تتحقق بعد، فإن هذه الحرب لم تتوقف بعد، ولا يجوز لها أن تتوقف من وجهة نظر إسرائيل.

لهذا لم يكن غريبًا أبدًا أن تسارع القوات الإسرائيلية المرابطة على الضفة الشرقية لقناة السويس إلى سلسلة من التصرفات العدوانية التي أخذ بعضها شكلًا صبيانيًّا صغيرًا، كإصرار المجندين الإسرائيليين على الاستحمام في مياه القناة. واستقبال أفواج السائحين الأجانب والإسرائيليين الذين يصلون إلى القناة ليقضوا يومًا صاخبًا على شاطئها الشرقي، ثم يعودوا كما جاءوا في سيارات سياحية كتب عليها «من القنطرة إلى القنطرة».

كانت هذه الاستفزازات الصبيانية التي عمدت إليها قيادة إسرائيل العسكرية والسياسية تستهدف طعن الوجدان القومي لكل المصريين المقيمين على الضفة الغربية للقناة من مدنيين وعسكريين.. وإشعارهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار، بأن خصمهم الذي احتل جزءًا عزيزًا من وطنهم يعيث فسادًا، ويصنع ما يشاء بهذا الجزء المحتل من بلادهم.

ولاشك أن القيادة الإسرائيلية ومن ورائها أجهزة الحرب النفسية في المؤسسة العسكرية بتل أبيب كانت تسعى من وراء الاستفزازات الشريرة، إلى الضغط على نفسية المواطن المصري، ليقوم بدوره بالضغط على قيادته السياسية والعسكرية لكي تخلصه من هذا العذاب اليومي، ولو بفتح الخط التليفوني بين القاهرة وتل أبيب.

وعندما فشلت إسرائيل في تحقيق هدفها عن طريق الضغط النفسي الهادئ..عادت إلى استعمال الأسلوب العدواني في الضغط على مصر شعبًا وجيشًا وقيادة ووجهت هجماتها الوحشية هذه المرة ضد المدنيين العزل في مدن القناة، أملًا في وصول المكالمة التليفونية التي طال بإسرائيل انتظارها لكي تملي شروط المنتصر، وساعتها فقط، تحس بأن الحرب التي أشعلتها في 5 يونيو قد انتهت إلى هدفها الذي قامت من أجله.

الموقف بالنسبة لمصر شعبًا وجيشًا وقيادة، كان مختلفًا تمام الاختلاف عن الموقف في إسرائيل.

مصر كانت تنطلق في رفضها لفكرة انتهاء الحرب، من منطلق مغاير تمامًا.. وكان أهم

نقاط الارتكاز هو الإحساس الفطري للمواطن المصري العادي بأن ما يحدث في هذا اليوم أمر غير طبيعي، وغير متوافق مع منطق الحياة على أرضه، والإمكانيات التي يملكها وطنه، والتضحيات التي قدمها راضيًا، وغير متفق مع الحجم الحقيقي للخصم الذي أنزل به هزيمة غير واقعية، ليفرضها عليه باعتبارها واقعًا يجب على الإنسان المصري أن يستسلم له.

ورفض الإنسان المصري العادي لهزيمة يونيو، فضلًا عن أنه رد فعل طبيعي للإحساس بالإهانة التي حاول عدوه أن يفرضها عليه، كان إعلانًا عمليًّا عن عدم تصديقه أن التضحيات التي قدمها بسخاء، في سبيل بناء مجتمع جديد على أرضه، قادر على حماية حدوده، قد تبخرت في الهواء، بضربة ساحقة وسريعة وجهها له خصم صغير في حجمه، صغير في إمكانياته المستوردة بالقروض والهبات الدولية بالقياس إلى ما يملكه المجتمع المصري من إمكانيات قومية أصيلة.

ومن هنا كان طبيعيًّا أن تتحرك الجماهير المصرية يومي التاسع والعاشر من يونيو 1967، لتعلن عدم تصديقها للهزيمة، وتصوغ عدم تصديقها هذا في صورة رفض لقرار المرحوم الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر بالتنحي عن رئاسة الجمهورية، بل تعلن احتجاجها على هذا القرار وما قد يعنيه أمام العدو على الأقل من الاستسلام للهزيمة، والقبول بمنطقها، الذي أدى بمصر إلى تغيير رئيسها.

الذي لا شك فيه الآن أن مئات الآلاف من مواطني مصر وجماهيرها الواسعة، التي اندفعت مساء الجمعة 9 يونيو في تسابق أسطوري قاصدة بيت الرئيس الراحل جمال عبدالناصر دون أن يعوقها الظلام الذي كان يخيم على القاهرة ليلتها، إنما كانت تعبر بهذه الحركة العفوية التي كانت أروع وأعظم من أن يوجهها، أو يسيطر عليها أحد، عن رفض نبيل لأي قيد على إرادتها القومية.

إن التحليل الدقيق للهتافات المدوية التي رددتها الجماهير المصرية يومي 9 و10 يونيو كعبارات «لا تتنحَّ».. و«حنحارب.. حنحارب».. و«بالروح.. بالدم.. حنكمل المشوار» تقطع بأنها كانت رفضًا حاسمًا، وجهها الإنسان المصري العادي من قبل القاهرة، لكي تصل إلى قادة المؤسسة العسكرية في تل أبيب، معلنة رفض الشعب المصري للهزيمة؛ لأنه لم يعتد طوال عصور التاريخ أن يركع على قدميه ويستسلم للهزيمة، مهما كانت بشاعة الطعنة الموجهة إليه، ومهما كانت ضراوتها.

الأمر المؤسف هنا أن قادة إسرائيل بالجهل أو الغرور لم يفهموا الرسالة حين وصلتهم، ولم يفهموا المدلول الحقيقي لهتاف الإنسان المصري «بالروح.. بالدم.. حنكمل المشوار».. أو لعلهم فهموا الرسالة، فاعتبروها سخرية من كل ما حققوه من انتصارات سريعة في 5 يونيو، فازدادوا ضراوة، وازدادوا حقدًا على هذا الشعب العنيد الذي حوَّل انتصارهم إلى مجرد دخان مؤقت في سماء المنطقة، ستبدده رياح الإرادة المصرية إن عاجلًا أو آجلًا.

من صرخة الرفض النبيل، التي أطلقها الشعب المصري ؛ استعادت القيادة السياسية المصرية قدرتها على التحرك السريع في مواجهة الحوادث.. وبدلًا من أن ترفع هذه القيادة سماعة التليفون، لتطلب تل أبيب؛ رفعت هذه السماعة، لتعلن قرارها بتغيير القيادة العسكرية على أعلى مستويات العسكرية المصرية.

خسرت مصر يوم 5 يونيو معركة واحدة فقط، ولم تخسر الحرب مع عدوها، هكذا أعلنت غضبة الجماهير المصرية التي رفضت استقالة عبدالناصر والذي يخسر معركة واحدة، يمكنه بالإصرار والإرادة والاستفادة من الخطأ؛ أن يكسب الحرب في معركتها الأخيرة الفاصلة، وإذا كان الطريق إلى النصر صعبًا ومفروشًا بالتضحيات، فهو على سبيل التأكيد ليس مستحيلًا على شعب يريد النصر ويعمل من أجله، وقيادة تعرف ما يريده الشعب وتستجيب لإرادته.

من هنا يمكننا القول، إن قرار تغيير القيادة العسكرية الذي أعلن يوم 12 يونيو عام 1967 وما تلاه من قرارات تستهدف إعادة بناء القوات المسلحة المصرية، لكي تقوم بواجبها المقدس، وتضرب ضربتها الهائلة، في 6 أكتوبر 1973 كان استجابة حتمية من القيادة السياسية، للقرار القومي الأعظم، الذي أصدره رجل الشارع المصري بكل أصالته التاريخية، حين أطلق صرخته المدوية مساء الجمعة 9 يونيو 1967 ـ«حنحارب.. حنحارب» وبعث خلال هذه الصرخة برسالة حاسمة إلى تل أبيب، يعلن فيها أن الحرب لم تنته بعد.

ومن رفض المواطن المصري العادي للهزيمة، ومن استجابة القيادة السياسية لهذا الرفض؛ تحددت أمام القوات المسلحة المصرية باعتبارها من محاور الإرادة القومية للشعب المصري معالم الطريق الوحيد، الذي تحتم عليها أن تمضي فيه إلى نهايته، وباعتبارها التجسيد المادي للإرادة القومية، الذي يمتلك بعتاده ورجاله بل يجب عليه أن يحمي هذه الإرادة

القومية عندما تتعرض لمحاولات القهر من الخصم، وفرض هذه الإرادة على أرض الواقع، ضد من تسول له نفسه الانقضاض عليها، والنيل منها.

معنى هذا ببساطة، أن القوات المسلحة المصرية، كان عليها أن تعد نفسها بأسرع ما تستطيع من وقت، وبأقصى ما تملك من جهد وعرق، ليس لاستئناف الحرب لأن هذه الحرب لم تكن قد توقفت لكي تستأنف بل كانت مهمتها الحقيقية، هي إنهاء الحرب، ووضع نهاية حاسمة لها.

وإذا كانت إسرائيل، ترفض هذه النهاية المتوقعة لمعارك يونيو التي يمثلها رفض مصر للاستسلام فإن القوات المسلحة المصرية، كانت أشد رفضًا لهذه النهاية المؤقتة، التي سمحت للمجندات الإسرائيليات بأن ينزلن بالمايوهات إلى مياه قناة السويس، ثم يصعدن إلى الشاطئ الشرقي للقناة وهن بنفس ملابس السياحة لكي يمارسن مع الجنود الإسرائيليين، أصناف الخلاعة المخجلة.

لقد استفادت القيادة المصرية من روح الغضب التي سيطرت على المقاتل المصري، وما تؤدي إليه هذه الروح الملتهبة من تفجير الطاقة، والقدرة الخارقة على تحمل مشاق التدريب ليل نهار، استعدادًا للخطة التي يلتقي فيها هذا المقاتل الشجاع بخصمه لقاء المواجهة، فيثأر لكرامته التي أهدرت ظلمًا، ويثبت لأمته أنه كان دائمًا أهلًا للأمانة، وقادرًا على تحمل المسئولية، وصيانة الشرف الوطني، وحماية الإرادة القومية من القهر والإذلال.

وإذا كان المواطن المصري العادي قد تحرك لرفض هزيمة يونيو، من منطلق الدفاع عن الكرامة القومية، فإن المقاتل المصري كان يتحرك إلى جانب هذا الدافع القومي العام استجابة لدافع خاص، لا يقل أهمية، وهو رغبته الغريزية في الدفاع عن كرامته الشخصية، كمقاتل فرضت عليه الهزيمة.

لست مغاليًا أبدًا، حين أقول إن وعي القيادة المصرية الجديدة، بهذا الإحساس النبيل الذي كان يحرك المقاتل المصري، ويملك عليه وجدانه وعقله عقب 5 يونيو هو الذي يسّر لهذه القيادة، تحقيق معجزة البناء الجديد للقوات المسلحة، بمراحله المختلفة التي وصلت إلى ذروتها المشرفة، بعملية العبور التاريخي يوم 6 أكتوبر.

ومن جانب آخر فإن القيادة الجديدة للعسكرية المصرية عنيت بأن القيام بإعادة بناء قواتنا المسلحة لا يقتصر على إعداد المقاتل المصري نظريًا للمعركة. صحيح أن التدريب

اليومي الشاق، والبيانات العملية، والمشروعات الميدانية على جميع المستويات تعطي المقاتل صورة تقريبية للواقع الذي سيكون على مسرح العمليات عندما تحل لحظة المواجهة مع العدو، ولكن الصورة الحقيقية للمعركة، كما يعيشها المقاتل على أرض الواقع بكل قسوتها وعنفها تبقى بعيدة عن ذهن المقاتل.

كان معنى هذا أن واجب القيادة المصرية الجديدة، ليس مقصورًا على إعداد المعركة فحسب.. بل إن واجبها هو إعداد المقاتل المصري لنوع واحد من المعارك، هو المعركة التي يجب أن تنتهي بالنصر، مهما بلغ من ضراوة الخصم، ومهما بلغت قدرة هذا الخصم على ابتكار الحيل التي تحميه من الهزيمة، أو تقربه من النصر.

والتدريب النظري، قد يعطي المقاتل الأسس العامة لفنون الحرب وإدارة المعارك وخوضها، ولكن يتبقى بعد هذا تصور خطير لابد من تغطيته.. وهو.. كيفية التعامل على مسرح العمليات مع عدو بعينه، له منهجه الخاص في القتال، وله أسلوبه المميز في التحرك على أرض المعركة.

إذن نجحت القيادة المصرية الجديدة، في الخروج بالقوات المسلحة من الصدمة التي تلقتها في 5 يونيو. كما نجحت في أن تعيد للقوات المسلحة المصرية بجميع أذرعها وأسلحتها التوازن الذي كادت تفقده، عشية انسحابها غير المنظم من سيناء، عقب الضربة المكثفة التي تلقاها سلاحنا الجوي في بداية العمليات. وأخيرًا نجحت في إعادة بناء الهيكل الأساسي للقوات المسلحة بما يعتمد على استعاضة ما أمكن من السلاح والعتاد الذي فقد في معارك يونيو، واستيعاب المقاتلين لهذا السلاح، مع التدريب الشاق المتواصل.

وبقي أن يوضع كل هذا موضع التجربة العملية القاسية، لا في المشروعات الميدانية التقليدية التي تعرفها الجيوش وتمارس التدرب عليها في الظروف العادية بل يجب أن تكون هذه التجربة العملية صدامًا محدودًا مع العدو الإسرائيلي الذي سيواجه المقاتل المصري في النهاية. كان لابد من جولة عاجلة مع العدو، تعتبر في حسابات العسكرية المصرية معركة تمهيدية، يعرف المقاتل المصري خلال نيرانها الحقيقية ما هو بحاجة إلى معرفته عن العدو الإسرائيلي، كمخطط ومقاتل، لكي يستفيد من المعرفة العملية، الخبرة التي تمكنه من توجيه الضربة التي تحقق له الثأر.

وقبل أن ندخل في التفاصيل الدقيقة لـ «حرب الاستنزاف» وما حققته نتائجها من

اتجاهات مواتية بالنسبة للجانب المصري أو إنجازات معاكسة بالنسبة للجانب الإسرائيلي لابد لنا من الإشارة السريعة إلى نقطتين مهمتين:

إن «حرب الاستنزاف» لم تنشأ من فراغ، ولم تحتدم معاركها وتشتعل نيرانها من العدم والصمت اللذين سادا جبهة السويس، عقب عمليات يونيو 1967، فقد مرت قواتنا المسلحة قبل معارك الاستنزاف بمرحلتين حاسمتين في تاريخها الحديث:

بدأت الأولى عقب إيقاف إطلاق النار في يونيو 1967 واستمرت حتى نهاية أغسطس من عام 1968، وهي المرحلة التي عرفت في سجلات العسكرية المصرية باسم «مرحلة الصمود».

اتسمت هذه المرحلة بالهدوء النسبي فعملية إعادة البناء العسكري السريع، واستعاضة ما فقدنا من سلاح وعتاد، وتدريب المقاتل المصري، وتوفير الظروف الملائمة له، لكي يتمكن من استيعاب سلاحه استيعابًا كاملًا، والتحكم في هذا السلاح بصورة تجعله حارسًا لسلاحه، وحاميًا له، بدلًا من أن يكون مجرد حامل لهذا السلاح.. كل هذا كان له مقتضيات.

ولم تخل مرحلة الصمود هذه، من معارك ضارية، خاضها المقاتل المصري بضراوة كما حدث في معركة «رأس العش» بالنسبة للقوات البرية ومعارك الجو الضارية التي خاضها سلاح الجو المصري يوم 14 يوليو 1967 - ومعركة إغراق المدمرة «إيلات» التي تمكن خلالها أحد لنشات الصواريخ المصرية يوم 21 أكتوبر 1967 من إغراق المدمرة التي تمثل نصف قوة البحرية الإسرائيلية من المدمرات.

المرحلة الثانية قبل «حرب الاستنزاف» بدأت في سبتمبر عام 1968، وانتهت مع نهاية الأسبوع الأول من مارس عام 1969، وقد عُرفت باسم مرحلة «الدفاع النشط»، واستهدفت تقييد حرية العدو في التحرك والمناورة والاستطلاع، وتكبيده خسائر متزايدة باستمرار، أعز ما يملكه من آلة الحرب وهو الأفراد المقاتلون أنفسهم.

كنتيجة حتمية للخسائر الفادحة التي مُنيت بها إسرائيل، نتيجة للضربات المكثفة التي وجهتها المدفعية المصرية للعدو في مرحلة «الدفاع النشط» - ومع عجزه عن شل فاعلية هذه المدفعية، عن طريق هجماته الجوية، بسبب براعة مدفعيتنا المصرية الرابضة وقتها على

الضفـة الغربية للقناة، في إخفـاء مواقعها بعمليات تمويه عالية المسـتوى.. اضطر العدو إلى اتخاذ وسيلتين سريعتين لحماية قواته من ضربات المدفعية المصرية.

كانت وسـيلته الأولى، هـي الرد على النيران المصريـة الموجهة لمواقعه العسـكرية بنيران مكثفة، تصبها القوات المسـلحة الإسرائيلية بوحشـية على الأهداف المدنية في الإسـماعيلية والسـويس، وعلى القرى المصريـة الممتدة على حافة القناة؛ الأمر الـذي كان يضطر المدفعية المصرية إلى التخفيف من نيرانها، حماية لأرواح المواطنين الأبرياء.

واسـتغل العدو فرصة الهدوء النسبي الذي عمدت إليه المدفعية المصرية لكي تتم عملية إبعـاد المدنيـين المصريـين في منطقة القناة حمايـة لأرواحهـم فسـارع إلى الوسـيلة الثانية التي قدر أنها سـتحمي قواته من النيران المصرية، وهي إقامة سلسـلة المواقع الدفاعية، والدشـم الحصينة، التي عُرفت فيما بعد باسم «خط بارليف».

بنجـاح العـدو في إقامة تحصينات هذا الخـط الدفاعي رغم ما تكبده من خسـائر فادحة في الأرواح والعتـاد والسـلاح كان لابـد من تطوير الاشـتباكات مع القـوات الإسرائيلية، والانتقال بها إلى مرحلة جديدة خصوصًا بعد أن تحررت القوات المسلحة المصرية من القيد الـذي كان يشـل قدرتها عـلى الحركة، وهو وجـود المدنيين المصريين من أهـل القناة، الذين كانـت إسرائيل تعتبرهم رهينة عـزلاء تصب عليها انتقامها الوحـشي من ضربات المدفعية المصرية الساحقة وكانت الأهداف من الانتقال بالصراع الملتهب مع العدو، إلى مرحلة أكثر عنفًا واشتعالًا، هو تحقيق ما يلي:

أولًا: خلخلـة النظام الدفاعـي المترابط، الذي نجحت إسرائيل في إقامته على القناة ممثلًا في حصـون ودشـم خط بارليف ثم تصعيد الضربات الموجهـة إلى الخط، لتصل إلى تدميره، أو شل فاعليته على الأقل.

ثانيًا: الاستمرار في تحقيق أعلى نسبة من الخسائر في الأرواح بين ضباط العدو وجنوده، هذه الخسـائر التي كانـت تصيب العدو بالجنون؛ لأنها خسـائر في العنصر الذي يمثل نقطة الضعف الأساسـية في إسرائيل بحكم ضآلتها العددية، بالقياس إلى بحر الكثافة السـكانية التي يمثلها الشعب العربي من حولها.

ثالثًـا: وهو أخطر أهداف المرحلـة الجديدة من مراحل الصراع التـي أعقبت عمليات 5 يونيـو الدخول في حرب محـدودة مع العدو الإسرائيلي، بكل مـا للحرب من خصائص،

بحيث يعرف المقاتل المصري خصمه على الطبيعة، ويتعامل معه تحت نيران معركة كاملة الأبعاد، ليتم «تطعيم» هذا المقاتل بالمناعة اللازمة التي تحميه من شلل المفاجأة، في مواجهة أي حيلة قتالية قد يلجأ إليها الخصم.

هذه الحرب المحدودة.. حرب الاستنزاف.. اتسعت لتشمل جميع الأسلحة التي اشتركت فيه.. غير أن حديثي هنا سوف يقتصر على الدور الذي قامت به «قواتنا الجوية» في هذه المعارك، والدروس التي استفادها الطيار المصري المقاتل وكل الأجهزة المعاونة له .

وتحضرني الآن حادثة بالغة الأهمية في دلالتها.. وهي تمثل صدمة هائلة لجنرالات الجو الإسرائيليين، حين يتذكرون الثمن الفادح الذي دفعه سلاح الطيران الإسرائيلي، كنتيجة حتمية لحيلة بارعة فكر فيها بسرعة طيار مصري مقاتل ممن تمرسوا على سرعة التصرف بذكاء وحكمة، خلال معارك «حرب الاستنزاف».

كان هذا خلال معارك السادس من أكتوبر.. عندما رصدت أجهزة الإنذار المبكر على الخطوط المصرية – طلعة جوية عادية، من عدد كبير من الطائرات الإسرائيلية.. كانت تقترب من مجالنا الجوي، قادمة من الاتجاه الشمالي الشرقي، وكان من الواضح من كثافة عدد الطائرات المهاجمة، ونوعيتها، واتجاهها، أنها تستهدف الإغارة على بعض مطاراتنا القريبة، التي تسهم بدور بارز في العمليات.

على الفور تصدت طائراتنا المقاتلة للطائرات المغيرة، على خطوط الاعتراض المحسوبة بدقة بالغة، ودارت معركة جوية ضارية، اشترك فيها من الجانبين ما يقرب من سبعين طائرة، ونجح طيارونا المقاتلون في مواجهة الطائرات المغيرة، ومنعها من تحقيق أهدافها.. وإرغامها على دفع ثمن اختراقها لمجالنا الجوي، بإسقاط ثلاث عشرة طائرة ما بين فانتوم وميراج، ولاذت باقي الطائرات المهاجمة بالفرار شرقًا.. ثم بدأت طائراتنا المقاتلة في العودة إلى قواعدها.

القصة عادية جدًّا، ولكن الجانب المثير في القصة يبدأ بعد عودة الطائرات المقاتلة المصرية إلى قواعدها..ففي اللحظة التي هبطت فيها إلى أرض المطار، أولى المقاتلات المصرية التي خرجت سليمة ومنتصرة من المعركة، فوجئ المركز الرئيسي، بورود بلاغات من نقطة الملاحظة الأرضية الواقعة في منطقة الاشتباك الجوي السابق، تفيد بأن المعركة الجوية لم تتوقف، وأن القتال لايزال مستمرًّا بين الطائرات.

وازدادت الصورة غموضًا، عندما ورد بلاغ عاجل من بعض وحدات القوات البرية في المنطقة، يؤكد أن القتال الجوي في منطقة الاشتباك - أسفر عن سقوط بعض الطائرات، وهبوط خمسة طيارين بالمظلات في مياه البحر الأبيض.. سأل قائد الطاقم بمركز العمليات المحلي عن هذه « الطائرات الجديدة» وتفاصيلها. وجاءه الرد الحاسم بأنه ليست لنا أي طائرات في هذه المنطقة؛ لأن جميع طائراتنا التي كانت مشتبكة في صد الهجمة المعادية قد عادت إلى قواعدها سالمة بعد أداء مهمتها بنجاح.

لم يرتبك القائد المحلي، بل تصرف بسرعة، وأصدر أمره إلى تشكيل من طائرات الهليكوبتر الخاصة بأعمال الإنقاذ، بالتوجه الفوري إلى منطقة الإسقاط التي تم الإبلاغ عنها لالتقاط الطيارين الهابطين، أيًّا كانت جنسيتهم، وتسرع طائرات الهليكوبتر بتنفيذ الأمر، لتجد، أن لنشات القوات البحرية المصرية، قد سبقتها إلى المنطقة وتم التقاط الطيارين الخمسة من مياه البحر، فإذا بهم جميعًا من طياري العدو، بعضهم من قادة طائرات الميراج، وبعضهم من قادة الفانتوم.

باستجواب الطيارين الأسرى الخمسة، اعترفوا بأنه صدرت لهم من قيادتهم أوامر عاجلة، بالتوجه الفوري إلى منطقة الاشتباك التي تصدت فيها المقاتلات المصرية للطائرات الإسرائيلية، أملًا في كمين للطيارين المصريين، وأنهم وجدوا أنفسهم بالفعل في مواجهة عدد من الطائرات المقاتلة فاشتبكوا معها في معركة سريعة انتهت بهبوطهم بالمظلات بعد أن أصيبت طائراتهم الخمس.

لقد قام كبير الموجهين المصريين - في القطاع - بخدعة ذكية.. إذ أصدر أمرًا مفتوحًا، يأمر فيه المقاتلات المصرية باستمرار التحليق في المنطقة للتأكد من خلوها من الطيران المعادي، ثم أعقبه بأمر «كودي» مغلق وجه فيه هذه التشكيلات من المقاتلات المصرية بالعودة السريعة إلى قواعدها، بعد أن أدت مهمتها بنجاح.

التقط الموجه الإسرائيلي الطعم بغباء غريب.. إذ سمع الموجه الإسرائيلي الأمر «المفتوح» الذي أصدره الموجه الجوي المصري، فأسرع بإصدار أمره إلى طائراته المنسحبة بالعودة إلى مكان المعركة، لاصطياد المقاتلات المصرية التي قدر أنها مجهدة من المعركة التي توقفت منذ لحظات قلائل، ونفذ الطيارون الإسرائيليون الأمر، فإذا بهم يواجهون عددًا من الطائرات - الإسرائيلية التي لم تكن قد أتمت انسحابها بعد - وظنوها بدافع السرعة والانفعال،

طائرات مصرية معادية لهم، فاشتبكوا معها في معركة سريعة انتهت بسقوط خمس طائرات إسرائيلية أخرى - ما بين ميراج وفانتوم - ليرتفع الرصيد النهائي لخسارة إسرائيل في هذه المعركة وحدها إلى ثماني عشرة طائرة.

حيلة بارعة وخدعة ذكية، ابتكرها خيال الموجه الجوي المصري - في أحد قطاعات المعركة - كلفت العدو الجوي خمس طائرات ميراج وفانتوم غالية الثمن وحرمت السلاح الجوي الإسرائيلي، من جهود خمسة من طياريه المدربين، كان في أشد الحاجة إليهم خلال معارك أكتوبر الضارية.

وخلف هذه الخبرة التي أعلنت عنها مثل تلك المعارك تقف تجربة ممتدة..تقتضي أن أعود سنوات إلى الوراء حين بدأت معارك «حرب الاستنزاف».

في المعارك العادية - سواء أكانت برية أم جوية أم بحرية - يقتصر اهتمام المتحاربين، في دراستهما لنتائج المعارك التكتيكية على الآثار العاجلة للمعركة، والنتائج التي حققها المقاتلون، أو فشلوا فيها.. وبالطبع أسباب الفشل والنجاح.. فضلًا عن آثار هذه المعارك على الموقفين - التكتيكي والتعبوي لطرفي الصراع.. إذ يندر في الظروف العادية، أن تؤدي معركة تكتيكية عابرة إلى تحقيق نتائج ذات تأثير فعال على الموقف الاستراتيجي لأي من الطرفين المتحاربين.

ولو أن قيادة الجو المصرية، طبقت هذا المبدأ الكلاسيكي الذي كان سائدًا من قبل في الفكر العسكري المعاصر أثناء قيامها بالدراسة اليومية لمعارك «حرب الاستنزاف» بحيث يقتصر اهتمامها على النتائج التكتيكية المحدودة لكل طلعة جوية يقوم بها طيارونا المقاتلون، والعمليات الهجومية التي يقوم بها العدو ضدنا، لما حقق سلاح الجو المصري استفادة بعيدة المدى من نتائج هذه المعارك.

إن المنهج التحليلي الشامل الذي اتبعته قيادة السلاح الجوي المصري - بعد «5 يونية» خاصة خلال معارك حرب الاستنزاف، يعتبر إضافة جديدة للفكر العسكري الحديث، تمثلت في تنوع الدراسات التحليلية لنتائج وآثار كل عملية، سواء على الجانب المصري أو الإسرائيلي، والمدلول الذي يعنيه أي من آثار هذه العمليات التكتيكية المحدودة.

على سبيل المثال، فإن الدراسة الدقيقة لآثار كل معركة هجومية أو قتالية، خاضتها قواتنا

الجوية في تلك الفترة – لم تكن مقصورة على الدمار الذي أحدثته، سواء على الجانب المصري أو الإسرائيلي ولم تتوقف عند النجاح – أو الفشل – الذي حققه طيارونا أو طيارو العدو في إصابة الأهداف المحددة لهم.. لم يكن الأمر بهذه البساطة، بل وصلنا بدراساتنا لعمليات هذه المرحلة إلى أدق التفاصيل، والعمليات التمهيدية السابقة والمصاحبة لكل طلعة – هجومية كانت أو قتالية – وكان طيارونا المقاتلون يواجهون عند عودتهم إلى قواعدهم الجوية بسيل من الأسئلة الدقيقة الذكية، ينهال عليهم من قياداتهم، ومن المسئولين عن التخصصات المختلفة لأجهزة المعاونة الأرضية بالسلاح.

أسئلة تتناول مثلًا تأثير الاستجابة السريعة لأجهزة الإنذار المبكر على سير العملية الجوية – سواء بالنسبة للطائرة المهاجمة، أو للطيار المقاتل الذي يتصدى لها بالاعتراض والمقاومة – والسرعة أو البطء في قيام أطقم التشغيل الأرضية بإعادة إمداد الطائرة بالوقود والذخيرة والكشف السريع على أجهزتها للتأكد من صلاحيتها لاستئناف الطيران، وأثر هذه السرعة – أو البطء سواء على نفسية الطيار المقاتل، أو على نفسية الخصم الذي يواجهه، والنتيجة النهائية لنجاح أو فشل هذه الأطقم الأرضية في تحقيق سرعات قياسية أثناء قيامها بمهامها.

وكانت قياداتنا الميدانية على مختلف مستوياتها في القوات الجوية – تُعنى بدراسة مدى الترابط في شبكة الاتصالات بكل قنواتها، سواء بين الطيار وقاعدته التي أقلع منها، أو بين غرف العمليات الفرعية وبعضها البعض، وبينها وبين غرفة العمليات المركزية في قيادة السلاح الجوي، والتأثير الفعال الذي تحدثه جودة الاتصال ووضوحه، سواء على نفسية الطيار، أو على سرعة استجابته للأوامر الفورية العاجلة – أو تعديلات هذه الأوامر – التي تصدر له وهو معلق في سماء المعركة، ومستوى جودة هذه الاتصالات مقارنة بالمستوى الموجود لدى العدو الجوي، وما يتمتع به طيارو العدو من إمكانيات في هذا المجال الحيوي من مجالات الخدمات المعاونة للطيران العسكري.

وعقب كل معركة كنا نهتم بدراسة وتحليل الأسباب القتالية التي يتبعها طيارو العدو وتأثير هذه الأساليب على سير المعركة، ودورها المؤثر في تحقيق الهدف أو عدم تحقيقه – وإمكانية الاستفادة من هذه الأساليب، إما بتطبيقها عندنا – مع مراعاة الإمكانيات الفعلية التي تتمتع بها طائراتنا، أو بالتفكير السريع في اتخاذ الوسائل التي تقي الطيار المصري، من

الوقوع في حبائل هذه الأساليب الماكرة، التي كان بعضها يمثل شراكًا خداعية، لا تقل في خطورتها المهلكة على الطيار المقاتل، من أبشع مؤامرات الاغتيال في الظلام التي يتعرض لها المقاتل الشريف .

كان هذا النوع بالذات من أساليب القتال الجوي.. والذي يُعرف باسم «الكمائن الجوية» - من أخطر الأساليب الخداعية التي كان العدو الجوي يستعين بها وخاصة في بداية العمليات، للنيل من طيارينا.

كان أسلوب العدو في نصب هذه الكمائن الخطرة يبدأ في العادة، بظهور مجموعة من الطائرات المعادية في مجال التقاط أجهزة الرادار المصرية التي تسارع بإعطاء البيانات التي تحدد عدد ونوعية واتجاه وسرعة هذه الأغراض المعادية التي اصطدمت بها نبضات الرادار، وعلى الفور تتحرك الطائرات المصرية المقاتلة لاعتراض الطائرات المغيرة بالعدد والنوعية التي تكفي للدخول معها في معركة قتالية رابحة.

فجأة يظهر الكمين الإسرائيلي على حقيقته، بظهور عدد جديد من الطائرات المعادية، يصل فجأة إلى منطقة الاشتباك، بتدبير مسبق ومتفق عليه، تؤكده المساحة الزمنية المتناهية في القصر التي تفرق بين وصول الطائرات المصرية المقاتلة إلى خط الاعتراض المحدد لها، وبين سرعة ظهور الطائرات الإسرائيلية الجديدة التي يقلب وصولها ميزان القوة بين القوتين المتصارعتين في الجو، ويحول المعركة الجوية المتوقعة من عملية قتالية متكافئة، بين قوتين متعادلتين - في العدد على الأقل - إلى كمين خداعي مدبر، ومصيدة هلاك شبه محقق للطائرات التي تنساق للوقوع في حبائلها.

هذا الأسلوب القتالي المخادع كان واحدًا من عشرات الأساليب التي تعامل معها الطيار المصري المقاتل - خلال «حرب الاستنزاف» - وبالتحليل العلمي الدقيق لكل تفاصيلها أمكن «تطعيم» أفراد القوات الجوية المصرية على جميع مستوياتهم وتخصصاتهم، ضد مفاجآتها، وأمكن في نفس الوقت، تدريبهم على شل فاعليتها، ووضع الحلول العملية السليمة، التي تحول أمثال هذه الأساليب القتالية الملتوية، إلى مصيدة لصاحبها، بدلًا من بقائها مصيدة لأفراد قواتنا الجوية، من طيارين وفنيين.

وقد أثبت سلاح الجو المصري بالتجربة العملية، أنه لم يضيع هذه الأشهر الملتهبة.. ففي اليوم الذي يمثل البداية الأولى لنهاية الأسطورة التي روجت لها أجهزة الحرب النفسية

الإسرائيلية - أسطورة الطيران الإسرائيلي الذي لا يُقهر.. وقعت المأساة التي أصابت جنرالات الجو الإسرائيلية بالفزع، حين تمكنت طائرة مصرية من طراز «ميج» يقودها طيار مصري شاب من تحقيق المعجزة التي طالما تشدق جنرالات تل أبيب باستحالة وقوعها؛ لأن الدعايات في ذلك الوقت، كانت تؤكد أن هذا الشبح الطائر الذي يسمى «الفانتوم»، الأمريكية هو طائرة لا تُقهر..وفجأة، وبلا مقدمات، تحقق المستحيل، ونجح الملازم طيار «عاطف» في إسقاط أول طائرة «فانتوم» بطائرته الميج.

في المنطقة الساحلية الواقعة غرب «بورسعيد» و«شرقي رأس البر»، وقد كانت دائمًا منطقة التسلل للطائرات المعادية التي تستهدف ضرب المطارات المصرية.. وفي يوم 9 ديسمبر 1969 التقطت شاشات الرادار المصرية أهدافًا غريبة تتحرك فوق مياه البحر الأبيض - على ارتفاعات منخفضة - في اتجاه المنطقة الخطرة من سواحلنا الشمالية، وعلى الفور صدرت الأوامر لمقاتلاتنا المصرية من طراز «ميج 21» بالتصدي للطائرات الإسرائيلية المغيرة، وكانت من طراز «فانتوم».

كانت المواجهة الفريدة.. يقودها من الجانب المصري بطل من أبطال السلاح الجوي المصري - هو الرائد طيار سامح، الذي دخل هذه المعركة مشبعًا بروح الانتقام والثأر لزميله في السلاح، وصديق عمره - النقيب طيار «نورالدين» الذي كُتبت له سعادة الاستشهاد، بفعل كمين جوي نصبته له المقاتلات الإسرائيلية في يوليو 1969.. منذ ذلك التاريخ، اشتعلت في نفس «سامح» الرغبة في الانتقام لصديق عمره.

كان معروفًا للجميع - ومن واقع تصريحات قادة الطيران الإسرائيلي أن إسرائيل انتقت نخبة من أكفأ طياريها للتدريب على قيادة «الفانتوم» الجديدة، لكي يحدث التعادل بين الإمكانيات الغنية للطائرة، وبين الخبرة القتالية العميقة للطيار الذي يقودها.ومن هذه الحقيقة المعروفة للجميع، وضحت في رأس الرائد طيار «سامح» الطريقة التي سيثأر بها لصديقه الشهيد.

كانت طريقة الانتقام في غاية البساطة والجرأة في وقت واحد.. كان بين طياري التشكيل المصري الملازم طيار «عاطف».. ونفذ البطل «سامح» فكرته الجريئة بسرعة، وعلى الفور أصدر أمره لتلميذه لكي يأخذ وضع الاستعداد اللازم.. ثم قام «سامح» بنفسه - وبمعاونة باقي طائرات التشكيل المصري - بالمناورات السريعة المحكمة، التي جعلت إحدى

طائـرات الفانتـوم - في مرمـى نيران الطيار الشـاب «عاطف» الـذي كان يتلقى توجيهات قائده، وينفذها بدقة، يسرت له أن يصيب صيده الثمين .

بالنسـبة لإسرائيل، فقـد كان ذلك اليوم بمثابـة ناقوس الإنذار المدوي وانتبه سـلاحها الجوي إلى حقيقة الخطر الداهم، الذي يعنيه نجاح الطيار المصري المقاتل في إسقاط أحدث أنـواع الطائـرات.. ومن ثم قـررت إسرائيل أن الطيار المصري قد تجاوز الحدود التي يجب إيقافه عندها حتى لا يفكر في الإقدام على مزيد من «الألعاب الخطرة».

وبـدلًا مـن أن تعترف القيادة الإسرائيليـة بالواقع الجديد اتجه قـادة إسرائيل إلى تصعيد هجماتهـم الجوية، مسـتفيدين من القدرات الهجوميـة والقتالية التي تملكهـا «الفانتوم»، ولم تعد هذه القيادة المتغطرسة إلى صوابها إلا خلال شهر يوليو 1970 عندما نجحت بطاريات الصواريخ المصرية «أرض/ جو» بالتعاون مع طائراتنا المقاتلة في إسقاط ست عشرة طائرة «فانتـوم» - تمثـل في ذلك التاريخ 25٪ مما كانت تملكه إسرائيل من هذا الطراز.. وسـاعتها فقط أيقن قادة سلاح الجو الإسرائيلي أن الأمر جد لا هزل فيه على الإطلاق..!!

في معركة 9 ديسـمبر 1969 كان إسـقاط الملازم طيار «عاطف» بمعاونة وتوجيه قائده - الرائـد طيـار «سـامح» الذي قُـدر له أن يُستشـهد فيما بعد، ثمـرة طبيعية للجهد الشـاق والمخلـص، الـذي بذله جميع أفراد سـلاح الجو المـصري - منذ اجتاز مرحلتـي «الصمود» و«الدفاع النشـط» ليدخل في «حرب الاستنزاف» - كما أن هذ النهاية السعيدة - من وجهة النظر المصرية - لواحدة من العمليات الجوية، التي طالما التحم فيها طيارونا مع خصومهم في قتـال ضارٍ، لا رحمة فيـه، كانت تفرض علينا مزيدًا من الجهد والتطوير، يشـمل القوات الجويـة كلهـا، لتحقيق مزيد من الارتفـاع بكفاءتها القتالية دفاعًـا وهجومًا - بحيث تكون جاهزة تمامًا، وعلى أعلى مستوى من الاستعداد، للحظة اللقاء الحاسمة.

كانت معركة 9 ديسـمبر 1969، التي شـهدتها سـماء «رأس البر»، مؤشرًا قاطع الدلالة على أن الطيار المصري المقاتل، قد اسـتوعب الدروس المسـتفادة مـن كل التجارب والمحن القاسية التي مر بها: بدءًا من درس النكسة عام 1967، إلى الدروس المستفادة .

لقـد اسـتفدنا في القـوات الجوية مـن كل الخبرات والـدروس إلى أن بلغنا مسـتوى من القدرة والكفاءة دفع الرئيس أنور السادات إلى أن يقول: «كنت في غرفة العمليات، وكنت مندهشًـا.. قائد سـلاح الطيران يعرض على الجيوش أن لديه احتياطيًا من الطلعات مستعد

وجاهز.. والجيوش بتقول: لا.. إحنا مكتفيين.. والعادة اللي جرت في تاريخ العالم كله، أن الجيوش دائمًا تصرخ.. تصرخ للقوات الجوية.. وتصرخ طالبة النجدة من القوات الجوية، ما بتلاقيهاش، لا في الوقت، ولا بالكمية اللي هي عاوزاها».

بهذه العبارة الموجزة - العميقة المغزى - أعطى القائد الأعلى الرئيس محمد أنور السادات، صورة دقيقة الملامح، لموقف قواتنا الجوية.. خلال عمليات حرب أكتوبر 1973 - هذا الموقف الذي يسَّر للسلاح الجوي المصري، أن يكون على أهبة الاستعداد الكامل لتقديم طلعات المعاونة الجوية لباقي أفرع قواتنا المسلحة المشتبكة في القتال على اختلاف نوعية وأهداف الطلعات التي تستوجبها حرب بالغة الشراسة - كحرب السادس من أكتوبر - باعتبارها الحرب الإلكترونية الأولى في التاريخ وصولًا إلى هذه المرحلة، كان هناك تغيير واسع قد حدث، واستغرق تنفيذه سنوات الإعداد كلها تقريبًا.. لم يحدث حبًّا في التغيير لذاته، وإنما لأنه كانت هناك خطط وأهداف وأسلوب لتحقيق هذا التغيير.

دون أدنى مبالغة أو مجاملة للنفس يمكن القول إن الأهداف التي سعى سلاح الجو المصري لتحقيقها في الفترة العصيبة من 5 يونيو 67، إلى أكتوبر 73، تعتبر بأدق المقاييس العلمية في الفكر العسكري المعاصر معجزة عسكرية في كل ما عُرف قبلها، من عمليات إعادة بناء الأسلحة الجوية في العالم.

لقد واجهنا ظروفًا عصيبة، وكمثال فإنه رغم الطول النسبي لعمر سلاح الجو المصري - بالقياس إلى سلاح الجو الإسرائيلي - فإن سلاحنا المصري، ظل طوال سنوات الاحتلال البريطاني، مجرد سلاح مظهري غير فعال؛ لأن القيادة العسكرية البريطانية لم يكن من السهل عليها أن تسمح بوجود سلاح طيران مصري فعال ومؤثر يمكن أن يخلق لقواتها المعسكرة بمصر، متاعب لا حصر لها، عند حدوث أي صدام متوقع بين الوجود العسكري البريطاني على الأراضي المصرية، وبين الرغبة المشروعة لشعب مصر في تحرير بلاده، وإرادته.

وقد عاش سلاحنا الجوي في سنوات الاحتلال، وهو مكبل اليدين، غير قادر على متابعة التطور السريع الذي بدأ يلعب دوره المؤثر في الطيران العسكري، مع بداية الحرب العالمية الثانية، وطوال معاركها الضارية، التي أكدت أهمية الطيران كسلاح بالغ الفعالية والتأثير في سير المعارك.

وظل الموقف المجمد، مسيطرًا على السلاح الجوي المصري، حتى قيام ثورة 23 يوليو،

وحتى عندما حاولت القيادة الثورية الجديدة، أن تحرر سلاحنا من القيود التي كبله بها الوجود الاستعماري، اصطدمت بعقبات لا حصر لها، كان أبرزها مشكلة فتح أبواب جديدة تحصل منها قواتنا الجوية على حاجتها من العتاد، وهي المشكلة التي لم تُحل إلا بالقرار التاريخي بتنويع مصادر السلاح.

ولابد أن التاريخ الحقيقي لمعارك الجولة الأولى من جولات الصراع «العربي - الإسرائيلي» - عام 1948 - قد سجَّل بطولات مشرفة حققها سلاح الجو المصري، سواء في حمايته لقوات الجش المصري، التي زحفت إلى فلسطين - في 15 مايو 1948 - أو في توجيه ضربات قاصمة للقوات العسكرية لجماعات «الهاجاناه» و«شتيرن» و«أرجون زفاي ليومي» - التي تحولت فيما بعد إلى الجيش النظامي لإسرائيل.. إلا أن هذه البطولات الجوية المصرية، لا تخرج من كونها بطولات فردية، حققها طيارون مصريون اعتمدوا على شجاعتهم ومهاراتهم الفردية، أكثر من اعتمادهم على إمكانيات حقيقية في سلاح الجو المصري، سواء من حيث نوعية الطائرات الموجودة، أو تسليحها، أو خطط التدريب.

وفي الفترة الواقعة بين عام 1954، وعام 1956، حاول سلاح الجو المصري، أن يستفيد إلى أبعد مدى، وبأقصى سرعة ممكنة من القرارين التاريخيين، اللذين يمثلان البداية الحقيقية لوجود هذا السلاح، كقوة وطنية مؤثرة، وهما:

- اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن مصر، التي تم توقيعها في 18 يونيو عام 1954.
- قرار تنويع مصادر السلاح، الذي اتخذته قيادة الثورة، باعتباره الحل الوحيد الذي ييسر تحقيق أحد الأهداف الستة للثورة بإقامة جيش وطني قوي.

كان سلاح الجو المصري - في تلك الفترة - يعمل بكل طاقته، وبعد أن تحررت إرادته، لاجتياز التخلف الذي فُرض عليه طوال سنوات الاحتلال.. وكان العمل يجري في كل قواعد ومطارات هذا السلاح لبناء قوات جوية عصرية حقيقية، سواء باستيعاب العتاد والسلاح الجديد، أو بوضع خطط التدريب السريع وتنفيذها؛ الأمر الذي كان من المحتم أن يصل بهذا السلاح إلى تحقيق أهدافه كاملة بمُضُي الوقت.

ثم جاءت الضربة الجوية المركزة، التي وقعت في بداية عدوان 1956 وأدت إلى عملية إجهاض كامل لسلاحنا الجوي المصري، قبل أن تكتمل قوة هذا السلاح ويصلب عوده.

ومن جديد يقوم سلاح الجو الإسرائيلي صباح الاثنين 5 يونيو بتوجيه الضربة الجوية المركزة «طوق الحمامة» لتؤدي إلى ما أدت إليه من نتائج سبق حديثنا عنها بالتفصيل.

في مواجهة هذه الظروف المعاكسة، الواقعية والتاريخية، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من ظروف غير مواتية كانت موجودة على الجانب المصري نفسه - فقد كان على القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، التي تولت مسئولية العمل بعد 5 يونيو، أن تضع في اعتبارها، أن واجبها الحقيقي، ليس مجرد إعادة بناء القوات الجوية من نقطة الصفر تقريبًا فحسب وإنما تحقيق هدفين أساسيين:

- الهدف الاستراتيجي سياسيًّا ونفسيًّا، هو عقدة نقص بالغة الخطر، التي كانت تهدد نفسية المواطن المصري - والإنسان العربي عمومًا - وهو يرى سلاح الجو المصري يُضرب على الأرض مرتين والمفروض فيه أن يكون درع الأمان الجوي الذي يتصدى لسلاح الجو الإسرائيلي بالردع والتأديب، باعتبار هذا السلاح الجوي المصري جزءًا من القوة العربية الأولى.. القوات المسلحة لمصر، كبرى الشقيقات العربية.

ومؤدى هذا بلغة الواقع العملي، الذي يجب على قيادة الجو المصرية أن تصل إلى تحقيقه مهما كان الثمن، ومهما بلغت التضحيات، هو الارتفاع بالمقاييس التي يجري على ضوئها إعداد سلاح الجو المصري بحيث يتحول إلى سلاح غير قابل للهزيمة على الإطلاق - خصوصًا أمام العدو الإسرائيلي - وغير قابل لضربات الإجهاض الغادرة، التي تحطم أجنحة وهي راقدة على الأرض.

- من الهدف السياسي تحددت أمام القيادة الجوية المصرية، معالم الهدف العسكري بجميع مستوياته الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية - التي ينبغي الوصول بسلاح الجو المصري لتحقيقها، ليكون على مستوى المسئولية التي حملتها له جماهير الأمة العربية.

إن العبء الذي ألقته الظروف التاريخية على كاهل القيادة الجوية المصرية.. كان شديد الجسامة.. وتؤكده الصورة التقريبية العامة للواجبات والمهام الأساسية التي كان من المحتم على سلاحنا الجوي أن يعد نفسه للقيام بها بسرعة، لكي يصعد بقدراته - من نقطة الصفر التي كان مهددًا بالهبوط إليها عقب ضربة 5 يونيو إلى المستوى الذي يجب على القوات

الجوية في أي مكان في العالم أن تحتفظ به، لتظل محتفظة بكيانها، وبموقعها المؤثر من القوات المسلحة التي تنتمي إليها، وبقدرته على القيام بهذه الواجبات:

1 - الردع الجوي للعدو: هذا الواجب يأتي في مقدمة المهام الأساسية لأي قوة جوية في العالم، وتزداد أهميته بتأثير الظروف الخاصة بهذا السلاح نفسه، باعتباره تلقى ضربتين مركزتين في فترة زمنية قصيرة لا تسمح في الظروف العادية باستعادته للياقته القتالية استعادة كاملة.

كان من المحتم على سلاحنا الجوي أن يعمل على الارتفاع بقدراته القتالية والهجومية - على السواء - لكي يصل إلى المستوى الذي يمكنه من ردع العدو، وإلزام هذا العدو بالعودة إلى الحجم الحقيقي لقوته.

كما أن نجاح سلاح الجو المصري في الوصول بسرعة إلى هذه القدرة كان ضروريًا للمحافظة على سلامة البناء النفسي للمقاتل المصري في باقي أفرع القوات المسلحة، بعد أن أصيب هذا المقاتل بصدمة نفسية عنيفة.

2 - الاستطلاع الجوي لمسرح العمليات: ويعتبر هذا الواجب عمليًا من أخطر المهام التمهيدية، التي تحتاجها القوات الجوية، لتحدد على ضوء نتائجها، المهام القتالية - أو الهجومية - التي يتعين عليها القيام بها ضد العدو.

كما أن الجيوش الميدانية - بجميع أفرع الأسلحة البرية - وكذلك القوات البحرية، تعتبر في حاجة مستمرة - خصوصًا أثناء العمليات، أو الفترات السابقة على اشتعال الحرب، إلى هذه المعاونة الحيوية من جانب القوات الجوية، والتي يتم خلالها الاستطلاع الجوي الدقيق لمواقع العدو، وتجمعات قواته، وحركة هذه القوات واتجاه هذه الحركة، أو تمركزها ومواقع التمركز.. إلخ.

والأمر الذي لا شك فيه، أن العدو لا يقف ساكنًا أمام عمليات الاستطلاع الجوي، التي قد تؤدي بنتائجها المستقبلية إلى مخاطر يتعرض لها تفوق بكثير الدمار الذي تحدثه عمليات الهجوم الجوي المركز.

3 - مقاومة الاستطلاع المعادي: إن مقاومة هذا الاستطلاع الذي يحاول العدو الجوي القيام به فوق مواقع قواتنا، كان من المهام الأساسية لقواتنا الجوية، ورغم ما تملكه

إسرائيـل من طائرات اسـتطلاع بالغة التطور، وتتمتع بأعلى مسـتوى من الإمكانيات الفنيـة في هذا المجال الحيـوي، وسرعات هائلة، وقدرة غير محـدودة على المناورة، فقد كان مـن المحتم على سـلاح الجو المصري أن يتصـدى لعمليات الاسـتطلاع المعادي، ويمنـع العدو من القيام بها ويسـعى بكل طاقته لإحباطهـا قبل أن تحقق أغراضها ضد مواقع قواتنا المسلحة.

4 - توفير الحماية الجوية للقوات المسـلحة ضد الهجمات المعادية من طيران العدو، وكذلك توفير الحماية الجوية اللازمة للأهداف الحيوية للدولة بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي ووسائله.

5 - صد هجمات العدو الجوي: خصوصًا التي توجه في ضربات مركزة تستهدف إجهاض المجهـود الرئيس لقواتنا المسـلحة، في فـترات التحضير التي تقوم بها قواتنا اسـتعدادًا للقيام بعمليات هجوم واسعة ضد العدو.

6 - الحصـول عـلى التفوق الجـوي المحلي: يتم الوصـول إلى هذا الهـدف، بتوجيه ضربات قويـة، ضد مطارات العدو، ووسـائل دفاعه الجوي، ومركـز قياداته، ومواقع التوجيه والإعاقة والشـوشرة، ويحسـن أن يتم توجيـه هذه الضربات المركزة ضـد العدو، قبل بدء الهجوم - عن طريق قتال طائرات العدو في الجو - فإن لم يتيسر هذا، يمكن تعديل الهدف إلى محاولة السـيطرة الجوية فوق مسرح العمليات نفسـها، ولو لفترات محدودة، تحتـاج فيهـا القوات البرية لتوفير الأمـن اللازم لها لكي تتقدم، وهـي متمتعة بالحماية، التي يوفرها الغطاء الجوي، الذي تقدمه طائرات السلاح الجوي بعد أن تسيطر - محليًّا - على أرض العمليات البرية.

7 - إسكات مدفعية العدو: في كثير من الأحيان، يتعرض المجهود الرئيس للقوات المشتبكة في القتـال، للإحباط الشـديد، الذي يهـدد القوات الزاحفة بالتوقـف، ثم الارتداد إلى الـوراء بعنف يمزق تماسـك هـذه القوات، بسـبب ضراوة النيران التـي تصبها فوقها مدفعية الميدان البعيدة المدى التي يملكها العدو.

هنا لابد للطيران من التدخل السريع، لإسكات هذه المدفعية الضارية، بدك بطارياتها، وتدمير مراكز السـيطرة والتوجيـه التي تتحكم في عملياتها الجهنميـة، ورغم المخاطر العديـدة التي تتعرض لها القوات الجويـة - في قيامها بهذا الواجب - فإن تقصيرها في

أدائـه على الوجه الأكمل، قـد يؤدي إلى كارثة محققة، يمكن أن تهـدد المجهود الرئيس للجيوش الزاحفة بالتوقف ثم الارتداد.

8 – توجيـه المعاونـة: والحماية الجوية للجيـوش الميدانية بـكل صور المعاونة التـي تتطلبها العمليات.

وكذلـك تقديم المعاونـة والحماية للقوات البحرية، سـواء ضد طـيران العدو، أو ضد قـوات العدو البحرية، التي قد تتصدى لمقاومة بحريتنا أثناء قيامها بمهامها وواجباتها الحربية.

9 – عمليـات الإبـرار: وهي من أحدث الواجبات والمهام التي ألقيت على كاهل السـلاح الجـوي في الحرب الحديثة، وتتم بطائرات النقل – المخصصة لنقل الجنود والمعدات – وطائرات الهليكوبتر، التي تتولى نقل قوات المظلات والصاعقة، وجماعات الاستطلاع الجوي، وإسقاطهم خلف خطوط العدو.

10 – منـع الإبـرار المعادي: وهـو من أهم الواجبات التي يسـهم بها سـلاح الجو في تأمين الخطـوط الخلفيـة لقواتنا، وحمايـة أهدافنا الحيوية، مـن عمليات الإبـرار الجوي – أو البحري المعادي – ويتم أداء القوات الجوية لهذا الواجب، بتدمير القوات التي وجهها العدو للقيـام بالإبرار، ويحسـن بطبيعة الحال أن يتم تدمير هذه القوات المعادية، وهي لا تزال في الجو أو البحر – وقبل أن تنجح في الاقتراب من الأهداف المحددة لها.

11 – عمليات الإمداد والإخلاء: تتم بإمداد القوات المشـتركة في العمليات – برًّا أو بحرًا – خصوصًـا في الأحوال التي لا تسـمح للإمـدادات والمؤن، بأن تصـل إليها بالطرق العاديـة، وإلى جانب الإمداد والتموين، يتحتم على القـوات الجوية أن تقوم بعمليات إخـلاء الخسـائر، سـواء في الأفراد، أو في المعـدات، ونقل الجرحى إلى مستشـفيات في الخطـوط الخلفية والعودة بالمعدات المعطلة إلى ورش الصيانة لإصلاحها، والعودة بها إلى الخطوط الأمامية مرة ثانية، إذا اقتضى الموقف العسـكري نقل هذه المعدات بسرعة لا يوفرها سوى الطيران.

12 – توجيه الضربات الجوية المركزة: سواء ضد الأهداف الاستراتيجية للعدو، أو المواقع التعبويـة المعاديـة، أو ضـد الأهـداف المؤثرة في المجهـود الجوي الرئيس للعدو، التي توجـد في العمـق. كما تقوم القوات الجويـة أيضًا – في مجال القصـف المركز – بضرب

تجمعات سفن العدو بمختلف أنواعها، متعاونة في هذا مع القوات البحرية وقوات الدفاع الجوي.

13 - تحطيم معنويات العدو: بالقيام بعمليات تدمير أفقية شاملة، تؤدي إلى تحطيم معنويات العدو، وإشاعة الذعر في نفوس أفراده، والانتقال بهذا التدمير الشامل من مسرح العمليات إلى العمق الداخلي للأراضي التي يسيطر عليها العدو، بهدف إحداث انهيار كامل في جبهته الداخلية، يؤدي بالضرورة إلى تفكك جبهته العسكرية، ثم سحق قوات العدو الموجودة في مسرح العمليات سحقًا شاملًا.. ولكن.. بشرط أن يكون العدو قد قرر استخدام هذا الأسلوب الأفقي في التدمير الشامل، ضد جبهتنا - العسكرية والمدنية - وأن يكون قراره هذا قد انتقل من مرحلة «التفكير» إلى المقدمات العملية للتنفيذ التي تقطع بأن العدو يستحق من سلاحنا الجوي أن يتعامل معه - كما قال الرئيس السادات، على أساس المعاملة بالمثل، وأن «العمق بالعمق.. والنابالم بالنابالم».

هذا هو مدى الشمول والاتساع والتنوع في الواجبات التي كان على سلاحنا الجوي أن يعد نفسه للقيام بها وبسرعة قياسيَّة.. هذه الواجبات الأساسية لسلاح الجو كانت تقتضي تحركًا على المحاور الرئيسة.. أفرادًا وقادة.. وبجهد متوازٍ.. بحيث كانت لحظة الوصول النهائية لكل هذه المحاور، هي لحظة النصر العظيم للجميع، في الساعة «205» الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر 6 أكتوبر 1973.

"... السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح.. وفق هذا المبدأ دربنا المقاتل المصري الذي تم تطوير «عقيدة قتاله».. فهو لا يقاتل رغبة في العدوان.. بل لصد العدوان عن أرضه وعرضه.. وهو مقاتل مؤمن جزاؤه الحقيقي النصر على عدوه وردعه عن العدوان.. "

محـــاور النـــصـــر

الحرب ليست قصة مسلية، إن النتيجة الأخيرة لها - نصرًا كانت أو هزيمة - تكون قد عبرت بالعديد من التفاصيل المعقدة.. التي إذا تحققت بدقة وعلمية حصل المقاتل على ما يستحق من نصر، والعكس صحيح. وفي طريقنا إلى نصر أكتوبر، وإلى تنفيذ الضربة الجوية التي وهبت النصر لمصر والعرب، لم يكن هذا عملًا يسيرًا.. بل مجهدًا وصعبًا وتحيطه تفاصيل وعوامل مختلفة.

حين تخرج الطائرة المقاتلة إلى السماء لكي تهاجم أو تقاتل دفاعًا لا يكون هذا مجرد قرار بسيط، بل تسبقه عشرات من العمليات والاستعدادت العلمية والعسكرية، لا يقتصر على تدريب المقاتلين وتجهيز الطائرات..بل يمتد إلى بناء المطارات والتجهيزات الإدارية المعقدة وعمليات الاستطلاع والاتصالات التي لا يدري بها الكثيرون.. وفي سنوات الاستعداد لنصر أكتوبر 1973 كان أن قمنا في سلاح الجو بعملية معقدة لا بد من إطلاع المصريين على خطوطها العريضة حتى لو بدت غير مسلية وتخلو من الطرافة.. فهي تعبر عن جهد عظيم.

بينما أروي تفاصيل هذه الملحمة، أجد نفسي مقيدًا بعوامل السرية التي تفرض عليَّ كقائد يحفظ أسرار عمله والقوات التي قادها ألا أكشف ما قد يسبب لها أي مسالب

أو أضرار. وفي ضوء ذلك فإنني أسعى إلى أن أحقق مهمتين.. الأولى هي وجوب أن يطلع المواطـن المصري والعربي على أبعاد تلك العملية التاريخية التي حقق من خلالها جيشـه هذا النصر العظيم.. وفي ذات الوقت الحفاظ على أسرار هذا النصر حتى لا يستفيد منه عدو.

فيما سبق ذكرت أنه كان على القوات الجوية أن تتحرك فوق مجموعة من المحاور المتوازية، لكي تصل إلى المستوى الذي يجعل منها سلاحًا جويًّا غير قابل للهزيمة أمام عدوه الإسرائيلي، وغير قابل لتلقي ضربات الإجهاض لطائراته الجاثمة على الأرض.. وأن يتحول في النهاية إلى سلاح يملك ناصية المبادرة، ويملك القدرة على المنافسة، بل يتجاوزها سعيًا إلى انتزاع السيادة الجوية.

ولم تكن عملية الانتقال بالسلاح الجوي من التقليدية إلى التجديد القائم على الاستفادة الواعية من كل معطيات العلم في مجال الحرب الجوية مستحيلة، لكنها كانت أمرًا بالغ الصعوبة، متعدد المراحل. وقد بدأنا على الفور باقتحام المرحلة الأولى.. وهي تحديد المحاور الرئيسة التي سنتحرك عليها طوال تلك العملية المضنية.

كان القائد العسكري الفرنسي نابليون بونابرت يردد دائمًا: «إن ثلاثة أرباع النصر في المعركة تتوقف على العوامل المعنوية». وكان الفيلد مارشال مونتجمري القائد العسكري البريطاني الأشهر يقول: «إني أعتبر الروح المعنوية هي العامل الكبير والوحيد في الحرب.. وبدون روح معنوية عالية، لا يمكن أن يتحقق أي نجاح، مهما كانت هناك خطط استراتيجية وتعبوية جيدة».

من «الروح المعنوية» يتأسس مبدأ «سلامة العقيدة القتالية» الذي يتجسد بشكل عملي في «ارتفاع الكفاءة النفسية للمقاتل» - كما يسميه المتخصصون في علم النفس الحربي.. أو ما يطلقون عليه عادة «ارتفاع الروح المعنوية لدى المقاتلين».

هذه الروح، أو الكفاءة النفسية لدى المقاتل، تتوقف سلامتها وارتفاع مستواها بالدرجة الأولى على سلامة العقيدة القتالية، التي تغرس في عقل المقاتل ووجدانه. وقد أثبتت التجارب العملية - على أرض المعارك - أهميتها، لا لإحراز النصر فحسب، بل لبقاء المقاتل متماسكًا، وقادرًا على مواجهة خصمه، والتصدي له بالمقاومة، حتى في أحلك الساعات، وفي ظل الظروف غير المواتية التي قد يتعرض لها .

إن المقاتل المصري الذي تعرض للهزيمة في يوم 5 يونيو هو نفسه المقاتل الذي حقق

النصر الساحق في يوم 6 أكتوبر بعد ست سنوات. والسؤال الملح هو: كيف صعد المقاتل المصري من قاع الهزيمة.. ليرتقي إلى قمة النصر.. مع أنه نفس المقاتل، وكان يحمل نفس السلاح «الروسي» تقريبًا؟ ما السر في هذا التغيير الجذري، في قدرة هذا المقاتل التي أبداها بشكل معجز على مسرح العمليات - سواء في العمليات القتالية أو الهجومية - وبمستوى عالٍ من الكفاءة النفسية والكفاءة القتالية؟

لقد اندفع العدو بجنون، لمحاولة الوقوف على سر التركيب الكيميائي لـ «حبوب الشجاعة» التي افترضوا - تحت وطأة الهزيمة الصاعقة التي هبطت على رءوسهم ساعة العبور، وما تلاها من معارك ضارية - أنها التفسير الوحيد، في تصورهم لما أبداه المقاتل المصري من صلابة في القتال، وشجاعة نادرة المثال، وفَهم جيد لإمكانيات السلاح الذي بين يديه، ومقدرة منقطعة النظير على التحكم في هذا السلاح، وحسن توجيهه إلى صدر الخصم.

وإذا كان هناك من سر، غير كيميائي بالتأكيد، فإن مكمنه هو إيمان المقاتل المصري مع قيادته الجديدة بأن «السلاح بالرجل».. وليس الرجل بالسلاح .من هذا الإيمان الأساسي استمد المقاتل المصري المكونات السليمة لعقيدته القتالية الجديدة، التي وصلت به إلى مستوى من ارتفاع الكفاءة النفسية والقتالية، أذهل الخصم، وجعله يبحث عن سر «حبوب الشجاعة» التي يتعاطاها هذا المقاتل المصري الجديد.

هذا التحول المهم في شخصية «المقاتل المصري» - الذي بهر العالم بعد 6 أكتوبر - لم يتم بين يوم وليلة، ولم تتسبب فيه عصا سحرية.. لكنه تحول نتج عن دراسة جادة، عنيت بها القيادة المصرية الجديدة، في جميع أفرع القوات المسلحة - بما في ذلك سلاح الطيران.. وقد اتضح من نتيجة هذه الدراسة بعد 5 يونيو 1967 أن عنصر «القوى المعنوية» لم يكن يلقى الاهتمام الكافي، وأن مفهوم كلمة «القوى» كان - مع بالغ الأسف - مقصورًا عند بعض المستويات القيادية العليا، على التسليح كمًّا وكيفًا، وما عدا هذا المفهوم «المادي» البحت لكلمة «قوى» لم يكن يلقى الاهتمام الحقيقي اللائق به في الفكر العسكري الحديث.

الظاهرة الأخرى التي أثبتتها الدراسات، في مجال «القوى المعنوية» وتأثيرها على نفسية المقاتل، قبل وأثناء وبعد العمليات، هي أن المختصين بهذه القوى المعنوية.. كانوا يتجهون

بخططهم إلى الاكتفاء بإدخال السرور عن طريق حفلات الترفيه وتوزيع الحلوى والسجائر الإضافية على الضباط والجنود.

في مجال القوات الجوية بالذات تبين أن نظرة المقاتل الجوي إلى نفسه - بالمقارنة إلى عدوه - كانت تقوم على حسابات وهمية غير دقيقة، ومعلومات زائفة تهون من قدر العدو، بنفس القدر الذي تضخم به من إحساس المقاتل المصري بذاته بشكل مبالغ فيه، ظهرت خطورته الحقيقية عندما وقعت الضربة الإسرائيلية المركزة على مطاراتنا، صباح 5 يونيو، فإذا بنتائجها التدميرية الواسعة، تضع المقاتل الجوي المصري في تناقض خطير بين ما كان يقال عن عدوه الجوي، وبين ما يشاهده بنفسه من آثار الدمار الذي ألحقه هذا الخصم بمطاراتنا وقواعدنا الجوية.

وقد كان هذا التناقض الذي خلقناه بأنفسنا كفيلاً بأن يقضي تمامًا على نفسية المقاتل الجوي المصري، عندما اكتشف بنفسه أنه كان ضحية لمجموعة من الأوهام الزائفة، طوال الفترة التي سبقت لقاءه المباشر مع العدو - ذلك اللقاء الذي تم من طرف واحد تقريبًا، في الساعات الأولى من صباح الإثنين الخامس من يونيو.

لقد رفض الطيار المصري المقاتل الاستسلام لدواعي هذا التناقض - الذي وقع فيه وقتها - واستطاع أن يستعيد توازنه النفسي بسرعة غير عادية.. وقد مكن هذا الكثير من طيارينا المقاتلين من القيام بالعديد من الطلعات الجوية - ما بين قتالية وهجومية - والإقلاع بطائراتهم، من مطارات دمر العدو معظم ممراتها ومنشآتها المعاونة.

ومن المهم الانتباه إلى أن قيادة الجو الجديدة لم تنخدع بهذه الصلابة التي أبداها طيارونا المقاتلون - بدافع من فطرتهم السوية كمصريين أصلاء.. بل إن هذه القيادة اعتبرت ما أبداه الطيار المقاتل من قدرة خارقة على استعادة توازنه النفسي بهذه السرعة حافزًا قويًّا، يدعوها إلى إعادة التخطيط لعملية الإعداد النفسي لهذا الطيار الشجاع، لكي تصل به إلى تكوين «العقيدة القتالية» على أسس علمية سليمة تقوم على أحدث ما وصل إليه الفكر العسكري الحديث من مبادئ ونظريات في مجال تنمية الكفاءة النفسية للمقاتل.

وكان الهدف هو الارتفاع بتلك الكفاءة إلى المستوى الذي يوفر له الحصانة المعنوية التي تحميه من أي صدمة نفسية قد يتعرض لها أثناء سير العمليات بحيث تكون المحصلة النهائية

هـي: مقاتلًا كفئًا – من الناحيتين العسكرية والنفسية.. وعقيدة قتالية واضحة وراسخة الأسس، وبعدها.. فالويل للعدو الذي يوقعه حظه السيئ في براثن هذا المقاتل الصلب.

ولم تكن المهمة الجديدة سهلة بأي حال من الأحوال، فقد كان على الجهاز الجديد، الذي مسئوليته الإعداد المعنوي للمقاتل الجوي، أن يضع خطته على أسس مدروسة، وأن ينفذها بأسلوب عملي، لا يقتصر على التوجيهات المكتوبة في نشرات التوجيه المعنوي التقليدية.. بل تنوع أسلوب «الجهاز الجديد» فشمل كل وسائل الاتصال الجماهيري – المعترف بها في فلسفة الإعلام الحديث – كالهوايات، والتدريب، والترفيه، ونشر المعلومات.

كانت هذه الوسائل جميعها، تتحرك في تعاملها مع المقاتل، مستهدفة تزويده بألوان من المعرفة، التي يمثل كل منها عنصرًا أساسيًّا من مكونات «العقيدة القتالية السليمة»، بحيث تعيد بناء هذا المقاتل نفسيًّا على أساس صلب. وكانت هذه العناصر تتناول على سبيل المثال:

- **ذات المقاتل:** وشخصيته نفسها، باعتباره مواطنًا مصريًّا، ووارثًا لحضارة بالغة الأصالة. وكانت خطة «الإعداد المعنوي» تأخذ بيد المقاتل برفق – يتكافأ مع إمكانياته الفكرية والثقافية – وتصحبه في إطلالة واعية عبر تاريخ مصر العريق.. ابتداء من «أول مصري» وحّد تراب الأرض المصرية ومرورًا بالمصريين الأبطال، الذين ضحوا بأرواحهم، ليحفظوا للتراب المصري طهارته ونقاءه، ويخلصوه من الدنس الذي تجره عليه خطوات المغامرين – من هكسوس، وتتار، وصليبيين – وغيرهم من الغزاة الذين تصدى لهم المقاتل المصري طوال عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث، وصمد لهم، مدافعًا عن ترابه المصري، وانتمائه العربي.
- **حقيقة العدو:** وهذا المجال شائك، تتحرك عليه كل أجهزة الإعداد المعنوي في العالم بحرج بالغ، لتفادي الوقوع في أخطاء بسيطة، قد تكون لها نتائج مهلكة ومدمرة لنفسية المقاتل.. ولذا كان على خطة الإعداد المعنوي أن تعطي المقاتل المصري صورة واقعية – دون تهوين أو تهويل – لحقيقة القدرات القتالية التي يتمتع بها العدو، مع رد هذه القدرات إلى أسبابها الحقيقية، من التدريب المستمر، والعتاد الحديث الذي يملكه هذا العدو.. وما تتطلبه المواجهة معه من استعداد

كامل بالتدريب الجيد، والاستيعاب التام لأسلحتنا، بحيث تعطينا هذه الأسلحة أقصى ما تملكه من طاقات تدميرية.

من جانب آخر كان على التجهيز المعنوي التعامل مع العدو من حيث هو كائن بشري، ذو مواصفات ومكونات نفسية خاصة، وتحكمه عقد نقص معينة، تجعل منه كائنًا مشوهًا من الداخل، ومدمرًا من الوجهة النفسية، بسبب مركبات النقص التي توارثها عن الأجداد القدماء.. وكيف أنها تحولت عند الأجيال المعاصرة إلى نوع من جنون العظمة والاستعلاء، والرغبة المنحرفة في استعباد الآخرين، وإذلالهم.

من هذه المعرفة الضرورية استمد المقاتل إصرارًا لا حدود له، في تعامله مع العدو الإسرائيلي، الذي يجب أن يقهر على أرض المعركة - أو في سمائها - حتى يعود إلى حجمه الطبيعي من الوجهة النفسية، عندما يذيقه المقاتل المصري طعم الهزيمة.

- **الثقة بالنفس:** ويعتمد هذا العنصر على الوصول بالمقاتل الجوي، عن طريق التدريب الجيد المستمر، الذي يقنعه شخصيًا بأنه قد وصل إلى أرقى المستويات في استيعاب سلاحه، والقدرة على استخدامه والتحكم فيه. ومن هذا الإحساس الحيوي يستمد المقاتل الجوي القدرة على احتمال أهوال المعركة ومشاقها، بنفس راضية، يزيدها رضى ما يشعر به من أمن ورعاية يحيطه بهما قادته في مسرح العمليات، واطمئنانه إلى الضمانات الاجتماعية التي توفرها عائلته الكبيرة - شعب مصر - لعائلته الصغيرة أثناء قيامه بأداء واجبه القومي في سماء المعركة.
- **فنون القتال:** قد يتصور البعض أن أي كلام عن حرفية القتال الجوي وفنونه يعتبر خارجًا عن المجال الصحيح الذي يجب أن تتحرك فيه أجهزة «إعداد القوى المعنوية للمقاتل».. ولكن الخطة الجديدة التي نفذت بالفعل - في مجال القوات الجوية - كانت تعتبر إمداد المقاتل الجوي بكل ما هو جديد في مجاله وفنونه المختلفة، أمرًا بالغ الأهمية، وعن طريقه يمكن تزويد الطيار المقاتل - وجميع أفراد القوات الجوية على مختلف مستوياتهم وتخصصاتهم - بسيل متجدد من المعرفة، تيسر لهم الاستعداد الكامل لمواجهة العدو، وكان أطرف ما في هذا الأسلوب - من أساليب الإعداد المعنوي - أن فرد القوات الجوية، كان يقبل ما تقدمه له أجهزة الإعداد

المعنوي من معلومات مستحدثة بروح القارئ العادي - الذي يرفه عن نفسه بعيدًا عن مجال التخصص والعمل.

- **عقيدة القتال:** كان على خطة الإعداد المعنوي، لكي تحكم إعداد المقاتل الجوي المصري من الوجهة النفسية إعدادًا سليمًا أن تمزج - داخل نفسية هذا المقاتل - بين أمرين:

الأول: أنه لا يقاتل حين يقاتل رغبة في العدوان، بل يخوض أهوال الحرب، لصد العدوان عن أرضه وعرضه، فهو مقاتل، وليس قاتلًا مأجورًا.

والثاني: أن الجزاء الحقيقي الذي ينتظر المقاتل المؤمن هو النصر على عدوه، وردعه عن العدوان.. أو الاستشهاد في سبيل الوطن، وفي سبيل الحق، والقيم الشريفة التي يمثلها هذا المقاتل المؤمن بربه ووطنه وبكل ما هو حق وعدل.. فهو فائز بالنصر أو الشهادة.

وكانت النتيجة الرائعة هي نقطة الوصول على المحور الأول.. في عملية البناء الكبير لقواتنا الجوية.

وصدَّق العالم أجمع ما أراد المقاتل المصري أن يقوله ببساطة، من أن «السلاح بالرجل».. وليس الرجل بالسلاح.

وكما استشهدت من قبل باقتباس نقلًا عن الفيلد ماريشال مونتجمري، أعود إليه مجددًا وأنا أنتقل لمحور التحرك الثاني.. إذ كتب مقالًا عن معركة العلمين قال فيه: «إن الجيش جهاز مقاتل، يسيطر عليه قادته، ويصهره النظام، ولكن.. يشكله ويطوره التدريب».

لقد اعتبرت قيادة الجو المصرية الجديدة أن «الإعداد المعنوي» للمقاتل المصري، هو «المحور الأول» في تحركها على طريق الإعداد للنصر.. ولكن هذا الإعداد المعنوي وتكوين «العقيدة القتالية» الناضجة والمتكاملة ليس كافيًا لخلق المقاتل القادر على مواجهة خصمه في مسرح العمليات، بل إن الانتصار عبر «الإعداد المعنوي» - وحده - قد يعرض المقاتل لمخاطر الإصابة بمركب «العظمة» وتضخم الإحساس بالذات، دون أن يملك هذا المقاتل أسرار الفن العسكري، ويتمكن من إجادة الأساليب القتالية إجادة تامة، تجعله على المستوى العملي فردًا قويًّا لخصمه، وتحقق لدى هذا المقاتل التوازن المطلوب، بين ارتفاع كفاءته النفسية، والارتفاع في كفاءته القتالية.

لقد تم تعيين الرؤساء المناسبين والمسلحين بالتخصصات المتقدمة في أفرع التدريب المختلفة، لإعداد الخطط الجيدة للتدريب القتالي، على أسس واقعية.. وقد روعيت فيها المواقف والظروف المحيطة بالقوات الجوية، واستخدام جميع الوسائل الممكنة، لخلق الأجواء المشابهة لظروف المعركة الحقيقية – ليلًا ونهارًا، مع تحديد المهام، وتلقينها بكل دقة، حتى يتمرس الرجال على تنفيذها، بالتسلسل الواقعي، عندما تبدأ العمليات الفعلية.

إن الانتقال بالمقاتل الحديث من العمليات والمشروعات التدريبية إلى العمليات القتالية الحقيقية، في اللحظة التي يثق القائد فيها أن رجاله قد استوعبوا تمامًا كل ما أراد أن يلقنهم إياه – أثناء التدريب – هو صمام الأمان الحقيقي ضد الخطأ، أو الارتجال أثناء المعركة، في وقت لا تسمح فيه نار العدو بالخطأ أو الارتجال.

والقائد الذي لا يعرف لنفسه ولرجاله طريقًا غير النصر، ولا يرضى بغير الهزيمة للعدو، يتحتم عليه أن ينطلق إلى مسرح العمليات الحربية من نقطتين أساسيتين – لا بد أن يكون مطمئنًا تمامًا إلى توافرهما بين رجاله – وهما: الكفاءة النفسية، والكفاءة القتالية. يقول مونتجمري مجددًا: «عندما تسلمت قيادة الجيش الثامن، وجدت أن مستوى القيادة والضبط والمعنويات كان جيدًا، إلا أن التدريب كان رديئًا، لذلك صرفت كل جهودي – قبل المعركة – لتدريب الجيش، وإعداده لخوضها بنجاح، ولما تأكدت من متانة التدريب خضت المعركة، وحققت النصر».

وقد استطاع الطيار المصري المقاتل – وإخوانه من العاملين بمختلف تخصصات الحرب الجوية – أن يستفيدوا من خطط التدريب الجيد التي هيأتها لهم القيادة على أوسع نطاق، وصولًا لتحقيق الأهداف التالية:

- رفع الكفاءة القتالية للقوات الجوية، إلى المستوى الذي يعطيها القدرة على الاشتراك مع باقي أفرع القوات المسلحة في عملياتها القتالية ضد العدو بنجاح كامل، يؤكد القدرة على تحقيق أعلى مستويات الاستراتيجية في الفكر العسكري المعاصر، وهو التكامل المؤثر بين الأسلحة المختلفة بصورة تؤدي في النهاية إلى تدمير العدو على مسرح العمليات – برية كانت أو بحرية أو جوية – ثم.. استسلام هذا العدو للهدف الاستراتيجي الأكبر، باحترام الإرادة الوطنية التي تمثلها قواتنا المسلحة، والقبول بالمنطق العادل لهذه الإرادة المصرية.

من أجل تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي الموسع، كان لا بد لخطط التدريب أن تحلل الخبرات المكتسبة، بالصواب والخطأ، والدروس المستفادة من ضربة 5 يونيو.. ومن ثم إعداد وتنفيذ الدورات النظرية العاجلة لرفع المستوى العلمي للضباط والأفراد في مختلف التخصصات.. وإلى جانب ذلك توحيد الأسلوب القتالي لدى التشكيلات على اختلاف أنواعها وأهدافها..

وشملت عمليات التدريب تنسيق التعاون بالتدريب المشترك بين التشكيلات الجوية المختلفة، وزيادة المشروعات المشتركة التي تمثل مهام العمليات الحقيقية، مع كل من: القوات البرية والبحرية وقوات الدفاع الجوي.

لقد ركزنا بكثافة على خطط التدريب لعمليات القتال الجوي - بجميع أنواعه - وفي مختلف الارتفاعات، والظروف الجوية المتباينة، وإجراء الرماية في ميادين تكتيكية، والتصويب على أهداف هيكلية، تشبه الأهداف الحقيقية لدى العدو.

وكنا نصدر المراجع والنشرات والوثائق، والدراسات العلمية التي نقوم بالتحليل لأسباب حوادث الطائرات - والمخاطر التي تتعرض لها في مختلف الظروف - ودراسة هذه الأسباب، للخروج منها بالدروس المستفادة، التي تأخذ شكل تعليمات وأوامر مستديمة لتخفيض نسبة الحوادث على الجانب المصري، إذا تعرضت طائراته لنفس الظروف التي تمت حولها الدراسة.

وأعددنا الطيارين والملاحين والموجهين، والفنيين والأطقم الأرضية بأساليب متكاملة.. تمكنهم من استخدام الأساليب الفنية الحديثة، والوصول بهم إلى المستوى العلمي، الذي يسمح لهم بالتعامل مع أحدث الآلات وأكثر أنواع الطائرات تعقيدًا، وفي مختلف الظروف القتالية، والأحوال الجوية المتباينة، وفي مختلف الارتفاعات والسرعات.

دربنا التخصصات الفنية المختلفة العاملة في مجال الاتصالات والإصلاح الهندسي للطائرات والملاحة الجوية، والاستطلاع والتصوير الجوي وتفسير وقراءة الصور الجوية، وتشغيل المعدات الفنية الخاصة التي تكمل عمل الطائرة.

ودربنا الطيارين على عمليات الاعتراض والتوجيه في مختلف الأجواء والظروف.. ولم يكن هذا سهلًا بدون إعداد جيل من الطيارين والملاحين والمراقبين الجويين، على جانب كبير من الخبرة في توجيه المقاتلات لاعتراض الطائرات المعادية، خصوصًا تحت ظروف التداخل الإلكتروني المعادي.

ودربنا الطيارين على الهبوط والإقلاع من جميع المطارات والممرات، عن طريق إعادة تمركز الأسلوب في أدوار متلاحقة بين جميع القواعد والمطارات في أنحاء الجمهورية. وبذلك اكتسب الطيارون والملاحون والمهندسون والفنيون خبرة العمل فوق مختلف الأراضي وفي مختلف الأجواء.

وامتدت عمليات التأهيل إلى تدريب الطيارين، وهم في مناوبة حالة الاستعداد الأولى، على الإقلاع في وقت غاية في القصر، ما أدى إلى الوصول إلى أرقام قياسية عالية في الاستعداد القتالي داخل التشكيلات والوحدات الجوية.

بعد ست سنوات من هذه التدريبات المكثفة، في مختلف المستويات والمجالات، كان أن حققنا كثيرًا من الأرقام القياسية.. وأمثلة هذا الإنجاز عديدة. فقد حقق كثير من الطيارين بين «6» و«7» طلعات طائرة في اليوم، محطمين بذلك الرقم القياسي العالمي وهو «4» طلعات يومية. وقد دامت بعض الاشتباكات الجوية، خصوصًا تلك التي تركزت حول بورسعيد خلال حرب أكتوبر، ما يقرب من «50» دقيقة.. رغم أن الزمن التقليدي لأي اشتباك جوي لا يتعدى من «7» إلى «10» دقائق، وكان السبب الرئيس هو تعدد الطائرات المعادية بكثافة بلغت في بعض الاشتباكات «70» طائرة في وقت واحد. وقد صمدت الطائرات المصرية في هذه الاشتباكات لتوافر الوقود في خزاناتها الأصلية والاحتياطية، فضلًا عن أن هذه الاشتباكات كانت تتم فوق مناطق قريبة من مطاراتها.

ومن بين الإنجازات أنه لم يتعطل مطار واحد خلال فترة العمليات أكثر من «4» ساعات، رغم تعدد مرات قصفه بالقنابل، لسرعة مبادرة مهندسي المطارات في عملية إصلاح الممرات. وانخفض الزمن اللازم لإعادة ملء الطائرة الواحدة بالوقود والذخيرة إلى «6» دقائق.. وكان الرقم القياسي الذي تشدقت به إسرائيل في حرب 1967 هو «8» دقائق.

وكان تدمير الدبابة الواحدة في جداول التدمير النظرية يستلزم من «2» إلى «3» هجمات طائرة.. غير أن طياري المقاتلات القاذفة المصريين حققوا إمكانية تدمير أكثر من دبابة بهجمة طائرة واحدة.

ومن المثير للفخر أن حقق المهندسون والفنيون والميكانيكيون بالقوات الجوية المصرية الوقت الأمثل في سرعة إصلاح أعطال الطائرات.. إن الإصلاح الذي يستلزم أسبوعًا، يتم خلال ساعات تحت ظروف المعركة، بالإصرار على العمل المتواصل مع التخلي عن الوسائل النمطية في الإصلاح واستخدام مواد بديلة للصق بدلًا من اللحام والبرشام.

وقد وصل زمن إقلاع طائرات حالات الاستعداد الأولى وهي في دشمها إلى دقيقة ونصف الدقيقة، وتحقق إقلاع أعداد كبيرة من المقاتلات بعد وصول الإنذار في أقل من الوقت المتوقع.. وهو «8» طائرات في «90» ثانية ومن مطار واحد.

لقد ذكرت مرارًا من قبل أن هناك مبدأ معروفًا في العلوم العسكرية.. هو « إن لدى العدو دائمًا ما يخفيه».. وهنا أكرره مؤكدًا على أن محور الإعداد المعنوي، والتدريب، لا يكفيان أبدًا لكي يكون لدينا مقاتل قادر على تحقيق النصر.

إن أي قائد يحترم نفسه ويحب رجاله، ويقدر الأمانة الملقاة على عاتقه، أمام مسئولية خطيرة، لا بد من الوفاء بها مهما كلفته من تضحيات، وهي محاولة الوصول - في السر كلما أمكن - إلى ما يخفيه العدو، والتعرف على ما يخبئه خصمه من مفاجآت سيطرحها على مسرح العمليات، لكي يستطيع هذا القائد، أن يعد العدة التي تحمي خططه ورجاله من مفاجآت العدو.

إهمال القائد لهذه الحقيقة، وعدم التصرف على ضوئها ومقتضاها - قبل المعركة - يعرض القائد وجيشه، وربما الوطن كله، لمخاطر غير محسوبة، قد تؤدي إلى وقوع كارثة مدمرة، لأن هذا القائد - بالجهل أو بالغرور والإهمال - لم يؤمن بأن «العدو عنده دائمًا ما يخفيه»، وقد يكون ما يخفيه هذا العدو رهيبًا ومخيفًا في دماره.

وبالطبع هناك وسائل غير معلنة.. لهتك ما عند العدو من أسرار، إلا أنه في مجال الطيران العسكري بالذات، يعتبر الاستطلاع الجوي من أهم وسائل تجميع المعلومات اللازمة عن العدو، بما يساعد القادة على اتخاذ القرارات السليمة للتخطيط الجيد، سواء لعمليات الهجوم أو الدفاع.

وحفلت فترة ما بعد ضربة 1967 حتى انتصار أكتوبر 73 بالجهود المكثفة لتنفيذ طلعات الاستطلاع الجوي فوق الأراضي المحتلة، في ظروف صعبة أقرب إلى المستحيل. وكان استطلاع نشاط العدو لمعرفة حجم قواته وأساليب قتاله، في فترة إعادة بناء القوات الجوية، وعلى الرغم من تفوق العدو الجوي، فقد تمت هذه المحاولات المستميتة، بمعرفة الطيارين المصريين الذين لم يفقدوا روح القتال.

وعقب وقف قتال 5 يونيو 1967 مباشرة، نفذت بكثافة طلعات للاستطلاع الجوي، ومراقبة تحركات العدو لمعرفة نواياه بالنسبة لعبور قناة السويس، حيث كانت الطريق -

وقتئذٍ – تكاد تكـون مفتوحة أمامه إلى غرب القناة. وتم تنفيذ طلعات الاستطلاع الجوي لمطارات العدو واحتياطياته التكتيكية ونشاط قواته على محاور سيناء.

لقـد كان من نتائج ذلـك أن قامت الطائرات المصرية «في يومي 14 و15 يونيو 1967» بقصف قوات العدو المدرعة ومدفعياته، وعندما تصدت لها طائرات العدو، خاضت معها معارك جوية شرسة ضدها.

وفـق عمـل منظم جاء دور تطوير وسـائل الاسـتطلاع الجـوي وإعـادة تنظيم عناصره بالقـوات الجوية وإعـداد ضباطه وأفراده وتدريبهم على اسـتيعاب المعـدات الحديثة لزيادة معدلات تزويد طائرات الاستطلاع بمعدات حديثة من بعض الدول الغربية.

تجلت قدرة العقول المصرية على الابتكار.. كما حدث خلال مراحل عديدة من سـنوات الصـبر والصمـود.. إذ تمكنـت مجموعة من الضباط والمهندسـين والفنيـين بالقوات الجوية المصرية من تركيب المعدات الغربية الحديثة، على الطائرات السوفيتية، وذلك وفقًا لابتكارات مصرية. ونفذت التعديلات في ورش القوات الجوية ومصانع الطائرات المصرية.

هكذا غطى الاسـتطلاع الجوي مناطق أكثر شمولًا للعدو، وأصبح لدينا صور واضحة لمواقـع العدو في شرق القنـاة، وتوافرت معلومات تفصيلية عن موقـف وحجم ودفاعات العدو في سيناء.

خلال مرحلة الدفاع النشط من سبتمبر 1968 إلى فبراير 1969 قام طيارو الاستطلاع الجوي المصريون، بعديد من طلعات الاسـتطلاع شـملت من أقصى شمال سيناء حتى شرم الشـيخ، بجانـب متابعة العدو أثناء قيامه ببناء مواقعـه الحصينة.. كان لهذه المعلومات فائدة مؤكدة في الهجمات التي قامت بها القوات الجوية المصرية، وفي القصف الذي ركزته المدفعية المصريـة، على مواقع العدو وأهدافه المستطلعة أثناء مرحلة حرب الاسـتنزاف «من مارس 1969 إلى أغسطس 1970».

الـذكاء المصري تجلى مـرة أخـرى.. كان ذلك في مرحلة وقـف إطلاق النار من أغسـطس 1970 إلى أكتوبـر 1973.. كانـت اتفاقيـة وقف إطـلاق النار تنص على وجود مسـافة عشرة كيلومـترات – عـلى كل مـن جانبي قناة السـويس – كفاصل يمنـع الطيران فوقه مـن الجانبين المصري والإسرائيلي، ومعنى هذا أنه لا بد من حل سريع، يكفل تصوير مواقع العدو، رغم هذه المسافة، وبمقياس رسم مناسب يحقق استمرار حصولنا على المعلومات اللازمة عن العدو.

كان الحل التقليدي الذي تلجأ إليه كل أسلحة الطيران في العالم - وفي مثل هذا الظرف الدقيق - هو الحصول على طائرات معينة، أو على الأقل تزويد الطائرات بكاميرات صممت خصيصًا لتحقيق هذا الغرض. ولكن هذا الحل التقليدي، لم يتيسر لنا.. لأننا لم نتمكن من الحصول على وسائله من طائرات وكاميرات، رغم إلحاحنا وطلباتنا المتكررة.

تحرك الذكاء المصري بسرعة ليحل المشكلة.. وتوصلت مجموعة من ضباط الاستطلاع الجوي، بالتعاون مع زملائهم من مهندسي القوات الجوية إلى تصميم «وسيلة مناسبة».. للتصوير المائل، من الارتفاعات العالية. لقد استخدمنا هذه الطريقة بكثافة، وأمكن بها استمرار تنفيذ الطلعات الاستطلاعية، ومتابعة نشاط العدو لمسافات كبيرة في عمق سيناء.. هذا إلى جانب تعميم تجهيز جميع طائرات الاستطلاع الجوي بمجموعات التصوير من الارتفاع المنخفض بمعدلات إنتاج عالية.

وفي صمت وصبر كان الأفراد يعملون في معامل التصوير الجوي، لطبع وتجهيز آلاف الصور الجوية لأهداف العدو ونشاطه. وكان ضباط تفسير وقراءة الصور الجوية، وضباط المعلومات يعملون، وتم إعداد آلاف الرسومات التفصيلية لأدق مواقع العدو.

نفذنا نماذج مجسمة لأهداف العدو للتلقين عليها، وقام ضباط المعلومات بالتلقين المستمر للوحدات الجوية وتوزيع ما تجمع من معلومات على المستويات المختلفة للقوات المسلحة، وظل الاستطلاع الجوي منتظمًا، ولم يتوقف هذا حتى ظهر يوم 6 أكتوبر، حيث هبطت طائرة استطلاع قبل الساعة الواحدة بقليل، وتم تجهيز صور هذه الطلعة، قبل موعد بدء الضربة الجوية المركزة الأولى.

ونفذت الضربة الجوية بنجاح منقطع النظير. كان من أهم عوامل نجاحها توافر المعلومات الدقيقة عن الأهداف المعادية، خصوصًا وسائل الدفاع الجوي المعادي في سيناء.

ظل الاستطلاع الجوي مستمرًا طوال أيام القتال، وكان من أهم نشاط استطلاعه خلال فترة العمليات:

- استطلاع أنشطة العدو على المحاور الرئيسة في سيناء، خصوصًا عندما ركز العدو جهوده على المحور الأوسط، وعند تركيز العدو للإمداد الإداري والإصلاح على المحورين الشمالي والجنوبي.

- اكتشاف تجهيز العدو للكباري ومعدات العبور في اتجاه شرق الدفرسوار.
- كشف فداحة خسائر العدو وجثامين الآلاف من قتلاه المبعثرة فوق رمال سيناء.
- مشاركة وحدات الاستطلاع الجوي لباقي وحدات القوات الجوية في تنفيذ الهجمات الجوية.. وقد قدمت وحدات الاستطلاع الجوي شهداء من أبطالها في هذه الحرب المجيدة.
- متابعة أعمال العدو وتجهيزاته الهندسية وموقف قواته في موقع الثغرة، مكملًا بذلك المعلومات الشاملة، التي كانت تكفل تصفية هذا الجيب.

أنتقل إلى نقطة أخرى في تسجيلي لمحاور الانتصار أو المحاور التي قادتنا إلى الانتصار.. وأتناول الآن جهود الصيانة.

يعتبر كتاب «الميراج ضد الميج» - الذي أصدره «بن يورا» و«يوري دان» - المراسلان الحربيان لصحيفتيْ «معاريف» و«يديعوت أحرونوت» الإسرائيليتين - من أهم الكتب التي صدرت في تل أبيب، حاملة وجهة نظر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، بالنسبة لمعارك الحرب الجوية بين العرب وإسرائيل. استوقف نظري في هذا الكتاب، أن المؤلفين المتعصبين، وهما بسبيل التفاخر بالنتائج التي حققتها ضربة «طوق الحمامة» التي نفذت ضد سلاح الجو المصري - صباح 5 يونيو 1967 - قد ركزا على «الصيانة الأرضية» للطائرات باعتبارها واحدًا من العوامل - السبعة - الرئيسة، التي أسهمت في نجاح خطة جنرال الجو الإسرائيلي «مردخاي هود».

يقول الكاتبان عن دور «الصيانة» وفعاليتها المؤثرة في ضربة 1967: «إن الاهتمام الشديد بتنظيم وفاعلية أجهزة الصيانة في القواعد الجوية الإسرائيلية، كان شيئًا أساسيًّا، يركز عليه كل واحد من قواد سلاح الطيران قبل ذلك بسنوات طويلة، وقد أدى هذا الاهتمام بالصيانة إلى نجاحنا كإسرائيليين في اختصار المدة التي تفصل بين طلعتين للطائرة الميراج، إلى سبع دقائق فقط.. بينما التي حددها مصممو تلك الطائرة أصلًا، هي عشرون دقيقة، لهذا لم يكن من الصدفة في شيء أن الطائرات الميراج استطاعت خلال الحرب - في يونيو 1967 - أن تقوم باثنتي عشرة طلعة يوميًّا، ولم يتطلب تغيير محرك الطائرة إلا فترة زمنية تتراوح بين الساعة والنصف، وبين الساعتين، وذلك بدلًا من الفترة التي كانت مقررة من قبل لتغيير محرك الميراج، وهي اثنتا عشرة ساعة».

ورغم تهاويل الدعاية التي ازدحم بها كتاب «الميراج ضد الميج»، فإن هذه المعاني كشفت عن الحقيقة البسيطة التي كانت تكمن وراء نجاح عملية «طوق الحمامة» الإسرائيلية: دقة التنظيم، والعناية بجميع التخصصات المعاونة، وعدم قصر هذه العناية على طلعات الطيران، التي تعتبر محصلة أخيرة لجهود كثيرة تقوم بها أجهزة مختلفة، في مقدمتها جهاز الصيانة وهندسة الطيران.

لقد أكدت نتائج الدراسات المصرية التي تمت بمقاييس علمية، تبلغ في حيدتها وموضوعيتها حد الصرامة، أن ما حققه العدو من نجاح لا يشكل معجزة عسكرية، وهو في حقيقته لا يخرج عن كونه حاصل جمع لعدد من الوسائل التنظيمية الدقيقة، يأتي في مقدمتها: الاهتمام بالصيانة وتنظيم جهازها، وتدريب الأطقم العاملة بها، من مهندسين وفنيين، تدريبًا عاليًا، سيعطي في النهاية نتائج عالية الكفاءة، من حيث دقة وجودة عمليات الصيانة والتشغيل ومن حيث انكماش الحيز الزمني اللازم لهذه العملية.

وهنا.. وضعت قيادة الجو المصرية يدها على «المحور الرابع» الذي ارتكزت عليه في إعادة بناء القوات الجوية.

نعود إلى الوراء بضع سنوات: في صباح 5 يونيو 1967.. تعرضت المطارات للقصف المعادي المباشر، ودمرت معظم طائرات القوات الجوية المصرية. ولم ييئس مهندسو الطيران والضباط الفنيون والميكانيكيون الجويون.. واعتبروا ما تبقى من الطائرات نواة جديدة، لإعادة تنظيم التشكيلات الجوية.

عندما بدأت الطائرات الجديدة ترد، استقبلها مهندسو الطيران، في نقط التجميع والتركيب والاختبار، حيث تشكلت مجموعات كبيرة منهم، للقيام بتركيب طائرات الدعم، لقد قاموا بأعمالهم برجولة وتضحية ليلًا ونهارًا، تحت ظروف قاسية، وحققوا معدلات قياسية في تجميع الطائرات وتركيبها واختبارها.

في الوقت نفسه، أعيد تمركز الطائرات وأطقم العناصر الفنية، وتم دفع الضباط والأفراد والمعدات التي تلزم التشكيلات الجديدة.. وبدأت الأطقم الفنية بتجهيز الطائرات الصالحة للطيران وتسليحها، كما شكلت مجموعات منهم للقيام بالإصلاحات البسيطة والمتوسطة للطائرات المصابة وتجهيزها للعمليات، ما أعاد الروح القتالية العالية للضباط الطيارين.

نتيجة لهذا الجهد المشترك، نفذ بعد يوم 10 يونيو 1967، العديد من الطلعات الجوية الانتحارية الموفقة، التي هزت النصر السريع الذي اكتسبته إسرائيل.. وليس أدل على

خطورة تلك الطلعات الجوية من أن إسرائيل أخذت تولول في إذاعتها، على مسامع العالم، من فرط ما أصابها به الطيارون المصريون من سوط القصف والعذاب، والضربات المركزة، التي تمَّ بعضها في وقت مبكر جدًّا، عقب 5 يونيو، كما حدث في معارك 14 يوليو 1967 التي أرغمت القوات الإسرائيلية وقتها على الانسحاب من سيناء كلها إلى مشارف العريش، هربًا من شراسة الطيارين المصريين، حتى إن إسرائيل – وقتها – أطلقت لقب مجرمي الحرب على قادة القوات الجوية المصرية.

في أعقاب نكسة 1967 .. قابل مهندسو الطيران الكثير من التحديات الضخمة، التي تطلبت مواجهتها، فكرًا جديدًا متطورًا، وكثيرًا من الوقت والعرق.. ومن هنا استطاعوا أن يمهدوا الطريق للقوات الجوية المصرية، للوصول إلى نصر أكتوبر 1973 المؤزر. وكان أضخم هذه التحديات، في فترة الإعداد والاستعداد:

غرس أسلوب جديد، لصيانة الطائرات وتجهيزها للطيران وللطلعات المتكررة.

- توفير أعداد كبيرة من الميكانيكيين الجويين المؤهلين لمجابهة متطلبات خدمة الطائرات، ومقابلة التوسعات الضخمة الجديدة في حجم القوات الجوية.
- تطوير التدريب لسرعة إعداد الميكانيكيين الجويين ومدهم بالمهارات المطلوبة.. والتوسع في إعداد الخريجين من الكلية الفنية العسكرية، والإسهام في تطوير برامج الدراسة في الكلية لإعداد الضباط المهندسين وتزويدهم بالأسلوب الحديث لخدمة الطائرات وصيانتها وإصلاحها، طبقًا لأحدث المناهج العالمية.

وأدى المعهد الفني للقوات المسلحة دورًا كبيرًا في تعزيز القوات الجوية، وإمدادها بأعداد كبيرة من الضباط الفنيين ذوي الكفاءة والخبرة في صيانة وإصلاح الطائرات.

- استحداث أساليب جديدة للتدريب الفني لجميع التخصصات، مع تكثيف مدة التدريب، وزيادة عدد ساعات الدراسة اليومية، بما لا يؤثر على الكفاءة الفنية والقتالية للميكانيكيين الجويين..

وتحددت ملامح الأسلوب الجديد بتخطيط التدريب الفني والمهني للضباط المهندسين والفنيين والأفراد، وفقًا للخطوط العريضة الآتية:

- التركيز على التدريب الجماعي وعلى رفع الكفاءة القتالية للأعمال المنتظرة خلال العمليات «كعمليات الملء والتسليح» بمختلف الاحتمالات.

- التدريب على الطرازات الجديدة من الطائرات والاستفادة من جميع الخبرات المؤهلة لذلك.
- تدريب القيادات الهندسية والفنية، تدريبًا تعبويًّا، بهدف تحقيق السيطرة على أعمال الدعم الهندسي بالتشكيلات.
- التركيز على تخطيط عمليات إعادة الملء والتسليح، والتفتيش عليها واختبارها في جميع التشكيلات الجوية، ومراجعة هذه التخطيطات من فترة إلى أخرى، حتى تم الوصول بهذه العمليات إلى معدلات عالية.
- تنظيم أعمال الدعم الفني والهندسي لبعض طرازات الطائرات، حيث تمكن مهندسو المقاتلات القاذفة من الوصول بأعمال التفتيشات إلى معدلات زمنية قياسية جديدة.
- التركيز في التدريب على عمليات إعادة التمركز خلال فترة العمليات، وضرورة تنفيذها بدقة وكفاءة حتى تتمكن التشكيلات الجوية، من أداء واجباتها القتالية فور إعادة تمركزها مباشرة.
- الاهتمام بأساليب الإصلاح السريع، وإعداد مجموعات جيدة التدريب على مستوى تكنولوجي عالي الأداء.
- المتابعة اليومية لصلاحية الطائرات، وإزالة المؤثرات على هذه الصلاحية أولًا بأول، مع بذل أقصى جهد لرفع الصلاحية اليومية بالتشكيلات الجوية، والاحتفاظ بنسبة الصلاحية، على الرغم من ساعات الطيران الكبيرة التي تبذل أثناء التدريب للطيارين وإعدادهم للقتال.. بحيث وصلت نسبة الصلاحية إلى مستوى لا يصدق قبل أكتوبر 1973، على الرغم من ضخامة عدد ساعات الطيران.
- بذل مهندسو الطيران جهودًا رائعة أثمرت الخبرة والكفاءة الفنية والتكنولوجية في مجال تطوير الطائرات، اعترف بها الاتحاد السوفيتي وخبراؤه، حتى إنهم أصدروا نشرات فنية بالتعديلات والتطوير الذي أدخله المهندسون المصريون على طائراتهم. وقد تركزت خطط تطوير الطائرات والمعدات فزودنا كفاءة الطائرات القتالية، خصوصًا في المدى. ورفعنا الخصائص الفنية والتكتيكية للطائرات، خصوصًا زيادة الحمولة. وزودنا تسليح الطائرات وقدراتها التدميرية.لقد نجحت هذه التعديلات، وتم تنفيذها بالإمكانيات المحلية بابتكارات مصرية صميمة وابتكار

طرق جديدة لتشغيل محركات الطائرات بينما هي داخل الدُّشم، بتصنيع وحدات الإدارة الثابتة داخل كل دشمة بتكاليف قليلة. لقد ساعد هذا على تحقيق الصلاحية المستمرة لمجموعات الإدارة وسرعة إدارة الطائرات داخل الدشم، الأمر الذي ساعد على توفير الحماية للطائرة داخل الدشمة واختصار الوقت.

- مشاركة مصانع الطائرات المصرية في تصنيع بعض قطع الغيار اللازمة للطائرات، والقيام ببعض التعديلات على محركات الطائرات وتصنيع خزانات الوقود الاحتياطية.
- تنسيق دور الاحتياجات الفنية في تخزين قطع الغيار والمعدات واستخدامها الاستخدام السليم عن طريق انتشار المستودعات على مسافات واسعة، بما يقربها لأماكن تمركز التشكيلات لتحقيق سرعة الإمداد واستمراره، مع تطوير المستودعات من ناحية صيانة المخزون ومراقبته ووضع معدلات الصرف والاستهلاك المناسبة لكل تشكيل.. والتدريب على عمليات دفع الأصناف إلى التشكيلات من الخلف إلى الأمام فور طلبها، وبمعدلات قياسية من حيث الكمية والسرعة.

عندما اندلعت الشرارة في السادس من أكتوبر.. وفي عمليات الحرب تجلت الفاعلية والعرق والجهد الكبير، الذي بذله مهندسو الطيران، من ضباط مهندسين وفنيين وميكانيكيين جويين وأفراد، ومواجهتهم الرائعة لتحديات هذه العمليات طوال اشتعالها بروح قتالية مرتفعة وبكفاءة عالية.

تكاتفت جميع عناصر مهندسي الطيران، بتنظيم دقيق وتعاون رائع، في تقديم الدعم الفني والهندسي لجميع التشكيلات الجوية، وإبداء اليقظة التامة طوال أيام وليالي المعركة، أثناء إصلاح الطائرات عقب الاشتباكات، وإصلاح أعطالها، لتكون جاهزة لطلعاتها صباح اليوم التالي.

وكانت ثمرة جهدهم، أن بلغت نسبة الصلاحية في التشكيلات ما لم تبلغه من قبل، الأمر الذين مكن التشكيلات الجوية من تنفيذ آلاف الطلعات المطلوبة دون توقف طلعة واحدة لعدم الصلاحية، وفي أوقات قياسية عالية.. وتكلل الجهد والعرق، في حرب أكتوبر المجيدة، بمعدلات قياسية تفوق مثيلاتها في المعدلات العالمية، وهذه بعض الأمثلة مؤيدة بالأرقام:

- تم تجهيز الطائرات بالطلعات وإعادة ملئها وتسليحها، في أوقات ومعدلات زمنية قياسية، اعترف بها العالم بأكمله، فقد انخفضت معدلات إعادة الملء والتسليح إلى «6» دقائق فقط؛ أي إلى أقل من نصف الوقت المقرر لذلك أصلًا.

- قـام أفـراد الأطقـم الفنية بتغيير محرك الطائـرة في وقت قياسي، ووصـل إلى أقل من نصف المدة اللازمة لها.
- أمكـن دفع مجموعات للإصلاح السريـع، إلى معظم التشـكيلات الجوية، بعربات سبق تجهيزها وإعدادها كورش صغيرة متنقلة، علاوة على مجموعات للإصلاحات الاحتياطيـة، استـخدمت لرفـع طاقة الإصـلاح بالتشـكيلات التـي احتاجت إلى تعزيزات إضافية.
- نجـاح الدعم الفني والهندسي خلال عمليات إعادة التمركز للتشـكيلات المختلفة التي تمت أثناء حرب أكتوبر بكفاءة عالية، خصوصًا في حالات إعادة التمركز أكثر من مرة أثناء العمليات خلال فترة قصيرة للغاية. وكان مرجع ذلك النجاح إلى دقة تنظيـم المقدمة، للعمل بكفاءة فور وصولها إلى مطار إعادة التمركز، وتوفر المعدات الفنية في مطارات التمركز الجديد.

في الساعة التاسعة إلا ربعًا من صباح 5 يونيو 1967 بدأت الضربة الجوية المكثفة، التي قام بها العدو ضد مطاراتنا، وفي السـاعة التاسعة والربع من صباح اليوم نفسه، كنت معلقًا في الجو مع خمسـة من طياري لواء القاذفات الاسـتراتيجية الثقيلة «ت. يو – 16» في طلعة تدريبيـة، وبعدهـا بخمس دقائق أبلغني برج المراقبة في القاعـدة الجوية التي أقلعنا منها، أن القاعـدة تتعرض للقصف الجـوي من طائرات العدو.. أي أن خمسًـا وثلاثين دقيقة كاملة، قـد انقضت بين ضرب المطارات والقواعد الجوية المتقدمـة، وبين وصول العدو الجوي إلى قاعدة بني سويف الجوية، ليدمر طائرات اللواء القاذف الثقيل، وهي جاثمة على الأرض.

هـذه الدقائق الثمينة، ضاعت في الهواء، دون أن تبـادر غرفة العمليات المركزية في قيادة القـوات الجويـة بالاتصال بنـا، ولو لمجرد إخطارنا بـما حدث، لنحاول صنـع شيء ننقذ به طائراتنا من الدمار.

وكشـفت هذه الواقعة المؤلـة.. عن حقيقة مهمة، كانت ولا تـزال تعتبر من أهم قواعد الحرب الجوية، وهي: أن شـبكة الاتصالات والمسـاعدات الملاحيـة تعتبر العصب الرئيس لعمليـات القوات الجوية في الحرب والسـلم على السـواء، لتحقيق السـيطرة المسـتمرة على التشكيلات الجوية.. وتوفير المواصلات الإشارية المستقرة والمساعدات الملاحية والضوئية،

التي تؤمن الملاحة الجوية للطائرات، في مختلف الظروف الجوية، الأمر الذي دفع قيادة الجو المصرية الجديدة إلى إعادة تنظيم هذه الشبكة على أحدث النظم العالمية.

لقد تطورت الإشارة الجوية، منذ نكسة يونيو 1967 حتى حرب رمضان المجيدة- تطورًا كبيرًا.. برز في المستوى المرتفع للكفاءة القتالية لضباط وأفراد ووحدات الإشارة، وفي المعدات الحديثة المتطورة، وفي التخطيط الجيد.

بعد تطويرها أدت الإشارة الجوية دورًا كبيرًا في نجاح العمليات الجوية خلال معارك أكتوبر المجيدة، بتحقيق مبدأ التعاون بين القوات استراتيجيًا وتعبويًا، وثبات السيطرة على وحدات وتشكيلات القوات الجوية، وحشد قوات ووسائل الإشارة لتقديم الدعم الإشاري لأكثر الاتجاهات أهمية.

وفي الوقت المناسب ساهمت في تحقيق عنصر المفاجأة للعدو، بتطبيق خطة خداع إشاري محكمة، بإرسال إشارات وهمية لتضليل العدو، مع استمرار تداول العمل العادي على وسائل المواصلات المختلفة وبالطريقة النمطية، خلال المرحلة التحضيرية للعمليات، بحيث تم تغيير البيانات اللاسلكية قبل بداية العمليات الحربية بوقت قصير، الأمر الذي لم يمكن العدو من تتبع الترددات الجديدة، التي تم العمل بها على شبكات واتجاهات القوات الجوية.

- ركزت على مواصلات التعاون مع الدفاع الجوي لتحقيق الإنذار المبكر، خصوصًا ضد الطيران المنخفض بجميع القواعد والمطارات الجوية، علاوة على تحقيق مواصلات التعاون بين المقاتلات وقوات الدفاع الجوي الأرضية «صواريخ م/ ط»، التي كانت تتطلب المحافظة على أعلى درجات الاستمرار والثبات في المواصلات، مع ملاحقة التغيير السريع في إعادة تمركزات التشكيلات الجوية المقاتلة، نتيجة للتطور السريع في موقع العمليات.

وفرت وسائل المواصلات الإشارية المختلفة «خطية لاسلكية متعددة القنوات» على درجة عالية من الكفاءة، وتوفير الوسائل التبادلية لها، والمناورة بها عند الحاجة إلى ذلك، مع كل من القيادة العامة والقوات البحرية والجيوش الميدانية، والمناطق العسكرية المختلفة، بغرض توفير الحماية والمعاونة الجوية لها.

- تشغيل الوسائل الإشارية بجميع أنواعها المتيسرة «هاتف - برق - برق كاتب - نقل معلومات».

- تحديد أكثر من قناة لاسلكية للاتصال بالطائرات في الجو، لأغراض التوجيه مع ضمان استمرار الاتصال في جميع الأحوال وتحت ظروف إعاقة العدو اللاسلكية.
- إدخال نظام المكبرات والإنذار الفوري على مستوى القوات المسلحة، وقد تم تصميم هذا النظام ونفذ بالتعاون مع المصانع الحربية المصرية وبعقول وأيدٍ مصرية خالصة.. وثبتت فاعليته في تحقيق السيطرة والإنذار الفوري للوحدات، خلال أشد لحظات القتال ضراوة وعنفًا.
- تأمين جميع معدات الإشارة والمساعدات الملاحية بالتيار الكهربائي، من أكثر من مصدر، عن طريق توفير وحدات توليد قوى متحركة حديثة، تعمل تلقائيًا عند انقطاع التيار الكهربائي، وتعميم استعمالها مع مراكز الإشارة الحساسة، وعلى الأخص في مراكز التوجيه.
- تأمين مواصلات الاستطلاع الجوي، باستخدام أجهزة نقل الصور، بين مراكز القيادة الرئيسة ووحدات الاستطلاع الجوي، لضمان سرعة إرسال نتائج طلعات الاستطلاع في حينها.. هذا بجانب الأجهزة الحديثة لنقل المعلومات.
- التوسع في استخدام وسائل البرق الكاتب المختلفة، ضمانًا لتحقيق أعلى درجات السرية في المواصلات، مع التركيز على البرق الكاتب اللاسلكي والبرق الكاتب المثقب والمرسل الآلي، لضمان سرعة إرسال أكبر عدد من البرقيات في أقل وقت ممكن وإلى عدد كبير من الوحدات.
- إعادة التخطيط والتجهيز الإشاري، لجميع مراكز القيادة والسيطرة بقيادة القوات الجوية وجماعات العمليات الجوية والقواعد والمطارات الجوية.. بالتوصيلات الإشارية الداخلية، بما يحقق سيولة مرور المعلومات داخل هذه المراكز في أقل وقت ممكن وبكفاءة عالية.
- استحداث أجهزة لاسلكية صغيرة، لتكون وسيلة تبادلية للمواصلات الخطية.
- استحداث وسائل مختلفة لإنذار الطائرات داخل الدشم، مثل مكبرات الصوت والأجراس ووسائل الإنذار الضوئية.
- تعميم معدات المساعدات الملاحية والضوئية بجميع القواعد والمطارات الجوية.

- تصميم وتنفيذ دشم خرسانية لتأمين المعدات الإشارية والمساعدات الملاحية ضد القصف الجوي المعادي، بالقواعد والمطارات الجوية.
- تطوير معدات الإشارة والمساعدات الملاحية، بما يوائم المهام المخصصة لها، من حيث تحقيق الحركة الذاتية بالمعدات وإمكانية ربطها ببعضها، وذلك باستحداث مراكز الإشارة ومركز العمليات والتوجيه المتحركة لأول مرة بالقوات الجوية، وقد تم تصميمها بواسطة ضباط مصريين، ونفذت بأيدٍ مصرية وخامات محلية في مصانع مصرية.
- ربط مراكز عمليات القواعد والمطارات، بجميع مواقعها حتى مستوى الاتصال بالدشم، مع الاحتفاظ بخطوط تبادلية لتلافي الأعطال المفاجئة والتوقف أثناء العمليات.
- استحداث استخدام طائرات إعادة الإذاعة لنقل المعلومات إلى الطائرات الصديقة أثناء الطيران المنخفض، لتعذر وصول الموجات ذات التردد العالي جدًّا إلا للطائرات على الارتفاع العالي.

نتيجة لكل ما تم من إنجازات، أشرت إلى بعضها، أستطيع أن أؤكد أن الجهد الكبير، الذي بذلته الإشارة الجوية في التخطيط والتدريب وإعادة تنظيم وحداتها بعد يونيو 1967، قد آتى ثماره في حرب 6 أكتوبر 1973.

فقد تمت الاستفادة من كل ما هو جديد في عالم الاتصالات الإشارية والمساعدات الملاحية على مستوى الدول المتقدمة.. لمواكبة الطائرات الحديثة، المستخدمة في القوات الجوية المصرية.. ولمقابلة تطوير العمليات الفعلية.. ولتطوير الأجهزة الأرضية، لتناسب طبيعة عمل القوات الجوية، من حيث السرعة في تنفيذ وتنوع المهام، وحرية الحركة والمناورة، بتوفير أجهزة إشارية على أقصى درجة من الكفاءة.

وكان التدريب الإشاري هو الهدف الأساسي للوصول إلى أعلى مستوى في الكفاءة القتالية، تدريب على كل مستوى، شمل جميع المجالات؛ لأن القيادة الجديدة كانت تؤمن بأن بذل العرق في التدريب يوفر الدم في المعارك.

وكانت ثمرة التدريب الجيد رفع نسبة الاستكمال والأداء الفني للضباط والأفراد، والمحافظة على المعدات الحديثة في أعلى درجات الصلاحية.

كما تم تدريب الضباط الطيارين والموجهين، بمساهمة الإشارة الجوية، في برنامج تدريب الموجهين على الأعمال القتالية، واستحداث أجهزة حديثة للتدريب على التوجيه «مقلدات رادارية»، دون الحاجة إلى طلعات جوية فعلية باهظة التكاليف، ونتج عن ذلك تدريب أعداد كبيرة من الموجهين الجويين في أقصر وقت ممكن، بما حقق الاعتماد على أي منهم في إدارة عمليات توجيه كاملة، لجميع أنواع الطائرات وتحت مختلف الظروف الجوية.

كما ساهمت أجهزة وتشكيلات الإشارة الجوية، في تدريب الطيارين والملاحين بالتشكيلات الجوية المختلفة، على استخدام الموصلات الإشارية، في ظروف الحرب الحديثة.

ولكي يتحقق لسلاحنا الجوي التناغم المطلوب بين شبكة الاتصالات وعمليات المعاونة الملاحية بذلت القيادة الجوية التي تولت مسئولية إعادة البناء والإعداد للمعركة، أقصى ما في وسعها من خبرة وعلم وجهد، في إعادة التخطيط لجهاز الملاحة الجوية؛ ليكون على مستوى الجهد المطلوب منه عندما تبدأ المعركة.

لقد لعب جهاز الملاحة الجوية بعد تطويره دوره كاملًا سواء قبل المعركة أو في فترة الإعداد لها، وقد كانت أعداد الضباط الملاحين في تزايد مستمر، ليحتل كل منهم مكانه في طائرات القاذفات والمواصلات والهليكوبتر، باعتبارهم العقول الحاسبة لزملائهم الطيارين سواء في طلعات التدريب أو العمليات.. فهم يعملون كمساطرهم الحاسبة، ويوقعون مسارات الطائرات على الخرائط، ويديرون الأجهزة الملاحية لتحديد المكان وحساب الوقت.

شارك جهاز الملاحة الجوية في الدراسات المكثفة التي جرت لتحديد أنسب الأوقات للعمليات، مع تحليل جميع العوامل المؤثرة الأخرى، لملاءمة أحسن استخدام لخصائص طائراتنا، ومدى طيرانها، وقدراتها التدميرية إزاء الأهداف المعادية التي خطط لتدميرها «أو شلها».

واقتضى ذلك نظرات علمية متطورة في تحسين بعض خصائص طائراتنا وأجهزتها، ومن ثم بدت أفكار استخدام بعض المساعدات الملاحية المتطورة وإدخال بعض التعديلات في بعض الطائرات.

كما عمل جهاز الملاحة الجوية على رفع المستوى الملاحي للطيارين، بوسائل مستحدثة، ورفع المستوى الفني للضباط الملاحين بموالاة التدريب والدراسة. ومن أجل ذلك توالى

إصدار البحوث الملاحية، وعقد الفرق الدراسية، بما حقق رفع المستوى الملاحي إلى الحد المطلوب وقت العمليات الفعلية.

وتم إمداد تشكيلاتنا الجوية جميعها، بلوازمها من الأدوات الملاحية اللازمة لكل طيار وكل ملاح، مع وضع الأعداد الهائلة من الخرائط ذات الأنواع المختلفة التي تستلزمها أعمال التخطيط وإعداد الخطة في متناول كل مستويات القادة.

وكانت دقة الإعداد لتفاصيل الطلعات ثمرة من ثمار تعمق الملاحين بالتشكيلات الجوية في دراسة مدى الكشف الراداري الصديق والمعادي، والمدى التكتيكي للطائرات المعادية ومقارنته بمدى طائراتنا، بالإضافة إلى تسليحنا نحن وهم. كانت نتائج هذا التحليل الدقيق، تحديدًا صائبًا لمناطق المظلات التي احتلتها مقاتلاتنا، والوصول السليم لمناطق الإبرار والإسقاط، التي طارت إليها تشكيلات الهليكوبتر وقت العمليات.

- وبسبب نمو الوعي الملاحي لدى طيارينا، أصبح الاطلاع على نشرات الأرصاد الجوية غريزيًّا فيهم قبل الطلعات، لمعرفة كل ما يمكن أن يؤثر على الطيران، ومن ثم فقد كانوا دائمًا على اتصال بالمتنبئين الجويين، الذين يقدمون لهم المشورة في هذا المجال.

عندما حانت ساعة الصفر، وطوال أيام العمليات، كان نجاح طائراتنا في بلوغ أهدافها، مرجعه الدقة في الإعداد الملاحي لهذه الطلعات، ويؤكد هذه الدقة عبور أكثر من مائتي طائرة خط جبهة قناة السويس في لحظة واحدة لتحقيق الضربة الجوية المركزة «صدام». وشارك ملاحو القاذفات والهليكوبتر، والمواصلات في طلعات عمليات القصف، والإبرار، والإسقاط، والإمداد، فكانوا خير مثال لدقة الأداء ودقة الحساب.

ووقف ملاحو تشكيلات المقاتلات والمقاتلات القاذفة بجانب القادة، يشاركونهم وضع الخطط، ومتابعة القيام بالحسابات اللازمة للطلعات. ولقد استبسل من الملاحين كثيرون، كانوا مثالًا للرجولة والفداء، وسقط منهم شهداء شاركوا إخوانهم الطيارين شرف التضحية بالنفس من أجل مصر، ومن أجل الشرف العربي.

ولعب الملاحون والمراقبون أروع دور في دقة توجيه مقاتلاتنا لاعتراض طائرات الأعداء، وشهد بعض الأسرى من طياري الأعداء، بأنهم كانوا في دهشة من مستوى التوجيه الملاحي الدقيق، الذي لم يتح الفرصة لإفلات طائراتهم المغيرة، بعكس ما كان قادة الطيران الإسرائيلي يوهمون به طياريهم، من أنهم سيتعاملون مع إنسان مصري متخلف

حضاريًـا، وعاجـز عـن اسـتيعاب الأجهزة الحديثـة، وقاصر عـن التعامل مـع تكنولوجيا العـصر.. وبعكـس أكاذيـب العـدو، فقد نجـح ملاحونـا في اسـتخدام أسـاليب تكتيكية مستحدثة، للتغلب على الشوشرة والتداخل المعادي منذ الدقائق الأولى للمعركة من ناحية كما نجح طيارونا في تحقيق التعاون في شـكل تناغم جوي مع ملاحي التوجيه بعد التدريب المكثف الذي سبق المعركة بكثير.

خلـف مراكز السـيطرة والقيـادة، وخلف أجهـزة الاتصالات في كل بـرج مراقبة، كان هناك مشـهد لا ينسـى، حيـث يقبع أبطال آخرون.. أجسـامهم في العـراء، وأرواحهم على أكفهم، ونظراتهم معلقة دائمًا بالسـماء... يراقبون تحرك الطائرات ويتابعونها في الإقلاع وفي الهبوط، أولئك هم المراقبون الجويون الذين لم يتخلوا عن أماكنهم بجوار الممرات، والذين تساقطت بجوارهم مئات القنابل، فلم ينثنوا عن أداء رسالتهم.

في مواجهة عدو لا يتورع عن ارتكاب أي عمل يضمن به تحقيق أهدافه التوسـعية مهما كان هـذا العمـل خارجًا على الأصـول والقواعد المتعارف عليهـا في المجتمع الدولي، حتى بـين الخصـوم المتحاربين لا بد من توقع أي شيء والاسـتعداد لأي مفاجـأة؛ حتى لو كانت اسـتعمال الأسلحة المحرمة دوليًّا: كبث الميكروبات واسـتعمال قنابل الغاز بأنواعها إلى غير ذلك من وسائل الحرب البيولوجية والكيميائية.

وكانـت لدينـا معرفة بالطبيعـة العدوانية لإسرائيل عدوانًا لا تحـده ضوابط من أي نوع أخلاقي أو دولي فقد عنيت قيادة الجو المصرية الجديدة، بالاسـتعداد لهذا النوع المسـتحدث مـن الحرب بعد أن طفـرت الحرب الكيميائية بشـكل سريع، خصوصًا بدايـة إعادة تطوير القـوات الجويـة المصريـة، ولهـذا فقد تـم تنظيم جهـاز الحـرب الكيميائية، بما يتناسـب مع الواجبات المكلف بها، لتحقيق التأمين الكيميائي للقواعد والمطارات والتشكيلات الجوية، في حالة قيام العدو باستخدام أسلحة التدمير الشامل أثناء العمليات.

ولم يغفل قادة القوات الجوية المصرية، عن حساب أي احتمال، لأي موقف معاد طارئ، قد يؤثر على سـير العمليات، مثل اسـتخدام أسـلحة التدمير الشـامل، التي كان من المتوقع التجـاء العـدو إلى اسـتخدامها، خصوصًـا أثنـاء مواقف اليأس والفشـل التي مـر بها أثناء المعركة.

وعندما حانت ساعة الصفر، في حرب أكتوبر المجيدة.. كان الإعداد والاستعداد على أتم وجه بالنسبة لعناصر الحرب الكيميائية، وتم تجهيزها لتحقيق الأهداف التالية:

تحقيق وجود نظام كامل في القواعد والمطارات الجوية، يكفل القيام بالاستطلاع الكيميائي والإشعاعي، والتطهير الكيميائي والإشعاعي والبيولوجي، وتجهيز معامل وورش لسرعة القيام بعمليات الكشف والتحاليل والإصلاح للأصناف الكيميائية.

تطوير أجهزة الاستطلاع والتطهير باستخدام أجهزة أكثر استحداثًا، بما يحقق الإنذار الآلي عند وجود التلوث الإشعاعي والكيميائي، كما تم استخدام معدات خفيفة لسرعة القيام بالتطهير الكيميائي، واستغلت المعدات المصنعة محليًا في إجراء عمليات التطهير.

كما حدث تطور في نوعية الأفراد المستخدمين لهذه الأجهزة، بإدخال ذوي المؤهلات العليا في صفوف وحدات الحرب الكيميائية.

تم تزويد جميع الضباط والأفراد بالأقنعة الواقية ومهمات الوقاية الفردية، مع توفير احتياطي من هذه الأصناف بجميع قواعد ومطارات القوات الجوية.

ارتفع الوعي الكيميائي بين الأفراد بتعريفهم بالأسلحة الكيماوية التي لدى العدو وطرق الوقاية منها.

تم التخطيط للإنذار الكيميائي طبقًا للأسلوب المتوقع لاستخدام العدو للغازات، وبما يوفر وقاية سريعة ومضمونة، من أهم هجوم مفاجئ بالأسلحة الكيميائية أو البيولوجية.

توجيه الأفراد بأسلوب رفع درجات الاستعداد الكيميائي، وتحديد مهام الوحدات الجوية والوحدات الكيميائية في الحالات المختلفة من وضع درجات الاستعداد، وأثناء وبعد الغارة الجوية، التي يحتمل أن تتضمن هجومًا كيميائيًا أو بيولوجيًا.

- تم تخطيط التدريب الكيميائي بما يحقق رفع مستوى الوحدات الجوية، للقيام بعملها تحت ظروف استخدام العدو لأسلحة التدمير الشامل.
- كان التدريب يتم بصورة واقعية، باستخدام البيانات العملية التي تمثل جو المعركة الفعلية، وتم تشكيل أطقم بيانات عملية، قامت بإجراء بيانات الوقاية من النابالم والمواد الحارقة عدة مرات بالقواعد والمطارات الجوية، وكان حماس الأفراد شديدًا في قيامهم بالتجارب العملية التي أكسبت أفراد الوحدات الثقة، وأدت إلى رفع

روحهم المعنوية، في إمكان وقاية أنفسهم ومعداتهم من حرائق النابالم، وغيرها من أسلحة الحرب الكيميائية والبيولوجية التي يمكن أن يفاجئهم بها العدو.

تم تنفيذ بيانات عملية بالقواعد والمطارات والتشكيلات الجوية لتدريب الأفراد على العمل المستمر وهم يرتدون الأقنعة الواقية، لفترات متزايدة بالساعات، في الظروف الجوية المختلفة.. كما كان يتم تدريب الأفراد على استخدام غازات تدريب لتمثيل جو المعركة، ولتدريب الأفراد على التصرف السليم في حالة وجود غازات حربية.. كما تم تدريب الأفراد على معالجة ملابسهم بمادة كيميائية لتوفير الوقاية من النابالم.

إن الذي أستطيع أن أؤكده في مجال التقييم العلمي لملحمة إعادة البناء التي تمت في سلاح الجو المصري وأقرره كطيار مقاتل، وخبير بأسس القتال الجوي الحديث أن العقيدة القتالية التي سيطرت على الجميع قادة وأفرادًا هي «حتمية النصر» وقطع الطريق على العدو الجوي للإفلات من المصير الذي يجب أن يلقاه عندما تشتعل نيران المعارك.

ومن هذا المنطلق الحاسم اتجهت القوات الجوية إلى إدخال كل ما هو حديث في مجال الحرب الجوية من أساليب القتال ونظرياته المستحدثة، وتدريب الرجال على كل ما هو مستحدث من عتاد الحرب الجوية وسلاحها وزيادة في إحكام الخطة التي تستهدف «تحقيق النصر»، باعتباره النتيجة الوحيدة المسموح بها، لم تغفل قواتنا الجوية ما كان سائدًا من وسائل التعويق للعدو الجوي، حتى لو كان هذا الأسلوب تقليديًّا، مع العناية بتطوير هذه الأساليب التقليدية، وإعادتها للعمل بفعالية مؤثرة.

ويحضرني في هذا المجال مثال محدد هو العودة إلى استخدام «البالونات» في مجال الوسائل المضادة، والتعويق للعدو الجوي.فمن المعروف أن البالونات كانت وسيلة سلبية مضادة للطيران المنخفض في الحرب العالمية الثانية، ثم تخلت عنها كل جيوش العالم على أنها سلاح غير فعال.

ولكن مصر استحدثت إعادة استخدام هذا السلاح من جديد.. رغم ما كان يقال عن بدائيته، ومن ثم انتشرت وحدات البالونات حول المطارات والقواعد الجوية، ودُرِّب الأفراد اللازمون على نفخها ورفعها في أماكن محددة تسمح لطائراتنا بالهبوط على الممرات، وتعوق طائرات الأعداء من الاقتراب على ارتفاعات منخفضة.

ولو قارنا ثمن كل البالونات التي استخدمت في كل المطارات لوجدناها لا تساوي

ثمن طائرة واحدة، ولكنها رغمًا من ذلك لعبت دورًا فعالًا في غارات حرب أكتوبر، وكم من طائرات للأعداء تساقطت لاصطدامها بأسلاك بالوناتنا التي تم توزيعها بمهارة فائقة، على هيئة شبكة واسعة الانتشار، كونت مظلة واقية لمطاراتنا، ومصيدة هلاك محقق لطائرات العدو الجوي التي حاولت اختراق هذه الشبكة المحكمة من البالونات.

استبسل كثير من أفراد وحدات البالونات أثناء الغارات، فقد كانت تكتيكات قادة المطارات أن ترفع البالونات وتخفض في مناورة حسب خطة محكمة. واستحدثت القوات الجوية المصرية استخدامات أخرى للبالونات إلى جانب الدفاع السلبي، فاستخدمت لإعادة الإذاعة، وللاستطلاع، وتحقيق الاتصالات الإشارية، وغيرها من الاستخدامات البالغة الحداثة في مجال الحرب الجوية التي تحتفظ بتفاصيلها في إطار السرية.

هذا الأسلوب الذي كانت قد هجرته المدارس العسكرية الحديثة، أثبت أن المقاتل الجوي المصري كان عازمًا على تحقيق النصر على عدوه، بأي سلاح وبأي أسلوب، وأن هذا المقاتل – الذي اتهموه بالعجز والتخلف الحضاري والجمود الفكري أثبت مرونة رائعة، سواء في التعامل مع الأسلحة والوسائل الحديثة، أو في تطوير الوسائل القديمة، وإخضاعها لمقتنيات الحرب الجوية الحديثة، بشكل مبتكر، جعل من سلاح قديم كسلاح «البالونات» وسيلة جهنمية مبتكرة، نجحت في القضاء على أحدث أنواع الطائرات التي كان يستخدمها العدو الجوي في عمليات 6 أكتوبر.

وأثناء حرب 1967، كانت جميع البرقيات الشفوية، المتبادلة في القوات المسلحة، تعتبر مكشوفة مسبقًا لدى العدو، بفضل ما لديه من أجهزة إلكترونية تستطيع أن تكسر الشفرة، فتكشف أولًا بأول النوايا والخطط العسكرية للقوات المصرية، وما ينشأ عن هذا من موقف خطير يجعل العدو قادرًا على مواجهة أي تحرك مصري في الجبهة، حتى قبل أن يبدأ؛ لأنه يعرف تفاصيله وقت صدور الأمر به.

وعندما بدأت القوات الجوية المصرية في إعادة تنظيمها، وإقامة صرحها مرة أخرى، شكلت وحدات أمن السيطرة الجوية، للقضاء على هذا الموقف الشاذ الذي استفاد منه العدو جيدًا في عمليات 5 يونيو.

وبدأت السيطرة بإلغاء جميع طرق الشفرة التي كانت مستعملة من قبل، وتم تزويد مكاتب الشفرة بالقواعد والمطارات الجوية، بمعدات الشفرة الإلكترونية الحديثة، كما تم

تدريب الأفراد اللازمين لتشغيلها للوصول إلى معدلات الأداء المقررة، وذلك بإجراء المشروعات التدريبية المستمرة، لرفع كفاءة الأفراد ولتلافي أي ملاحظات مستقبلًا.

وتم تكوين قاموس شفرة تخصص للقوات الجوية، ليوفر السرعة لعمال الشفرة في عملية تشفير أو حل البرقيات. وكان في هذا القاموس العون الأكبر في سرعة العمل في حرب أكتوبر 1973. وكان للتخطيط والتنظيم الجيد لأعمال الشفرة بالقوات الجوية أكبر الأثر في إمكان تبادل المعلومات، ذات درجات السرية العالية، في الوقت المناسب وباستمرار، وتحت جميع الظروف.

وفي حرب أكتوبر 1973، كان لأمن الوثائق دور فعال؛ إذ كان لدرجة السرية التامة التي فرضت على التخطيط للعمليات، وتحديد الضباط المشتركين في التخطيط وعدم السماح لغيرهم بالاشتراك فيه، وإخلاء الوثائق السرية غير المعمول بها في المستويات التعبوية طبقًا لمدد الحفظ المحددة - كان لكل ذلك الفضل في أن تكتسب التشكيلات والوحدات الجوية حرية الحركة.. كما حقق ضمان عدم تسرب أو فقد أي وثيقة أثناء التحركات أو إعادة التمركز أو العمليات على عكس ما حدث أثناء حرب 1967.

واستطاع أمن السيطرة أن يكفل لأمن المواصلات الدور الفعال في الرقابة على المواصلات الإشارية بأنواعها، الأمر الذي أدى إلى حرمان العدو من الاستفادة من عملية التنصت، وإلى عدم حصوله على أي معلومات عن قواتنا الجوية.

لقد خرجت القوات الجوية مجهدة بسبب الضربة الجوية المفاجئة في يونيو 1967، ولكن الوقت لم يمضِ طويلًا، حتى أدارت العناصر الإدارية بالقوات الجوية ظهرها للماضي، ووقفت في إصرار تتطلع إلى الأمام مصممة على تخطي النكسة بكل أبعادها والعمل من أجل إحراز النصر.

وعلى الرغم من قلة الإمكانات في ذلك الوقت، وقسوة الظروف التي تراكمت من آثار النكسة، فقد أمكن تحقيق الهدف الأسمى، فكما خرجت القوات الجوية عقب نكسة 1967 مجهدة، فإنها دخلت عمليات 6 أكتوبر المجيدة شامخة في قوتها الإدارية الشاملة بالقدرة والكفاءة. وثبت للجميع أن العناصر الإدارية للقوات الجوية المصرية تحمل في روحها القوة على تخطي كل المحن.

مرة جديدة أعود إلى مونتجمري الذي قال: «إن مبدأ الشئون الإدارية هو مبدأ أساسي

مـن مبادئ الحـرب الحديثة، التي زادت مطالبهـا المادية والإدارية، بتعدد وتطور أسـلحتها واتساع مسرح العمليات».

ومـن هـذا المفهوم لـلإدارة، شرعنا في الإعـداد والتجهيز الإداري للعمليـات المتوقعة، بحيث تمت الإنجازات التالية:

إعادة تنظيم الجهاز الإداري بالقوات الجوية، سواء على مستوى قيادتها، أو على مستوى القواعـد والمطارات الجوية، على أسـاس التماثل مع أجهزة القوات المسـلحة الإدارية، وقد حقق هذا التنظيم النجاح التام خلال العمليات.

- تمكـن الجهاز الإداري بالقوات الجوية من تأمين وإعاشـة القوات الجوية، بحجمها الـذي وصلتـه في أكتوبر 1973، مـن كل النواحـي الإدارية.. كالإيـواء والمهمات والتعيينيات والنقل والخدمات الطبية، وقد حلت مشكلات عديدة بالنسبة للإيواء بالاسـتفادة مـن إمكانيات أجهـزة الدولة الأخرى التي تعاونت بشـكل واضح في تقديم ما لديها من إمكانيات.
- رفع مسـتوى الـكادرات الإدارية، ودعمها بـكادرات متخصصـة إداريًّا، مع بذل الجهد الكبير في التأهيل الذي سار جنبًا إلى جنب مع التدريب.
- اسـتحداث أسـلوب الأنسـاق الإدارية المتعددة، تكتيكية وتعبوية واسـتراتيجية.. وقد تم تحقيق ذلك بخلق الأنسـاق التعبويـة، بما تتطلبه من توفير العناصر الإدارية ومراكز السـيطرة الإدارية التعبوية، وإيجاد عناصر إدارية تكتيكية ذات خفة وقدرة عـلى الحركـة العاليـة، وتمركزت في أوضـاع إدارية تعبوية سـليمة عـلى جميع أرجاء الجمهورية.
- وقد تم إعداد مراكز السيطرة الإدارية بالقواعد والمطارات الجوية، وعلى الاتجاهات التعبويـة وعلى مسـتوى قيـادة القوات الجوية، سـواء مـن ناحيـة التجهيز الهندسي أو المواصـلات الإشـارية أو أسـلوب العمـل فيها.. حتى ارتفع مسـتواها بشـكل ملحوظ. وقد عاونت أجهزة قيادة القوات الجوية في ذلك بدرجة كبيرة.

ولمقابلـة متطلبـات عمليـات القوات الجويـة، وزيادة حجـم التشـكيلات الجوية، فقد اقتضى الأمر إنشاء واستكمال قواعد جوية ومطارات جديدة بالإضافة إلى استكمال القواعد

والمطـارات القديمـة، وقد اسـتلزم ذلـك كثيرًا من الجهـد الإداري والهنـدسي في التخطيط والتصميم والتنفيذ، والإشراف على إبقاء المنشـآت والمرافـق ومصادر القوى الكهربائية في حالة صالحة دائمًا.

- تـم التوسـع في توفـير المسـاحات اللازمـة للاحتفـاظ باحتياطـي المخـزون مـن الاحتياجات الرئيسـة، لتهيئة أحسـن ظـروف للتخزين لمدد طويلة وذلك بإنشـاء سعات وقود على المستوى التكتيكي والتعبوي علاوة على الموجود من قبل، بجانب الاستفادة من مستودعات الدولة إذا لزم الأمر.

كما تم ربط بعض هذه السعات بخطوط أنابيب، كما أنشئت مخازن لقطع الغيار وأخرى للذخائر بالإضافة إلى ما هو موجود منها فعلًا.

- تـم توفير الاحتياجات الرئيسـة «وقـود - ذخيرة - تعيينات - مهـمات...» لتكفي مطالب ثلاث عمليات جوية كبيرة كحد أدنى.. هذا بجانب توفير مطالب التدريب من هذه الاحتياجات.
- وجهت العناية إلى الناحية الطبية، وبالأخص للمحافظة على اللياقة البدنية للطيارين بأن يتوافر لدى القوات الجوية الآلاف من الأَسِرَّة بالقواعد والمطارات، علاوة على الموجود منها بالمستشفى الجوي العام ومستشفيات التعبئة.
- توفير جميع مستلزمات التعبئة لجميع الأفراد الذين عبئوا لصالح القوات الجوية، في جميع مراحل وعمليات التعبئة، وبكفاءة عالية المستوى.
- تم الأخذ بمبدأ التطوير «حيث تم بالتنسيق مع أجهزة الدولة إنتاج وقود الطائرات محليًّا بالكميات المناسبة» كما تم الأخذ بمبدأ التصنيع «بالتنسيق مع المصانع الحربية تم تصنيع أنواع مختلفة من القنابل والذخائر الجوية».. كما أدخلت التحسينات على عربات الإسعاف وتعيينات الطوارئ للطيارين.

وتنشـب المعركـة- معركة 6 أكتوبر- وتهـب القوات الجوية المصرية النصر لسـائر أفرع القوات المسلحة خاصة، ولمصر والعرب عامة.

وقـد تركـز جانب مهم من النجاح الكبير للقوات الجويـة في معارك 6 أكتوبر، في تحقيق

المهـام المطلوبة من الشئون الإدارية، بالإعـداد والتجهيز الجيد قبل العمليات، وبمسـتوى تدريب الأفراد، وإحكام السيطرة الإدارية خلال كل لحظة من لحظات العمليات.

وسـاهم في هذا النجاح أسـلوب جمع المعلومات الدقيقة عن الموقف الإداري أولًا بأول في نهايـة كل يـوم قتـال، وتحليل هذا الموقف بسرعـة، واتخاذ القرارات السـليمة، على ضوء مهـام اليوم التالي للتشـكيلات الجوية، كما كان التحليل لاتجاهـات العدو الجوي في قصف المطارات – له آثاره في تجنب الكثير من الخسائر.

- كان التخطيـط للعمليـات مـن الناحيـة الإدارية سـليمًا من كل الوجـوه، ولم يخرج التنفيذ عن التخطيط الموضوع. وقد سـمحت مرونـة الخطة في مقابلة مناورة إعادة تمركز الأسراب الجوية خلال المعركة بلا خلل في سرعة الإمداد والإعاشة والإيواء في أماكن التمركز الجديدة.
- تم اسـتخدام كتائب الخدمـة الفنية في إدارة وتشـغيل مهابط الطائـرات الهليكوبتر الأمامية.. ويُعدُّ هذا الاسـتخدام جديـداً في نوعه، وإضافة مصرية خالصة في مجال الحرب الجوية.
- كما تم تقديم العون الإداري لأسراب الدعم الجديدة، وهُيئت لها أحسن الظروف، وعلى الأخص بالنسبة لأنواع التعيينات المناسبة.
- وكان للتنفيـذ الدقيـق المخطـط للانتشـار والوقايـة الأثر الكبير في انخفاض نسـبة الخسـائر في العمليـات «لم تتعـد هذه النسـبة 0.6 ٪ مـن مجموع القـوات الجوية». وقـد تم إخـلاء حالات الجرحى مـن الطياريـن والأطقم الطائرة إلى المستشـفيات المخصصة، خلال المدد المسـموح بها، ولم تحدث أي وفاة بسـبب التقصير في تقديم العلاج المؤقت السريع.
- وفي الوقت نفسـه لم تتأثر مرافق أي قاعدة جوية أو مطار بأي قصف جوي للعدو؛ إذ كان أفراد الأشغال العسكرية يقومون بواجباتهم بمجهود كبير، وبشجاعة فائقة في إصـلاح أعطـال أي مرفق بمهارة تامة دون خوف من محـاولات قصف العدو، أو القنابل الزمنية.
- وفي الميـدان كان الإداريـون عـلى أهبة الاسـتعداد لخدمة التشـكيلات الجوية، وقد

شاعت فيهم روح التضحية، فخرجوا في القواعد والمطارات، يحملون أرواحهم على أكفهم، مجاهدين تتوق قلوبهم إلى الشهادة؛ لتحقيق عناصر الخدمات الإدارية للطائرة والطيارين، فلم يهنوا ولم يضعفوا، ورفعوا شأن قواتهم الجوية.

كما تطورت «الشئون الإدارية» - بالقوات الجوية - بعد 5 يونيو، ووجهت العناية لإعادة تنظيمها باعتبارها من المحاور الأساسية على طريق النصر، فقد طفرت الإدارة المالية أيضًا، في أعقاب حرب 5 يونيو، بالتخلص من مخلفات وسلبيات عمليات 1967، ووضع خطة جديدة تمامًا تقوم على أحدث المناهج العلمية في التخطيط المالي العسكري.

ومن التخطيط الجديد بدأ إعداد القواعد والمطارات الجوية للجولة الجديدة، بتدبير الاعتمادات اللازمة، وإجراء التعاقدات الخاصة بإنشاء المطارات الجديدة، وإصلاح الموجود منها، وإقامة الدشم والتحصينات، ومختلف الإنشاءات الفنية والإدارية التي تحتاجها الوحدات الجوية.

ورغبة في العمل على تفرغ أفراد القوات الجوية للواجبات الملقاة على عاتقهم، ورفعًا لمعنوياتهم واستقرارهم النفسي أثناء العمليات، فقد نفذت خطة إنشاء المكاتب المالية الحديثة في القواعد والمطارات الجوية، والوحدات الفنية والإدارية، لحل المشكلات المالية للأفراد، وضمانًا لتوصيل المستحقات إلى ذويهم. وقد تم تدريب هذه المكاتب على تطبيق نظام «الصرف الميداني»، الذي بموجبه يوكل المقاتل أحد أقاربه بصرف راتبه بالكامل أو جزء منه، من أقرب فرع بنك لسكنه؛ وذلك حتى لا تتأثر معيشة عائلات المقاتلين. وقد طبق هذا النظام بكل نجاح أثناء عمليات حرب أكتوبر المجيدة.

لم تكن كل التفاصيل السابقة مسلية كما توقعت ولكنها قصة موثقة للطريقة التي تحقق بها النصر.. وفي الصفحات السابقة مررت سريعًا على المحاور التي تحركت عليها قواتنا الجوية بسرعة هائلة لتصل إلى تحقيق الهدف الكبير - ولم يبق أمامنا إلا الحديث عن ضربة الانتقام المصرية «صدام» التي أشعلت بها قواتنا الجوية معارك أكتوبر المجيدة، وانتقم بها الطيار المصري المقاتل لشرفه العسكري، كمقاتل شجاع ومتمكن على أعلى مستوى من فنون الحرب الجوية الحديثة.

”... دخـــل ســلاحنا الجوي معركة أكتوبـــر 1973، مُحمَّــلًا بــأوزار ضربتين جويتين ـ 1956 و1967 ـ خرج على أثرها من المعركة قبـــل أن تتاح له فرصة لإثبات وجـــوده وقدراتـــه... وإذا كان الدواء من جنس الداء، فإن اســترداد سلاحنا الجوي لثأره من العدو، ودفاعه عن شـــرفه العســـكري، يجب أن يبدأ من نقطة محددة لا بديل لها... الرد على العدو بنفس اللغة.. “

الموضوعية.. وخداع النفس

ترددت طويلًا، عندما تهيأت لكتابة هذا الجزء الخاص من الكتاب تحديدًا، على كثرة ما به من تفاصيل. مبعث حيرتي وترددي.. هو اختيار المدخل الذي يقدم لأول مرة صورة صادقة وأمينة، لما قام به سلاح الطيران المصري في الساعة «205 الثانية وخمس دقائق» من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973، عندما نفَّذ طيارونا المقاتلون الضربة الجوية المصرية المركزة «صِدام» ضد أهداف العدو، فحققوا بدقتهم في تنفيذها، وبانخفاض نسبة الخسائر بين طائراتهم، وارتفاع نسبة إصابتهم للأهداف المعادية، مستويات قياسية جديدة لم يسبقهم إليها أحد في تاريخ الحروب الجوية .

في هذه الحرب أثبت مقاتلونا بنجاحهم الساحق ظهر ذلك اليوم المجيد أن الطيار المصري المقاتل ليس قادرًا على الانتقام من عدوه الطيار الإسرائيلي فحسب، ولكنه قادر على تحقيق انتقامه الجوي، بأعلى قدر من الكفاءة في التخطيط، والإحكام في التنفيذ، بمستوى يجعل من ضرباته الانتقامية مثالًا يحتذى به، وقدرة يضرب بها المثل وتجذب اهتمام كبار المحللين وخبراء الحرب الجوية في معاهد الدراسات الاستراتيجية العالمية.

وقفت حائرًا أمام المدخل الذي يقودني إلى الحديث المفصل عن الضربة المصرية

«صـدام».. مقدماتهـا وتحليلها العلمـي ونتائجها ودلالتها بالنسـبة لنـا كمصريين، وللأمة العربية جمعاء، وللعدو في النهاية.

ولم يكـن مبعـث حـيرتي هو تشـعب الموضـوع، ولا كثـرة التفاصيـل المحيطـة بالضربة «صِدام»، ولكن مبعثها، هو ذلك الموقف الفكري الشـاذ، الذي وقفه العدو الإسرائيلي من المقاتل المصري بالذات، بصورة تجاوزت الحدود التي يمكن أن يصل إليها عدو في هجومه النفسي والدعائي على مقاتلي خصمه، بحيث ينحدر إلى مستوى لا أخلاقي، أقل ما يوصف به أنه يدل على انحراف واضح في مكونات الفكر العسكري الإسرائيلي بصفة خاصة.

لهـذا كان لا بـد مـن كلمة توضـح أسرار هذا الموقف الفكري الشـاذ، الـذي تعرض له المقاتـل المـصري عمومـًا والمقاتل الجـوي خصوصًـا.. وكلمتي هنـا في بدايـة الحديث عن «صـدام» ليسـت دفاعـًا عن المقاتـل المصري، لأن هـذا المقاتل الشـجاع قدَّم للعـالم كله في حـرب أكتوبر، دفاعًا عمليًّا عن شرفه وكفاءته وقدراتـه كمقاتل يُشرِّف الأمة التي أنجبته، ولكـن كلمتي هذه هي أولًا وأخيرًا دفاع عن الحقيقة التي ظلمها العدو، وإنصاف للتاريخ الـذي تجنىَّ عليه كل مـا كتبه دعاة إسرائيل ومفكروها عن «المقاتل المصري» بالذات، وعن الإنسان المصري عمومًا.

وإذا كانت هذه الحملة الضارية التي تشنها دعايات العدو ضدنا، قد بلغت قمة كثافتها وتركيزها، عقب النصر السريع الذي حققته إسرائيل في معارك يونيو 1967، فإن الدارس المحقق الذي يتتبع أصول هذه الكراهية العميقة التي يكنها الفكر الصهيوني لمصر والمصريين ترجـع إلى عهود موغلة في القدم ولكنها اسـتمرت عبر عصـور التاريخ المختلفة، ابتداء من «التلمود» و«المشـناة» و«المدراش» وغيرها من أمهات المصادر العبرانية القديمة وانتهاء بما كتبه المحدثون من فلاسفة ومفكري الصهيونية الجديدة.

لقـد اقتنع المقاتـل الإسرائيلي الوريث المعـاصر للفكر المتحجر بكل عقـده القديمة بأنه إنسـان متفـوق، يواجه خصـمًا مصريًّا متخلفًا، ولا جلد له على الحـرب، ولا قدرة لديه على اسـتيعاب فنون القتال الحديث. وبسـبب الدعاية الإسرائيليـة اقتنعت القوى الكبرى ومن ورائهـا الـرأي العـام العالمي بأنـه لا فائدة مـن مجرد التعاطـف مع العـرب، لأن أي محاولة لمسـاندتهم أو التعاطف معهم، لن تجدي نفعًا، أمام ضراوة المقاتل الإسرائيلي المسـلح بكل ما هو جديد من فنون الحرب وأدواتها.

وقد أسهمت هذه الحملة النفسية الضارية في غرس صورة ظالمة، وباطلة من أساسها، في نفس الإنسان العربي عمومًا، تدفع به إلى فقدان الثقة في نفسه، بعد أن يفقد الثقة في المقاتل المصري طليعة القوة العسكرية العربية بحيث ينتهي الأمر بالشعب العربي كله إلى الاستسلام الكامل لمشيئة العسكرية الإسرائيلية، والقبول بكل ما تفرضه على الإنسان العربي من مذلة وهوان.

الأمر اللافت والمثير للسخرية حقًّا، أن هذه الفلسفة غير الأخلاقية، قد فشلت بالنسبة للرأي العام العالمي، كما فشلت فشلًا ذريعًا بالنسبة للإنسان العربي عامة والإنسان المصري بصفة خاصة، في الوقت الذي نجحت فيه هذه الفلسفة بالنسبة للوجود الإسرائيلي. بحيث تردت به في منزلق الوهم، وأوقعته في مصيدة أحلام كاذبة، ومعايشة الخيال المريض، الذي استيقظ منه الإسرائيلي فزعًا، عندما سقطت السماء فوق إسرائيل يوم 6 أكتوبر.

لقد اعترف بذلك «إبراهام كاتزر» رئيس دولة إسرائيل في الحديث الذي وجهه لمواطنيه يوم 24 أكتوبر عام 1973 وكشف به عن بشاعة الأكذوبة التي عاشت إسرائيل في ظلها سنوات، كما فضح به دون قصد، بشاعة الموقف غير الأخلاقي الذي وقفه الفكر الإسرائيلي من العرب عامة، ومن مصر بصفة خاصة، عندما قال بالنص « لقد كنا نعيش فيما بين عامي 1967 و1973، في نشوة لم تكن الظروف تبررها».

وقال: «هذه الحالة النفسية هي المسئولة عن الأخطاء التي حدثت قبل حرب أكتوبر، وفي الأيام الأولى للحرب، لأنها كانت «قد تفشت» في كل المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية، وأحدثت فيها مواطن ضعف خطيرة يجب على الإسرائيليين جميعًا أن يتحملوا مسئوليتها، وعلينا جميعًا أن نتعلم من هذه الحرب الفظيعة؛ أن نكون أكثر تواضعًا».

خطبة «إبراهام كاتزر» تقطع بوجود أمرين محددين:

الأول: أن المجتمع الإسرائيلي قبل 6 أكتوبر 1973 كان يعيش في وهم كبير، وعالم خيالي لا صلة له بالواقع.

الثاني: أن هذا الوهم الذي كان يسيطر على المجتمع الإسرائيلي، عزل هذا المجتمع عن الواقع الذي يمثله حجم إسرائيل وقدراتها الحقيقية، كما عزله عن الواقع العربي الذي كان يتحرك بسرعة هائلة لتصحيح أخطائه والاستفادة من دروس التجربة. وهذا الوهم نفسه

هو الذي أدى إلى وقوع الأخطاء القاتلة التي تردى فيها المجتمع الإسرائيلي كله، وانتهى به إلى ما حدث له في 6 أكتوبر.

إن ما حدث في 6 أكتوبر، كان أقوى من كل ما تملكه العسكرية الإسرائيلية من طاقة الكذب والخداع وتضليل الجميع.. وبالتحليل العلمي الدقيق للضربة المصرية «صِدام» – بكل ما نصر عليه من حياد وموضوعية – ثم مقارنتها بعملية «مردخاي هود» المسماة «طوق الحمامة» التي نفذها طيارو إسرائيل ضدنا في 5 يونيو.. سيعرف المواطن المصري والإنسان العربي كم تجنت الدعاية الإسرائيلية عليه وعلى مقاتليه الشجعان من طياري سلاح الجو المصري.

كما سيكتشف الرأي العام العالمي بشاعة الجريمة الأخلاقية التي ارتكبتها العسكرية الإسرائيلية في حق التاريخ الحضاري للإنسان، عندما قامت بأكبر عملية تضليل في التاريخ الحديث، تجاوزت بها كل الحدود المسموح بها في وسائل الحرب الدعائية.

وأخيرًا.. سيكتشف الإسرائيلي فظاعة الجريمة التي ارتكبت في حقه، عندما صورت له أبواق دعايته أنه كائن متفوق حضاريًّا وممتاز عسكريًّا، يواجه خصمًا متخلفًا وعاجزًا فإذا به يصعق في السادس من أكتوبر 1973 من هول الضربات الساحقة، التي كالها هذا الخصم العملاق.

لن أنسى ما حييت، هذه العبارات التي سمعتها بدمي وأعصابي أكثر مما سمعتها بأذني في إحدى ليالي شهر أكتوبر عام 1972.

كان الصمت الذي يخيم علينا جميعًا، مهيبًا، أمام الموقف الذي كنا نواجهه في تلك الليلة، وأمام الصوت القوي النبرات، الذي أحسست ليلتها أنه يعبر عما في نفسي، ونفس بني وطني جميعًا، كان يقول:

«إن شاء الله ربنا يوفقكم.. زي ما قلت لكم.. بأعيد كلامي.. لحظات قدر واتحطينا أمام التحدي.. صعب.. فيه تضحيات وآلام ودم.. ولكن يعلم الله.. إنه مفيش أمامنا حل غيره، يعني حاولت بكل ما أستطيع في السنتين اللي أنا أتوليت فيهم عشان أحاول أخففها ما أمكنش.. وواجهنا الظرف.. والنهارده زي ما قلت لكم إحنا أمام اختبار قدر..هل إحنا موجودين والَّا مش موجودين؟ بعد كل اللي عملناه، اللي بنيناه ووفقنا فيه.. هل إحنا موجودين والَّا مش موجودين؟

«بالنسبة لشعبنا.. بالنسبة للعرب.. بالنسبة لأمريكا.. بالنسبة لروسيا صديقتنا.. بالنسبة

لغرب أوروبا.. بالنسبة للعالم كله.. هل إحنا موجودين والّا مش موجودين؟ وكفاية سمعنا كلام كتير.. وتجريح كتير.. ولحظة لازم نواجهها.. محكوم علينا من الكل إن إحنا ناس لا قدرة لنا.. خلاص.. مشلولين.. بنقبل هذا.. بنفضل مشلولين.. وحيتحول الشلل إلى عجز مطلق.. نهائي.. مابنقبلوش.. بنقبل قدرنا، ونخش، ونشتغل على أحسن ما يمكن أن يعطينا العقل اللي ربنا إداه لنا.. والتخطيط السليم.. واستخدام الإمكانيات أمثل استخدام، وفي الحدود اللي نستطيع إن إحنا نعمل فيها بعد ذلك.. يفعل الله ما يشاء.. عملنا كل اللي علينا.. وبعد ذلك نواجه قدرنا..

«ماعنديش لكم حاجة أقولها النهارده غير هذا إطلاقًا.. مفيش.. النهارده مفيش.. لكن واحنا أمام امتحان.. نخش الامتحان.. اللي بارجوه بالنسبة لكم، وبالنسبة لكل الأولاد اللي معاكم.. لازم يكونوا عارفين.. إن إحنا بنعوض نقص كتير بإيماننا بقوتنا.. من استبسالنا.. من استماتتنا بنعوض كتير.. ودي حيكون لها قيمتها إن شاء الله».. ولن يخذلنا الله سبحانه وتعالى أبدًا، ما دمنا مؤمنين، وعلى حق، مش هنخذل أبدا أبدا..

« أنا اللي يهمني في المقام الأول هو بلدي..معروض عليَّ حل جزئي.. معروض فعلًا عليَّ حل جزئي.. بس أنا مش حاقبله.. وييجي حد غيري يقبله.. أنا بتكويني وبطبيعتي، ما أقبلش حل جزئي، ولازلت مؤمن بالعسكري المصري.. ومؤمن بأننا نستطيع نعمل حاجة.. وأنه أشرف لنا إن إحنا نموت وإحنا واقفين وراسنا في سابع سماء.. عن أننا نتخاذل ونقبل أي حاجة.. وخاصة بعد ما بذلنا كل ما نستطيع وبإخلاص.. وبليالي طويلة مابينامش الإنسان إطلاقًا..

« الناس كلها مستقرة بره في الصيف وأنا قاعد في المعمورة.. وبالليل.. كنت أقول لابني.. طلعني يابني بره المعمورة أشم هوا.. وأنا أرجع ما أنامش.. بيانات طويلة.. الشعب طيب.. وأصيل.. واداك اللي عنده.. لحظة ثمنها غالي.. ثمن كبير.. ممكن الواحد ينام طويلًا خلاص، وإذا كانت العملية على «الكرسي» نقبل أي حاجة، وندخل في عقول الناس أي تهريج وأي مزايدات وخلاص، أنا ما عملتش هذا أبدا، ولا قيمة للكرسي عندي، إذا ما كانش فيه كرامة.. أبدًا...

«كان عندي ناس ديك النهار بتكلمني، وقلت والله القرارات.. قرارات 8 يوليو ما تساوي أي شيء.. القرار باكتبه من ثلاثة أسطر لرئيس مجلس الشعب.. يوم ما أحس إني مش كفء،

أو يوم ما أحس إن إحنا مش قادرين، أقول لهم.. دوروا على حد تاني يمشِّي، لأني أنا غير كفء إني أمشي في هذه المهمة.. ما بيساوي عندي شيء، ولا بيزود ولا بينقص عليَّ حاجة..

«إحنا أمام امتحان قدام شعبنا في المقام الأول.. قدام رجولتنا.. تاريخنا كله.. قدام أجيالنا اللي جاية.. هل إحنا موجودين، والَّا مش موجودين..ربنا يوفقكم.. وشكرا..».

بهذه العبارات التي أنهى بها الرئيس السادات حديثه التاريخي الذي نفذ إلى قلوب الحاضرين جميعًا - وهز وجدانهم من الأعماق - انتهى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الذي دعينا لحضوره على عجل مساء الرابع والعشرين من أكتوبر عام 1972.

أرجو ألا أكون مبالغًا في إحساسي، إذا قلت، إنني شعرت ليلتها بأن حديث القائد الأعلى عن «اختبار القدر الذي نواجهه» وتساؤله الذي أحسسنا جميعًا بأنه نابع من وجدانه - حول «إحنا موجودين ولَّا مش موجودين».. ثم إحساسه بالألم وهو يقول «وكفاية سمعنا كلام كتير.. وتجريح كتير.. ولحظة لازم نواجهها.. محكوم علينا من الكل إن إحنا ناس لا قدرة لنا.. خلاص.. مشلولين».. كل هذا.. أحسست بأنه تعبير عن مشاعر الرجال في القوات الجوية، التي تحملت ما لم يتحمله سلاح جوي في العالم من اتهامات ظالمة، أراد العدو بها أن يهز ثقة مصر في سلاحها الجوي، وفي طيارها المقاتل.. بل إن بعض القيادات السابقة - ممن كانوا في موضع المسئولية أثناء «وقوع هزيمة» 5 يونيو 1967 - لم يتورعوا عن التهجم على قواتنا الجوية، واعتبروها «الشماعة» التي تحمل أخطاء الآخرين، كنوع من الدفاع الهروبي عن أخطائهم الشخصية في تلك العمليات.

أحسست ليلة الرابع والعشرين من أكتوبر 1972 - سواء أثناء الاجتماع،أو بعد انتهائه، ثم في بيتي وطوال ليلة مشحونة بالأرق والعواطف والفكر والشعور الرهيب - بضخامة المسئولية التي تنتظرنا.

.. أوجز السادات المعنى: «إحنا أمام امتحان قدام شعبنا في المقام الأول.. قدام رجولتنا.. تاريخنا كله.. قدام أجيالنا اللي جايه.. هل إحنا موجودين والَّا مش موجودين».

وإذا كان المنطق الجدلي يسمح بوجود أكثر من إجابة للسؤال الواحد، فإن هذا السؤال بالذات لم تكن له إلا إجابة واحدة.. أن نثبت للعالم ولشعبنا المصري - ولأمتنا العربية - أننا موجودون، وأن يعترف العدو الذي كثيرًا ما تجنَّى على المقاتل المصري - في البر والبحر والجو - بأن هذا المقاتل موجود بالفعل، وقادر على تدمير خصمه في مواجهة صدامية دامية.

لقد أصدر القائد الأعلى قراره التاريخي - يوم 8 يوليو كمقدمة حتمية، لإعداد مصري خالص للمعركة، وإذا كانت التفسيرات - وقت صدور القرار - قد تباينت حول دوافعه وأهدافه، فإننا - نحن رجال القوات المسلحة المصرية - لم نتردد لحظة في فهم المغزى الحقيقي للقرار، الذي أراد أن يحمي شرف العسكرية المصرية، من أي ادعاء قد يتطاول به أحد، ليمس قدرة العقل المصري على التخطيط العسكري، على أعلى مستويات التخطيط القائم على استيعاب فنون الحرب الحديثة، والمعرفة الكاملة بقواعد الفكر العسكري المعاصر.

كنا - في القوات المسلحة على اختلاف أفرعها وأسلحتها - توقعنا بعد صدور قرار إنهاء مهمة الخبراء السوفييت، اقتراب موعد المعركة.. إذ بعد ثلاثة أشهر ونصف من صدور القرار دعا السادات إلى عقد اجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، ليضعنا أمام مسئوليتنا التاريخية، وأمام قدرنا الذي لا بد من مواجهته، لكي نفي بحق هذا الشعب علينا، بعد أن أعطانا هذا الشعب الطيب الأصيل كل ما أردنا، ولم يبخل علينا بشيء.

في هذه الليلة لم يحدد ساعة الصفر لكنه على الأقل أعطانا الضوء الأخضر، كي نتحرك بسرعة - كلٌّ في مجاله لإعداد خططنا التي ستوضع موضع التنفيذ، عندما تحين اللحظة التاريخية، التي طال بالرجال الشوق للقائها.. بعد أن قضوا حتى تلك الليلة أكثر من ست سنوات في تدريب شاق وإعداد متواصل.. وطال بشعبنا المصري، وأمتنا العربية الصبر في انتظارها.

في تلك الليلة التي لا تنسى سألت نفسي: إذا كانت مهمة قواتنا البرية - عندما تشتعل المعركة - معروفة مقدمًا، وواضحة المعالم أمام الرجال، الذين عليهم أن يعبروا القناة، ويحطموا الأسطورة التي سماها العدو «خط بارليف» ثم يندفعوا شرقا لكي يدمروا قوات الدعم التعبوي والاستراتيجي التي سيدفع بها العدو إلى الأمام.

وإذا كانت بحريتنا المصرية، تعرف مهامها القتالية والهجومية في المعركة المقبلة، بعد أن مارستها بنجاح ساحق، في العمليات التي دخلتها ضد العدو، سواء بحماية مياهنا الإقليمية، والتسلل الناجح لضرب أهداف العدو البحرية - الثابتة في الموانئ، أو القطع المتحركة في البحر - وكذلك في عمليات المعاونة لباقي أفرع القوات المسلحة، كعمليات المعاونة في الإمداد والإنزال البحري للقوات..

إذن ما الدور الذي يجب أن تقوم به قوات السلاح الجوي المصري، في المعركة، لكي تسترد شرفها العسكري من جهة، وتثبت وجودها المؤثر في العمليات، سواء بالدعم

والمعاونـة والحماية لقواتنـا الزاحفـة في الخطـوط الأمامية وأهدافنـا الحيوية داخـل العمق المصري، أو بالعمليات الهجومية المسـتمرة - طـوال العمليات - بحيث تذيق قوات العدو مرارة القصف الجوي المركز، التي تجرعها مقاتلنا البري في عمليات 1956 و1967؟

قلت لنفسي: لو كان سـلاحنا الجوي، يسـتعد لدخول المعركة المقبلة، في ظروف عادية، كغـيره من الأسـلحة الجوية في العـالم، لكفاه أن يقوم بالدور التقليـدي للقوات الجوية، من طلعـات هجومية وقتالية، تحقق للقوات البريـة الحماية الجوية اللازمة، وتوفر الدعم اللازم لضرباتها الهجومية على مسرح العمليات.

ولكـن سـلاحنا الجوي يدخل المعركـة، وهو محمل بأوزار ضربتـين جويتين - في عامي 1956و1967 - خـرج عـلى أثرهمـا مـن المعركة قبـل أن تتاح لـه فرصة لإثبـات وجوده وقدراتـه..وإذا كان «الـدواء مـن جنس الداء» - كما تقـول الحكمة العربيـة المأثورة - فإن اسـترداد سـلاحنا الجوي لثأره من العـدو، ودفاعه عن شرفه العسـكري، يجب أن يبدأ من نقطة محددة لا بديل لها، هي الرد على العدو بنفس اللغة.

لقـد تعـرض هذا السـلاح - مرتـين - لضربة جوية مركـزة، حطمت الجـزء الأكبر من طائراتـه، وهـي جاثمة عـلى الأرض، وحرمت الطيار المـصري المقاتل من وسـيلته الفعالة لإثبـات وجـوده، وعرضته لأبشـع مـا يتعرض لـه مقاتل وهو «التشـكيك في شـجاعته.. وفي قدرتـه عـلى مواجهة خصمه، بل التشـكيك أصلا في صلاحيته لعـبء القتال الجوي». ذلـك التشـكيك الذي يُدمي النفس ويجرح الكرامة، والذي عـبَّر الرئيس القائد الأعلى عن إحساس الرجال به حين قال «وكفاية سمعنا كلام كتير.. وتجريح كتير».

يجب أن يدفع العدو ثمن فعلته.. والثمن الغالي هو - في الوقت نفسه - العلاج الوحيد الـذي يشـفي جرح الإهانة التي وجهت لنا - نحن رجال السـلاح الجـوي - بضربة جوية مركـزة يقوم بها طيارونا المقاتلون، ضد مطارات العدو ومواقعه العسـكرية المؤثرة.. ضربة ذات حجـم هائـل.. لا نقلد فيها أحدًا.. سـواء على مسـتوى التخطيط المحكـم، أو التنفيذ الدقيـق - ونلقـن العـدو بها درس العمر، ونعلمـه احترام الطيار المصري ونـرد لهذا الطيار سمعته، ونعيد إليه مكانته التي هو جدير بها بين شعبه، ووسط قواته المسلحة الأم.

هكـذا ولـدت الفكـرة الأولى.. للضربـة «صـدام».. بمعناهـا وأبعادهـا وفلسـفتها وأهدافها.

في ضوء هذا: ما هي أبعاد العملية «صدام» التي رد بها طيارونا المقاتلون ردًّا عمليًّا حاسمًا على كل ما وجه إليهم من إهانات، قبل 6 أكتوبر 1973؟ وما المقدمات الأساسية التي تمت دراستها قبل التحضير للعملية ذاتها؟ وما القواعد التي قامت عليها – سواء في التخطيط أو التنفيذ – بحيث تصل إلى تحقيق أهداف معينة لا تزيد عليها ولا تنقص؟ وماهو الجديد، وما التقليدي في العملية من بدايتها كفكرة إلى نهايتها المادية، كضربة جوية مركزة، أحدثت ما أحدثته من دمار على الجانب المعادي، بأدنى قدر من الخسائر في طائراتنا المهاجمة، وبأعلى نسبة من إصابة الأهداف والدمار الذي لحق بالعدو؟ ثم ما الفوارق الأساسية التي تفرق بين «عملية طوق الحمامة» الإسرائيلية وعملية «صدام» المصرية وما الميزات الواضحة، سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ، التي تدفع المحلل العسكري – المحايد – إلى الحكم بتفوق العملية المصرية، على العملية الإسرائيلية؟

في بداية تحليلنا للعملية «صدام» لا بد من الإشارة إلى بعض الحقائق المهمة، التي اعتبرتها قيادة الجو المصرية – وهي بسبيل التخطيط العلمي للعملية – مقدمات أساسية، لا بد من احترامها، والتصرف على أساسها سواء في مرحلة التخطيط النظري البحت للعملية، أو التحضير لها أو التدريب العملي على تنفيذها.

أولى الحقائق التي راعتها قيادة الجو المصرية – في تخطيطها للعملية «صدام» – هي «تحديد موقفها من العدو الجوي» موضوعيًّا، يصل إلى حد الصرامة في واقعيته، دون تهوين أمر هذا العدو أو انتقاص من قدراته الحقيقية، ودون تهويل أو مبالغة في تقدير ما يملكه العدو من عتاد وخبرة قتالية.

ميزة هذه الموضوعية في تقدير قوة العدو، أنها تحمي واضع الخطة أولًا، من الانسياق وراء أحلام يقظة كاذبة، قد يرتفع بها الغرور وخداع النفس، إلى مستوى الحقيقة الواقعة، الأمر الذي يدفع المخطط إلى منزلق بالغ الخطورة.. يؤدي به إلى بناء خطته على أساس غير حقيقي، بحيث تنتهي الخطة عند وضعها موضع التنفيذ على مسرح العمليات إلى كارثة قومية، إذا كان قد استهان بقوة الخصم، أو إلى تجميد قواته الجوية، إذا كان قد بالغ في تقدير قوة عدوه الجوي.

كما أن الموضوعية في وزن قدرات العدو الجوي، تحمي الطيار المقاتل الذي يعهد إليه بتنفيذ الخطة، من المفاجآت غير المحسوبة، التي تعرض الطيار لصدمة نفسية خطيرة، حين يكتشف أن

قيادته قد ضللته - بالجهل أو بالخديعة - عن حقيقة عدوه، فضلا عما يتعرض له الطيار بسبب المفاجآت غير المحسوبة من كمائن جوية، أو غيرها من مخاطر الحرب الجوية غير المدروسة.

من هذه الحقيقة الأساسية، تحركت قيادة الجو المصرية - وهي تخطط للعملية «صدام» - على أساس أن الطيار المصري المقاتل، سيواجه عدوًّا مدربًا تدريبًا جيدًا، ووراءه رصيد من الخبرة والممارسة القتالية - سواء في عمليات 5 يونيو، أو ما تلاها من عمليات قام بها العدو طوال مراحل «الصمود» و«الردع» و«الاستنزاف» التي سبقت 6 أكتوبر.

بالإضافة إلى ذلك هناك حقيقة ما يملكه العدو من إمكانيات عالية المستوى في العتاد والسلاح الجوي، تجعل الطيار الإسرائيلي مزودًا - من الناحية النفسية على الأقل - بكفاءة معنوية عالية، يمده بها إحساسه بالاطمئنان الكامل إلى طائرته وإمكانياتها العالية، كما أن خروج سلاح الجو الإسرائيلي سليمًا - في عمليات العدوان الثلاثي عام 1956 - وانتصاره السريع في عمليات 5 يونيو 1967، من العوامل التي تزيد من ثقة الطيار الإسرائيلي بنفسه.. وكلها عوامل قدرتها قيادة الجو المصرية حق قدرها، وهي تخطط لعملية «صدام».

صحيح أن سلاح الجو المصري كان - قبيل السادس من أكتوبر - قد انتقل إلى مرحلة، تعتبر بالمقاييس العسكرية السليمة، مناقضة تمامًا، لما كان عليه السلاح نفسه عام 1967، سواء من حيث التنظيم العام لهيكل السلاح وأجهزته ووحداته، أو من حيث الأسلوب العلمي الذي يدور به العمل تخطيطًا وتدريبًا.. ولكن هذا المستوى المرتفع الذي حققه سلاحنا الجوي، لم يدفع بقيادته إلى الوقوع في مصيدة الغرور، ومركب العظمة، أو تجاهل حقيقة الخصم، وما يملكه من قدرات.

هذه الواقعية في النظرة إلى العدو - التي تمثل أعلى مستويات الصدق مع النفس - هي التي حمت الطيار المصري المقاتل - ظهر السادس من أكتوبر - من التعرض لمفاجآت غير محسوبة، وهي التي ضمنت لسلاحنا الجوي، الاستمرار في القيام بواجباته القتالية والهجومية، طوال أيام المعارك، بحيث كانت قواتنا الجوية -كما قال الفريق أول محمد عبدالغني الجمسي القائد العام للقوات المسلحة ونائب رئيس الوزراء ووزير الحربية - «هي التي بدأت الحرب وهي التي أنهتها».

بمقتضى القواعد السليمة للفكر العسكري، فإن واقعية المخطط في نظرته للعدو وتقييمه لقدراته القتالية، تؤدي بالضرورة إلى الواقعية في تحديد «أهداف العملية» التي يخطط

لها، بحيث لا يندفع واضع الخطة، وراء أهداف جنونية، قد تبدو براقة ومغرية، ولكن الاستسلام لبريقها الخداع يحمل في ثناياه مخاطر الوقوع في كارثة مدمرة.

هنا يبرز الفارق الأول بين موضوعية العملية المصرية «صدام» - في نظرتها للعدو الإسرائيلي - وبين جنون عملية «طوق الحمامة» الإسرائيلية واستهتار مخططها عام 67 ويكفي أن نسأل الجنرال «هود».. ما هو المصير الذي كان سيلاقيه طياروك في 5 يونيو، لو أن قيادة الجو المصرية، أجرت تعديلًا واحدًا مفاجئًا، على الأسس التي بنيت عليها خطتك كلها؟

وعلى سبيل المثال.. ما الذي كان سيحدث صباح الإثنين 5 يونيو، لو أن سلاح الجو المصري تخلص - في ذلك اليوم - من نظرية «أول ضوء» التي تحدد ساعات الخطر الجوي المعادي، بالفترة الواقعة بين شروق الشمس وبين التاسعة صباحًا، وقد كانت هناك أصوات مصرية تنادي بهذا التعديل..؟.. وما موقف طياريك عندما يصدمون بوجود مظلة حماية جوية - من طائراتنا المقاتلة - تتصدى لهم بنيرانها، قبل أن يصلوا إلى المطارات المصرية؟

والإجابة معروفة مقدمًا.. لو أن قيادة الجو المصرية، أقدمت على إجراء هذا التعديل الوحيد في خطتها الدفاعية، لانهارت عملية «طوق الحمامة» من أساسها، ولتحولت الضربة المكثفة التي تلقاها الطيران المصري - صباح 5 يونيو - إلى مطرقة هائلة تدق رأس الجنرال «هود»، وتسحق طياريه الذين قاموا بتنفيذ عملية بنيت على مخالفة صارخة لمبدأ مهم من أخطر مبادئ التخطيط القتالي، وهو «الموضوعية في تقدير قوة العدو».

مثال آخر على عدم الموضوعية في تقدير قوة الخصم، التي اتسمت بها خطة الجنرال «هود»، وهو أنه بنى خطته أساسًا على افتراض نظري بحت؛ وهو أن سلاح الجو المصري لا يملك - في عام 1967 - أجهزة رادار تعمل في الطبقات المنخفضة، وبالتالي وضع خطته على أساس اقتراب طائراته من أهدافه وهي تطير على ارتفاعات منخفضة، وإذا كان الحظ الحسن وحده قد لعب دوره في هذا الجانب، ونفذت عملية «طوق الحمامة» دون أن تنجح شبكة الرادار المصرية - ذات النبضات العالية الارتفاع - في اكتشاف الطائرات الإسرائيلية، فما المصير الذي كان ينتظر هذه الطائرات، لو أن سلاح الجو المصري كان قد حصل - بطريقة سرية -على شبكة رادار ذات نبضات قادرة على العمل في الارتفاعات المنخفضة؟

وبعكس هذا الاستهتار الكامل بالعدو - الذي يتجلى كعيب واضح يدين واضع خطة

«طـوق الحمامـة» الإسرائيلية - نجد العملية المصرية «صدام» تنطلق من أسـاس موضوعي في نظرتهـا للعـدو وقدراته الحقيقية، بحيـث تتجه إلى تحقيق أهداف محددة - سـنتعرض لها بالتفصيـل - دون أن تتجـاوز هذه الأهـداف إلى مغامرات جنونية قد يدفـع إليها الاغترار بالنفـس، أو تجاهل قدرات الخصم، حتى في أثناء التخطيط لتفاصيل العملية «صدام» نجد العدد الذي قام بتنفيذها من طائراتنا - وهو اثنتان وعشرون ومائتا طائرة من مختلف الأنواع - فضـلا عن طائرات الحماية والاعتراض، يشـير إلى أن المخطـط الجوي المصري، وضع في حسـاباته الدقيقة، كل احتمالات المخاطر المفاجئة التي يمكن أن تتعرض لها العمليات أثناء التنفيذ، سـواء من حيث وسـائل الإنذار المعادي المبكر - التي يملك العدو أحدث أنواعها - أو من حيث وسائل الدفاع الجوي الثابتة والمتحركة.

هذا الحساب الدقيق للمخاطر والمفاجآت المحتملة من جانب العدو - الذي لم نتجاهل مـا عنـده من وسـائل وإمكانيات وخـبرة - هو الـذي أدى إلى نجاح الطائـرات المصرية في تنفيذ ضربتها المركزة «صدام»، وعجز العدو عن التصدي لهذا العدد المخيف من الطائرات - الـذي لم يسـبق أن اشـترك مثله في عملية هجوميـة واحدة - بل إن كثافـة عدد الطائرات المصريـة المغـيرة - فضلا عـن قدرتها على إحداث أكـبر قدر من التدمير للعـدو بسرعة وفي وقـت واحـد - أدت أيضًا إلى نتيجة رائعة كانت محسـوبة تمامًا، وهـي إصابة طياري العدو بالفـزع والرعب، وهم يشـاهدون سـلاحنا الجوي يهاجمهم بهذه الكثافـة والإصرار، الأمر الذي أدى إلى اهتزاز ثقتهم بقيادتهم التي خدعتهم طويلًا، وهونت لهم كثيرًا من أمر سلاح الجو المصري وأمر طياريه.

رد الفعـل الطبيعي لمثل هذه الصدمة النفسـية - كما تؤكـد أبحاث علم النفس الحربي - هو انخفاض الكفاءة النفسـية للطيار المقاتل وما يتبعه من انخفاض قدراته القتالية وهبوط مسـتواه وعجزه عن التحكم في طائرته والاسـتفادة من إمكانياتهـا العالية.. وهو ما حدث بالفعل في الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر 6 أكتوبر بالنسبة للطيارين الإسرائيليين، الذين فكروا -بعد فوات الأوان - في القيام بعمليات التصدي المهزوزة لطيارينا أثناء تنفيذ العملية «صدام».

بنفس الموضوعية التي نظرنا بها للطيار الإسرائيلي - قبل 6 أكتوبر - نقرر الآن، وبحيادية مطلقـة، أن ضعف هـذا الطيار الذي بدا واضحًا أمام طيارينـا، وعجزه عن التصدي لنا في

ذلك اليوم، لم يكن مرجعه إلى عدم خبرة طياري سلاح الجو الإسرائيلي، أو هبوط مستواهم التدريبي والقتالي بوجه عام.. ولكن هذا الضعف الذي اعترف به الجميع يرجع إلى تجاهل العدو لقدرات طيارينا - ذلك التجاهل الذي استمر سنوات - كما يرجع إلى موضوعية قيادة الجو المصرية في تقديرها للقدرات الحقيقية للعدو، واستعدادها الجيد، لما تفرضه عليها معرفتها الموضوعية بهذا العدو.

ببساطة شديدة: كان العدو مغرورًا بنفسه، مستهينًا بنا.. وكنا واثقين من أنفسنا، وعارفين بقدرة العدو، مؤمنين بأنه أشرف لنا - في ساحة العمليات - أن ننتصر على عدو ذي خبرة وإمكانيات، ونعد للنصر عليه ما استطعنا، من أن ننتصر دون جهد، على عدو مستضعف بلا حول ولا طول.

أما الحقيقة الثانية التي وضعتها قيادة الجو المصرية - وهي بسبيل وضع الخطة «صدام» - فهي توقع «المفاجآت» من العدو، احترامًا من هذه القيادة، لمبدأ «إن العدو عنده دائمًا ما يخفيه»، وضمانًا للوصول بالخطة المصرية، إلى تحقيق الهدف المحدد لها، حتى لو تعرض التنفيذ لأي مفاجآت يكون العدو قد أحكم إخفاءها في الفترة السابقة للعمليات، وما يمكن أن ينتج عن هذه المفاجآت، من تعويق ولو جزئي لأهداف الضربة الجوية.

أكشف الآن واحدًا من أسرار التخطيط الشامل لحرب أكتوبر 1973 - بوجه عام - والتخطيط للقوات الجوية - بوجه خاص - التي كان قد تقرر على مستوى القيادة العليا، أن تكون الضربة الجوية المركزة التي تقوم بها، هي الضربة الأولى والأساسية، التي تشتعل بعدها الجبهة، ويندفع الرجال لعبور القناة، والالتحام بالعدو المتحصن في دشم ومواقع خط بارليف.

هذا السر الذي أكشفه الآن، يقدم الدليل الحاسم، على أن المخطط الجوي المصري - أثناء وضعه لتفاصيل العملية «صدام» - كان واقعيًا إلى أبعد الحدود، وصادقًا تمامًا - سواء مع نفسه، في حدود معرفته بإمكانيات سلاحه الجوي، أو مع معرفته الدقيقة بما يتمتع به العدو من ظروف مواتية.. من هذه الواقعية.. ولكي أفصح عن هذا السر بطريقة منطقية متراتبة.. فإنني أحدد خطوات خطة ضربتنا وكيف تم رسمها وتوقع احتمالاتها:

1 - في الموعد المحدد لبدء العملية «صدام» - أي الساعة 2.05 - تندفع الطائرات المصرية، المكلفة بالمهمة، شرقًا، وتخترق خط الجبهة، حيث تقوم - وفي وقت واحد، تم حسابه

بالثانية – بقصف مركز للأهداف والمواقع المعادية، التي رُئي – سواء على مستوى التخطيط المتخصص للقوات الجوية، أو على مستوى التخطيط الشامل لقواتنا المسلحة كلها أنه لا بد من تدميرها، وإسكاتها تمامًا، قبل اندلاع الحرب، حتى نوفر لقواتنا التي ستعبر القناة بعد نجاح الضربة الجوية، أقصى ما يمكن توفيره، من ضمانات الأمن، وعدم التعويق المؤثر لمجهودها الرئيس في العمليات.

أستطيع أن أؤكد أن التخطيط لهذه الضربة الجوية، قد تم بعناية شاملة، وأن الدراسات التي توافرت للمخطط الجوي المصري، شملت كل ما يتصل بالعملية على الجانبين المصري والإسرائيلي، بحيث تتوافر للخطة – وللطيار المصري المقاتل الذي سيكلف بتنفيذها – أقصى ضمانات النجاح.

لو أن المخطط الجوي المصري، اكتفى بهذا الجهد الشاق، الذي بذله في دراسة كل ما يتصل بالضربة الجوية التي يخطط لها بعناية – تبلغ حد الحذر والتدقيق الصارم في كل شيء – لما كان هناك ما قد يؤخذ عليه، ولجاز له أن يعلن – بينه وبين نفسه على الأقل – أنه قام بواجبه على الوجه الأكمل، في وضع خطة محكمة الإعداد.

وهنا ينكشف السر الذي أشرت إليه، وهو أن المخطط الجوي المصري وضع في حساباته الدقيقة احتمال نجاح العدو في استخدام ما قد يكون عنده من إمكانيات غير معروفة لنا، بحيث يتمكن من امتصاص جزء كبير من تأثير الضربة الجوية التي سنوجهها لمواقعه وأهدافه المؤثرة، في الساعة 2.05 بعد ظهر السادس من أكتوبر..وفي مواجهة هذا الاحتمال، بادر واضع الخطة المصرية، إلى التفكير في الحل السريع الذي يضمن تحقيق أهداف الضربة الجوية بأعلى نسبة من إصابة الأهداف، وبأقل قدر من الخسائر بين طائراتنا، وهذا الحل الذي نزيح الستار عنه الآن، يتمثل فيما يلي:

2 – أن تقوم قواتنا الجوية – في تمام الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر 6 أكتوبر – أي بعد مرور نحو الساعتين والنصف، بتوجيه ضربة جوية ثانية، بنفس المستوى العالي من التركيز، وعلى الأهداف نفسها التي تم قصفها في الضربة الأولى.

أهمية الحل الذي فكر فيه المخطط الجوي المصري، لمواجهة أي تعويق من العدو لأهداف الضربة الأولى، تكمن في توضيح الحقائق التي تؤكد صحتها قواعد القتال الجوي الحديث، والتي كانت موضع احترام من المخطط الجوي المصري، وهي:

أولًا: إنـه في حالـة نجـاح العدو الإسرائيـلي، في تعويق المجهود الرئيـس للضربة الجوية الأولى التي سـتقوم بها طائراتنا - السـاعة 2.05 - فإن طيارينا المقاتلين، الذين سيشتركون في العمليات الأولى، سيكتشـفون الوسائل والإمكانيات التي استخدمها العدو في مقاومته لهـم، وبالتـالي، فإن الضربة الثانية، سـتتم، وقد انكشـف تكتيك العدو، وأزيح السـتار عما كان يخفيـه مـن أسـاليب قتالية أو إمكانيات مسـتحدثة، الأمر الذي يضعـف من تأثير هذه الأساليب المستحدثة - إن وجدت - لأن الطيار المصري المقاتل، عند قيامه بتوجيه الضربة الجوية الثانية، سـيكون عارفًا بما عند العدو، واثقًـا من قدرته على التعامل معه، بعد أن زال عنه عنصر المفاجأة، الذي يمكن أن يكون له في وجود الضربة الأولى.

ثانيًا: إن قصر المسـاحة الزمنية التي تفصل بين الوقت المحـدد للضربة الأولى، ووقت توجيـه الضربـة الثانية، لا يسـمح للعـدو بالتقاط أنفاسـه، وإعادة أهدافه التـي أصيبت في الضربة الأولى - أو دُمرت - إلى مسـتوى الصلاحيـة المؤثر في مقاومة الضربة الثانية. فضلًا عـن أن القـوات الميدانيـة العاملة في الواقـع التي دمرت - أو أصيبـت - في الضربة الأولى، تكون كفاءتهم النفسية، قد هبطت بشكل فعال، يؤثر على كفاءتهم القتالية، التي لن تسعفهم في مقاومة الضربة الثانية.

ثالثًـا: إنه في حالة نجـاح العدو في امتصاص الجـزء الأكبر، من الآثـار التدميرية التي أحدثتها الضربة المركزة الأولى، فالأمر المؤكد أن الجانب الأكبر من اهتمامات العدو، عقب تلقيـه لهذه الضربـة المفاجئة، وبالكثافة التي تمت بها، سـيتجه إلى محاولـة إصلاح ما أعطب أو أصيب من أجهزته وعتاده - إن كانت هناك إمكانية لإصلاحه - ومعنى هذا، أن العدو سيكون مشغولًا طوال هذه الفترة في محاولة حصر الخسائر، وإصلاح ما يمكن إصلاحه من أعطـاب، ولن يتجه بمجهوده الرئيس إلى محاولة الرد بضربة جوية انتقامية، قبل الاطمئنان إلى سـلامة موقفه، والعودة بهذا الموقف إلى ما هو قريب من المسـتوى السـابق للضربة التي تلقاها.

هنـا تتضح للمحلـل العسكـري، أهمية توجيـه الضربة الثانيـة، التـي ستضمن تحقيق النتائج التالية:

1 - اسـتمر التصاعـد في الخط البيـاني، الذي يمثل تدمير أهداف العـدو، بحيث نصل بهذا الخط، إلى أقصى نقطة ممكنة، تمثل الهدف النهائي لخطة العملية «صدام».

2 – حرمان العدو من الهدوء الذي قد يساعده على استعاضة ما خسره من عتاد ومقاتلين، أو إصلاح ما أعطب من أجهزته ومنشآته نتيجة للضربة الأولى.

3 – منع طيران العدو من استخدام المطارات القريبة، في توجيه ضربة انتقامية، سواء ضد قواتنا الزاحفة، أو ضد أهدافنا العسكرية أو المدنية.

4 – توفير الحماية اللازمة لقواتنا البرية، في ساعات العبور الأولى، وذلك بمنع طيران العدو، الذي دمرت – أو أعطبت – مطاراته القريبة، ومواقعه المؤثرة، من القيام بأي عمليات هجومية، تعوق المجهود الرئيس لهذه القوات، خصوصًا في لحظات إنشاء رءوس الكباري وتأمينها، التي تعتبر أخطر مراحل العبور.

هكذا يكشف لنا هذا السر أن قيادة الجو المصرية، وهي تخطط للعملية «صدام» كانت مصممة على أن تحقق هذه العملية أهدافها على أعلى مستوى، ولكي تضمن القيادة المصرية هذه النتيجة، فقد خططت للقيام بضربتين جويتين مركزتين – لا يفصل بينهما سوى ساعتين ونصف الساعة فقط – بحيث تؤدي الضربة الثانية إلى تحقيق أهداف العملية «صدام» تحقيقًا كاملًا.

وإذا كانت الضربة الأولى قد نجحت في تحقيق الأهداف المطلوبة نجاحًا ساحقًا، أدى إلى الاستغناء عن توجيه الضربة المركزة الثانية التي كانت موضوعة في الخطة، فإن هذا النجاح نفسه، يعطينا المؤشر الصادق، والدليل الحاسم، على سلامة العملية «صدام» والمستوى الرفيع الذي حققه الإنسان المصري في هذه العملية، سواء كمخطط عسكري متمكن من فنه، أو كطيار مقاتل يتمتع بخبرة عالية، وروح معنوية قوية وقدرات قتالية مرتفعة تضعه على قدم المساواة مع أحدث طياري العالم المقاتلين.

ترى ما رأي جنرال الجو الإسرائيلي «مردخاي هود» صاحب عملية «طوق الحمامة» – التي كادت العسكرية الإسرائيلية أن تفرضها على التاريخ العسكري، باعتبارها خطة إسرائيلية، وهي لا تعدو في حقيقتها، أن تكون نسخة مقلدة من الأصل الإنجلوفرنسي، الذي نفذ ضدنا عام 1956.. ترى ما رأي الجنرال «هود»، في هذا التمهيد العلمي الدقيق، الذي اعتبره المخطط الجوي المصري نقطة البداية الأولى في إعداده لخطة الضربة الجوية المصرية «صدام».

وما رأي «مردخاي هود» – ومن ورائه كل جنرالات الجو الإسرائيليين، وكل صقور

المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - في ذكاء المخطط الجوي المصري، وفي قدرته الواضحة، على الاستفادة إلى أقصى حد، من نظريات وقواعد القتال الجوي الحديث، لكي يضمن لخطته الهجومية، أكبر قدر من النجاح، ويوفر لطياريه - عن طريق الدراسة الجادة - كل ما يستطيع توفيره من ضمانات، ضد المفاجآت غير المحسوبة، وعمليات الإجهاض المضاد، التي تعوق الضربة المصرية، وتنحرف بمجهودها الرئيس عن أهدافه الأساسية؟

ألا يعتبر «الجنرال هود» كل هذا، دعوة - غير مباشرة - للفكر، يوجهها الطيار المصري المقاتل - الذي أعيدت صياغته على أحدث ما تكون صياغة وإعداد الطيار المقاتل - لكي يفيق خصومه من أحلام اليقظة الكاذبة، التي نعترف بأنها أفادتنا كثيرا، لأنها ساعدتنا على العمل في صمت ولسنوات طوال، كان العدو فيها مشغولًا في اجترار إحساسه البالغ فيه بالنصر، وكنا منصرفين خلالها، إلى العمل والتدريب والإعداد، حتى وصلنا إلى اللحظة التي أقسمنا - عام 1967 - على الوصول إليها، مهما يكن الثمن، ومهما تكن التضحية.. وظهر السادس من أكتوبر، حلت اللحظة المرتقبة.. لحظة فرض الإرادة الجوية المصرية على مسرح العمليات.

وإذا كان التمهيد المبدئي لخطة العملية «صدام» قد راعى العلمية، واحترام المبادئ الأساسية للفكر العسكري، فما تفاصيل العملية ذاتها، وما الإضافات التي قدمتها هذه الخطة المصرية الخالصة، للفكر العسكري، وفن التخطيط القتالي في الحرب الجوية؟

إن الفصول التالية تجيب عن كل هذه الأسئلة، وتكشف في الوقت نفسه، وبوضوح لا يحتمل التأويل أو التفسير - عن المصير الذي ينتظر أي محاولة طائشة قد يفكر العدو الجوي في الإقدام عليها، سواء ضد قواعدنا الجوية ومطاراتنا، أو ضد مواقع قواتنا المسلحة بوجه خاص.. أو ضد أهدافنا الحيوية في امتداد العمق المصري بوجه عام.

وهذا المصير الذي نعنيه - والذي ينتظر أي مغامرة جنونية قد يفكر العدو في الإقدام عليها، تقليدا لما حدث في 5 يونيو 1967 - ليس مصيرًا افتراضيًّا، مبعثه الوهم.. ولكن المصير المحتوم سيكون نتيجة حتمية لما يستطيع سلاحنا الجوي أن يصنعه بعدوه - جوًّا وبرًّا وبحرًا - بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من مستوى بالغ الارتفاع، كسلاح جوي بالغ العصرية على جميع مستويات التخطيط، والتنظيم، والإعداد، والتدريب، ذلك المستوى الذي تفصح عنه التفاصيل «العملية.. صِدام».

"... لقد دهمت «الشرارة» - بمجرد اندلاعها - جيش إسرائيل، بينما كان يلهو في سكون عيد الغفران.."

كما لو أنها «بيرل هاربر» جديدة

قبيل السادس من أكتوبر 1973 - ببضعة أيام - صدر بيان للجنرال موشي ديان - وزير الدفاع الإسرائيلي في ذلك الوقت - قال فيه: «إنني لا أتوقع حربًا خلال السنوات العشر القادمة». وفي التاسع والعشرين من ديسمبر 1973 قال ديان أيضًا: «لم يكن تقييمنا لمدى كفاءة العرب وقدرتهم، رغم أننا كنا نعلم مقدمًا بطبيعة أسلحتهم، بحجم قواتهم، والجسور التي أقاموها لعبور قناة السويس».

إن المسافة بين تصريح الغرور والغطرسة وتصريح الهزيمة والتقصير والشعور بالذنب تمثلت في قوة ونجاح العملية المصرية التي مثلت بالنسبة لإسرائيل ماثلته «بيرل هاربر» للولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية.. وإذا كانت الولايات المتحدة - بحكم إمكانياتها الواسعة - قد استطاعت أن تمتص الآثار التدميرية الرهيبة، لهذه الضربة المركزة التي تلقاها الأسطول الأمريكي، فإن الكيان الإسرائيلي بمكوناته كان - ولايزال - أضعف من أن يخرج بسهولة من آثار الصدمة الرهيبة، التي أنزلناها به، في «بيرل هاربر» الجديدة.

والسؤال هو: كيف نجحت الضربة الجوية المصرية «صدام»، وما تلاها من ضربات ساحقة وجهتها قواتنا المسلحة التي عبرت القناة ظهر السادس من أكتوبر - في زلزلة الكيان الإسرائيلي كله، بهذا الشكل الغريب وغير المتوقع؟

1 - لقـد كان الكيـان المصري كله، مدنيًّا وعسـكريًّا - ومن خلفه كيـان الأمة العربية كلها - مصممـًا عـلى عبور الهزيمـة إلى النصر، بعـد أن اجتزنا في صمت وإصرار، سـنوات الإعداد الشاق للمعركة، ولم يبق إلا انطلاق الشرارة.

2 - في الوقـت الذي كانت القيادة العسـكرية المصرية، تبذل فيـه أقصى طاقتها في عمليات الإعـداد وإعـادة البناء داخل قواتنا المسـلحة، بمختلـف أفرعها وأسـلحتها - كانت القيادة السياسـية العليـا تتحرك بسرعة وذكاء على جميع الجهـات التي تكوّن ما يمكن تسـميته بـ «مسرح العمليات السياسـية» وإعداد هذا المسرح السـياسي الدولي - ومن ورائـه الـرأي العام العالمي مـن ناحية، وحكومات العـالم وهيئاته الرسـمية من ناحية أخرى - بحيث يكون مستعدًّا لمساندة الموقف العربي - أو الوقوف موقف الحياد على الأقل - عندما تندلع «الشرارة».

في عمليـات 5 يونيـو 1967، كان المخطـط الجـوي الإسرائيـلي ،ومـن ورائـه كل قادة إسرائيل العسكريين والمدنيين على السواء، يستفيدون من ظروف سياسية مواتية لإسرائيل، ومعاكسة لمصر وللعرب بصفة عامة، وموجودة بالفعل على الصعيد الدولي، بسبب الأخطاء التي أشرنا إليها، والتي تمثلت في شـعارات «الحروب العنترية» التي بالغنا في رفعها بشـكل استفزازي، نجح في إثارة عواطف المجتمع الدولي ضدنا..

وقتها نجحت إسرائيل في شيء واحد، وهو تحويل هذا الرفض الدولي لنغمة الاستعلاء التـي سـادت المنطق العربي، إلى رفـض للموقف العـربي كله، ومسـاندة لإسرائيل «الحمل الوديـع» الذي يهدده «الغول العربي» بإلقائه في البحر. أي أن الأمر، لم يكلف الدبلوماسـية الإسرائيليـة - عـام 1967 - أكثـر مـن التقدم بسرعة، للاسـتفادة من موقف مـواتٍ تمامًا لإسرائيل، ومضاد تمامًا للعرب.

أما في أكتوبر 1973 - وقبيل اشـتعال «الشرارة» - فقد كان الموقف مغايرًا تمامًا لموقف وظـروف إسرائيل. وتطلب إحداث التغيير الجذري في حركة الرأي العام العالمي واتجاهاته المؤثـرة، تخطيطًا ذكيًّا، وجهـودًا مضنية، وتحـركًا سريعًا ومتواصلًا، قامت به الدبلوماسـية المصريـة، طوال سـنوات ما قبل أكتوبر، بحيث نجحت في النهايـة، في عزل إسرائيل دوليًّا، وخلق المناخ السياسي المواتي للموقف العربي، بشكل استفاد منه المخطط العسكري المصري إلى أبعد مدى، واستفاد منه المقاتل المصري؛ عندما حلت ساعة الصفر التاريخية.

ولكـن.. هـل يكفي نجـاح التحرك الدبلومـاسي المصري؛ في الإعداد السـياسي لمسرح العمليات، لكي يحول ضربة السادس من أكتوبر، إلى «بيرل هاربر» جديدة، تنزل كالصاعقة على رأس الكيان الإسرائيلي، وتزلزله من الأعماق؟ والإجابة التي تفرضها الأمانة العلمية، بالنفـي قطعًـا.. فلم تكن عمليات الإعداد السـياسي - التي تحدثنا عنهـا - ورغم ما حققه خلالهـا العقـل المصري من نجـاح - إلا مقدمة ذكية لعامـل أكثر خطـورة وفعالية.. وهو: عامل المفاجأة.

لقد وضعت القيادة العسـكرية لقواتنا المسلحة في اعتبارها - وهي تخطط لمعارك أكتوبر - ضرورة العنايـة بعنصر المفاجأة، وتحقيقه بشـكل سـاحق، يؤدي إلى فقـدان العدو توازنه النفسي، بحيث يفشل في السيطرة على قواته، ويعجز عن تحريكها في الاتجاهات الصحيحة، في الفترة الأولى من المعارك - على الأقل - وبحيث لا تنجح قيادة العدو في استعادة سيطرتها على نفسها وعلى قواتها، إلا بعد فوات الأوان.

ومن هذا المنطلق العلمي - الذي تؤيده قواعد نظريات الفكر العسـكري على اختلاف مدارسـه، التـي تؤمـن بأهميـة عنـصر المفاجأة - نسـتطيع أن نقـول إن المخطط العسـكري المصري، اسـتفاد إلى أبعد مدى، من التحرك الشـامل للدبلوماسية المصرية، واعتبره مقدمة طبيعية، لخطة واسـعة المدى من الخداع العسكري للعدو على جميع المستويات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية.

ففـي الوقت الذي كانت فيه قيادة إسرائيل - العسـكرية والمدنية - تسـخر من التحرك السياسي المصري، على جميع المحاور التي أشرنا إليها، وتعتبر هذا التحرك الذكي المدروس، دليلًا على عجز العسكرية المصرية عن القيام بأي عمل تفرض به الحل العربي العادل للقضية. كان المخطط العسـكري المصري، يغذي هذا الشـعور المريض بالعظمة - الذي سـيطر على العـدو - بأن دفع إلى خطة التمويه الشـاملة التي تقرر القيام بها، بالمزيد من وسـائل الخداع القاتلة.

حقًّـا إن «الحـرب خدعة» كما قال عنها رسـول الله ﷺ، وتحضرني الآن - وأنا أسـترجع ذكريـات هـذه الفترة الدقيقة من حياة الإنسـان المصري التي سـبقت 6 أكتوبـر - عبارات بالغة الذكاء، وردت في كتاب «فن الحرب» الذي كتبه الفيلسوف العسكري الصيني «صن تزو» - عام 500 قبل الميلاد - وتحدث فيها عن أهمية «الخداع» وما يحدثه من تحقيق عنصر

المفاجـأة للعـدو: «الحيلة.. أسـاس فن الحرب». «سـينتصر مـن أتقن فن الخـداع، لأنه فن المناورة».

في حقيقـة الأمر لم تكن «المفاجـأة» عاملًا وحيدًا.. بل اقترنت بـما يفرضه شروط الفكر العسكري السـليـم لنجـاح عنصر المفاجأة، وأهمهـا «السرعـة» و«السريـة الكاملة» اللتان لا تسمحان للعدو بالقيام بأي عمليات مضادة، لإجهاض الضربة التي تم التخطيط لها.

يقول القائد البروسي، مؤسـس الجيش الألماني «فـون مولتكة»: «ألاحظ أن هنالك دائمًا ثلاثـة طرق مفتوحـة أمام العـدو، ولكنه يأخذ عـادة الطريـق الرابع».. وهذه ميـزة القائد البـارع.. أن يحسـب للطريق الرابع الذي قد يسـلكه العدو، بينما يكتشـف هـو طريقًا رابعًا لخطته، لم يخطر ببال العدو.

وللمبادأة تأثير كبير على سـير الحرب.. لأن الجانب الذي يسـبق عدوه بالعمل، يتحكم في سـير المعـارك من البدايـة ومصير الحرب كلهـا في النهاية بشرط أن يسـتمر في الاحتفاظ بالمبـادأة، ليحقـق نهايـة الحـرب لصالحـه.. ولأن صاحـب الأسـبقية في العمـل الهجومـي سيسـتهدف بطيرانـه وصواريخه تدمير قواعد وصواريخ خصمـه ومعداته الجوية وتجمعاته الرئيسـة ومراكز قيادته، ويشـل إرادته على القتال، ولأن مبادأة العدو بضربة مفاجئة لتدمير قواته الرئيسـة، الجوية، والبرية والصاروخية، قبل أن يسـتخدمها، سـتحطم تمامًا معنويات العدو، وسترفع معنويات الجانب البادئ بالمفاجأة، نتيجة إحرازه بوادر النصر.. لهذا السبب فقد اتجهت القيادة المصرية لتوفير أكبر قدر من المفاجأة للعدو على جميع المستويات.

ولا شـك أن براعـة الوسـائل التـي اسـتخدمتها العسـكرية المصرية في تحقيـق «الخداع الاسـتراتيجي للعدو» - سـواء من حيث التوقيت المبتكر للضربة، أو المقدمات «الخداعية» التي سـبقتها - وما أحدثه هذا الخداع الاسـتراتيجي الناجح مـن مفاجأة كاملة للعدو، هو الـذي دفع بالمحللين العسـكريين الدوليـين إلى وصف ما حدث يوم 6 أكتوبـر، بأنه «بيرل هاربر» جديدة حلت بإسرائيل.

نجحـت الخطة إلى أن قال وزيـر الخارجية الأمريكي الدكتور هنري كيسـنجر،في مؤتمر صحفي، قبل نشـوب حرب أكتوبر مباشرة بقولـه: «إن كل تقارير المخابرات التي توافرت لدينا، وكل تقارير المخابرات التي قدمتها لنا دول أجنبية، ترى أنه ليس هناك احتمال نشوب حرب.. وأن الحكومة الإسرائيلية لم تعتقد أن هناك هجومًا وشيكًا».أما بعد المعركة وفي يوم

28 ديسمبر 1973 فإنه اضطر أن يقول: «.. فاجأتنا حرب أكتوبر على نحو لم نكن نتوقعه، ولم تحذرنا أي حكومة أجنبية، بوجود أي خطط محددة لأي هجوم عربي».

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن المفاجأة غالبًا ما تكون محفوفة بالمخاطر والمصاعب، لذلك فنجاحها يتوقف على الجرأة والعزم والتضحية، بجانب القيام بالعمل العسكري بسرعة ودون تأخير لكي يتحقق الكتمان.. وفي الوقت نفسه، تنزل الضربة بالعدو قبل أن يستعد لها، فيبقي مرتبكًا لا يقوى على معالجة ما جرى له أو امتصاص آثار الضربة الأولى، خصوصًا إذا كانت ضربة مكثفة، كالعملية الهجومية «صدام».

في يوم 16 أكتوبر 1973 وأمام مجلس الشعب عبر الرئيس السادات عن ذلك بقوله: «إن القوات المسلحة المصرية، قامت بمعجزة على أي مقياس عسكري، لقد أعطت نفسها بالكامل لواجبها، استوعبت العصر كله تدريبًا وسلاحًا، بل علمًا واقتدارًا.. وحين أصدرت لها الأمر أن ترد على استفزاز العدو، وأن تكبح جماح غروره، فإنها أثبتت نفسها. إن هذه القوات أخذت في يدها - بعد صدور الأمر لها - زمام المبادأة وحققت مفاجأة العدو، وأفقدته توازنه بحركتها السريعة.. ولست أتجاوز إذا قلت، إن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلًا، بالفحص والدرس أمام عملية يوم السادس من أكتوبر 1973».

وجاء في تقرير دور «ميدلتون» الخبير الأمريكي في شئون الشرق الأوسط: «أثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الإبقاء على السر، وأن في وسعهم أن يتصرفوا بقوة وحكمة. وفعلًا، لقد تلقى العالم أنباء الحرب، من إذاعة جمهورية مصر العربية، بدهشة المفاجأة».

ولو أمعنا النظر بالدرس والفحص، في الوسائل والخدع التي عمدت إليها القيادات السياسية والعسكرية، في كل من مصر وسوريا.. فسنجد أنفسنا أمام عمليات مجهولة الأطراف، ليس أدل على نجاحها، من وقوع القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية في الشراك التي نصبت لها، فتحققت المفاجأة المطلوبة، على أعلى مستوى من الخداع الاستراتيجي والتعبوي والتكتيكي للعدو.

إن الحديث عن «المفاجأة» يبدو بسيطًا بدون أن ننتبه إلى أنه كان ثمرة طبيعية، لحرص الإنسان المصري على كتمان السر.. بالإضافة إلى القدرة العالية على الانضباط، التي تميزت بها القيادات على جميع المستويات، الكبرى والصغرى، لا في مسرح العمليات وحده،

بل على مستوى الدولة كلها، سواء في ذلك، السادة الوزراء أو كبار المسئولين في مختلف القطاعات وعلى الأخص المسئولون عن الإعلام المصري.

لقد دهمت «الشرارة» - بمجرد اندلاعها - جيش إسرائيل بينما كان يلهو، في سكون عيد الغفران، فوُجِد جنود كثيرون داخل النقط الحصينة المكونة لخط بارليف يغسلون ملابسهم، وآخرون يطهون طعامهم أو يستحمون في مياه القناة.

ولقد ساعدت حالة الاسترخاء الدولية، التي صاحبت حالة اللا سلم واللا حرب، السابقة للسادس من أكتوبر 1973، على وضع قضية الشرق الأوسط في ثلاجة.. وظن الكثيرون بعدها، أن مدة بقائها تحت التجميد ستطول لعدة سنوات، وأن الزمن سيكون كفيلًا بفرض الأمر الواقع على الدول العربية.

وصل الأمر بوكالة «يونايتدبرس» أن نشرت يوم 11 ديسمبر 1972 من بروكسل، خبرًا يقول: «إن أربعين في المائة فقط من الأسلحة المصرية، وستين في المائة من طيرانها هي التي تعمل، ويقولون في بعض الدوائر الدبلوماسية البلجيكية، إن ذلك راجع بصفة رئيسة إلى سوء صيانة العتاد العسكري، وإلى نقص قطع الغيار المصنوعة في الاتحاد السوفيتي. وهناك تقرير سري يكشف عن أنه خلال التدريبات التي قامت بها مصر، منذ حرب الاستنزاف، فإنها فقدت على الأقل خمسين طائرة من الطائرات المقاتلة».

وفي 26 ديسمبر 1972، نشرت الفايننشيال تايمز مقالًا قالت فيه: «إن الجيش العربي، ليس مستعدًّا على الإطلاق للقتال، حتى إن كان جانب من هذا الجيش ينشد خوض حرب ضد إسرائيل، ومنذ أن غادر الخبراء السوفييت، فإنهم أخذوا معهم جزءًا لا يستهان به من أسلحتهم الحديثة، ففقد الجيش المصري - ليس فقط - قدرته الهجومية، بل فقد أيضًا قدرته على الدفاع».

ومن القاهرة أيضًا، كتب «إيجورمان» المراسل الخاص لصحيفة «لاستامبا» الإيطالية: «إن الفساد ينتشر في مصر.. والجيش المصري لم يعد لديه ذخائر تكفيه إلا لأسبوع واحد». وكتب «رولان ولكور» محرر صحيفة «الموند» الفرنسية في تلك الفترة: «إن جانبًا كبيرًا من الخمسمائة أو الستمائة ألف جندي مصري مرابطون عند القناة، ولا يعرفون شيئًا عن القتال.. إنهم يُستخدمون في الخدمات المعاونة.. وأما الذين استدعوا أخيرًا إلى الخدمة العسكرية، فإنهم عاجزون تمامًا عن استخدام العتاد السوفيتي».

من هذا السيل - الذي نشر في معظم الصحف والمجلات العالمية - ابتلع العدو الطعم القاتل الذي أجدنا تقديمه له على طبق براق اسمه «الصحافة العالمية» والتقارير السرية الموثوقة.

ورغم أن هذا التكتيك الذي يكمن في نشر أنباء ومعلومات زائفة في الصحافة الدولية، أمر معروف في الفكر العسكري وتتبعه معظم الدول المتقدمة، فإن الصحفيين غالبًا ما يجهلون أن المعلومات التي يحصلون عليها من «خبراء» أو من «مصادر موثوق بها» إنما هي معلومات زائفة، صنعت عمدًا، ولها أهداف معينة خداعية مرسومة بإحكام. ويعلق الصحفيون الإسرائيليون في كتاباتهم «كيبور» على ما كان يقدم للصحافة العالمية من أنباء زائفة مضللة، انخدعت بها إدارة المخابرات الإسرائيلية نفسها.. فيقولون: «لقد اعترف المشير أحمد إسماعيل على نفسه بانتهاج هذه الأساليب، وأشار إلى الخبر الذي نشروه عن زيارة يقوم بها وزير الدفاع في رومانيا يوم 8 أكتوبر، وما نشر عن السماح للضباط والجنود بتأدية فريضة الحج..

« إن وزير الحربية المصري يؤكد أن مصر قد لجأت إلى سياسة تضليل العدو، وأن الأنباء التي تعطى للصحف كانت جميعها متعمدة، وأن مستوى الروح القتالية في الجيش المصري، قد صور على أنه منخفض.. وكل ذلك كان مناورة لها أثرها، إذا أضيفت إلى مفاجأة شن الحرب، الأمر الذي أتاح لمصر وسوريا في مواجهتهما لإسرائيل، أفضل الظروف للتفوق الأولي».

لقد كان لابد لهذا الخداع التكتيكي، أن يؤدي دوره منذ الأيام الأولى من شهر أكتوبر، إلى التحركات الظاهرية للقوات المصرية، التي تمت تحت سمع وبصر الجيش الإسرائيلي، على أنه «تدريب عام» على هيئة مشروعات أو مناورات.. وهكذا.. حل عيد الغفران، والجيش الإسرائيلي غارق في سبات عميق، مثل إسرائيل كلها.

كان هذا عملًا مخططًا، وقد انعكس بشكل حصيف على الأسلوب الواقعي الذي انتهجه قادة القوات الجوية المصرية، في الفترة السابقة لعمليات أكتوبر الحقيقية. كان أبسط الانعكاسات لدى جميع الضباط والأفراد، أن الإعداد والاستعداد الجاري على قدم وساق، ما هو إلا امتداد واستكمال لسلسلة المناورات التعبوية، التي كثيرًا ما تدربوا عليها ونفذوها عشرات المرات حتى تعودوا عليها. وبلغ تصور الجميع على مختلف رتبهم ومناصبهم، أن

ما سيجري لن يتعدى مناورة كبيرة، تشترك فيها أجهزة القوات المسلحة بأكملها، كما كان الشأن كل خريف.

لِمَ لا يكون هذا التصور صحيحًا.. وقد انشغل الجميع بما أذيع عن فتح باب العمرة والحج لضباط القوات المسلحة.. وكان ذلك - كما هو معلوم - غير مصرح به طوال حرب الاستنزاف وما بعدها. وتأكد هذا التصور، بما تعمدنا إذاعته وتناقلته جميع السلطات - بلا إجراءات تأمين - من إنهاء استدعاء أعداد كبيرة من جنود الاحتياط، كان قد تم استدعاؤهم قبل ذلك بفترة قصيرة، ونفذت إجراءات التسريح بالفعل بكل دقة واهتمام.

من جانبي شخصيًّا، واستمرارًا في خطة الخداع الشامل للعدو، والتدقيق في إبقاء قرار بدء القتال حبيسًا في الصدور، لم أتوجه كقائد للقوات الجوية المصرية - وقتئذ - إلى مركز العمليات الرئيسي، إلا قبل ساعة الصفر بقليل، بعدما أعلن - وقتها - أنني أسافر يوم 6 أكتوبر، في مهمة إلى ليبيا تتعلق بالقوات المتمركزة هناك.. وبالفعل تم تجهيز الطائرة الخاصة بتنفيذ المأمورية، وجُعلت تحت الاستعداد، بعد تأجيل موعد إقلاع الطائرة، علانية على شبكات التحركات، ليكون الموعد الجديد قرب الساعة الثانية بعد ظهر نفس اليوم.

وعندما توجه رئيس أركان القوات الجوية المصرية اللواء الطيار محمد نبيه المسيري إلى بعض القواعد الجوية، ليعطي اللمسات الأخيرة على خطة تنفيذ الضربة الجوية المركزة «صدام» لم يستشِفَّ أحد ممن رافقه، أي شيء غير عادي.. فقد كانت التشكيلات الجوية قد تعودت على زيارات كبار القادة ورؤساء الأجهزة خلال فترات متقاربة.

واحترمت قواعد السرية بصرامة في كل شيء، منذ وضع اللمسات الأولى للخطة بواسطة عدد محدود من القادة، وعدم تداول وثائقها إلا بخط اليد، وعدم تحديد ساعة «س» إلا لدى عدد محدود جدًّا من المستويات العليا للقيادة. وفضلًا عن ذلك فقد روعي الصمت اللاسلكي منذ إقلاع الطائرات لتنفيذ الضربة تمامًا حتى بلوغها أهدافها. وبلغ الكتمان ذروته، لدرجة أن كثيرًا من العاملين في تجهيز الطائرات التي تحملت واجب القيام بتنفيذ الضربة الجوية الأولى المركزة، لم يكن يدرك شيئًا عن حقيقة مهمتها، ولم يتبين أحد أن الأمر جدّ، إلا بعد عودة هذه الطائرات من مهمتها، وطلب الطيارين إعادة الملء بالوقود والذخيرة.

تم اختيار يوم «الشرارة» وساعة «الصفر»، على ضوء عوامل مدروسة لها آثار كبيرة على

الطائرات وأداء الطيارين لمهامهم. وعبَّر المرحوم المشير أحمد إسماعيل عن ذلك في أعقاب المعركة بقوله: «كان تحديد يوم «ي» عملًا علميًّا على مستوى رفيع، وهذا العمل سوف يأخذ حقه من التقدير، وسوف يدخل التاريخ العلمي للحروب، كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الأمين».

لقد سأل «أرنودي بورجراف»، كبير مراسلي مجلة «نيوزويك» الأمريكية، الرئيس السادات :«ما العوامل الرئيسة في قرارك بتحديد السادس من أكتوبر يوما لبدء المعركة؟ وهل صحيح أن القرار الذي اتخذه نيكسون وبريجينيف في ربيع 1973 بوضع مشكلة الشرق الأوسط في الثلاجة، والبرنامج الذي أعلنه حزب العمل الإسرائيلي بعد ذلك وما انطوى عليه من برامج توسعية تهدف لضم الأراضي المحتلة، هي الأسباب التي رجحت كفة الحرب؟».

وأجاب السادات: هذا «صحيح جزئيًّا.. ولكن يجب أن تضع في اعتبارك عوامل أخرى، ففي البيان الذي صدر عن اجتماع القمة بين بريجينيف ونيكسون في موسكو في العام الأسبق، كانت هناك إشارة إلى الاسترخاء العسكري، وكان معنى هذا بطريقة أوتوماتيكية، أن حالة اللا حرب واللا سلم، سوف تستمر إلى أجل غير مسمى.. ولم يكن هذا بالأمر الذي يمكننا احتماله.

إن أحدًا من الاستراتيجيين في الولايات المتحدة أو إسرائيل، لم يصب شيئًا من الحقيقة في حدسه عن الأسباب التي دعتني إلى طلب خروج المستشارين العسكريين السوفييت من مصر في يوليو 1972، لقد ظن الجميع أنني تخليت عن الحرب كوسيلة للخروج من المأزق، وقالوا جميعًا إنني لن أستطيع دخول الحرب بغير المستشارين السوفييت. حسنًا، ولكني بخروج العسكريين السوفييت من بلادي، كنت أريد أن أكون على يقين من أن أحدًا لن يزعم في المستقبل أن ما فعلناه كان بإسهام وبمساعدة من السوفييت.

فإذا كان هناك نصر عربي، فلابد أن يكون نصرًا عربيًّا بكل الوضوح اللازم. وأي نصر يمكن أن يصفه العالم بأنه نصر غير عربي، كان جديرًا بأن يهزم كل أهدافي الاستراتيجية البعيدة المدى».

تحقق للمفاجأة أهم أركانها.. وهي المخادعة، نتيجة لترحيل الخبراء السوفييت، قبل حرب أكتوبر مباشرة، يقول الجنرال «هارون ياريف» رئيس هيئة المخابرات والمهام الخاصة الإسرائيلية،حول ترحيل السوفييت وتأثيره: «في رأيي أن الآثار الرئيسة عسكرية وليست

سياسية، فإنه نتيجة لرحيل الروس، يضعف الجهاز العسكري المصري، خصوصًا فيما يتعلق بالدفاع الجوي، كما أن إمكانية مصر على الدخول في أعمال حربية جديدة، قد قلت على الأقل في المستقبل القريب».

في كتاب كيبور يقول الإسرائيليون: «والواقع أن الشرك المصري كان جاهزًا تمامًا، يوم السبت 6 أكتوبر.. فقد اجتمع هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي بالدكتور محمد حسن الزيات مستشار الرئيس المصري، وجرى اجتماعهما في جو هادئ، وتناول الحديث مبادرة السلام التي كان كيسنجر يفكر في القيام بها بعد الانتخابات التشريعية في إسرائيل، التي كان ينتظر إجراؤها يوم 29 أكتوبر، ولم يدرك كيسنجر إلا بعد اندلاع الحرب، أن الزيات الذي كان بالضرورة على علم بتاريخ الهجوم، قد قام بدوره خير قيام في مناورة التضليل، التي وضعت حساباتها في أدق تفاصيلها».

في ذات الكتاب يحلل الإسرائيليون سبب اختيار يوم 6 أكتوبر: «تحديد موعد الهجوم بيوم 6 أكتوبر لم تضعه هيئة أركان الحرب المصرية اعتباطًا.. فلقد كانت هناك عدة عوامل حاسمة، أولها أن الليلة التالية للهجوم مباشرة يجب أن يكون القمر فيها بدرًا، إذ إن ضوء القمر سوف يساعد قوات الهجوم في الساعات الحرجة.. وثانيها أن سرعة التيارات في القناة قد درست بعناية لإمكان اختيار وقت للعبور.. وثالثها أن الإسرائيليين سيكونون في يوم عيد الغفران أقل ما يمكن استعدادًا ماديًّا وسيكولوجيًّا للرد على الهجوم».

بالنسبه للقوات الجوية كان اختيار اليوم «6 أكتوبر»، موفقًا لكونه في فصل الخريف، الذي يتميز بجو صحو في مصر والشرق الأوسط عامة تحسن فيه الرؤية على الطيارين وهم في الجو، ويقل فيه السحاب، ويندر فيه المطر.. مما يجعل مهمة الطيارين ميسرة. وكان القمر في تربيعه الأول، يغمر نوره كل المعالم الأرضية.. بما يسهل الطيران الليلي.

وكان اختيار الساعة الثانية بعد الظهر، لعبور الطائرات المصرية خط الجبهة لتنفيذ الضربة الجوية المركزة الأولى، مناسبًا لكون الشمس خلف الطائرات المصرية القادمة من الغرب، بينما تكون الشمس بالتالي في مواجهة الطائرات المعادية فيما لو حاولت صد الهجوم، ما يقلل من كفاءة الرؤية لدى طياريها الإسرائيليين. فضلًا عن أن الوقت المتبقي لدى العدو، لإصلاح ما تعطل من مطاراته وممراته الرئيسة والفرعية، بين الساعة الثانية، ووقت الغروب، لم يكن يزيد على أربع ساعات، لا تكفي مطلقا لإتمام أي إصلاح لإقلاع

أي طائرات، ومن ثم فلن يتمكن العدو من الرد على الضربة المركزة قبل صباح اليوم التالي. وبالفعل لم تنشط طلعات طيران العدو إلا اعتبارًا من صباح يوم 7 أكتوبر.

أسترجع الآن ما قاله الجنرال بارليف، المقترن باسمه الخط العسكري الشهير، وهو يبرر لماذا سقط الخط نتيجة للمفاجأة التي أحدثتها القوات المصرية.. إذ كتب: «لقد أخذنا الهجوم المصري على غرة، فلم يستطع هذا الخط الكبير، أن يستقبل في الوقت المناسب، القوات التي كان يجب أن تشغله وقت الحرب، ومن هنا فإن الخط لم يتحمل التجربة الحقيقية.. وبمعنى آخر، فإنه لم يواجه المصريين ساعة هجومهم عليه إلا باسمه».

في إطار خطة الخداع، قبل يوم الحرب بليلة، وفي الساعة الرابعة إلا عشر دقائق، من ظهر الجمعة 5 أكتوبر 1973، رفعت سماعة التليفون بمكتبي بقيادة القوات الجوية، متوجهًا بالحديث إلى خمسة من كبار ضباط السلاح.. وقد كانوا جميعًا ينصتون لي على الخط الداخلي.. قلت لهم: «أمام كل منكم ساعتان لتجهيز البيانات المطلوبة، إذا تقرر سفركم معي في مهمة عمل عاجلة إلى ليبيا، تستغرق أربعًا وعشرين ساعة.. وستخطرون بموعد الإقلاع».

عقب المكالمة المقتضبة، قام سكرتيري العسكري بالاتصال العاجل بالملحق العسكري المصري في طرابلس، لإبلاغه بموعد وصول الطائرة التي ستقلني مع هيئة القيادة إلى ليبيا.. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، وعلى تليفون داخلي آخر، تلقى قائد إحدى القواعد الجوية بمنطقة القاهرة الإشارة التالية: (تجهز طائرة القائد لسفره ومجموعة قيادته إلى ليبيا.. الإقلاع: اليوم الجمعة 5/ 10/ 1973 الساعة 1800 قاعدة الهبوط: طرابلس.. العودة: باكر.. تخطر الجهات المختصة، وتتم التصديقات اللازمة.. نوافي بتمام الاستعداد. انتهى).

قام قائد القاعدة الجوية بالإجراءات اللازمة، وتم بالفعل تعيين «طاقم الطائرة» التي ستقل قائد القوات الجوية في رحلته المفاجئة إلى ليبيا، واتخذت إجراءات تأمين الرحلة، بالاتصال بالدفاع الجوي، والطيران المدني، لتحديد خط السير في الممر الدولي.

في الساعة 1700 أي الخامسة من مساء الجمعة 5 أكتوبر تلقى سكرتيري العسكري، بلاغًا من قائد الطائرة بتمام الاستعداد.وفي الساعة 1740.. قام سكرتيري العسكري بإبلاغ قائد الطائرة بالإشارة التالية:(تؤجل الطلعة إلى باكر السبت 6/ 10/ 1973 يعمل ترتيب الإقلاع الساعة 1000 أي العاشرة صباحًا. انتهى).

في الوقت الذي توجه فيه قائد الطائرة إلى استراحة المطار، ليبيت ليلته، في انتظار الرحلة

التي لم تتم انصرف ضباط القيادة الجوية الخمسة الذين أبلغوا بالاستعداد للسفر معي إلى مكاتبهم، لكي يواصلوا أعمالهم التي كانوا مكلفين بها قبل المهمة المفاجئة. وتطلع شمس اليوم التاريخي، وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح السادس من أكتوبر، يتلقى قائد الطائرة الإشارة التالية: (تحدد موعد الإقلاع، الساعة 1330 أي الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم، انتهى).

وفي اللحظة التي انصرف فيها قائد الطائرة، لاتخاذ الإجراءات الخاصة بتنفيذ التعليمات الجديدة، تصدر من مكتب السكرتير العسكري، إشارة عاجلة أخرى، موجهة إلى كبار الضباط بقيادة القوات الجوية، تدعوهم إلى الاجتماع بي في قاعة الاجتماعات الكبرى بمركز القيادة الرئيس، في تمام الساعة 12.30 أي قبل الموعد المحدد لسفري إلى ليبيا بساعة واحدة فقط.

وتم الاجتماع العاجل في موعده ومكانه المحددين وتلقى مني ضباط الأركان، وقادة التخصصات المختلفة في السلاح الجوي، تعليمات التلقين النهائي قبل تنفيذ المهمة التاريخية، ثم طلبت من الجميع أن يحتلوا أماكنهم في غرفة العمليات الرئيسة للقوات الجوية.. وتحرك الجميع لأداء واجبهم، وفجأة تقدم مني أحد الضباط ليسألني هامسًا: ما موقف مأمورية ليبيا؟ وقلت له وأنا أبتسم في هدوء: وهل صدقت أننا كنا مسافرين فعلاً.. تفضل إلى مكانك في الغرفة الرئيسة فورًا.

وعندما تأهبت لدخول غرفة العمليات الرئيسة، استعدادًا لإطلاق إشارة البدء بتنفيذ العملية «صدام» أخطرت بأن قائد الطائرة المعدة لرحلة ليبيا يسأل بالتليفون: (هل أحضر الطائرة من مكانها في الانتشار إلى مكان كبار الزوار.. وهل هناك أي تأجيل «جديد» لطلعة ليبيا).

أعترف الآن بأنني أحسست ساعتها بالإشفاق على قائد الطائرة، وتصورته وأنا أبتسم وهو يتساءل بينه وبين نفسه على الأقل عن هذا القائد الذي يتأرجح عشرات المرات في تحديد موعد رحلة يقوم بها إلى ليبيا.. ورغم إشفاقي على الطيار الشاب، لم أتردد في إصدار تعليماتي التي تلقاها قائد الطائرة بالتليفون.. الضابط بغرفة العمليات الرئيسة: (الطلعة في موعدها.. أحضر الطائرة من مكان الانتشار إلى مكان كبار الزوار.. السيد قائد القوات الجوية في الطريق إليكم).

أنا على يقين الآن من أن قائد الطائرة، حين تلقى هذه التعليمات في الدقائق السابقة على تنفيذ عملية «صدام» قد تنهد ارتياحًا، لأن (هذا القائد المتردد قد حسم أمره أخيرًا).. كما

أنني على يقين أيضًا، من الطيار الشاب الذي تعذب يومين من أجل رحلة لم يقدر له أن يقوم بها سيقرأ الآن ما حدث، ويبتسم ابتسامة الفهم للسبب الحقيقي وراء ما بدا له من ترددي في تحديد موعد لطلعة واحدة، فضلًا عن قيادة سلاح جوي بأكمله.

بالتوازي مع هذا كانت هناك واقعة أخرى جرت حوادثها في الساعة الواحدة بعد ظهر سبت السادس من أكتوبر بأحد الصالونات الأنيقة بإدارة المخابرات الحربية المصرية.. في ذلك الموعد الذي يسبق تنفيذ عمليتنا الجوية «صدام» بساعة واحدة فقط عقد اجتماع ضم أحد كبار ضباط المخابرات الحربية، وضابطًا مسئولًا عن المخابرات الجوية، و.. الملحق الجوي بالسفارة البريطانية في القاهرة (قائد الجناح الجوي البريطاني.. بارينكوت).

لقد عقد الاجتماع بناء على طلب الملحق الجوي البريطاني، وفي الموعد الذي حدده بنفسه..أما سبب الاجتماع فهو «بحث التدابير اللازمة لتأمين إحدى طائرات السرب الملكي البريطاني من طراز «كوميت»، التي ستقل الأميرة مارجريت، عند طيرانها في أجواء مصر، في جولة سياحية فوق المعالم الأثرية، خلال الزيارة الرسمية التي تقرر أن تقوم بها الأميرة خلال النصف الأول من شهر نوفمبر 1973».

خلال الاجتماع، دارت مناقشات فنية معقدة، بين الملحق الجوي البريطاني والضابطين المصريين، وتمت كلها بشكل يوحي بأن الرحلة ستتم في موعدها تمامًا، وأكثر من هذا، فقد كانت هذه المناقشات توحي - بما لا يدع مجالًا للشك - بأن كل شيء هادئ تمامًا. ومن المؤكد أن الملحق الجوي البريطاني «بارينكوت» لم يتصور يومها أن المكالمة العاجلة التي تلقاها مندوب المخابرات الجوية أثناء الاجتماع، كانت خاصة بتأجيل رحلة الأميرة البريطانية إلى موعد يحدد فيما بعد حرصًا على سلامتها، لأن العملية «صدام» كانت قد بدأت بالفعل في تلك اللحظة.

في ذات اليوم - السادس من أكتوبر..وقبل الظهيرة - رصدت أجهزة الإنذار المبكر، طائرة استطلاع «إلكتروني» كبيرة الحجم ومتوسطة السرعة كانت تحلق فوق مياه البحر الأبيض أمام سواحلنا الشمالية، وعلى الفور تحركت غرف العمليات المتخصصة في قوات الدفاع الجوي، في دراسة عاجلة للموقف بجميع احتمالاته:

- أن هذه الطائرة المجهولة الجنسية قد تكون إسرائيلية، وقد تكون أمريكية.
- في كلتا الحالتين، فوجود هذه الطائرة في المنطقة قد يعني أمرًا خطيرًا، وهو أن العدو،

قد توصل بوسيلة ما إلى معرفة سر الضربة الجوية «صدام»، التي يقترب موعدها الآن بشكل مخيف.

- وإذا لم يكن العدو قد عرف بأمر «صدام»؛ فإن استمرار تحليق هذه الطائرة الاستطلاعية التي يمكن أن تكون من حاملات الرادار سيؤدي إلى كشف الضربة الجوية «صدام» بمجرد تحليق الطائرات المصرية واتجاهها إلى الشرق عبر قناة السويس.

في مواجهة هذه الاحتمالات الخطيرة، كان لا بد من اتخاذ الإجراءات الضرورية، التي تضمن التخلص من هذه الطائرة الملعونة، وتضمن لقواتنا الجوية، استمرار جدار الصمت والسرية، الذي أحكمت إسداله، قبل تنفيذ عمليتها الهجومية المركزة «صدام». وعلى الفور، أصدرت الأمر باتخاذ الإجراءات السريعة التالية:

1 - إذا كانت هذه الطائرة الاستطلاعية، قد حلقت بالقرب من سواحلنا الشمالية، لرصد حركة قواتنا الجوية، فيجب أن يكون آخر ما تقوم هذه الطائرة بالتقاطه ثم إبلاغه من معلومات.. هو أن «كل شيء طبيعي» بالنسبة لسلاح الجو المصري.

ومعنى هذا، أن فترة الصمت التي لجأت إليها القواعد الجوية والمطارات المصرية، يجب أن تكسر فورًا، ويجب أن تصعد إلى الجو مجموعات من طائراتنا، في طلعات تدريبية تقليدية.. لكي يطمئن العدو، الذي يرصد حركتنا عن طريق هذه الطائرة الاستطلاعية، أو عن طريق غيرها من وسائل الرصد والتنصت الإلكتروني إلى أن قواتنا الجوية تمارس «حياتها الطبيعية».. لأن الصمت المفاجئ، يحمل إلينا مخاطر اكتشاف العدو لنوايانا الهجومية.

بالفعل، صعدت إلى الأجواء المصرية مجموعات من طائراتنا، في طلعات تدريبية، استمرت إلى ما قبل موعد العملية «صدام» بدقائق.

2 - في الوقت نفسه، صدرت الأوامر لتشكيل من طائراتنا المقاتلة بالاستعداد الفوري للقيام بطلعة اعتراضية، تتصدى للطائرة الاستطلاعية التي تحلق في اتجاه سواحلنا الشمالية. وقبل أن تقوم طائراتنا المقاتلة بمهمتها، استدارت الطائرة الاستطلاعية متجهة إلى الشمال، وغابت فوق مياه البحر الأبيض فجأة، كما ظهرت فجأة.

لو أن هذه الطائرة الغامضة، تأخرت بضع ثوان، لكان من المحتم علينا تدميرها بأي ثمن.. ولكي يتصور الجميع أبعاد الموقف العصيب، الذي واجهناه بظهور هذه الطائرة، في اللحظات

التي تسبق تنفيذ خطتنا المصرية الجوية «صدام». فإنني أضع الآن التفاصيل الكاملة لصورة المعاناة التي تحملناها بشجاعة وصبر، لكي نصل في النهاية إلى هذه اللحظة التاريخية.

لقد خططت القوات الجوية لضربتها المركزة الأولى في سرية تامة، وبعناية فائقة لاختيار الأهداف المعادية التي يعطي تدميرها حرية في استخدام القوات الجوية بعد ذلك، ثم اختيار أنسب أساليب تنفيذ الضربة، وعدد الطائرات اللازمة لتحقيق الشلل في قوات العدو، وقد اقتضى ذلك تحديد عدد الطائرات اللازمة لكل هدف على حدة، والتسليح اللازم لإسكاته واللازم لتدميره، وأسلوب الحماية اللازم لنجاح الضربة المركزة دون تدخل طائرات العدو ضد مقاتلاتنا القاذفة.

اقتضت سرية الإعداد والتخطيط للضربة اتخاذ احتياطات معينة.. منها:

- عدم القيام بإعادة تمركز أي تشكيل جوي قبل المعركة بوقت طويل، حتى لا يتنبه العدو إلى وجود نوايا جديدة. وعندما اقتضت حاجة التدريب تحريك سرب واحد لتدريب طياريه على الهجوم على ارتفاعات منخفضة قبيل المعركة، فتم تنفيذ ذلك بحبكة خداعية.. إذ أرسل السرب في مهمته التدريبية، وهبط الطيارون على ارتفاعات منخفضة، ولكنهم لم يتسلموا أوامر التنفيذ إلا بعد الهبوط في القاعدة الجوية الجديدة.
- قام كثير من التشكيلات الجوية - عمدًا وبأوامر منسقة - بتدريباته العادية صباح يوم الضربة.
- لم تصدر الأوامر إلا إلى قادة التشكيلات الجوية بالاستعداد، ولم تعط الأوامر النهائية في صورة تلقين، إلا قبل تنفيذ الضربة، بالوقت الذي يسمح بالتنفيذ الجيد.

كانت الفترة من 3 إلى 6 أكتوبر 1973 هي الفترة التحضيرية للعملية الهجومية الاستراتيجية «بدر».

وقامت وحدات الاستطلاع الجوي بالقوات الجوية - في سرية تامة، لم تعط العدو أي فرصة لاكتشاف حقيقة ما نخبئه - له بالأعمال الآتية:

1 - التصوير العالي لقدرات العدو على طول المواجهة، للمناطق من «رأس مسلة» حتى «بورسعيد»، وبعمق حتى 20 كيلو مترًا شرقًا.. لتحديد حجم ونشاط قوات العدو ولكشف نواياه.

2 - القيام باستطلاع إلكتروني عام للجبهة لتحديد آخر تمركزاته لمواقع الصواريخ «الهوك» ومحطات التوجيه والإنذار ورادار قيادة نيران المدفعية الإسرائيلية.

3 - الاستطلاع بالنظر وبالتصوير على ارتفاع منخفض لقوات وأهداف العدو بمحاذاة القناة وفي سيناء «واستمر ذلك طوال فترة العمليات».

4 - بالتصوير العالي لساحل خليج السويس.

5 - الاستطلاع بحرًا بالنظر في البحر الأبيض المتوسط.

وكما يعرف الجميع لم نكن وحدنا في هذه المعركة، وكان لا بد من التنسيق الجوي مع الأشقاء في القوات الجوية السورية.. وقد تم التخطيط المشترك بيننا لتنفيذ ضربتين جويتين مركزتين .وكان موعد الضربة الجوية المركزة الأولى.. عند بدء العمليات الهجومية، والثانية.. بعد ساعتين ونصف الساعة من الضربة الأولى. وكان الغرض من الضربة الأولى الحصول على السيطرة الجوية المحلية فوق مناطق عبور القوات البرية المصرية.

كنا نريد تحقيق ما يلي:

- شل مطارات العدو القريبة «المليز، تمادا، رأس نصراني» لمنع العدو من استخدامها بواسطة المقاتلات والمقاتلات القاذفة، ولحرمانه من سرعة التدخل ضد عمليات القوات الجوية المصرية، ولمنعه من سرعة معاونة قواته البرية، أو مهاجمة الجيوش الميدانية المصرية، بحمولات كبيرة من الذخائر.

- شل وسائل الدفاع الجوي المعادي، ما يوفر حرية طائرات القوات الجوية المصرية، في العمل لمعاونة وحماية الجيوش الميدانية المصرية المهاجمة.
- شل مراكز القيادة والسيطرة والتوجيه ورادارات العدو، لإرباك نظام قيادة العدو، بحيث يفقد السيطرة على قواته.
- تدمير مراكز الإعاقة الإلكترونية والشوشرة المعادية، للحيلولة دون تدخلهما في الهجوم.
- خلق موقف جوي مناسب يساعد الجيوش الميدانية المصرية على القيام بتنفيذ العملية الهجومية.
- التعامل مع احتياطيات العدو «خاصة المدرعة» المتقدمة في العمق التعبوي، للقيام بالهجوم المضاد ضد القوات المصرية.
- الاشتراك في تنفيذ مهام الدفاع الجوي طبقًا للموقف.

هذه هي الصورة النهائية التي كنت أواجهها وأنا جالس بغرفة العمليات الرئيسة في

الدقائق الأخيرة التي تسبق اللحظة التاريخية، وكان الإحساس بضخامة المسئولية التي نتحملها أمام شعبنا المصري، وأمام أمتنا العربية، وأمام أجيالنا القادمة، بل أمام تاريخنا كله يملأ عليَّ كياني.

رغم اطمئناني الكامل إلى سلاسة خطتنا، وبنائها المحكم. ورغم ثقتي الكاملة في قدرة طيارينا المقاتلين على تنفيذها بأعلى مستوى من الدقة والنجاح، ورغم النتائج المشرفة التي حققتها التجارب للضربة - تلك التجارب التي قامت بها قواتنا الجوية بنفس الأطقم التي اشتركت في تنفيذ العملية فيما بعد، وكان آخرها قبل 6 أكتوبر بفترة متناهية في القصر - رغم كل هذه العوامل المطمئنة، فإن الإحساس بالمسئولية بجميع مستوياتها القومية والإنسانية والتاريخية، كان يضعني فيما بيني وبين نفسي أمام تساؤلات لا نهاية لها.

كنت يومها صائمًا ككل الرجال في سلاحنا الجوي الذين أصروا على الصوم منذ بدء شهر رمضان وعندما بدأ الاجتماع الذي تم بيني وبين كبار الضباط في قاعة الاجتماعات الكبرى بقيادة السلاح، أردت أن أقول لهم بلا كلمات.. إن اللحظة التي عاشوا جميعًا في انتظارها حلت.

وفي نبرات ثابتة، طلبت «فنجان قهوة».. وتبادل الرجال فيما بينهم نظرات سريعة، وفهموا الرسالة الشفرية التي يعنيها طلب قائدهم الذي يحرص على فريضة الصوم فنجانًا من القهوة في نهار العاشر من رمضان.. إنها الحرب إذن.

لم يفُه أحدهم بالسؤال، ولكن عيونهم الذكية طرحته على صمت، وهززت رأسي بالإيجاب..وإحساس بالرضا يملأ عليَّ كياني، وشعور الفخر بهؤلاء الرجال يهز أعماقي.. لم أكن أتصور أن حرصهم على السرية والكتمان، يمكن أن يصل بهم إلى الحد الذي يترددون معه في التصريح باسم العملية التي أعدوا لها فأحسنوا الإعداد حتى في اللحظة التي تأكدوا فيها أنهم مقدمون على التنفيذ.

يقينًا، لن يخذل الله مثل هؤلاء الرجال الذين تحملوا، وبذلوا وكتموا السر فأحكموا كتمانه، وأخلصوا الجهد لله وللوطن ولأمتهم العربية لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.. ولقد أحسن هؤلاء الرجال عملهم، وأتقنوه كأفضل ما يكون الإتقان، فعلى بركة الله، ولنتجه إلى غرفة العمليات الرئيسة.

أمام منصة القيادة في غرفة العمليات الرئيسة، جلست وحولي هيئة الأركان الجوية،

وضبـاط القيـادة، وعيوننا بسرعة خاطفة بـين الخرائط التفصيلية التي ترسـم أمامنا صورة دقيقة لكل شيء.. وبدأت عقارب الساعة تقترب من موعدنا مع القدر.. وبدأ العد التنازلي في اتجاه الدقيقة المحددة الدقيقة الخامسـة بعد السـاعة الثانية من ظهر السـادس من أكتوبر وفتـح الميكروفـون الموضوع أمامي، عـلى جميع غرف العمليـات الفرعيـة بالقواعد الجوية والمطارات التي تقرر أن تشترك في تنفيذ الغريزة «صدام» .

داخلنـي إحسـاس غريب في الثواني الأخـيرة، بأن هذا الميكروفون المفتـوح أمامي - وكله آذان مصغية لما أتفوه به - قد تحول إلى عين هائلة. تطل منها سبعة آلاف عام من تاريخ الإنسان المصري على هـذه الأرض الطيبة، لتبارك هذه اللحظة الرائعة في عمر مصر، التي يسـترد فيها إنسانها العظيم روحه القوية، ويملك إرادته التي هزمت كل الغزاة، وسحقت كل المعتدين.

وأرجـو صادقًـا، ألا يتطـرق أحـد - ولو للحظـة - أن مـا أكتبه الآن - تسـجيلًا لتلك اللحظـة التاريخية - يحمل مسـحة الخيـال، أو يمتزج ببراعـة من يجيد التخيـل والابتكار.. فلسـت إلا طيارًا مقاتـلًا، وهب عمره لبلده وحمل روحه على كفه يجود بها في سـخاء، فداء لشـعبه وتراب وطنه.. كما أرجو أن يشـاركني الجميع الأبعاد الحقيقية للموقف الذي كنت أجتـازه في تلـك اللحظة التاريخية، ليؤمن بصدق كل حرف أسـجله الآن عن تلك اللحظة التي تساوي العمر كله، والتي استطعت كطيار مقاتل واستطاع كل الرجال في قواتنا الجوية على اختلاف تخصصاتهم أن يردوا خلالها «الدين القديم» لسلاح الجو الإسرائيلي.

في صوت قوي النبرات، يملؤه الإيمان بنصر الله، وتملؤه الثقة في الرجال، ويملؤه الحب لهذا الوطن، والاعتزاز بهذا الشـعب الأصيل، وفي تمام السـاعة الثانية والدقيقة الخامسة من بعـد ظهر يوم سـبت العاشر من رمضان السـادس من أكتوبر، أطلقت خـلال الميكروفون إشارة البدء.. قلت: باسم الله..«صِدام».

سرت كلمـة السر «صـدام» في سرعة الضـوء وفي وقـت واحد في جميـع مراكز وغرف عمليـات التشـكيلات الجوية والقواعد والمطارات في أنحاء الجمهورية.. وباسـم الله وعلى بركة الله وفي سـبيل مصر.. انطلقت في لحظة واحدة مائتان وعشرون طائرة إلى عنان السـماء منطلقة نحو أهدافها المنشودة، لتحقق الضربة الجوية المركزة الأولى.

ويفاجـأ العالم أجمع عـبر الأثير، ببداية الجولـة «العربية - الإسرائيليـة» الرابعة.. عندما أعلنـت إذاعـة جمهورية مصر العربيـة أول البيانات العسـكرية الصادرة من القيـادة العامة

للقوات المسلحة. وفي الساعة 14.25، يصدر البيان رقم «2» ليعلن ما يلي: «ردًا على العدوان الغادر الذي قام به العدو ضد قواتنا في كل من مصر وسوريا، يقوم حاليا بعض من تشكيلاتنا الجوية بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية في الأراضي المحتلة».

في الوقت نفسه، كنت في غرفة العمليات الرئيسة أتابع تنفيذ مهام الطلعة بكل اهتمام وهدوء، وتتوالى عليَّ التمامات من كل الجهات بنجاح الضربة.. فأعطي «تمام القوات الجوية» إلى القائد العام للقوات المسلحة وهو في مركز القيادة العليا لقيادة القوات المسلحة. وانتشر تمام القوات الجوية على أسماع العالم أجمع، من خلال البيان رقم «3» الذي أذيع في الساعة 15.02.. وقد قال: «إلحاقًا للبيان رقم «2» نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح، وأصابت مواقع العدو إصابات مباشرة.. وعادت جميع طائراتنا إلى قواعدها سالمة، عدا طائرة واحدة».

وبعد تنفيذ الضربة الجوية المركزة الأولى، وضع المجهود الجوي للمقاتلات القاذفة بالكامل. تحت تصرف القيادة العامة للقوات المسلحة، حيث نفذت جميع المهام التي كلفت بتنفيذها خلال أيام العمليات.

هنا وقت مناسب لكي أذكر عددًا من الحقائق:

1 - تحقق عبور كل هذا العدد على اختلاف قواعد قيامه في لحظة واحدة لخط الكشف الراداري المعادي، ومعنى ذلك أن كل تشكيل أو طائرة كان لزامًا عليها أن تقلع في توقيت محدد من قاعدتها، وتتخذ مسارًا حدد لها ملاحيًا بكل دقة.

2 - لكي لا يكتشف العدو عمليات الإقلاع الغزيرة من مطاراتنا وقواعدنا، كان لزامًا أن تطير هذه الطائرات على ارتفاعات منخفضة جدًا، للإفلات من نطاق الكشف الراداري المعادي، لدرجة أنه عندما اقتربت هذه الأعداد الهائلة من الطائرات، من السد الترابي الذي أقامه العدو بمحاذاة شاطئ القناة، خشي كثير من ضباطنا وجنودنا في الجبهة اصطدامها به، وكان لمرورها فوقهم وهم على أهبة الاستعداد للعبور، فعل السحر.

3 - كان استخدام هذا العدد الكبير من الطائرات في السماء، كل إلى وجهة محددة، وكل إلى هدف معين، بقنابل ذات عيار خاص، وكل له طريقته في الهجوم، ودون أن تكون هناك اصطدامات، وتقاطع لخطوط السير، أمر لم يحققه إلا التدريب الجيد العالي المستوى، الذي توالى خلال السنوات السبع السابقة للمعركة.

4 - كان التخطيـط الأول للضربة المركزة، ألا يبدأ التمهيد النيراني لمدفعيات جيشـنا الثاني والثالـث، إلا بعـد عودة الطائرات من ضربتها المركـزة وعبورها خط الجبهة عائدة إلى قواعدها، ضمانًا لسلامة هذه الطائرات من التعرض لحائط النيران الرهيب، الذي كان مقررًا أن تصبه المدفعية المصرية.

إلا أن الفريـق أول محمد عبدالغني الجمسي «رئيس هيئـة العمليات آنذاك» أمر بإعادة التخطيط على أساس أن يبدأ التمهيد النيراني للمدفعية بعد خمس دقائق فقط من عبور الطائـرات خطَّ الجبهة، وهي متوجهة إلى أهدافها، لعـدم إعطاء الفرصة للعدو للقيام بتمهيد نيراني مضـاد قبل قيامنا نحن بالقصف المدفعي المطلوب، ولعدم إعطاء فرصة للمدرعات المعادية التي تقبع على مسـافة قريبة من قناة السـويس من التقدم لاحتلال المصاطب المجهزة لها على الشاطئ الشرقي وإعاقة إنساق العبور.

وكان ذلـك سـببًا كافيًا لدقـة التخطيط لتوقيتـات الطائرات في عبورهـا للجبهة ذهابًا وعودة، وتنسـيق النيران في وقت عودتها مع مدفعيات وصواريخ الدفاع الجوي. ولقد عـادت الطائرات عبر ممرات حددت لها، وعلى جانبي هذه الممرات جحيم من النيران تصبه آلاف المدافع المصرية.

لنا أن نتخيل كيف يمكن أن تمر مئات الطائرات من الممرات المحددة لها، في توقيتات لا تفترق عن بعضها غير ثوان معدودة، خصوصًا أنها ذات أنواع مختلفة وساعات مختلفة، دون أن تصاب إحداها بطريق الخطأ.. فأي براعة في التخطيط.. وأي دقة في التنفيذ!!

5 - كان واجب بعض التشـكيلات أن تحطم وسـائل الدفاع الجوي المعادية التي في طريق التشـكيلات الأخرى، ولو حدث ووصلت متأخرة لانتفى الغرض من اشـتراكها في العملية ولأدى هذا التأخير إلى تمكين العدو من التصدي لطائراتنا.

6 - لـو لم تنفذ مقاتلات الحماية واجباتها بدقـة لهوجمت مقاتلاتنا القاذفة بالمقاتلات المعادية ولاضطرت لإلقاء قنابلها للدفاع عن نفسها ولفشلت مهامها.

أضـف إلى تلـك الحقائق مـا يلي كذلك حـول الأهداف التـي قررناها في هـذه الضربـة الجويـة الأولى:

(أ) ضرب مطارات سيناء وما يحيط بها من مواقع صواريخ هوك للدفاع عنها.

(ب) ضرب مركـز السـيطرة الرئيس للقـوات الجوية المعادية في «أم مرجم» بسـيناء، الذي

يسيطر على تحركات كل طائرات العدو في جو سيناء، وعلى وسائل الدفاع الجوي، فضلًا عن أنه يرسل المعلومات المستمرة عن الموقف الجوي على الجبهة، إلى مركز القيادة الرئيس للقوات الجوية المعادية في إسرائيل، وعن طريقه تطلب طلعات المعاونة لجيوشه في الجبهة، ويمكن تصور ما يحدثه تدمير هذا المركز عن عواقب وخيمة على العدو من حيث انعدام السيطرة الفعالة على كل طائراته في الجو، وكذلك وسائل دفاعه الجوي المنتشرة في كل أنحاء سيناء، وعدم إمكان إعطاء صورة صحيحة عن الموقف الجوي في الجبهة، ورغم أنه كان للعدو مركز تبادلي في العريش، فإن إمكانياته كانت أقل بكثير من إمكانيات المركز الرئيس، فضلًا عن أنه يعتبر بعيدًا عن منطقة القتال.

(جـ) ضرب مراكز الإعاقة والشوشرة، المجهزة بأحدث ما عرف في العالم من وسائل الشوشرة على الرادارات وأجهزة اللاسلكي، التي استخدمت ضدنا أثناء حرب الاستنزاف، وكنا نعرف تأثيرها البالغ على القوات الجوية والدفاع الجوي.

(د) تدمير مواقع صواريخ «الهوك» التي كانت تشكل بوجودها خطورة بالغة على قواتنا الجوية، أثناء تأديتها لمهامها في سيناء، وقد بلغت هذه المواقع عند التخطيط للضربة الأولى اثني عشر موقعًا واستمرت القوات الجوية في جميع مراحل المعركة في تدمير مواقع الهوك الجديدة، بمجرد تحديد مواقعها بوسائل الاستطلاع المختلفة، وكانت تحظى منا دائمًا بالأولوية في التدمير.

(هـ) قصف مواقع المدفعيات البعيدة المدى من طراز 175 مم، ومداها 32 كيلو مترًا، علاوة على دقتها في إصابة الأهداف، وقد رأت القيادة ضرورة التخلص منها في بداية المعركة، لتأمين قواتنا.

(و) قصف بعض النقط الحصينة في خط بارليف وخلفه، التي كان منتظرًا أن تشكل مقاومة قوية لقواتنا في عمليات العبور.

(ز) تدمير رادارات العدو المهمة، سواء المستخدمة للتوجيه أو للإنذار، التي تعتبر عيون العدو، التي تقوم باكتشاف هجماتنا وتوجه مقاتلات العدو للتصدي لطائراتنا، وكان يجب التخلص منها قبل اندلاع المعركة الرئيسة.

(ح) تدمير مركز قيادة الجبهة للقوات البرية المعادية.

(ط) تدمير مركز الإرسال الرئيس في جنوب سيناء.

نتيجة لنجاح الضربة الجوية المركزة الأولى، ألغيت الضربة الجوية الثانية، التي كان مخططًا لقيامها بعد ساعتين ونصف الساعة من الضربة الأولى، مع وضع إمكانيات السلاح الجوي المصري في خدمة المعركة التي اشتعلت نارها على أن يتم استخدام القوات الجوية على الأسس الآتية:

- استخدام القوات الجوية بتركيز، حتى يمكن الاستمرار في أعمال القتال لأطول مدة ممكنة، لما في ذلك من أثر نفسي مهم على رفع الكفاءة النفسية والقتالية بين رجال الجيوش الميدانية المصرية من ناحية، وعلى ضرب معنويات العدو وتدمير مواقعه من ناحية أخرى.
- تطبيق مبدأ الحشد واستخدام الضربات المركزة للحصول على التفوق الجوي المحلي، وانتزاع السيطرة الجوية فوق ميدان المعارك البرية من العدو.
- استخدام الوحدات الجوية في تشكيلات كبيرة ضد اتجاهات العدو الرئيسة، وحشد هذه الوحدات ضد الأهداف المهمة المؤثرة على سير أعمال القتال.
- حماية المطارات المصرية ضد هجمات العدو الجوية ومنع العدو بجميع الطرق من الاقتراب منها للنيل من قدرتها وشل كفاءتها.. مع استعادة الموقف بسرعة للرد على العدو في أسرع وقت ممكن.

بالفعل كانت تمركزات وحدات المقاتلات تسمح لها بتغطية جميع طرق الاقتراب للطائرات المعادية، وبتنفيذ مهام الدفاع الجوي المكلفة بها، بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي، بجانب تنفيذ مهامها الرئيسة المخطط لها بالمرونة والفاعلية المطلوبة طوال العمليات، سواء أكانت هذه المهام قتالية أم هجومية.

إذا كان هناك خصم يمكن أن يتوجه لخصمه بالشكر، فالذي أؤكده الآن - ودون أدنى ميل للسخرية أو التهكم من «مردخاي هود» - أن عودة طيارينا الظافرة ظهر السادس من أكتوبر 1973 بعد أن نفذوا العملية «صدام» بنجاح ساحق كانت تحمل في مضمونها شكرًا عمليًّا صامتًا للجنرال «هود» ولخطته «طوق الحمامة» التي قامت نيابة عن سلاحنا الجوي بإحراق كل ما هو قديم ومتخلف من فكر عسكري تقليدي، وأخطاء في الإعداد والتنفيذ طالما عوقتنا من قبل.

وإذا كان «هـود» - ومـن ورائـه كل جنـرالات المؤسسـة العسـكرية في تـل أبيب - قد أخفـوا عن المجتمع الإسرائيلي الحجم الحقيقـي للدمار والجحيم الذي صبته ضربتنا الجوية «صـدام» فوق المواقـع الإسرائيلية، فإنني كطيار مقاتل يعـرف أسرار المهنة، ويعرف أسرار ونتائج العملية «صدام»، بالذات، بحكم مسئوليتي كقائد لسلاح الجو المصري وقت تنفيذ هذه العملية وتقديرًا مني لدوافع الخجل والخزي التي تمنع جنرالات إسرائيل من مصارحة مجتمعهم بحقيقة ما ألحقه بهم الطيار المصري المقاتل ظهر السادس من أكتوبر وسـدادًا مني لديـن قديم للعدو الجوي، ثم.. وفاء مني بعهـد قطعته على نفسي ذات صباح وأنا معلق في الجو، وقاعدتي الجوية التي أقلعت منها ببني سويف تدمر، وأنا عاجز عن حمايتها - وأخيرًا وليس آخرًا - برًّا مني بقسـم أقسـمته مع رجالي الخمسـة، بالانتقـام لطائراتنا الخمس التي دمـرت أمام عيوننـا، وهي جاثمة عـلى أرض مطار الأقصر.. والانتقام لما أصاب سـلاحنا الجوي كله صباح 5 يونيو 1967.

لـكل هـذا أقولها بكل الثقـة - التي لم تتخل يومًا واحدًا عن أي مـن رجال قواتنا الجوية حتـى في أحلك سـاعات الخامس مـن يونية - إذا كان جنرالات إسرائيـل قد أخفوا حقيقة مـا حدث لهم ظهر السـادس من أكتوبر على يدي الطيار المـصري المقاتل الذي طالما ظلموه وتطاولـوا عليـه.. فإننـي أذكر الآن مـا أحدثته تلك الضربـة الجوية من تأثـيرات في جيش إسرائيل.

أي تحليـل موضوعي وعلمي يهدف إلى تقييـم حقيقي للعملية «صِدام» لابد أن يتوقف مليًّا وطويلًا أمام مفهوم «الدفاع الجوي».

من المعروف في التاريخ العسكري، أن العسكرية البريطانية، تعتبر الأب الشرعي لنظام «الدفـاع الجـوي» في بداياتـه الأولى، عندما توصـل الإنجليز إلى اختراع «جهـاز الرادار» - واستخدموه بكفاءة عالية خلال الحرب العالمية الثانية - وكانت الثمرة الرائعة التي حصلت عليها العسـكرية البريطانية نتيجة لهذا الأسـلوب المبتكر في الدفاع ضد الغارات الجوية، أن نجـح العدد القليل الذي كانت تملكه بريطانيا، من طياري المقاتلات - وبمعاونة الرادار - في التصدي للغارات الرهيبة التي كان «طيران هتلر» يشنها على الجزر البريطانية.. في كسب المعركة التي عرفت في التاريخ العسكري باسم «معركة بريطانيا الجوية».

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وطوال الخمسـينيات، بدأ التطور السريع في وسـائل

الحـرب الجوية – كإنتاج المقاتلات والقاذفات المقاتلة التي تحلق على ارتفاعات منخفضة – وانتهى الأمر بإنتاج الصواريخ «أرض/ جو» والطائرات المقاتلة الاعتراضية.

ومع التطور العلمي السريع في تكنولوجيا الحرب ووسائلها الحديثة، أخذ «نظام الدفاع الجوي» صورته النهائية في شكل جهاز متكامل، يتكون من العناصر التالية:

1 – **عيــون ساهرة:** مهمتها الأولى مراقبة العدو، والكشـف عن تحركاتـه، وهو ما يعرف علميًّا باسـم «رسـائل الإنذار الفوري المبكر»، وهي عبارة عن رسائل إلكترونية – أي أجهزة أو شبكات الرادار – ووسائل إنذار بشرية هي المراقبة العادية بالنظر، التي يقوم بها أفراد مدربون على مستوى عالٍ من الكفاءة والخبرة.

2 – **عقــول تـدرس وتحلل:** وهم الخبراء الذيـن يقومون بالتحليل الفـوري للمعلومات التـي تقدمها أجهـزة الإنذار المبكـر – الإلكترونية والبشرية – ويحولونهـا إلى قرارات سريعة، بالتصدي للأهداف المعادية القادمة في الجو.

وقد تطور أسلوب تحليل البيانات – في كثير من أجهزة الدفاع الجوي في الجيوش – إلى اسـتخدام العقول الأكثر سرعـة وقدرة على التحليل، وإعطاء البيانـات البالغة الدقة، وهي «العقول الإلكترونية».

3 – **يـد تبطش:** وتتمثل اليد القوية التي يبطش بهـا «الدفاع الجوي» ضد العدو المهاجم، في وسائل الدفاع الجوي الثابتة – كالصواريخ، والمدفعية المضادة للطائرات بمختلف أنواعهـا وأعيرتهـا – والوسـائل المتحركة، وهـي الطائرات المقاتلـة الاعتراضية، التي تتصدى للعدو الجوي قبل الوصول إلى الهدف.

4 – **أعصــاب حاسمــة:** وهـي شـبكة الاتصـالات السـلكية، واللاسـلكية التـي تتـولى توصيل العناصر الثلاثة السـابقة ببعضها، بدرجة عاليـة من الكفاءة تتمثل في وضوح الاتصالات، وسـلامتها من الشـوشرة والإعاقـة والتنصت المعادي، واتخاذ الوسـائل الحديثة التي تضمن استمرار هذه الشبكة في أدائها لواجباتها دون توقف.

في ضـوء هذا التفسـير العلمـي لمعنى «الدفـاع»، نسـتطيع أن نقول – وبمنتهـى الأمانة والعلميـة – إن الفـارق الأول – والخطـير – الـذي يفـرق بـين العملية المصريـة «صدام»،

وعمليـة «طوق الحمامة» الإسرائيليـة، هو اختلاف نظام «الدفاع الجـوي» الذي كان مطبقًا وقت تنفيذ كل من العمليتين الجويتين.

كان نظـام الدفاع الجـوي المصري عام 1967 غير متماسك علـى الإطلاق.. وأبرز نقاط ذلك هي:

1 - أن شـبكة الإنـذار الـراداري المـصري - وقتها - كانت مـن النوع الـذي لا يعمل إلا بالنسبة للطائرات القادمة على ارتفاعات عالية، وبالتالي فقد كانت هذه الشبكة عاجزة عن اكتشاف الطائرات الإسرائيلية القادمة على ارتفاعات منخفضة.

2 - أن الطـول الهائـل الذي تمتاز به حدود مصر وسـواحلها، لم يمكن القيادات المصرية - في ذلـك الوقـت - من تغطية هذه الحدود البالغة الاتسـاع بشـبكة مترابطة من أجهزة الكشـف الـراداري حتـى هذه التـي تعمل عـلى ارتفاعـات عالية.. وترتـب على هذا النقص، وجود ثغرات واسعة في حزام الإنذار الإلكتروني - المصري.

3 - لم تفكر قيادات 1967 في سد هذه الثغرات في حزام الإنذار المبكر - عن طريق البديل المعترف به، وهو نظام الإنذار البشري، والمراقبة بالنظر.

4 - تسببت نظرية «أول ضوء» - التي تخطاها الفكر العسكري الحديث - في خلو الأجواء المصريـة مـن مظلات الحماية الجوية وقـت وقوع الضربة الإسرائيليـة، وبهذا خلا الجو تمامًا للطائرات المغيرة.

5 - النقص الواضح في وسائل الدفاع الثابتة كالصواريخ «أرض/ جو»، والمدفعية المضادة للطائـرات بأنواعها - وعجـز الصواريخ التي كانت موجودة لدينـا عام 1967، عن التعامل مع الطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة.

أما بالنسـبة للعمليـة المصرية «صدام»: فإن الإنصاف للعـدو الإسرائيلي - الذي نفذت ضـده العمليـة - وللطيار المصري المقاتل - الذي قام بتنفيذها ظهر السـادس من أكتوبر - يحتم علينا أن نوضح الحقائق التالية:

1 - يعتـبر حزام «الإنـذار الفوري المبكر» - الذي تملكه إسرائيل - من أكبر أحزمة الإنذار ترابطًـا وإحكامًا، سـواء من حيث عدد محطـات ومواقع الرادار التـي تملكها إسرائيل - والتـي تعتـبر من أحدث مثيلاتها في العالم - أو مـن حيث اعتمادها المكثف على نظام

«الإنـذار البـشري» بالمراقبة بالنظر – التي يقوم بها أفـراد مدربون جيدًا على هذه المهام الخاصة.

بالإضافة إلى ذلك هناك وسـيلة أخرى بالغة الحداثة في مجال الإنذار الإلكتروني، وهي محطات الكشـف الـراداري، التي تحملهـا طائـرات «الهليكوبتر» والتي تمتـاز بقدرتها الممتازة على كشـف الطائـرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضـة؛ لأن جهاز الرادار المحمول يتمكن من كشف كل الأهداف المتحركة أسفله.

إن مسـاحة إسرائيـل الأولى – قبـل معـارك 5 يونيـو – لم تكن تتجـاوز «7978» ميلًا مربعًـا – يكفيهـا عدد قليل من أجهزة الكشـف الـراداري – وإن حدودها الجنوبية – والجنوبيـة الغربيـة – حدود صحراويـة، تحقق لوسـائل الإنذار المبكـر – الإلكترونية والبشريـة – قـدرة عاليـة عـلى الإنـذار المبكر، بسـبب خلوها مـن الموانع التـي تعوق الكشـف – كالهضـاب العاليـة أو الجبـال – وكذلك حدودهـا الغربية التـي تطل على السـاحل الشرقي للبحر الأبيض، حيث ترتفع قدرة الكشـف الراداري – فوق سطح البحر – إلى أعلى مستويات الجودة والصفاء.

مـن ثم – وبناء على هذه الحقائـق – يمكن تقدير مدى الصعوبات الهائلة التي واجهها الطيار المصري المقاتل، وهو يخترق – أثناء تنفيذ العملية «صدام» – هذا الحزام المحكم من وسائل الإنذار المبكر التي كانت تملكها إسرائيل، ظهر السادس من أكتوبر.

2 – إن عنـصر «تحليـل المعلومـات» التي ترسـلها شـبكات الإنـذار المبكـر – الإلكترونية والبشريـة – يعتمـد على مجموعـة من المتخصصـين، كانت إسرائيل تفاخـر – وأرجو ألا تنكـر الآن – بأنهم على أعلى مسـتوى مـن الكفاءة والخبرة والقـدرة على اتخاذ الرد الفوري السريع الذي يردع أي عدو جوي مغير.. بالإضافة إلى ما اسـتحدثته إسرائيل – باعـتراف جنـرالات المؤسسـة العسـكرية في تـل أبيب – مـن إدخال نظـام العقول الإلكترونيـة في أعـمال دفاعها الجوي من رصـد وتحليل للمعلومـات، وتوجيه فوري لوسائل الدفاع.

والسـؤال هو: أين كانت هـذه العقول – البشريـة والإلكترونية – العاليـة الكفاءة.. ولمـاذا لم تسـارع بالعمل لحمايـة المواقع الإسرائيلية مـن الطيار المـصري المقاتل، الذي تحـدى كل هذه العقول، وسـخر من كل قدراتها على الرصـد والتحليل والتوجيه، بل

تمكـن من إيقاف هذه العقـول ذاتها عن العمل، عندما هاجمـت قواتنا الجوية مطارات سيناء، ومواقع القيادة والسيطرة، ومراكز الإعاقة والشوشرة التي كانت مجندة للعمل ضدهـا. إن الصـور الجويـة التي عاد بها طيارونـا بعد إتمام العملية «صـدام»، أعطتني الجواب الكافي وزيادة.

3 - كانت إسرائيل تفاخر دائمًا - وقبل ضربة «صدام» المصرية - بأنها تملك أقوى يد باطشة في الـشرق الأوسـط كله، ضد أي هجوم جوي قد يفكر العـرب في القيام به ضدها في لحظـة مـن لحظات جنـون اليأس.. وكانت هـذه اليد الإسرائيلية تتمثـل في نوعين من وسائل الدفاع الجوي:

الأول: الوسائل الثابتة، وهي «المدفعية المضادة للطائرات من عيار «20 و30 و40سم» التي يعمل عليها رجال مدربون، وقادرون على التعامل الفوري مع الطائرات المهاجمة، التي تظهـر في نطـاق مدفعيتهم، حتى لو لم تصلهم معلومات من أجهـزة الإنذار.. بالإضافة إلى النوع الأكثر حداثة - من وسائل الدفاع الجوي الثابت - وهو الصواريخ «أرض/ جو» من طراز «هوك».

ومن المعروف - طبقًا لبيانات معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني - أن إسرائيل لو كانت تملك ثماني بطاريات فقط من طراز «هوك» التي تغطي البطارية الواحدة منها بالنيران دائرة نصف قطرها 35 كيلو مترًا، ومساحتها 3450 كيلو مترًا مربعًا - فإن هذه البطاريات الثماني، قادرة على أن تغطي بصواريخها مساحة تبلغ تسعة عشر ألفًا من الكيلومترات المربعة - بينما مساحة إسرائيل كلها قبل 5 يونيو لا تزيد على 7978 كيلو مترًا.

فإن كانت هذه الصواريخ الجهنمية التي تغطي قدرتها التدميرية، مسـاحة من الجو تزيد على ضعف السـماء التي تغطي إسرائيل كلها.. فلماذا عجزت صواريخ «هوك» الأسـطورية عـن مقاومـة الطيار المصري المقاتل أو صده، فضلًا عن تدميره كما كانوا يزعمون..؟! وأين كانـت المدفعيـة المضـادة «20و30و40» التـي زعموا أن رجالهـا الخرافيين، قـادرون على التعامل مع الطائرات المهاجمة حتى دون إنذار راداري؟

النوع الثاني من وسـائل الدفاع الجوي - الذي كانت تملكه إسرائيل وتفاخر به، قبيل 6 أكتوبر هو: وسـائل الدفاع المتحركة، أو ما كان يسـمى بـ «الوحش الخرافي الطائر» و«ذراع إسرائيل الطويلة» - أي سـلاح الجو الإسرائيلي ،و طبقا للبيانات المعلنة فإن نحو سـتين في

المائة من طيران إسرائيل الحربي وعلى وجه التحديد: 269 طائرة من الخمسمائة طائرة التي كانت تملكها إسرائيل قبيل 6 أكتوبر، يمكن اعتبارها من وسائل الدفاع الجوي المتحرك، وهي عبارة عن مائتي طائرة من طراز «فانتوم ف/ 4 تي» القاذفة المقاتلة الاعتراضية، وستين طائرة من طراز «ميراج - 3/ س» قاذفة مقاتلة اعتراضية، وبعضها مزود - بصواريخ «جو/ جو» من طراز. «آر - 350»، هذا بالإضافة إلى تسع طائرات من طراز «سوبر/ ميستير»، المقاتلة الاعتراضية.

أين كان هذا العدد الضخم من الطائرات المقاتلة وقت تنفيذ الضربة «صدام»؟ وأين كان الطيار الإسرائيلي الأسطورة.. ولماذا عجز عن التصدي للطيار المصري..الذي طالما تطاولوا على قدراته وشجاعته وخبرته؟ .. بل أكثر من كل هذا.. أين اختفى الطيران الإسرائيلي من سماء المعركة.. وعقب الضربة «صدام» التي نفذت في الساعة 2.05 ظهر السادس من أكتوبر؟ - ولماذا لم يحاول هذا الطيران - الذي كان أسطورة - أن يقوم بدور في المعركة إلا في صباح اليوم التالي - يوم الأحد 7 أكتوبر، وبعد مضي أكثر من سبع عشرة ساعة، قضاها المقاتل البري الإسرائيلي في العراء، بلا حماية جوية تحميه من هول الضربات التي يكيلها له على الأرض أبطال العبور، ويصبها فوق رأسه من الجو أبطال «صدام» الظافرة؟!

تلك بإيجاز شديد، أهم الظروف التي واجهها - أو كان مفروضًا أن يواجهها - الطيار المصري المقاتل، أثناء قيامه بتنفيذ العملية «صدام»، التي كان من السهل أن تؤدي بالعملية كلها للفشل، وبالرجال الذين كلفوا بها إلى الهلاك المحقق، لم تكن هناك دراسة جادة وعلى أعلى مستوى من الحسابات العلمية الدقيقة - قام بها المخطط الجوي المصري - أثناء التحضير المبدئي للخطة، بحيث تم التوصل إلى حل عملي حاسم، يضمن للطيار المصري المهاجم، أن يتخطى كل هذه العقبات التي كانت تنتظره على الجانب الإسرائيلي، عند تنفيذ الضربة.

إن ما قمنا به في العملية «صدام» كان من بدايته إلى نهايته، نتيجة طبيعية للحسابات الدقيقة وللفكر العسكري المتطور وللتدريب الجيد المتواصل، وللكفاءة النفسية والقتالية العالية المستوى، وكلها أمور أثبتنا - ظهر السادس من أكتوبر وما تلاه من أيام المعارك - امتلاكنا لناصيتها بأصالة واقتدار.

ومعنى هذا ببساطة شديدة وانطلاقًا من روح علمية خالصة أننا «مستعدون وقادرون» على أن نكرر ما قمنا به في السادس من أكتوبر، كلما دعانا واجبنا القومي - كطيارين مقاتلين - إلى تكراره.

كنوع من الدفاع - السلبي - عن النفس، فقد حاول جنرالات الجو الإسرائيليون، أن يبرروا نجاح عمليتنا «صدام» بأنهم لم يفاجئوا بها، ولكن حكومتهم - التي جنحت إلى السلم - احترامًا للرأي العام العالمي، وتحاشيًا لاتهام إسرائيل ببدء الحرب، أمرتهم بضبط النفس واستدراج العرب للكشف عن نواياهم العدوانية.

مثل هذا التبرير الساذج، مردود عليه بأن إسرائيل منذ قامت عام 1948 لم يعرف عنها يومًا ما أنها احترمت الرأي العام العالمي - شعبيًّا كان أو رسميًّا - ولم يعهد فيها الخوف من اتهامها ببدء العدوان، لأن وجودها الذي قام على تشريد شعب بأكمله يعتبر في حد ذاته تجسيدًا دائمًا ومستمرًّا للعدوان في أبشع صوره، والحقيقة التي حاول جنرالات إسرائيل تجاهلها أو تعمدوا إخفاءها.. أنه رغم «درجة الاستعداد القصوى» التي وضع فيها سلاح الطيران الإسرائيلي قبيل المعركة ورغم كل ما تملكه إسرائيل من وسائل متقدمة - في مجال الدفاع الجوي - فإن الطيار المصري المقاتل نجح في إثبات وجوده، ونجح في فرض إرادته على جيش وطيران إسرائيل.

لقد تمكنا من شل ثلاثة ممرات رئيسة، وثلاثة ممرات فرعية بمطارات «رأس نصراني وتمادا والمليز»، ولم يتمكن العدو من إصلاحها قبل مرور ثمانٍ وأربعين ساعة.

وكررت قواتنا مهاجمة نفس المطارات، مما منع العدو من استخدامها لمدة طويلة، حتى بعد أن قام بإصلاحها كان العدو حذرًا في استخدامها، وقصر ذلك على نزول طائراته المصابة في الجو نزولًا اضطراريًّا، وبذلك حرم العدو من ميزة كبرى نظرًا لقرب هذه المطارات من خط الجبهة.

وقد أسكتنا اثني عشر موقع صواريخ من طراز «هوك».. في «بالوظة - متلا - الطاسة - أبوسماره -شرم الشيخ - رأس نصراني - الجدي - أم مرجم. وتمكنا من إسكات موقعين للمدفعية البعيدة المدى «بالتل الأحمر، وشرق الشط».. وهاجمنا نقطة حصينة.

ودمرنا مركزين رئيسيين للقيادة «بأم مرجم»، وقد التقطت شبكات اللاسلكي في

قواتنـا، إعـلان العدو انتقاله إلى مركـز القيادة التبادلي، بعد أن فقد سـيطرته على قواته - في وقت كان أحوج ما يكون إلى هذه السيطرة.

وأسـكتنا مركزًا للإعاقة والشـوشرة «بأم خشـيب»، مما جعل طائراتنا تعمل بحرية تامة في سـماء المعركة. وقد كان العدو يسـتخدم وسائل إعاقة محمولة جوًّا في طائرات هليكوبتر، ولكـن العدو الجـوي كان أجبن من أن يسـتخدمها بعد العملية «صـدام»، وبقيت طائراتنا التـي كانـت متربصة لتدميرها لـو ظهرت في الجو - على أحر من الجمـر انتظارًا لها، ولكنها للأسـف لم تظهر، وحرم العدو بهذا من أي محاولة لإعاقة طيراننا، أو الشـوشرة على شـبكة اتصالاتنا خلال العمليات. وأسكتنا مركز إرسال لاسلكي «بشرم الشيخ». ودمرنا موقعين للرادار. وهاجمنا نقطة قوية للعدو، وموقعين لمدفعية الميدان البعيدة المدى.

وكانت نسـبة الخسـائر في طائراتنا أقل بكثير جدًّا مما كان متوقعًا، حيث إن التشـكيلات المعاديـة التـي اعترضـت الطائرات المصريـة، كانت تهدف إلى مجـرد القيام بمحاولة بائسـة تسـتهدف الإربـاك وليس بغرض صد الضرب، وهذا نتيجة لتوافـر عامل المفاجأة تمامًا من جانب القوات الجوية المصرية.

لقد سـافر سـبعة صحفيين إسرائيليين إلى أرض المعركة بعـد بدايتها بوقت قصير، ومن ثـم ألفوا كتابًا عن حرب «يوم الغفران».. قالـوا فيه :«كان الموقف على أرض المعارك بعيدًا عـن أي وضوح.. اندلعت الحرب فعـلًا علـى طـول المائة والثمانين كيلو مترًا بمحاذاة قناة السـويس» والخمسـة والسـبعين كيلو مترًا من خط وقف إطلاق النار بين إسرائيل وسوريا فوق هضبة الجولان.

«ففي الساعة الثانية بعد الظهر، انفجرت آلاف القنابل والدانات في جميع أنحاء الجبهة، وقامـت موجـات من قاذفـات القنابل المصريـة والسـورية بغاراتها الجوية، وظهرت تسـع طائرات من طرازي «ميج» و«سـوخوي» - السـوفيتية - فجأة في منطقة «شلومو» بـ«شرم الشيـخ»، وأخذت تقصف منشـآت الميناء العسـكري ومطار أوفيرا - الاسم العبري لشرم الشيـخ، وبعـد الهجوم الانقضاضي وبمجرد أن أخذ التشـكيل الذي يتكـون من الطائرات المصرية يستأنف ارتفاعه، اندفعت نحو السماء أعمدة النيران والدخان.

«وسارع جنود شرم الشيخ الذين فوجئوا بهذا الهجوم إلى مواقعهم، كان بعضهم يوشك أن يسـتحم في مياه الخليـج الصافية، وكانوا لايزالون بأردية الاسـتحمام. وبعد بضع دقائق

ردد الهـواء دوي المدافـع الرشاشـة التي حاولـت عبثًا إسـقاط الطائرات المصريـة، لقد كان جانب من أجهزة الإطلاق غير قابل للعمل، ثم جاءت الموجة الثانية من الطائرات المعادية بعـد لحظـات، واسـتطاعت أن تقصـف - دون أن يضايقهـا شيء تقريبًا - المطـار، ومركز الاتصـال في شرم الشـيخ، ونتج عـن الهجمات المتتالية الأربع سـقوط عدة قنابل وخسـائر مادية جسيمة.

«وفي الوقـت نفسـه، قصف عدد آخر من الطائرات المصريـة مدينة البترول «أبورديس» القائمـة على الضفة الشرقية بخليج السـويس، وحرصت هذه الطائـرات على تجنب إصابة آبـار البـترول ومضخات الحفـر، وركزت ضربها على مسـاكن الموظفـين المدنيين في حقول البترول. وقد تسـببت ضربة مباشرة على أحد المباني في مصرع سـتة من الموظفين المدنيين في منطقة «شرم الشيخ».

بعـد هذا النجاح العظيـم الذي حققته القوات الجوية يوم السـادس من أكتوبر، والذي وصفه الصحفيون الإسرائيليون السبعة أيضًا بأنه يماثل «بيرل هاربر».. استمد طيارونا من روح «صـدام» زادًا روحيًـا، ضاعف من قدراتهم القتالية، وجعلهـم يدخلون بكل ثقلهم، لمعاونـة إخوتهـم في معركـة الـشرف - من باقي أسـلحة وأفـرع قواتنا المسـلحة - وتوجيه الضربـات الجويـة المتلاحقة، التي تقصـم ظهر المقاتل الـبري الإسرائيلي الـذي كان يومها يحاول عبثًا أن يتصدى بالمقاومة لإبطال العبور.

لقد سـجلت تقارير غرف العمليات الرئيسـة على الجانبين أنه بعد يوم 6 أكتوبر 1973 وبعـد نجاح العمليـة «صدام»، نفذت القـوات الجوية عددًا كبيرًا مـن الطلعات للحصول عـلى التفـوق الجوي المحلي ولحماية قوات الجيـوش الميدانية، وحماية أهـداف الدولة الحيوية والمطارات، ومنع طائرات اسـتطلاع العدو من القيام باسـتطلاع تحركات القوات المسلحة المصرية.

” ... كانت العملية «صِدام» بداية الحصاد الطيب، لشجرة مباركة، وضع رجال القوات الجوية المصرية بذرتها عقب معارك 5 يونيو وتعهدوها بالرعاية القائمة على الاستفادة من دروس النكسة، والتزود بالعلم، والإقبال على التدريب المتواصل ليل نهار، والرغبة الصادقة في محو عار الهزيمة.. “

تقرير عن البطولات

تعمدت ألا أصف ضربتنا الجوية المركزة «صدام» بأنها «معجزة عسكرية» يستحيل تكرارها، أو أنها «عبقرية نادرة الحدوث في مجال الحرب الجوية».. فإذا لم تكن كذلك.. فما هو الحجم الطبيعي لهذه الضربة التي كانت خير تمهيد لعمليات العبور التاريخي؟ وما المدلول الحقيقي الذي تعنيه هذه الضربة، سواء بالنسبة لسلاح الجو المصري أولًا، وبالنسبة لقواعد القتال الجوي الحديث ثانيًا؟ وبالنسبة للإنسان المصري خاصة وأمته العربية ثالثًا؟

لقد انتهى عصر المعجزات، وإذا كان هناك سبيل - في عصرنا الحاضر - إلى تحقيق المعجزات، فالطريق الوحيد، هو الإيمان بالعلم، واستيعاب تكنولوجيا العصر، وتطويع المنجزات العلمية وحسن استخدامها.. والقول بغير هذا المنطق العلمي مجرد خيالات مريضة وأحلام يقظة كاذبة، قد تنجح في إشباع غرور الفرد أو المجتمع، ولكنها تتكشف في النهاية وعند لحظة المواجهة والاختبار الصعب، عن سراب مخادع، يفيد العدو ويكشف له مواطن الضعف في المقاتل الذي يفترض في نفسه الانفراد بصنع المعجزات، في عصر فتح العلم فيه أبواب الفرص المتكافئة على مصراعيها للجميع. من أراد الغلبة والفوز، فعليه بالعلم؛ لأن العلم وحده هو صانع معجزات العصر، وميزة معجزات العلم الحديث أنها قابلة للتكرار، كلما توافرت أسبابها ومقوماتها.

وإذا كان عدونا الجوي قد وقع في خطيئة الوهم بأن عملية «طوق الحمامة» - التي نفذها ضدنا صباح 5 يونيو 1967 - كانت معجزة عبقرية نادرة التكرار.. فإننا - نحن الطيارين المقاتلين المصريين - قد رفضنا ذلك الزعم المغرور حين صدره العدو للعالم عقب معارك 1967، ورفضنا الاستسلام لدواعي اليأس الذي كنا معرضين له - لو أننا سلمنا بأن ما فعله العدو يومها معجزة..وانطلاقًا من هذا الرفض، وإيمانًا منا بأن باب العلم مفتوح للجميع، سرنا على الدرب الموصل للهدف، بعد أن وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح الذي انتهى بنا إلى تحقيق الضربة «صدام».

واليوم - وبعد أن اعترف العدو قبل الصديق، بأن سلاحنا الجوي المصري أثبت وجوده العملي على مسرح العمليات الحربية - خلال حرب أكتوبر - على أفضل صورة للقوات الجوية؛ الحديثة، فإننا نقولها بكل ثقة بالنفس، وبكل احترام للعقل الإنساني - سواء في ذلك عقل الإنسان العربي، أو عقل الإنسان حيثما وجد في أي مكان في العالم - ونقولها أيضًا بكل عقلانية الإنسان المتحضر، الذي يؤمن بتكنولوجيا العصر، ويحترم معطيات العلم الحديث.

إن «صدام» كانت بداية الحصاد الطيب، لشجرة مباركة.. وضع رجال القوات الجوية المصرية بذرتها عقب معارك 5 يونيو، وتعهدوها بالرعاية القائمة على الاستفادة من دروس النكسة، والتزود بالعلم، والإقبال على التدريب المتواصل ليل نهار، والرغبة الصادقة في محو عار الهزيمة، ودحض مزاعم العدو، وحماية الوجود العربي إنسانًا وحضارة وأرضًا - من الإحساس النفسي الخطر بأنه يعيش بلا غطاء جوي، تحت رحمة ما كان يسمى «ذراع إسرائيل الطويلة».

وضعت قيادة الجو المصرية الجديدة، خطتها البعيدة المدى، لا على أساس الإعداد لضربة جوية مركزة، ينتقم بها سلاحنا الجوي من العدو فحسب، بل على أساس بناء قوات جوية عصرية، تمثل - بالواقع لا بالشعارات - الغطاء الجوي المتماسك، الذي يحمي السماء المصرية من مغامرات العدو الجوي - كما تمثل هذه القوات الجوية الحديثة، الذراع القوية التي تستطيع أن تحمي المقاتل المصري - وشقيقه العربي - حماية مستمرة لا تتوقف كلما دعت ظروف الصراع «العربي - الإسرائيلي»، إلى تصعيد هذا الصراع من «الحرب الباردة» إلى «الحرب الساخنة» في ميادين المواجهة.

عمليتنا الهجومية الضخمة «صدام» كانت تجسيدًا ناجحًا لمبدأ «العلم والإيمان» الذي نادى به الرئيس القائد الأعلى محمد أنور السادات - وكانت استجابة فورية وناضجة لمبدأ أن الصراع الذي نواجهه مع العدو، هو في حقيقته «صراع حضاري»، والغلبة في نهايته للطرف الذي يثبت قدرته على التعامل مع حضارة العصر بأوسع معانيها، وأشمل ميادينها الروحية والمادية معًا.

كان الأخذ بـ «العلم» هو أساس التخطيط والتنفيذ في كل صغيرة وكبيرة في بنائنا الجديد لقواتنا الجوية، أما دعامة «الإيمان» فلم تكن تعوز المقاتل الجوي المصري - في يوم من الأيام - بدءًا من الإيمان بالله الذي وعد بنصره، وانتهاء بإيمان المقاتل الجوي المصري بحق وطنه المصري وأمته العربية في الوجود الآمن المطمئن، وواجبه كمقاتل جوي حديث، في التصدي لكل من تسول له نفسه الاعتداء على «الأمن العربي» أو تعريضه للخطر.

ولو أن سلاح الجو المصري، ركز كل اهتماماته - خلال سنوات البناء والإعداد - في توجيه ضربة انتقامية مركزة ضد العدو، لاستطاع سلاح الجو الإسرائيلي، أن يستوعب «صدام» - مهما كانت قسوتها وضراوتها - ليوجه بعدها ضربات انتقامية وحشية ضدنا، تفوق في قوتها التدميرية ما تركته «طوق الحمامة» من آثار على الجانب المصري صباح 5 يونيو 1967، ولو أن هذا حدث، لكان سلاح الجو المصري قد تسبب في إصابة الأمة العربية كلها بنكسة نفسية ومادية موجعة، تؤدي في النهاية إلى فرض السيطرة الجوية الإسرائيلية على الوطن العربي إلى الأبد.

ولكن قيادة الجو المصرية الجديدة - وهي تضع تخطيطها الأولي للعملية المصرية «صدام» كانت تضع في ذهنها بالدرجة الأولى، أن تكون هذه الضربة الجوية المركزة - التي تمثل أولى ضربات الانتقام الجوي من العدو مجرد بداية ناجحة لضربات جوية لها طابع الاستمرار في مسرح العمليات، ولها دورها الفعال سواء في التأثير المادي على سير المعارك الأرضية، أو التأثير النفسي على روح المقاتل المصري الذي بدأ يتمتع بالحماية الجوية من جهة، والتأثير النفسي المدمر على روح المقاتل الإسرائيلي الذي يذوق لأول مرة طعم الضربات الجوية المعادية من جهة أخرى.

في الندوة التي عقدتها «أكاديمية ناصر العسكرية العليا» لدراسة حرب أكتوبر، أعلن الجنرال «بوفر» رأيه العلمي في دور قواتنا الجوية في هذه الحرب بقوله: «لقد كان الدرس

المهـم في حـرب رمضـان، هو أن القـوات الجويـة المصرية، قد أحسـن انتشـارها وحمايتها، فتمكنت من الاسـتمرار في العمليات، وحرمت الخصم بذلك من التمتع بميزة كبرى، هي التفوق الجوي، أو السيطرة الجوية».

هـذا هـو النص الحرفي لـرأي «جنرال بوفـر» وتقييمه للخطـة التي وضعتهـا قيادة الجو المصرية، والأهداف التي سعت إلى تحقيقها واستطاعت أن تصل إليها بالفعل خلال معارك أكتوبر 1973:

أولًا: حماية القوات الجوية المصرية من التعرض لضربات انتقامية قد تنجح في إخراجها من المعركة، كما حدث من قبل في عامي 1956 و1967.

ثانيًا: استـمرار هـذه القوات الجوية في المعركة، بصورة فعالـة ومؤثرة، تحرم العدو من التمتـع بميـزة كبرى هي التفوق الجـوي أو السـيطرة الجوية التي كان يحـرص على تحقيقها باسـتمرار، لأنهـا أمله الوحيد في فرض حصار نفسي على المقاتـل العربي وعلى الأمة العربية جمعاء في مواجهة الحصار الجغرافي العربي الذي يحدق بالكيان الإسرائيلي المحدود، ويغرس فيه الإحساس الدائم بالخوف من الغرق في بحر الكثافة العربية.

وإذا كانـت تشـكيلات قواتنا الجوية، باعتراف خبير الاسـتراتيجية القتالية وفيلسـوفها المعـاصر «جنـرال أندريه بوفر» قد نجحت في تحقيق هدف الاسـتمرار طـوال المعارك وهو أخـوف ما تخافـه إسرائيل التي كانـت تفاخر بل تعتمد عـلى الانفراد بالسـيطرة الجوية فإن واجـب الأمانـة العلمية يقتضينـا أن نتعرض بشيء من التفصيل عن دور هذه التشـكيلات الجويـة المصرية خـلال المعارك، وبعد أن قـام طيارونا المقاتلون بتوجيـه ضربتهم الانتقامية الأولى «صدام».

وعندمـا نتحـدث عـن دور التشـكيلات الجوية في حـرب أكتوبـر، فإننا نعني أسـلحة الطـيران بأنواعها المختلفة. ونتحدث عـن البطولة والإقدام، والتضحية والفداء.. نتحدث عـن الرجال الذين صنعوا التاريخ بجسـارتهم وأرواحهم.. عـن الطيارين والفنيين وأطقم وأفـراد التشـكيلات الجوية الذيـن ضحوا بأرواحهـم لنصرة الوطن، ولرفعة شـأن قواتهم الجوية.

إنهـم المنفـذون لأعمال القتـال والبطولة.. العاملـون في صمت.. المنفـذون لما أمرتهم به قيادتهـم.. الواثقون من أن قيادتهم تعمـل وتخطط وتقودهم للنصر.. للعزة.. للكرامة. إنهم

المنتظرون لساعة الصفر بشوق زائد، وعلى أحر من الجمر.. ليثأروا وليثبتوا المعدن الأصيل للطيار المصري.

أعني هنا تشكيلات القوات الجوية بأنواعها، وحدات المقاتلات، وحدات المقاتلات القاذفة، وحدات القاذفات، وحدات الاستطلاع، وحدات النقل والهليكوبتر.

من شاهد ما فعله هؤلاء الأبطال، خلال جميع المراحل التي سبقت استعدادهم للحرب، ليفخر بأبناء مصر، الذين عملوا بتفانٍ وإتقان في نظام دقيق، وتعاون وثيق.. لقد كان لهم هدف واحد محدد وواضح.. هو النصر.

وقد كان إعداد القوات على جميع المستويات، داخل وحداتهم لتنفيذ العملية الهجومية، يحتاج لوقت طويل وجهد مضنٍ.. يحتاج للتضحية والعرق والجهد.. يحتاج للعلم والمعرفة. ولقد أثبتت خبرة العمليات هذه الحقيقة.. فقد استغرق العمل الجاد الشاق عدة سنوات، لإنجاح عملية، لن تستغرق سوى بضعة أيام.

نجاح طياري التشكيلات الجوية، في هذه الحرب، لم يكن محض مصادفة.. بل كان طبقًا لإعداد مسبق، وتجهيز مخطط، وتدريبات دقيقة تحت إشراف محكم.. وكان ذلك ما تمخضت عنه الدراسات العميقة والخبرات المكتسبة من نكسة 1967 وعمليات حرب الاستنزاف وما تلاها من أعمال قتالية محدودة.. تلك الخبرات القتالية التي اكتسبها القادة والضباط، على جميع المستويات، والتي تم تحليلها تحليلًا دقيقًا فأبرزت دروسًا مستفادة، وعممت على جميع المستويات بالتشكيلات الجوية.

لقد تم تدريب الوحدات الجوية المختلفة تدريبًا واقعيًا وعمليًا، وبنفس الأسلوب والتكتيك، المفروض استخدامه لتنفيذ المهام المخططة لكل وحدة في العمليات الحقيقية، وذلك للوصول إلى أفضل الطرق ولمعرفة أوجه القصور والنقص.

وقد كان العامل الأول في هذا النجاح؛ الطيار المقاتل الذي ضحى وتفانى في سبيل إحراز النصر، وإبعاد وصمة العار التي ألصقت به ظلمًا وعدوانًا في نكسة 1967.. فقد كان الطيارون دائمًا بجانب طائراتهم في الدشم جاهزين في كل وقت، وعلى أعلى درجة من اليقظة والاستعداد في أي وقت تحدده لهم قيادتهم.

هنا يجدر الحديث عن تشكيلات القوات الجوية المصرية، كل نوع منها على حدة، حديثًا موضوعيًّا، يخلو من ضجيج التفاخر والمبالغات التي لا تغني شيئًا أمام الواقع.

ولعل هذا الحديث الهادئ، يؤكد لعدونا الجوي، أن ما حدث يوم 6 أكتوبر، وما تلاه من أيام معارك العبور قابل للتكرار، لأن الرجال؛ نفس الرجال موجودون، يملأ صدورهم الإيمان بالله والوطن، ويملأ عقولهم العلم بفنون الحرب الجوية، ويملأ وجدانهم الشوق إلى تحقيق مزيد من الانتصارات.

وإذا كان العلم والخبرة والتدريب بجانب الإيمان، هي العناصر التي حققت للطيار المصري المقاتل النجاح الساحق في ضربة «صدام» يوم 6 أكتوبر؛ فإن نفس العناصر هي التي حققت لسلاحنا الجوي أن يستمر في إثبات وجوده المؤثر إلى جانب قواتنا المسلحة وضد قوات العدو البرية وسلاحه الجوي، بنفس المستوى من الكفاءة القتالية، طوال معارك رمضان، على النحو الذي نعرض له الآن.

منذ الدقائق الأولى لساعة الصفر يوم 6 أكتوبر، كانت مقاتلاتنا على أهبة الاستعداد لتنفيذ مهامها من أوضاع الاستعداد الجوي، ومن أوضاع المظلات، وقامت بتوفير الحماية الجوية لقواتنا البرية والأهداف الحيوية للدولة ولقواعدنا الجوية، وتركز استخدام المقاتلات في الاتجاهات المحتملة لاقتراب طائرات العدو.

وعند تنفيذ قواتنا الجوية لضربتها المركزة الأولى، قامت مقاتلاتنا بتوفير الحماية الجوية لمقاتلاتنا القاذفة أثناء تنفيذها للضربة، وبلغ أسلوب الحماية، من الكفاءة والقدرة والتنسيق الفعال، المستوى الذي أكسب مقاتلاتنا احترام كل الخبراء والمحللين الدوليين.

لقد كان تعاونها وثيقًا إلى حد أعجز مقاتلات العدو عن الاقتراب من مقاتلاتنا القاذفة، منذ إقلاعها من مطارات تمركزها، حتى وصلت إلى أهدافها وتحقيق قصفتها، ثم أمنت أعمال قتالها، حتى عادت سالمة إلى مراكزها المحددة لإعادة تجهيزها والتأهب للطلعات التالية.

لقد شاركت بعض مقاتلاتنا في تنفيذ الضربة المركزة، تنفيذًا مباشرًا، بقصفها أحد مطارات العدو، فأوقفت العمل به طوال يوم 6 أكتوبر، وهاجمت مركزًا للإرسال ومركزًا للقيادة، وشلتهما عن العمل تمامًا، بالإضافة إلى موقع مدفعية للعدو بعيدة المدى.

وطوال أيام المعارك وبعد الضربة المركزة الأولى أنيط بتشكيلات المقاتلات المصرية القيام بالمهام الآتية:

1 - توفير الحماية الجوية للقوات البرية والأهداف الحيوية بالدولة، ضد ضربات العدو الجوي وطائرات استطلاعه، بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي المصري.

2 - القتال من أجل الحصول على التفوق الجوي المحلي.

3 - تأمين أعمال قتال الأنواع الأخرى من طائراتنا، ضد تدخل مقاتلات العدو طوال فترة العمليات.

4 - تدمير قوات العدو المنقولة جوًّا.

ومع فجر اليوم التالي للعمليات «يوم الأحد 7 أكتوبر» كانت قواتنا الجوية على يقين من أن العدو سيوجه هجماته الجوية ضد قواعدنا الجوية، وكانت مقاتلاتنا جاهزة ومستعدة تمامًا، بالتعاون مع وسائل الدفاع الجوي.

بالفعل حدثت الهجمة الجوية المعادية الأولى في الساعة السابعة صباح يوم 7 أكتوبر، بقوة تزيد على ثمانين طائرة، جاءت على ارتفاعات منخفضة جدًّا، إذ كان العدو يظن أنه قادر في عام 1973 على تحقيق النجاح الذي حققه عام 1967.. ولكنه فوجئ بأعداد ضخمة من مقاتلاتنا يقودها الطيارون المصريون الأبطال، تهاجمه بعنف من كل اتجاه، وتمكنت مقاتلاتنا بالتعاون الرائع مع وسائل دفاعنا الجوي من شل العدو ومنعه من تحقيق أي هدف من أهدافه، وأجبرته على التخلص من قنابله وصواريخه مع ذري الريح في الحقول والصحاري، وعاد الجزء الذي نجا من طائرات العدو بالخيبة، مكتفيًا بالفرار ذعرًا.

في هذه الضربة الانتقامية، كان العدو يوجه هجومه ضد سبعة مطارات وضد وسائل دفاعنا الجوي في العمق، ولكنه فشل في الوصول إلى أهدافه.. عدا عدد محدود من طائراته، أمكنها الوصول إلى مطارين فقط من مطاراتنا، وتلقفتها وسائل دفاعنا الجوي من صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات، ولقنتها درسًا قاسيًا، لاذت على أثره الطائرات المعادية بالفرار.

ونفذ العدو هجمة جوية أخرى في «الساعة الواحدة والنصف من اليوم نفسه»، ولقنته

مقاتلاتنا درسًا آخر، فلم تصل هذه المرة طائرة واحدة معادية إلى هدفها، وعادت كالقطيع المذعور دون تنظيم، مخلفة وراءها خسائرها الكبيرة من طائرات الفانتوم.

وكان منظر هذا الفرار واضحًا على شاشات الرادار. وانتهى اليوم الثاني من المعركة وقد ازداد طيارونا عزمًا وإيمانًا وثقة بأنفسهم، وأحسوا باستعادتهم لعزتهم وكرامتهم. وكانت تعليقاتهم تزداد تندرًا وتعجبًا من أسطورة السلاح الجوي الإسرائيلي، الذي كان البعض يقول إنه لا يقهر.

وظلت مقاتلاتنا الليلية على استعداد لصد أي محاولة للعدو ليلًا، ولكن مضى الليل بطوله، دون أن يشعر طيارونا حتى أو يحسوا بوجود أي هجمات جوية معادية.

وخلال اليوم الأول للعمليات، قامت مقاتلاتنا بتنفيذ مهامها الأخرى، من حماية قواتنا البرية وتأمين أعمال قتال مقاتلاتنا القاذفة، وباقي تشكيلات القوات الجوية الأخرى.. بنفس الروح العالية والعزم الأكيد.

وفي يوم الإثنين 8 أكتوبر، لم يجسر العدو على مهاجمة أيٍّ من مطاراتنا.. على عكس مقاتلاتنا، التي قامت بقتال العدو قتالًا مريرًا، بينما كان يحاول ضرب قواتنا البرية.

لكن العدو كرر محاولاته لضرب مطاراتنا يوم الثلاثاء 9 أكتوبر، غير أنه لم يقو إلا على ضرب مطارين فقط.. وفشلت هجماته.

بعدئذ تركز مجهود مقاتلاتنا في صد الهجمات الجوية المركزة للعدو. التي تكثفت من اتجاه الشمال والشمال الشرقي والجنوب الشرقي، والتي كان العدو يحاول القيام بها بغرض شل قواعدنا الجوية ومطاراتنا، لإخراج قواتنا الجوية من المعركة، حتى يتسنى للعدو التعامل بحرية، باستخدام قواته الجوية ضد قواتنا البرية، وضد شبكة دفاعنا الجوي للقضاء عليها تدريجيًّا من الأجناب «اتجاهي الشمال والجنوب».

لعبت المقاتلات أروع أدوارها في سد الثغرات التي أحدثها العدو في شبكة الدفاع الجوي، خصوصًا في قطاع بورسعيد، حتى استعادت كفاءتها القتالية، ثم في منطقة الثغرة في الدفرسوار، وعلى الجانب الأيمن للجيش الثالث في فترات محددة، كما نجحت مقاتلاتنا في تنفيذ هذه المهمة، بصورة منقطعة النظير، بفضل وسائل الإنذار المتوافرة، ولم تستطع طائرات العدو إصابة طائرة واحدة من طائراتنا على الأرض، ولم يتعطل أيٌّ من مطاراتنا

إلا لفترات محدودة للغاية، على الرغم من سبع محاولات حاولها العدو «حتى يوم الإثنين 15 أكتوبر» لقصف مطاراتنا، ولكنها فشلت جميعًا.

ولم تحدث إلا بعض خسائر طفيفة في ممرات قواعدنا الجوية، وسرعان ما حاصرها مهندسو المطارات وأفراد مجموعات إصلاح الممرات وإزالة القنابل، وأعادوا مطاراتنا لحالتها الطبيعية، وليس من المبالغة في شيء، إذا ما قلنا إن مطاراتنا جميعها وبلا استثناء ظلت صالحة للطيران طوال فترة العمليات.

وخلال الفترة «من 16 أكتوبر حتى 22 أكتوبر» قام العدو الجوي بتنفيذ ثلاث محاولات فقط، وضد مطار واحد فقط في كل مرة. وكان من الواضح أن العدو قد أيقن وتأكد من فشله في إخراج قواتنا الجوية من المعركة الكبرى كما حدث في حرب 1967. واستمرت وحداتنا المقاتلة في تنفيذ مهامها بكفاءة عالية وبجرأة تفوق الوصف، طوال 22 يومًا في قتال شرس.

وبعد فشل العدو المتتالي، ومع تطور الجيب المعادي «الثغرة» في الدفرسوار، وبعد أن تم للعدو استعواض خسائر طائراته من أمريكا، حاول الحصول على التفوق الجوي المحلي بالمنطقة، لمعاونة قواته بالجيب وحمايتها، وضرب قواتنا البرية. إلا أنه وجد في مقاتلاتنا خصمًا عنيدًا.. منعه من تحقيق أهدافه، وقاتلته بإصرار وعزم، وكثرت في تلك الفترة المعارك الجوية وزادت وطأتها، حتى أن بعضها استمر لأزمنة قياسية.

وصلت بعض المعارك لخمسين دقيقة مستمرة للمعركة الواحدة وبأعداد كبيرة من الطائرات، حيث جاوز عدد الطائرات المشتركة في إحداها الخمسين طائرة من كل جانب، ناضل فيها مقاتلونا نضالًا مشرفًا وأظهروا عزمًا أكيدًا على النصر.. حتى إن بعض الطائرات المصرية التي اشتركت في القتال، في بداية المعركة، نزلت لإعادة الملء في أزمنة قياسية، بينما بقي الطيارون في طائراتهم، وتم الإقلاع للاشتراك مرة ثانية في المعركة أو لتأمين عودة الطائرات من المعركة.

وقد حدث كل ذلك، والعدو يملك التفوق العددي في الطائرات، ولديه الفانتوم المعدلة التي دعمته بها أمريكا.. في حين لم يكن عند طيارينا إلا التفوق المعنوي والثقة بالنفس، والخبرة المتزايدة يومًا بعد يوم بفنون القتال الجوي، والقدرة الرائعة على التحكم فيما كان متاحًا لهم من طائرات.

وقد قامت مقاتلاتنا خلال فترة الثغرة «من 18 حتى 24 أكتوبر» بعملها، تطبيقًا لمبدأ التركيز لتوفير الحماية الجوية للقوات البرية، للإبقاء على السيطرة الجوية المحلية، وذلك باستخدام أساليب وتكتيكات مستحدثة أربكت العدو، بحيث استطاعت مقاتلاتنا أن تلقن العدو الإسرائيلي درسًا لن ينساه في فن استخدام القوات الجوية.

وقد تجلى معدن الطيار المصري المقاتل للعالم أجمع بالأرقام القياسية التي تعداها بعض الطيارين، بتنفيذ سبع طلعات جوية في يوم واحد، وكررها بعضهم في أيام متتالية.

بلغ إجمالي المعارك الجوية أكثر من خمسين معركة، سيدخل جانب كبير منها في سجل الخلود في تاريخ قواتنا الجوية الباسلة، وفي تاريخ الحرب الجوية بوجه عام. ونفذ طيارو مقاتلاتنا عدة آلاف من الطلعات، أنهوا بها المعركة، وحطموا بها أسطورة الطيران الإسرائيلي، وخرجوا وهم أكثر خبرة وقدرة على القتال.

على الجانب الآخر.. كان مطلوبًا من «المقاتلات القاذفة» أن تحقق الأهداف التالية:

1 - خلق موقف جوي مناسب لقيام القوات البرية والبحرية والجوية، بتنفيذ مهامها في العملية الهجومية، وذلك عن طريق تنفيذ ضربات جوية مركزة بغرض:

(أ) شل الممرات والممرات الفرعية لقواعد العدو الجوية ومطارات سيناء وفي العمق القريب بإسرائيل.

(ب) شل مراكز قيادة العدو ومراكز سيطرته في سيناء لإرباك نظام قيادته وسيطرته.

(جـ) إسكات وسائل الدفاع الجوي المعادي في سيناء.

2 - التعامل مع احتياطيات العدو، خصوصًا المدرعات المتقدمة من العمق التعبوي للقيام بالهجوم المضاد ضد قواتنا، وكذا إسكات مدفعيات العدو، خصوصًا البعيدة المدى.

3 - تقديم المعاونة الجوية بالنيران، لقوات الجيش الميدانية والقوات البحرية وقوات الاقتحام الرأسي.

4 - الاشتراك في تنفيذ مهام الدفاع الجوي طبقًا للموقف لصد هجمات العدو المركزة.

ولتحقيق هذه المهام على أكمل وجه، فقد تم تمركز تشكيلات المقاتلات القاذفة في القواعد الجوية والمطارات، بالأسلوب الذي يسمح لها بالمناورة في أقصر وقت.

وعندما اقتربت ساعة الصفر، كان منظر الطائرات المقاتلة رائعًا وهي تطل وتندفع

من دشمها بنظام دقيق إلى ممرات الصعود، وتقلع في تشكيلات خاصة، متجهة للأهداف المحددة لها في الضربة الجوية المركزة الأولى «صدام».. التي تمت بنجاح منقطع النظير، وبأكثر من مائتي مقاتلة قاذفة، ضد مطارات العدو ومراكز قيادته وسيطرته، ومراكز الإعاقة والشوشرة ووسائل دفاعه الجوي، ومدفعياته بعيدة المدى، ونقطه الحصينة في خط بارليف.

لقد كان طيارو المقاتلات القاذفة الأبطال أهم عوامل نجاح هذه الضربة. وبانتهاء الضربة الجوية وعودة الطائرات لقواعدها الجوية، تسابق الجميع من طيارين وفنيين لإعادة تجهيز الطائرات في أزمنة قياسية لتنفيذ باقي مهام اليوم الأول.

ومنذ صباح اليوم الثاني للعمليات «7 أكتوبر»، أخذت مقاتلاتنا القاذفة تقصف بلا هوادة احتياطيات العدو التعبوية المحددة بكل دقة بواسطة وسائل استطلاعنا المختلفة، وتلقي عليها حمولاتها بكل عنف، كما قامت بقصف عربات الأطقم وهي في طريقها إلى مواقعها.

ومن المعروف أن الجيش الإسرائيلي يعتمد بصورة كبيرة على نظام الاحتياطي بتكديس وتشوين معداته في أماكن محددة مجهزة لذلك ومطقمة بعدد قليل من الأفراد لصيانتها وسرعة تجهيزها بمجرد احتمال حدوث حرب، حيث ينتقل إليها أطقمها الأصلية الكاملة لاستخدامها في القتال.

واستمرت مقاتلاتنا القاذفة في القتال ضد هذه الاحتياطيات طوال أيام العمليات، سواء في أماكن تجمعها عند بدء تحركها أو أثناء تقدمها وفتحها طبقًا للموقف.. فأوقعت أفدح الخسائر في دبابات ومعدات وأسلحة هذه الاحتياطيات التعبوية والتكتيكية.

ونفذت مقاتلاتنا القاذفة مهامها في المعاونة الجوية للقوات البرية، بكفاءة منقطعة النظير، رتنسيق دقيق فعال، مع الجيوش الميدانية، وقد تم ذلك منذ أن بدأت قواتنا في عبور قناة السويس «في السادس من أكتوبر»، واستمرت هذه المعاونة في جميع اتجاهات الهجوم، طبقًا للمجهود والمعدلات المخططة، بل جاوزتها حتى انتهى القتال «في 28 أكتوبر».

كان من نتائج هذه الطلعات أن حققت وحدات المقاتلات القاذفة أرقامًا قياسية في معدلات الإصابة والشلل والتدمير، فاقت المعدلات الدولية لأحدث أنواع الطائرات،

التي تدرس في أكاديميات العالم العسكرية، خصوصًا وقد فاقت نتائج إصابة أهداف العدو الصغرى والمتحركة كالدبابات والمدفعيات كل ما كان متوقعًا من دقة وتفوق.

لقد أعلن قائد الجيش الثالث أنه رأى بعينيه مقاتلاتنا القاذفة وهي تهاجم مدرعات العدو بشراسة وببراعة فائقة، وكانت تصيبها بصواريخها وتجعلها شعلة من نار، وكيف أنها كانت تعيد الهجوم وتصيب أهدافًا أخرى، كأنها تتدرب في تبة ضرب النار، غير مهتمة وغير عابئة بمدافع العدو المضادة ووسائل دفاعه الجوي التي كانت تفشل في الوصول إلى طائراتنا بسبب براعة طيارينا في المراوغة والإفلات من نيران العدو.

وكثيرًا ما اشتبكت مقاتلاتنا القاذفة - أثناء تأديتها لمهامها من أجل الحصول على السيطرة الجوية المحلية - بمقاتلات العدو، فكانت لها الند بالند، ورغم الفارق الكبير بين قدرات «الميراج»، و«الميج 17» مثلا فإن الأخيرة قد تمكنت من إسقاط عدد من طائرات الميراج، وقد سبق أن نشرت الصحف الأجنبية في حينه صور هذه الطائرات الميراج وهي تتهاوى مشتعلة بنيران «الميج 17».

وكانت تشكيلات مقاتلاتنا القاذفة على أهبة الاستعداد دائمًا لقتال قوات الإبرار المعادية، بالتعاون مع المقاتلات ووسائل دفاعنا الجوي، فقد كان لدينا تشكيلات مدربة على أعلى مستوى للعمل لتنفيذ هذه المهمة، وقد وضح أن العدو - بعد أن عرف على أرض الواقع المؤلم والمفاجئ بالنسبة له كفاءة طيارينا البواسل - لم يستطع أن يضحي بقواته، وإلا كان سيكتب لها الفناء.

وفي مرحلة قتال الجيب (ثغرة الدفرسوار)، فأقل ما يوصف به عمل المقاتلات القاذفة، في هذه الفترة، أنه كان بطوليًا نادرًا، إذ كان لهذه المرحلة ملامح خاصة، لا بد من وقفة عندها، للحق وللتاريخ.

فبعد أن حققنا لإسرائيل خسائرها الضخمة في الطائرات والمعدات استنجدت بأمريكا التي أسرعت وعوضت القوات الإسرائيلية عن كل ما خسرته من طائرات فانتوم معدلة وصواريخ وقنابل موجهة ذات كفاءة عالية، في الوقت الذي لم تعوض قواتنا الجوية بشيء من خسائرها مما ساعد القوات الإسرائيلية على التسلل إلى منطقة الثغرة بالدفرسوار.

وهنا ازداد الطيارون المصريون تمسكًا بإيمانهم، وصمموا على الصمود والتغلب على هذا التفوق الآلي بروحهم العالية، وكان القتال مستميتًا.. وكان التنسيق بين مقاتلاتنا

القاذفة، ومقاتلاتنا، فعالًا ودقيقًا، وكانت ضرباتنا مركزة، اعترف العدو بعنفها، ونتيجة هذا القصف تم تدمير أعداد ضخمة من الدبابات المعادية، وفقد العدو أعدادًا كبيرة من القتلى، ومعبرين من معابره في منطقة الدفرسوار.

وفي مقال كتبه أحد مراسلي الصحف الإسرائيلية، أثناء تواجده بمنطقة الثغرة، ذكر العبارة التالية: (أما قصف المدفعية فشيء تعودنا عليه، وأما هذا القصف الجوي فشيء مفزع). حتى «موشي ديان» نفسه، كان سيلقى حتفه أثناء قصف مقاتلاتنا القاذفة لأحد المواقع في منطقة الثغرة، ونجا من الموت بأعجوبة، حيث كان في زيارة لهذه المنطقة في ذلك الوقت.

ونتيجة لتنفيذ المقاتلات القاذفة لمهامها، فقد تم تحقيق الخسائر التالية في جانب العدو:

1 - في ضربات السيطرة تم تحقيق الإصابات الآتية:

- شل الممرات الرئيسة والفرعية لمطارات «رأس نصراني، تمادا، رأس النقب، المليز». وتم قصف كل مطار أكثر من مرة.
- إسكات «16» موقع صواريخ هوك.
- تدمير مركز قيادة رئيسي.
- إسكات مركز إعاقة وشوشرة.
- إسكات ثلاثة مراكز إرسال لاسلكي.

2 - في باقي الطلعات الجوية تم الآتي:

- تدمير «307» دبابات و«123» عربة مدرعة.
- إسكات «4» مواقع مدفعية بعيدة المدى، وتدمير نقطتين حصينتين.
- إسكات «8» مراكز قيادة و«8» مواقع صواريخ.
- إشعال الحرائق في «3» مناطق شئون إدارية و«4» مستودعات تموين وقود، وتفجير مخزن ذخيرة.
- تدمير معبرين وإغراق لنش طوربيد.
- إسقاط «13» طائرة معادية في الاشتباكات الجوية.

لقد قامت المقاتلات القاذفة بتنفيذ جميع المهام التي كلفت بها، على أكمل وجه.. وتجلى بوضوح تفاني الطيارين في تنفيذ هذه المهام.. وفي بيان الخسائر التي أوقعوها بالعدو أصرح دليل على ذلك، وأوضح برهان على أن «صدام» لم تكن مجرد مغامرة أو ضربة حظ، ولكنها كانت بداية موفقة لعمل مدروس على أساس علمي له صفة الاستمرار.

في جانـب ثالـث كانت المهام التي كلفـت «القاذفـات» بأدائها ملائمـة لمزاياها العديدة وإمكانياتها الهائلة في ردع العدو. ومنذ بدأت العمليات، قامت قاذفاتنا التكتيكية بالاشتراك في الضربة المركزة الأولى.

ففـي لحظـة البداية، انطلقت قاذفاتنا الثقيلة من قواعدهـا الجوية وهي محملة بأطنان من وسائل الدمار المختلفة.. بين قنابل ومستودعات قنابل، بأوزان وأنواع مختلفة، واتجهت إلى أهدافهـا المحددة، حيـث ألقت بوابل منها على هذه الأهداف المغـارة فأحالتها إلى جحيم.. ولقد شُلت المطارات التي هاجمتها قاذفاتنا لأوقات طويلة، وأبادت وشتتت تجمعات العدو المدرعة في أماكن تجمعها، حيث قامت بمهاجمة ودك مواقع العدو الحصينة بعيارات قنابلها الثقيلة، فأحدثت بها خسائر فادحة.

وقذفت قاذفات الصواريخ رادارات العدو ومراكز سيطرته في شـمال وجنوب سـيناء، وأثبتـت كفاءتها ومقدرتهـا العالية في إصابة الأهداف. واسـتمرت قاذفاتنا في تنفيذ مهامها طـوال فـترة العمليات، بقصـف مطارات العـدو واحتياطياتـه التعبوية، وأهدافـه المختارة بالعمق، وإدارته ومراكز قياداته وسيطرته.

وأثناء مرحلة الثغرة، اشـتركت قاذفاتنا في تدمير قوات ومعدات العدو المتسلل للجيب بالدفرسـوار، بمئات الأطنان من القنابل، وأنزلت به خسـائر بالغة ليلًا، سواء في معابره أو مناطـق تجمعه أو مناطق التشـوين والشـئون الإدارية.وكان من أبرز ما حققته، تشـكيلات القاذفات، من مهام خلال فترة العمليات برمتها ما يلي:

- قامت القاذفات التكتيكية بمهاجمة المواقع الحصينة شرق بورفؤاد.
- قامت القاذفات الثقيلة بضرب مطاري الطور ورأس النقب.
- قامـت قاذفات الصواريخ بقصـف رادارات العدو في «بير العبـد أم مرجم بالوطة شرم الشـيخ»، كـما قامـت بقصف قـوات العـدو التي تسـللت إلى منطقـة الثغرة، وصبـت قوتها مـن القنابـل والصواريخ، ما يعـادل في قوته التدميرية قـوة التفجير النووي، التي أحدثتها قنبلة هيروشـيما الشـهيرة التي أخرجـت اليابان مهزومة من الحرب العالمية الثانية.

أنتقـل الآن إلى الـدور الـذي لعبتـه المروحيات في حـرب أكتوبر. ووفقًا لخـبرة القتال في حروب فيتنام وحرب الاستنزاف في الشرق الأوسط، أصبحت طائرات «الهليكوبتر»، من

أهـم العناصر الرئيسـة في الحرب الحديثة، وذلـك لخصائصها المميـزة، وإمكانياتها المتعددة التي تهيئها للقيام بمهام متعددة.

لذلـك، حرصت قيادة القوات الجوية المصرية، في سـنوات ما بعـد حرب 1967 حتى نهايـة عمليـات أكتوبر 1973، على إعداد تشـكيلات الهليكوبتر بشـكل خاص، وتجهيزها للقيام بدور حيوي في المعركة.

ويـدوي في العالم صدى المفاجأة «الضربة الجويـة المركزة الأولى» التي بدأت بها القوات المسلحة المصرية حرب 6 أكتوبر العظيمة.

كان في تقدير قادة الحرب الجوية منذ البداية أن يكون استخدام التشـكيلات الهليكوبتر على أوسع نطاق، وتكليفها باستثمار نجاح الضربة الجوية المكثفة بكل سرعة.

وبالفعل كان لتشـكيلات الهليكوبتر دورها الفعال بعد سـاعات قليلة من بدء المعركة. وفي كتـاب «كيبـور»، يصف الصحفيـون الإسرائيليون الذين وضعوا الكتـاب – ما قامت بـه طائـرات الهليكوبـتر المصرية في اليوم الأول مـن العمليات قائلين: «في مسـاء 6 أكتوبر، قامـت طائرات هليكوبتر مصرية عملاقة، بنقل كتائب بأكملها لإسـقاطها خلف الخطوط الإسرائيلية، وكانت هذه الوحدات من الكوماندوز المصريين– شـأنها في ذلك شـأن قوات المشـاة على طول القناة، مجهزة بالصواريخ المضادة للدبابات.. وقد أسـقطت كتيبة من خيرة عنـاصر الصاعقة المصرية في منطقة شرم الشـيخ، واحتلت كتيبة أخـرى المواقع الإسرائيلية على طول خليج السويس من رأس سدر حتى حقول البترول في أبورديس».

ذهل العدو لاسـتخدام القوات الجوية المصرية المكثف لطائرات الهليكوبتر، وفي أوقات كان مـن الصعـب على مقاتلات العـدو تدميرها. وقد قامت تشـكيلات الهليكوبتر المصرية بأداء المهام الآتية، طوال فترة الحرب:

1 – إبـرار مجموعـات الفدائيين من رجـال الصاعقة المصريـة داخل جبهـة العدو في عمق سـيناء شمالًا وجنوبًا وعلى ساحل خليج السويس، بأعداد ضخمة من الطائرات، وتم ذلك اعتبارًا من يوم 6 أكتوبر.

وقد أفلحت هذه القوات في القيام بمناوراتها وعملياتها التكتيكية ضد العدو.

2 – إبرار وحدات من القوات الخاصة خلف خطوط العدو في سيناء ومنطقة البحر الأحمر ومطار فايد يومي «16و 18 أكتوبر».

3 – إمداد القوات الخاصة في منطقة البحر الأحمر أيام «8 و11و12و14 أكتوبر»، ما سمح لهذه الوحدات بالاستمرار في قتال العدو، وإرباك خطوطه الخلفية.

4 – استطلاع العدو والتعامل مع دباباته في أيام «16 و17 و18 و27 أكتوبر».

5 – إمداد قوات الجيش الثالث الميداني، شرق قناة السويس، بجميع ما يلزمه من احتياجات، خلال الأيام الأخيرة من عملية «الثغرة» في الدفرسوار.. وذلك خلال يومي «25 و27 أكتوبر».

6 – قام تشكيل من طائرات الهليكوبتر بقصف مستودعات بترول «بلاعيم».

7 – قامت طائرات الهليكوبتر بدور فعال في تصحيح نيران المدفعية لصالح عمليات القوات البرية المصرية.

استمرت تشكيلات طائرات الهليكوبتر، تؤدي مهاها – طوال أيام العمليات – بثقة وشرف، رغم بعض الخسائر التي منيت بها، واستشهاد عدد من أبطالها الشجعان، الذين أبلوا أعظم البلاء.

ليس سرًّا أن أسجل الآن، أن أحدهم بلغت به الجسارة أن صوب مدافع طائرته الهليكوبتر، وعلى ما يعلمه من بطئها وثقل وزنها نحو طائرة فانتوم معادية فأسقطها. ولعل المعلقين العسكريين سيقفون طويلًا أمام هذا الإعجاز الذي وإن كان قد تحقق بمحض الصدفة، إلا أنه يعكس مدى ما كان عليه طيارونا من ثقة بالله.. وبأنفسهم.. وبطائراتهم.

وإلى جانب طائرات «الهليكوبتر» بمهامها المتعددة – فقد كان هناك تشكيل آخر لا يقل حيوية وفعالية، عنيت به قيادة الجو المصرية، وهي بسبيل إعادة البناء، وهو «تشكيلات المواصلات».. ورغم خصائص طائرات المواصلات التي لا تسمح لها بالاشتراك في الضربات التي كلناها للأعداء، فإن طائرات مواصلاتنا الثقيلة كان لها دور آخر، فقد كانت على أهبة الاستعداد منذ اللحظات الأولى.. للقيام بعمليات الإسقاط الثقيل خلف خطوط الأعداء عند تطوير المعركة.

كانت تشكيلات المواصلات كخلية نحل تعج بالعمل في انتظار الأمر.. كما كانت

أعداد منها تقوم بتنفيذ مهام نقل القادة، وملاحقة نقل العتاد اللازم للتشكيلات التي تغير مكان تمركزها، ونقل الأفراد والوثائق وقطع الغيار اللازمة للتشكيلات. وعند حدوث ثغرة الجيب بدأ دور فعال لطائرات المواصلات في المشاركة في إمداد جيشنا الثالث بالعتاد والمؤن.

من المبادئ المعترف بها - سواء في مجال الاستراتيجية العسكرية، أو مجال النشاط الإنساني عامة - أن الفوز في معركة واحدة أو موقف واحد لا يحقق للطرف الفائز النصر النهائي في الصراع.. وعلى من يريد الوصول إلى النصر الكامل أن يأخذ بالأسباب التي تضمن له الاستمرار في الصراع - دفاعًا وهجومًا - حتى ينهك عدوه تمامًا، ويصل به إلى مرحلة العجز الكامل عن المقاومة عجزًا نفسيًّا وماديًّا، وهنا فقط، يستطيع أن يعلن بأعلى صوته أنه انتصر.

من هذه القاعدة الأساسية في الاستراتيجية العسكرية، انطلقت قيادة الجو المصرية في تخطيطها لبناء سلاحنا الجوي، على أسس علمية تضمن لهذا السلاح الاستمرار في المعركة - مهما طال مداها - استمرارًا فعالًا بالدفاع والهجوم على السواء.

ومن المسَلَّم به أن لغة الأرقام لا تعرف الكذب لصالح فريق ضد فريق، والأرقام التي نسوقها الآن - ومن واقع تقارير غرف العمليات، طوال معارك أكتوبر - توضح مدى نجاح سلاح الجو المصري، في تحقيق عنصر الاستمرار بكفاءة عالية المستوى طوال المعارك.

بلغ حجم نشاط قتال طائرات الأعداء على الجبهة المصرية خلال فترة العمليات «6224» طلعة طائرة، منها «670» طلعة ليلية، لأغراض قصف وتأمين قصف المطارات المصرية ووسائل الدفاع الجوي والتشكيلات البرية، تصدت لها جميعها قواتنا الجوية بشكل فعال، أعجز العدو الجوي عن تحقيق أهدافه من هذه الطلعات الهجومية.

وبناء على ما سجلته وسائل إنذارنا، واستنتاجًا من أقوال ووثائق الطيارين الأسرى، فقد حاول العدو تأمين سيناء بمظلات جوية - خلال فترة العمليات بثماني مناطق مظلات نهارًا، بنحو «168» طلعة طائرة، وثلاث مناطق مظلات ليلًا بنحو «36» طلعة طائرة، تعرضت جميعها لطلعات هجومية من مقاتلاتنا.

وقدر إجمالي عدد طلعات الاستطلاع الجوي المعادي على الجبهة المصرية - خلال فترة

العمليات - بنحو «64» طلعة، نفذت بنحو «118» طلعة طائرة، علاوة على «2» طلعة استطلاع جوي نفذتها «4» طلعات طائرة استطلاع أمريكية، وتعرضت جميعها لعمليات قتال ناجح من طيارينا المقاتلين.

تلك بعض الأرقام الأمثلة، وأمام ما قامت به تشكيلاتنا الجوية من إنجازات، وما قام به طيارونا من بطولات، نجد ثروة ضخمة من الدروس المستفادة، التي يمكن أن تكون نبراسًا للأجيال القادمة، ونجد أنفسنا أمام حقائق لا بد من استيعابها لتكون ضوءًا على طريق المستقبل:

1 - لقد كانت ثقة الطيارين المصريين بأنفسهم وطائراتهم وسلاحهم تفوق الوصف، ومرجع ذلك إلى جودة تدريبهم، وبدا ذلك واضحًا في ارتفاع نسبة إصابتهم للأهداف، التي تجاوزت جميع المعدلات التي كانت متوقعة من قبل.

2 - كانت الروح المعنوية العالية التي اتسم بها الطيارون المصريون ورغبتهم الأكيدة في الثأر، من منطلق نفي الاتهام الذي ألصق بالقوات الجوية المصرية على أساس غير سليم خلال معارك 1967 .

3 - حققت أعداد الطائرات المصرية التي كانت مخصصة للتعامل مع الأهداف المختلفة وبالتسليح المحملة به، نسب تدمير أعلى من التي كانت متوقعة.

4 - نجح أسلوب التوجيه الملاحي المصري في صد الهجمات الإسرائيلية باقتدار وكفاءة شهد بها الخبراء الدوليون، واعترف بها العدو نفسه.

5 - نجحت الطائرات المصرية في صد هجمات أعداد كبيرة من الطائرات المعادية، بمجموعات صغيرة من المقاتلات.

6 - لم يتمكن العدو من الشوشرة اللاسلكية على الطائرات المصرية، وبالتالي عجز عن إفساد عمليات التوجيه المصري لسلاحنا الجوي أثناء قيامه بمهامه القتالية والهجومية.

7 - كان التنسيق مع قوات الدفاع الجوي مرنًا وفعالًا، خصوصًا عند طلب تعديل أماكن مناطق المظلات طبقًا للموقف.

8 - كانت الطائرات طوال فترة العمليات صالحة بدرجة مشرفة، وضربت سرعة إعادة التزود بالوقود والتسليح أزمنة قياسية جديدة.

9 - نجحت المقاتلات المصرية في تنفيذ مهامها كمقاتلات قاذفة في كثير من الأحيان.

10 - ثبتت كفاءة الطائرة «الميج - 21» التي يقودها الطيار المصري الجديد في القتال الجوي، وتفوقها في المناورة على مختلف الطائرات المعادية سواء الفانتوم أو الميراج، وليس أدل على ذلك من نجاح طيارينا في مهاجمة مقاتلات العدو والاشتباك معها والتفوق عليها، وخلق الظروف المناسبة للتخلص من الاشتباك عندما يلزم الأمر، بفضل نجاح الطيار المصري في الاستفادة الكاملة من خصائص هذه الطائرة.

11 - ثبتت يقظة الاستطلاع الجوي المصري الذي لاحق العدو عند إعادة تمركزه وعند تسلله في الثغرة.. ومن ثم كانت تتوالى ضربات التشكيلات الجوية المصرية لأهداف العدو المستطلعة بكل دقة وإحكام خلال فترة العمليات.

12 - ويعتبر من أهم الدروس البارزة التي لاتزال تحتفظ بقيمتها العسكرية:

(أ) تنظيم التعاون بين القوات الجوية وبين القوات البرية والبحرية والدفاع الجوي، وتنسيق تعاملهم في تناغم عسكري تام.

(ب) نجاح حشد القوى الجوية على اتجاهات الضربة الرئيسة.

(جـ) تحقيق المفاجأة في الضربة الجوية المركزة الأولى، والمحافظة على تأثيرها المستمر، لأطول فترة ممكنة ضد العدو.

(د) نجاح المركزية في القيادة، مع الاستخدام الموسع للوسائل الرادارية ووسائل الدفاع الجوي وطلعات الاستطلاع المركزية بمختلف وسائلها، سواء المراقبة بالنظر أو التصوير العالي أو التصوير المنخفض، أو الاستطلاع الإلكتروني.

(و) التركيز في استخدام القوات الجوية المصرية بما يحقق توفير المجهود الجوي على طول فترة العمليات.

هذه الأمثلة قليلة من كثير، وتدل في النهاية على مستوى عالٍ من التفكير العسكري، جاء نتيجة تجارب ماضية عديدة، وثمار التدريب العملي الجيد، ومحصلة الإيمان بالعلم والأخذ بأسبابه، لكي نصل في النهاية إلى تحقيق الاستمرار الذي يصل بنا إلى النصر الأخير.

"... لا بـــد من وقفـــة أمام التاريخ، ليس فيها افتعـــال.. أو تـصنع، فأمام الموت وأمام التضحية بالنفس، لا بد من وقفة إجلال أمام موقف لا يُنسى لبُعده الإنساني أولًا، ومدلوله الحضاري والقومي ثانيًا.."

خير أجناد الأرض

يقول الحديث النبوي الشريف: عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا منها جندًا كثيفًا، فإن فيها خير أجناد الأرض». فقال أبوبكر: «ولِمَ يا رسول الله..؟»، قال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

حيرت منجزات القوات الجوية المصرية في معركة السادس من أكتوبر - رغم قِصَر أمدها نسبيًا - كل من تصدى لتقييمها من المحللين. والواقع الذي أجمعت عليه آراء المعلقين العسكريين وخبراء الحرب الجوية في الشرق والغرب، ابتداء من اليوم الثاني للمعركة، هو أن ما حققته وواصلت تحقيقه قواتنا الجوية بنجاح، كان عملًا بطوليًا بكل مقاييس البطولة في السماء.

والبطولات يصنعها الأفراد.. وإذا أردنا أن نقيِّم البطولات المصرية التي تمت في الجو، وقفنا حيارى أمام كونها بطولات أم مواقف إنسانية؟ أم من خوارق الأعمال؟ ثم تزداد حيرتنا.. هل هي بطولات فردية أم جماعية؟ وهل أتت عفوًا - كما كان العدو سيزعم لو أنه في مكاننا - أم كانت أمرًا من نتائج المستوى القتالي العالي الذي ينتهي إليه التدريب الجيد والأخذ بالعلم، واستيعاب تكنولوجيا الحرب الحديثة.

المواقف متعددة ومختلفة، بعضها راح ضحيته أبطال.. وبعضها لا يزال أصحابه أحياء، ولا يزال بعضهم سليم البنية، والبعض الآخر يحمل على جسده أوسمة البطولة في صورة عاهة أصيب بها أو جرح أو كسر عالجه الأطباء.

هي من وجهة نظري بطولات خارقة، فرضتها روح الفريق، التي عزف نشيدها الجماعي طيارونا المقاتلون أثناء معارك العاشر من رمضان، وساندهم فيها كل ضباط وأفراد وصف ضباط القوات الجوية على جميع تخصصاتهم.

ذلك المستوى شبه الأسطوري ليس استثناء حظي به الطيار الفرد الذي حقق البطولة، ولكنه هو القاعدة الجماعية بالنسبة لشباب قواتنا الجوية من المقاتلين الطيارين، الذين وصلنا بهم - تدريبًا وعلمًا - إلى مستوى يحقق الاستمرار والقدرة المتجددة على تحقيق البطولات.

إذا أردنا أن نسجل تلك الأعمال البطولية جميعها؛ فإن الأمر سيحتاج إلى مجلدات ومجلدات حتى يمكن إعطاء كل ذي حق حقه. إن استعراض عدد من صور البطولة لا على سبيل الحصر، بل كمجرد نماذج لما حققه مقاتلونا الطيارون خلال عمليات السادس من أكتوبر، والوفاء بالعهد الذي قطعه الرجال على أنفسهم، أن يكون لمصرهم الغالية - ولأمتهم العربية جمعاء - درع جوية تحميها.

ومن منطلق المنهج العلمي الذي التزمنا به، أقول إن العمل البطولي ليس مجرد حدث عادي نمر عليه مر الكرام، ولكن البطولات في حقيقتها أعمال ناجحة، لا بد أن يسبقها إعداد علمي، ولا يمكن وجود العمل الناجح من فراغ، بل يجب أن يسبقه تدريب مكثف وشاق وتضحيات، كما حدث في حرب الاستنزاف التي كانت خير جامعة عسكرية، تخرج فيها الطيار المصري المقاتل، ليكون على استعداد كامل لمواجهة خصمه.

ولا يمكن أن ننسى دور آلاف الرجال في كل التخصصات الأرضية وتفانيهم في عملهم. الأمر الذي كان خير مشجع للطيار في الجو على التضحية بالنفس، والإتيان بخوارق الأعمال. وصدق الله العظيم حين قال في محكم آياته: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب - الآية: 23].

وللحقيقة والتاريخ، فقد كانت القوات الجوية المصرية في معركة أكتوبر 1973 تمثل

الفئة الأقل.. والقلة في العدد ليست وحدها المعيار الوحيد الذي توزن به الأمور في الحرب عامة، وفي الحرب الجوية بصفة خاصة، وليست هذه القلة عيبًا في قواتنا الجوية، فهي على العكس من ذلك، وسام شرف على صدرها، إذ كان عليها بطائرات من طراز سوخوي وميج 17 و21 أن تواجه عدوًّا يعمل على طائرات أكثر تفوقًا في الأداء من طراز سكاي هوك وميراج وفانتوم.

وكان عليها أن تقاتل بمدافع وصواريخ وعتاد حربي - قد تكون ضمن ما يعتبر آخر صيحة فيما توصل إليه البشر من وسائل الفتك والدمار - ولكنها دون ما تزود به العدو من وسائل مماثلة من أمريكا، ولم تكشف عن سرها لغير إسرائيل، عندما تلقت إسرائيل الضربة المصرية التي أوشكت أن تكون الضربة القاضية لولا ما تلقته من معونات عسكرية عاجلة خلال المعارك.

وكان على قواتنا الجوية بطياريها الذين لم يتح لهم القدر فرصة الاختبار الحقيقي في معركة حقيقية، أن تواجه سلاح الجو المعادي، وأن تنتزع السيطرة الجوية من قوات جوية قوامها طيارون ممرسون، اكتسبوا خبراتهم في ميادين كوريا وفيتنام وغيرها، وعرفوا كيف يخرجون منها أحياء.

ولا بد من وقفة أمام التاريخ.. ليس فيها افتعال.. أو تصنع.. فأمام الموت.. وأمام التضحية بالنفس يصعب ذلك كله. لا بد من وقفة إجلال أمام موقف لا ينسى، لبعده الإنساني أولًا، ولمدلوله الحضاري والقومي ثانيًا.

كنت أتلقى «التمام» من القواعد الجوية والمطارات، التي اشتركت في تنفيذ الضربة الأولى «صدام» - ظهر السادس من أكتوبر - وعلمت أن شهداء هذه الضربة الناجحة هما: المقدم طيار «... كمال» والرائد طيار «عاطف».. ورغم سعادتي البالغة بالنتائج الرائعة التي حققتها «صدام» ضد العدو، فقد كان ألمي بالغًا لفقد الطيارين اللذين كانا - رحمهما الله - من أكفأ طياري القتال المصريين.

أسرعت بإبلاغ نتائج «صدام» للقيادة العامة للقوات المسلحة، وكنت أعلم أن الرئيس السادات - بوصفه القائد الأعلى - قد اتخذ مكانه على رأس هيئة القيادة في مركز العمليات الرئيس لقواتنا المسلحة قبل أن تبدأ عمليات السادس من أكتوبر، وكان علمي بهذه الحقيقة،

سببًا في إحساسي بالحرج وأنا أبلغ المغفور له المشير أحمد إسماعيل، بنتائج الضربة الجوية، وباسمي الشهيدين.. «... كمال» و«عاطف السادات».

إن «عاطف السادات» هو في البدء والنهاية، طيار قاتل كغيره من رجال سلاح الجو المصري - له ما لهم من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات - وألمنا لفقده هو نفس الألم الذي يعتصرنا لفقد غيره من شهداء قواتنا الجوية، ولكن «أنور السادات» بشر في النهاية، ومن حقه أن يشعر بأحاسيس غيره من البشر، عندما يفاجأ الأخ الأكبر بنبأ استشهاد أخيه الأصغر، الذي كان بالنسبة له في مكانة الابن العزيز.

لا شك أن هذا الإحساس بالحرج، والفهم الإنساني للطبيعة البشرية. والتقدير المرهف لحساسية الموقف، هو الذي دفع المشير إلى احتباس خبر استشهاد «عاطف السادات» عن شقيقه «أنور السادات» بضعة أيام. موقف إنساني من المشير أحمد إسماعيل، لعله أراد به أن يجنب القائد الأعلى، امتحانًا صعبًا في اللحظة التي كان على الرئيس السادات أن يتحمل فيها مسئوليته التاريخية، وهو يقود خير الجنود وأشرف الرجال، في اللحظة التي يواجهون فيها قدرهم، وقدر أمتهم العربية وشعبهم المصري، ليجيبوا عن السؤال الرهيب الذي ظل يتردد - منذ عام 1967 - في أعماق الشخصية العربية، سؤال رهيب يقول «هل نحن موجودون، أم غير موجودين؟!».

وفي مواجهة هذا السؤال المصيري، فليس من الحكمة أن يتعرض القائد الأعلى لأي اهتزاز - حتى لو كان عاطفيًا تمليه الطبيعة البشرية، ورابطة التراحم الأسري بين الأخ الأكبر وأخيه الأصغر - وهكذا قرر المشير، أن يحتبس الخبر عن قائده الأعلى، حتى تتضح معالم الموقف العسكري على الجبهة تمامًا، وعندما سنحت الفرصة، أعلن المشير الخبر لقائده الأعلى، ليجد نفسه أمام تصرف لا يصدر إلا عن إنسان له عمق أنور السادات، وشخصيته المتكاملة العناصر، العميقة الأبعاد.

حزن الرئيس - ما في هذا من شك - حين أُبلغ بخبر استشهاد عاطف السادات في الضربة الأولى. ولقد كان حزن الأخ الأكبر «أنور» على أخيه الأصغر «عاطف» عميقًا.. ولكن لمحة الحزن التي أطلت من عينيه يومها - وشهدها كل الحاضرين في غرفة العمليات الرئيسة - خالطها، ثم طغى عليها في النهاية إشعاع من العاطفة الأبوية الشاملة التي

ظللت كل المقاتلين، واحتضنت كل الشهداء، وأطلقها الرئيس في عبارته المؤثرة «كلهم أولادي».

تحول الموقف الإنساني في قمته العاطفية إلى موقف حضاري، يقفه رجل ناضج، يشعر بفقد أخيه، ويألم لخبر استشهاده، ولكنه في الوقت نفسه، يرتفع بانفعالاته فوق الموقف الأسري المحدود، إلى موقف قومي أكثر شمولًا واتساعًا وعمقًا، يتحول فيه «عاطف السادات» إلى واحد من شهداء مصر كلها، الذين يظلهم جميعًا القائد بأبوته، ويترابط معهم قائدهم الأعلى بوجدانه، باعتبار أن ما صنعه كل منهم سطر جديد في سجل الشرف المصري، والكرامة العربية.

لقد كانت فئتنا القليلة من الطيارين، تحكمها في كل معاركها عوامل تعتبر الطريق الصحيح إلى كل انتصار على أي فئة أخرى مهما كثرت، وفي مقدمة هذه العوامل؛ الإيمان بالله وبالوطن وبالقضية، والتدريب الذي بلغ أرقى المستويات، والأخذ بأسباب العلم، وروح الثأر لشهداء المعارك السابقة، والاعتزاز بالنفس المصرية التي سطرت في سجل تاريخ الانتصارات أزهى وأمجد الصفحات طوال عصور التاريخ.

بهذه العوامل أيضًا تمكن كل من المقاتلين الطيارين «ضياء...» و«إيهاب...» و«ثابت...» و«عويس...» من إسقاط أعداد من طائرات العدو تعتبر أرقامًا قياسية في عصر عزت فيه الأرقام القياسية.

بهذه العوامل تمكن المقاتل الطيار «خميس...» من إسقاط الميراج مرتين بالميج 21، وتمكن المقاتل الطيار «عبدالعزيز...» الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره من إسقاط الفانتوم بطائرته السوخوي، وبكى كل من المقاتل الطيار «إيهاب...» و«نقولا...» فرحًا وهو يرى الفانتوم تسقط محترقة بنيران طائرته «الميج - 17».

وبهذه العوامل نجح مقاتلونا الطيارون في إدخال الرعب على نفوس طياري العدو، وتشتيت هجماتهم، وإرغامهم على إلقاء حمولاتهم في البحر أو في الصحراء، وإجبارهم على الفرار قانعين من الغنيمة بالسلامة.

بهذه العوامل تقدم طيارو السوخوي و«الميج - 17» بتظلمهم إلى قادتهم، طالبين الاشتراك في طلعات القتال الجوي بطائراتهم غير المخصصة للقتال الجوي، حتى لا يفوتهم شرف الاشتراك في المهرجان القتالي الذي أقامته قواتنا الجوية في سماء الدلتا وسيناء.

تركت هذه العوامل بصماتها على التصرفات الفردية لمقاتلي القوات الجوية، بعد أن بلغت روح القتال بينهم ذروة قل أن سمت إليها روح المقاتل طيار في غير سلاحنا الجوي الذي استعاد نفسه في معارك أكتوبر.

وفي الواقع، فقد تصاعدت روح القتال بين بعض الطيارين إلى حد أدخل القلق على نفوس قادتهم، وأرغمهم إلى مقاومته في الكثير من الظروف.

على سبيل المثال - لا الحصر - ففي السادس من أكتوبر، وأثناء الضربة الأولى المركزة التي حطمت روح الطيران الإسرائيلي وأعادته إلى حجمه الطبيعي، أصيبت طائرة المقاتل الطيار «نجيب...» بدانة مدفع مضاد أطارت غطاء كابينة الطائرة وأصابته هو بجروح سطحية في وجهه، ولكنه لم يبلغ عن الحادث ولم يطلب العلاج، بل بدأ بمجرد هبوطه في قاعدته إجراءات التزود بالوقود والذخيرة ليشترك في باقي طلعات ذلك اليوم، ولم يكتشف أمره إلا بعد أن حققت الضربة أهدافها وسمح للطيارين بالقليل من الوقت والراحة قبل بدء المهمة التالية.

في نفس اليوم أيضًا - وفي نفس العملية - حدث نفس الشيء للمقاتل الطيار «فوزي...» أثناء عودته بعد ضرب مطار بير تمادا، ولكن أمره اكتشف لحسن الحظ فصدرت له الأوامر الصارمة بالراحة جبريًّا، ولكنه بعد 24 ساعة تقدم بتظلم أقرب إلى الرفض منه إلى الرجاء، نوه فيه بأنه سيقضي ما بقي من حياته فاقدًا احترامه لنفسه لمرور يوم وليلة من عمر المعركة دون أن يفعل شيئًا، حتى إذا ما أجيب إلى طلبه، حرص بعد عودته من كل عملية على المشاركة في العملية التي تليها، وكأنما يعوض ما فاته من عمليات.

ثم حدث نفس الشيء وما أكثر ما حدث للمقاتل الطيار «حسن...» في الثامن من أكتوبر.. فبعد أن تمكن من إسقاط طائرة للعدو، أصيبت طائرته بصاروخ معادٍ أثناء عودته، فوثب بالمظلة وعاد سيرًا على قدميه إلى حيث التقطته قواتنا الأرضية وأعادته سالما إلى قاعدته قبل الغروب. وكان حتمًا أن يحال إلى القومسيون الطبي ليحدد المدة الكافية لعلاج الكدمات والجروح التي أصيب بها..و أحيل فعلا رغم إلحاحه في طلب إعفائه من ذلك، ولكنه لم يكف عن التوسل للأطباء حتى (يطلقوا سراحه) كما كان يقول، فأجيب إلى طلبه بعد 24 ساعة ليشترك في عدة عمليات ناجحة قبل أن يحظى - بعد ذلك - بلقاء ربه شهيد إيمانه وحبه لوطنه.

لون آخر من ألوان الإصرار وروح القتال التي جعلت من مقاتلي القوات الجوية مضربًا للأمثـال، فعندما رزق المقاتـل الطيار «فهمي...» بمولودتـه الأولى، وبادرت قيادته بمنحه إذنًا ليراها ويطمئن على سلامة الأم، رفض ابن السادسة والعشرين أن يبعد عن قاعدته ولو لسـاعات، خشـية أن تفوته المسـاهمة في إحياء مهرجان الانتصارات الذي أقامه مع زملائه ابتداء من السادس من أكتوبر.

تمخـض هـذا التكالب عـلى الاشـتراك في العمليات، من جانـب الطيارين، عـن ابتكار الكثـير من الحلول لبعض المشـكلات، فالمخالفات الصغيرة مثـلا، التي لا تخلو منها قاعدة جوية أو غير جوية، أمكن القضاء عليها تمامًا، وبين الطيارين بالذات، بجزاء طريف ابتكره أحـد قادة القواعـد لينتشر بين القواعد جميعًـا، هو (الحرمان من طلعـة أو أكثر من طلعات القتال).

وإذا كانت المشكلة الدقيقة التي طالما عانى منها القادة أثناء الحروب الجوية، والممثلة في حتمية اختيار الطيار المناسب للعملية المناسبة من حيث هي تدمير أهداف جوية أو اكتساح مدرعات أو ما إلى ذلك، باعتبار أن كل مقاتل طيار في قواتنا الجوية كان مناسبًا لكل عملية جويـة، فقـد بقيت مشـكلة اختيار العـدد المطلوب مـن المقاتلين للعمليـة، دون غيرهم من الراغبـين في التصدي لها، طوال الأيام الأربعـة الأولى، حتى ابتكر قادة القواعد حلًّا طريفًا لهذه المشكلة بدورها.

ويتلخص الحل الذي تمتزج فيه روح الدعابة المصرية بجدية الحرب في استدعاء الطيارين جميعًـا إلى غرفة عمليات القاعدة لتلقينهم تفاصيل العملية، في نفس الوقت الذي يجري فيه تجهيـز العـدد المطلوب فقط مـن الطائرات للطلعة وهي داخل دشـمها، حتـى إذا ما انتهى التلقـين وهـرع الطيـارون كلٌّ إلى دشـمه، حظي البعـض بالمهمة، وعـاد الباقون ضاحكين حيث يجدون الدشم التي حددت لهم خالية بلا طائرات.

ولم يكن الابتكار لحل المشكلات وقفًا على القادة، فقد ابتكر المقاتلون الطيارون لأنفسهم حلا لمشكلة المشكلات في القتال الجوي، هي مواجهة العدو والدخول في المعركة الجوية بلا ذخيرة.

الحل المبتكر جاء عفوًا، وأما السـبيل إليه فكان روح القتال الكامنة في طيارينا، وأما عن

الدروس المستفادة السابقة في مجال الحرب الجوية عمومًا التي أوحت به فلم يكن هناك أيٌّ منها، إذ اهتدى طيارونا المصريون إليها في أول مناسبة برزت فيها المشكلة.

لقد ذكرت من قبل قصة الطيار «نجيب» التي تحدثنا عنها بالتفصيل عندما وُوجه بنفاد ذخيرته يوم 7 أكتوبر بعد أن فرغ من مهمته في تدمير «قول» إسرائيلي مدرع كان في طريقه لنجدة القوات الإسرائيلية المسحوقة في خط بارليف، ولكي يفلت «نجيب» من المقاتلات الإسرائيلية، التي أسرعت لنجدة القول الإسرائيلي المدرع، ناور في الجو، حتى «ركب» بتشكيله الطائرات المعادية، فأسرعت بالهرب، فرارًا من صواريخه التي لا وجود لها.

نجح «نجيب» في ابتكار حل فوري تمتزج فيه الشجاعة بالسخرية المصرية اللاذعة من العدو لأخطر ما يواجه الطيار المقاتل في الجو، عندما تنفد ذخيرته في مواجهة عدو مكتمل الذخيرة.

هذا النمط الاستثنائي من المغامرات في القتال الجوي، لم يصبح قاعدة بين مقاتلينا الطيارين في كل مناسبة، بل أخذ ألوانًا أخرى أبعد تطرفًا وجسارة، وأكثر إصرارًا على سحق العدو الجوي، وإلحاق أكبر قدر من الخسارة، حتى في اللحظة التي يكون فيها العدو متمتعًا بظروف تجعله قريبًا من تحقيق أهدافه.

في الثامن عشر من أكتوبر خرج تشكيل من أربع طائرات بقيادة المقاتل الطيار «حيدر» ومعه كل من «محب ورضا وفتحي»، في مهمة لتدمير عدد من الأهداف الحيوية في عمق سيناء، لتعترضه أثناء العودة بعد أدائه لمهمته مقاتلات العدو، وهو على بُعد 40 كيلو مترًا شمال العريش، وإذا كان التشكيل المصري قد بوغت وهو بلا ذخيرة للدفاع، فقد كان في هذه المرة بلا وقود يكفي للمناورة الخداعية ثم العودة إلى قاعدته، ولذا أصدر قائد التشكيل، المقاتل الطيار «حيدر...» أمره إلى زملائه بمواصلة العودة إلى القاعدة دون اشتباك، وانفصل هو عن التشكيل واتجه رأسًا صوب العدو، وراح يشغله بالكر والفر وهو أعزل تمامًا، حتى تمكنت مقاتلات العدو منه بعد عناء، فأسقطته شهيدًا مضحيًا بحياته ثمنًا لحياة زملائه.

إن كثيرًا من الناس لا يعرف عن «العمليات الخاصة» إلا اسمها.. وقد لا يعرف الكثيرون أنها واجبات ينفرد كل منها بوضع خاص، سواء من حيث التعرض للمخاطر، أو من حيث الآثار المترتبة على النجاح أو الفشل في أداء العمليات الخاصة بالبر أو البحر..

مسئوليات جسام تتطلب من المقاتل الطيار أسمى مستويات الإخلاص للعمل، والصدق في الأداء، والشجاعة في مواجهة الخطر.

تلك عناصر توافرت بغزارة في مقاتلينا الطيارين، طوال معارك أكتوبر التي قامت أكثر ما قامت على العمليات الخاصة، التي عُهد بها لسلاحنا الجوي، فأثبت كفاءة عالية في هذا النوع من عمليات القتال التي خضناها للمرة الأولى في تاريخنا.

سارت عمليات هذا السلاح الوليد قُدمًا، بعملياتها الخاصة، مع العمليات الأخرى التقليدية، كالقتال والقذف الجويين. وفي السادس من أكتوبر، وبينما الضربة المركزة الأولى تفتح أبواب الجحيم وتصلي العدو نارًا من الجو، كانت عدة تشكيلات من تسع عشرة طائرة هليكوبتر ضخمة، بقيادة المقاتلين الطيارين «شمس...» و«رفيق...» و«زكي....» و«محمود...» و«سعيد...» و«عمر...» و«حسن...» و«سمير....»، تسقط جنود الصاعقة البواسل شمال قلعة الجندي وشرق رأس سدر ووراء الممرات، للعمل خلف خطوط العدو بما يربكه ويوقعه في الحيرة التي حطت من روحه.

تلك القوات التي تم إنزالها لا يزال العالم يتغنى بإنجازاتها، لأن معظمها لم يعد إلا بعد شهور ثلاثة من بدء العمليات، وقد كانت نقطة الانطلاق الأولى في هذه العملية البطولية، هي نجاح طائراتنا في توصيل هذه القوات إلى أهدافها.

كان بديهيًا أن تجد هذه القوات الخاصة حاجتها من الذخيرة والغذاء والماء، وكان الحل عند سلاحنا الجوي الجديد.. «الهليكوبتر».. فعن طريق العمليات الخاصة أقام هذا السلاح جسرًا لإمداد قواتنا البرية الخاصة، حيثما تواجدت عبر طرق جوية عجز العدو عن اكتشافها، ابتداء من الثامن من أكتوبر، وفي تشكيلات سريعة الحركة بقيادة مقاتلين طيارين كانت خبرتهم بهذه العمليات الجليلة الأثر تتصاعد باستمرار، من أمثال المقاتلين الطيارين «عمر...» و«حسن...» و«بهي...» و«أبو شهبة...» و«سمير...» وغيرهم.

نوع آخر من العمليات الخاصة اضطلعت به طائراتنا الهليكوبتر، تجاوز مجرد إبرار القوات الخاصة وإمدادها، إلى تدمير الأهداف أيضًا، ففي الحادي عشر من أكتوبر عندما تقرر الحد إلى أقصى درجة ممكنة من نشاط مدرعات العدو بحرمانها من البترول، عصب الحرب الميكانيكية.. انطلقت أربعة تشكيلات من طائرات الهليكوبتر بقيادة كل من المقاتلين الطيارين «شمس...» و«رفيق...» و«أحمد....» و«علي...» في الصباح، ثم تلتها

أربعة تشكيلات أخرى بقيادة كل من «جلال...» و«محمد...» و«سيد...» و«محسن...» إلى حيث دمرت مستودعات البترول بسيناء، فحرمت العدو بهذه العملية التدميرية الناجحة من مصدر حيوي للوقود.

ونجحت تشكيلات الهليكوبتر في ليلة الثالث عشر من أكتوبر، بعد طلعتين متتاليتين، في إبرارعدد من عناصر الاستطلاع الذي تقرر توصيله في منطقة ما قرب مطار المليز، وكان لنجاح هاتين الطلعتين أكبر الأثر في العمليات التي تمت حتى اليوم، والتي قد تدعو إليها الحاجة في المستقبل. والجدير بالتسجيل هنا، أن نجاح هاتين الطلعتين الليليتين تم، رغم عدم وجود الأجهزة الملاحية الدقيقة التي تساعد الطيار على الوصول إلى أهدافه ليلًا.

أما أعظم العمليات الخاصة التي حققتها طائراتنا الهليكوبتر، وأطولها أمدًا في الواقع، فكانت عمليات إمداد الجيش الثالث شرق السويس بالأغذية والماء والذخيرة والأدوات الطبية وشحنات من المصاحف والأناجيل، بتشكيلات استغل فيها مقاتلونا ساعات الظلام ومعرفتهم الدقيقة بالتضاريس الأرضية التي تقوم سدًّا في وجه رادارات العدو، بنجاح لم يكن كفيلًا بصمود هذا الجيش الباسل فقط بل أيضًا كان كفيلًا بتمكينه من كسر جميع هجمات العدو واكتساب أرض جديدة.

بمثل تلك الروح في القتال بين طيارينا، وذلك المستوى من التدريب والكفاءه، تمكن هؤلاء الطيارون من تحقيق أعمال تعتبر قياسية في مجال الحروب الجوية.

لم أذكر من قبل أرقامًا مقارنة.. لكنني أشير الآن إلى أنه بالنسبة لعدد الطلعات الجوية في اليوم الواحد، كان الرقم القياسي أربع طلعات حققها طيارو سلاح الطيران البريطاني، أثناء مطاردة قوات المحور وهي في انسحابها التاريخي من شمال إفريقيا. وقد تخطت قواتنا الجوية المصرية هذا الرقم، ولأكثر من مرة، بعدد من الطلعات، وصل إلى ست طلعات كان يحققها الطيار الواحد في اليوم الواحد، دون أي بادرة من بوادر الإجهاد أو الإرهاق.

في مجال إسقاط الطائرات الأكثر تفوقًا أثناء القتال الجوي، بلغ طيارونا الذروة، لا في عدد ما أسقطوا من طائرات معادية أكثر تفوقًا من طائراتهم فحسب، بل على مدار حرب بدأت دون أن يدري أحد متى سيقدر لها أن تنتهي.

وعلى المعدل الفردي أيضًا، حقق العشرات من طيارينا أرقامًا قياسية في عدد إسقاط الطائرات المعادية الأكثر تفوقًا، التي تمكن كل منهم من إسقاطها، فرغم قِصَر أمد المعركة

نسبيًّا، تمكن أكثر من طيار مصري من إسقاط طائرتين أكثر تفوقًا خلال الفترة بين بدء ووقف القتال، بل تمكن المقاتل الطيار «وفائي...» من إسقاط ثلاث طائرات، وتمكن المقاتل الطيار «إمام...» من إسقاط خمس طائرات كلها من طراز فانتوم، أما ما يعتبر إعجازًا فكان فيما حققه المقاتل الطيار «سعيد...» عندما أسقط طائرتين معاديتين من طراز ميراج خلال طلعة واحدة، الأمر الذي لم يحققه غير اثنين من طياري الحلفاء طوال السنوات الخمس للحرب العالمية الثانية.

ثمة ما يعتبر قياسًا في أكثر من مجال من مجالات الحروب الجوية، ما تحقق على أيدي الكثيرين من أبناء القوات الجوية المصرية البواسل.

من ذلك على سبيل المثال، ما كان ينتاب بعض الطيارين من فقدان الصبر، والاستجابة للحماس وروح القتال، عندما ينجح العدو في الوصول إلى إحدى قواعدنا الجوية، فما من مرة هوجمت القاعدة التي يعمل منها كل من المقاتلين الطيارين «ضيف الله...» و«المنصوري...»، إلا وهرعا إلى طائرتيهما وانطلقا تحت القصف، إلى حيث يشتبكان مع العدو الجوي في معركة إن لم تنته بإسقاطه، فبإرغامه على التخلص من حمولته المدمرة بإلقائها فوق الحقول، والعودة هاربًا دون أن يحقق أهدافه ضدنا.

ولا أنسى ما دأب عليه كل من المقاتل الطيار «فهمي...» و«نصر...» و«عادل...» و«تحسين...» و«شكري...» من عدم فتح نيرانه على عدوه، بعد التمكن منه، إلا وهو على أقرب مسافة ممكنة منه، لدرجة أن شظايا العدو في كثير من المرات إثر انفجارها في الجو، أصابت طائراتهم إصابات لم تعقها عن مواصلة الطيران.

معروف في مجال الحرب الجوية، أن كل طيار يطير في الجو، يقابله بين «18 و20» مهنة على الأرض، لها علاقة بطائرته، بين متخصصين في الإعداد الهندسي للطائرة، وآخرين لتأكيد سلامتها، وتحميل لأسلحتها، وتزويدها بالوقود والذخيرة، وصيانة أجهزتها المختلفة.

ويسهر على تأمين سلامة الطائرة ملاح لتوجيهها على شاشات الرادار، ومراقب جوي لتنظيم إقلاعها وهبوطها من برج المراقبة، وخلف هؤلاء مهندسون وميكانيكيون وعمال في مهن فنية عديدة يصلحون ما يصيب كل طائرة من أعطال.

وهناك آخرون قابعون في مخازنهم، لإمداد الأسراب والورش بما يلزمها من عتاد أو

مهمات أو قطع غيار، وآخرون في مكاتبهم، يديرون دولاب العمل في أجهزة التخطيط ووحدات التنفيذ.

كل هؤلاء كانوا بمثابة خلية النحل، لا يكل فرد فيها عن العمل، وشأن كل خلية لها طلائع.. يصنعون النصر بالتضحية بأرواحهم، ويعطون الحياة صفة الاستمرار بهذه التضحيات، فإن النصر لم يكن من صنع فرد أو أفراد، ولكنه بالدرجة الأولى كان من صنع روح الفريق، التي لعبت أروع أدوارها أمام التاريخ.

والحق يقال إن شحنة معنوية، وروحًا وطنية لبست كل ضابط وكل جندي وكل موظف وكل عامل عند اشتعال الشرارة، فكأن الجميع يستعذبون الكد والتعب ولا يفكرون في الراحة، وكان كل منهم لا يفكر في الأخذ، بل في العطاء، ولا يفكر في نفسه بل في غيره، خصوصًا هؤلاء الطلائع من نسور الجو الذين نشروا ستار الحماية فوق سماء المنطقة.

كان كل من هؤلاء يفكر في سلامة الطائرة، وسلامة الطيار، وسلامة الممر قبل أن يفكر في نفسه، ومن ثم شحذت هممهم، فجاءت نتيجة الأعمال التي قاموا بها خلال المعارك وفق ما نعرف الآن. وكما ذكرت المقاتلين الطيارين؛ فإنني أذكر بعضًا من بطولات غيرهم.. لا من باب الفخر والإعجاب، ولكن من باب التذكرة والاستفادة.. هذه التضحيات ستنير الطريق للأجيال القادمة، وستظل على مر الأيام محل فخر وإعجاب لكل من عاشوها أو عرفوها أو قرءوا عنها.

إن دعامة هذا الفخر وأصحابه الأوائل، هم هؤلاء الذين دفعوا حياتهم فداء لأمتهم، وفداء لواجبهم وحماية لنا، فكانوا هم القدوة التي غسلت العار وضربت الأمثال، وكانوا هم بناة صرح النصر، سواء واجهوا نار العدو وهم ثابتون في مواقعهم الأرضية، أو أثناء تحليقهم في السماء.

لقد ذهب هؤلاء الشهداء للقاء ربهم بعد أن رفعوا رأسنا عاليًا، وبعد أن أزاحوا روح اليأس التي كانت تتراقص في الآفاق، وأحلوا مكانها آمالًا كان بريقها قد خبا، وأمجادًا أوشك تاريخها أن يندثر. وكان الشهداء هم العازفين الأوائل لسيمفونية النصر الذين لعبوا أدوارهم بأمانة يحسدهم عليها الأحياء.

وحسبنا وحسبهم ما وعدنا الله به في كتابه الكريم حين يقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

[آل عمران: الآيتان 169و170].

ولا يزال بيننا أبطال على الأرض، ضربوا أروع الأمثال في إتقان العمل والتضحية بالنفس، وقيض الله لهم أن يستمروا في إثراء الحياة. ولقد نجح الجميع؛ نسور الجو، وعمالقة الأرض في تأكيد روح الفريق التي سادت بين قواتنا المسلحة عمومًا، وأسلحتنا التي تعاملت مع العدو الجوي على وجه الخصوص.

أمام جدار الصواريخ المصرية المحكم..وأمام دوريات الحراسة النشطة من المقاتلات المصرية..

وأمام يقظة مقاتلات الاعتراض..وأمام كثافة أجهزة الدفاع الجوي ويقظتها..طاشت كل هجمات الطائرات المعادية.. ومن ثم راحت قنابلهم تتساقط من حول المطارات دون أن تصيب شيئًا. وكم من آلاف القنابل تهاوت وانغرست في حقول فلاحينا الكادحين، أو ذهبت سدًى ودفنت في رمال الصحراء.

أمام كل ذلك، تزايدت شراسة هجمات الطائرات الإسرائيلية، خصوصًا على مطارات شمال وغرب الدلتا، وأصبح عاديًّا أن يقال إن كثافة الطائرات المعادية في أي غارة بين 40 و50 طائرة، أو بين 60 و80 طائرة في بعض الطلعات، يقابلها عدد مماثل من طائراتنا، تقاتلها وتجبرها على الفرار، في أعنف المعارك التي سجلها تاريخ الحروب الجوية.

كان الأعداء يستهدفون دشم الطائرات، وكانوا يستهدفون الممرات لتعطيلها توهمًا منهم أنهم قادرون على تكرار ما حدث في 5 يونيو 1967، وتساقطت بعض القنابل على الممرات، وتساقط الكثير من صواريخ العدو وقنابله بعيدًا عن الممرات والدشم.

ولكن لم يتعطل مطار واحد أكثر من ساعات معدودة، استكمل بعدها قدرته على الدفع بطائراته إلى سماء المعركة التي فوجئت بها إسرائيل. ولقد تمخضت خسة إسرائيل في لحظات اليأس عن استخدام القنابل الاهتزازية، التي تنفجر بمجرد حدوث أي حركة بجوارها، وأمام هذا اللاشرف، لعبت البسالة المصرية دورها، حتى لا تهتز القنابل أو تنفجر أمام طائرة أو أمام دشمة بجوارها.

كمثال على بطولات أبنائنا أذكر رئيس الوحدة المسئول عن إزالة القنابل وتطهير الممرات منها، وهو يغادر مكتبه في القاهرة وينطلق إلى إحدى القواعد الجوية التي تساقطت فيها القنابل حول الممر، ليباشر التطهير بنفسه، ويظل يواصل الليل بالنهار لأن القنابل كانت تعد بالعشرات، وكان بعضها غائصًا في الطين على بُعد أمتار، فظل يواصل الحفر وراءها حتى تم نزع كل ما أسقطه العدو من قنابل، وتم تأمين المطار.

وقائد وحدة تطهير يتقدم نحو موقع سقطت فيه قنبلة، فتنفجر فيه لأنها كانت من النوع الاهتزازي، ويتقدم من يليه في الرتبة، فيلقى نفس المصير، ثم يتقدم من يليه، وهكذا.. حتى أصبحت الوحدة تحت قيادة ملازم.. وأخيرًا تم التطهير، دون أن تتوقف العمليات؛ لأن الجميع كانوا مؤمنين بحتمية مبدأ جديد اسمه «الاستمرار».

وتقدم سائق وحدة ميكانيكية من الممر، وعرف أن عددًا من زملائه لقوا حتفهم وهم يطهرون الممر من قنابل اهتزازية، فيسرع بعربته نحو قنبلة باقية كانوا يشيرون إليها، ويلقى نفس مصيرهم، حتى لا يستمر تعطيل الممر عن الطيران. ويتمزق جسده، مع أجزاء العربة، وتتوقف حياة البطل الشهيد، لكي تستمر قواته الجوية في الحياة.

وخلف عدم تعطل أي مطار أكثر من بضع ساعات، كانت هناك عملية إعداد فوري واستعدادات وتحضيرات خاصة يطلق عليها مهندسو الممرات «الخلطة الساخنة»، والأسمنت سريع الشك.

لم يكن العدو يدري أن مصر كلها تحارب.. وأن مصر كلها تساند جيشها. كانت الخلطة الساخنة تُصنع في كل موقع وبجوار كل مطار، وتقوم بتجهيزها شركات ومواقع عمل مدنية كانت على أهبة الاستعداد، وسواعد مدنية كان أصحابها لا يقلون فدائية واستعدادًا للبذل عن المقاتلين الرسميين.

وكانت أجهزة نقل متخصصة تعمل لإحضار هذه «الخلطة الساخنة» على وجه السرعة، لردم ما في الممرات من حفر، وفي كل قاعدة جوية أو مطار توجد وحدة لديها آلاتها ومعداتها وضباطها وجنودها المسئولون عن إعادة تجهيز الممرات. هؤلاء ضربوا أروع أمثلة النشاط، ومواصلة الليل بالنهار، لجعل الممرات جاهزة لإقلاع الطائرات وهبوطها باستمرار، وخلال ثغرة «الدفرسوار» تركزت غارات الأعداء، على أحد مطارات شرق الدلتا، وتساقطت عليه مئات القنابل، وتعطلت ممراته أحيانًا، ولكن كان العدو يعطله ليلًا،

ليصبح فيجده وقد عاد صالحًا، وأقلعت منه الطائرات لتهاجمه. لقد كان مهندسو المطارات، يعملون ليلًا على أضواء العربات.

كم كانت تعوق أعمالهم القنابل المهتزة، ولكنهم كانوا دائمًا ذوي عزيمة، وكان نتاج ذلك كله.. ممرات صالحة على الدوام، تضمن لسلاحهم الجوي تحقيق شبح يرعب إسرائيل اسمه «الاستمرار» في المعركة من بدايتها إلى نهايتها.

ولجأ العدو إلى وسيلة غير شريفة أخرى، هي إلقاء قنابل تحوي مئات من الكرات المعدنية، التي تتناثر في شتى الاتجاهات عند حدوث الانفجار، فتصيب عددًا كبيرًا من الأفراد. مثل هذه القنابل أطلق عليها جنودنا اسم « قنابل الجوافة»، تشبيها لكراتها ببذور هذه الثمار ، ورغم أن عددًا كبيرًا من الأفراد قد أصيب من جراء هذه القنابل، فإن حركة العمل في أي قاعدة أو مطار لم تتوقف ولو للحظات، رغم أن مقتضيات كثير من الأعمال تقتضي العمل في العراء، بلا ملاجئ.

وذهب العدو إلى أسلوب تخويف الميكانيكيين الجويين المسئولين عن صيانة الطائرات وتجهيزها في حظائرها ودشمها، بتعمد إلقاء عديد من قنابل الجوافة قربها. كان هؤلاء هم محور الرحى في كل عملية جوية، وعلى أكتافهم قامت كل التجهيزات في سرعة وبراعة وإحكام، وبروح معنوية لا مطمع في مزيد عليها لأي سلاح جوي في العالم.

وعندما وجد كثير منهم أن بعض البلي المتناثر يمكن أن يصيب الطائرات داخل الدشم، تمخضت أذهانهم عن أفكار مبتكرة غاية في البساطة، تمثلت في بعض شكاير الرمل، وصناديق الخشب المملوءة بالرمال، وحموا بها الطائرات.ولقد ضرب كثيرون منهم أروع المثل في التضحيات.

والمقاتل «شبل...» الذي كان يتعاون مع لفيف من زملائه على إدخال إحدى الطائرات إلى دشمتها، ليحكموا إغلاق الباب عليها حماية لها من قنابل الجوافة.ولكن القنابل لاحقتهم، وسقطت إحداها قرب الدشمة، فأصر المقاتل «شبل» على أن يتقدم زملاؤه حتى يغلقوا الباب على الطائرة وبقي هو ليسحب القنبلة بحبل بعيدًا عن الطائرة.

منهم المقاتل «شاكر...» الذي لمح قنبلة تتدحرج في منزلق نحو إحدى الدشم، دون أن تنفجر، فهَمَّ في سرعة خاطفة إلى التقاطها بيديه، وجرى بعيدًا عن الدشمة إلى أرض فضاء مجاورة ليلقي بها، وهو يعلم أن انفجارها موقوت، وما كاد يعطيها ظهره بعد أن أبعد

الخطر، حتى دوى صوت الانفجار عاليًا، وهو لم يكد ينبطح على وجهه ليتفادى الشظايا إلا في اللحظة الأخيرة.

وأسرع العملاق المصري «شبل» سليل «بناة الأهرام» ليؤمن وحدة الدفاع الجوي، التي تسهم بجهدها الحيوي في خلق الشبح الذي أطار النوم من عيون جنرالات الجو الإسرائيليين.. شبح كانت العسكرية الإسرائيلية تسخر من احتمال وجوده يومًا ما، ولكن أحفاد بناة الأهرام صمموا على أن يتحول هذا الشبح المخيف إلى حقيقة رهيبة بالنسبة للعدو، اسمها: «استمرار القوات الجوية المصرية في المعركة».

أما المقاتل «شافعي...» فقد كان له هواية غريبة، وهي جمع قنابل الجوافة، ولقد أفلح في جمع ما يزيد على ستمائة قنبلة منها بعد نزع مفجراتها، وبذلك أصبح سرها معروفًا، ولم تهبه القنابل المهتزة ونجح في نزع طبات سبع منها. و ذاع صيته في المنطقة، إلى حد أن استدعته إحدى وحدات الدفاع الجوي القريبة لتأمين قنبلة كبيرة زنة ألف رطل، سقطت بجوارها على عمق أكثر من مترين في الأرض.

إن القوة التدميرية الحقيقية لأي سلاح جوي معاصر، لا تحسب بعدد الطائرات التي يملكها هذا السلاح، ولا بعدد الطيارين المقاتلين الذين يعملون على هذه الطائرات، ولكن قواعد الحرب الجوية الحديثة، تضع مقاييس مختلفة تمام الاختلاف عن الحسابات العددية المجردة لعدد الطائرات والرجال، تتمثل في الأسس التالية:

أولًا: عدد الطلعات الجوية التي يستطيع الطيار الواحد أن يحققها في اليوم الواحد من أيام القتال الجوي.

ثانيًا: نسبة الإصابة التي يحققها الطيار المقاتل، ضد الأهداف المعادية في كل طلعة، ومدى ارتفاع هذه النسبة.

ثالثًا: انخفاض نسبة الخسائر بين طائرات السلاح - وطياريه - نتيجة لتوافر وسائل الدفاع الجوي - بالنسبة للطائرات - وارتفاع المستوى القتالي بالنسبة للطيارين.

رابعًا: براعة أطقم التشغيل الأرضي في قيامها بعمليات إعادة الملء والتموين في أزمنة قياسية توفر الوقت للطائرة وطيارها المقاتل، وتساعد على الارتفاع بعدد الطلعات التي يمكن للطيار الواحد أن يحققها إلى أرقام قياسية جديدة.

خامسًا: سرعة أطقم الصيانة والتجهيزات الهندسية، في القيام بعمليات الإصلاح - سواء بالنسبة للطائرات، أو الممرات - يوفر الوقت، ويضاعف من عدد الطلعات الجوية.

ولهذا، فلم يكن غريبًا عليَّ، وأنا أباشر مهمتي - كقائد للقوات الجوية خلال حرب أكتوبر - أن ألاحظ أن عمليات «التمام» التي كانت تتلقاها قيادة القوات الجوية لم يكن بينها في أي يوم «بند» عدم صلاحية للطائرات بسبب تأخر الإصلاح لمدد طويلة. ومن ثم كانت نسبة صلاحية الطائرات على الدوام أعلى من المتوقع باستمرار.

وراء هذا كانت هناك عيون ساهرة، من مهندسي الصيانة وميكانيكيي وعمال ورش الإصلاح، سواء في القواعد الجوية والمطارات أو في الورش الخلفية. هؤلاء واصلوا الليل بالنهار في إنجاز الإصلاحات، وليس في ذلك في حد ذاته بطولة لأن ذلك عملهم وواجبهم. ولكن عنصر البطولة يكمن في إنجاز هذه الإصلاحات في أوقات أقل ما توصف به أنها غاية في القِصَر إلى حد يصعب تصديقه.

لقد أنجزت إصلاحات وتفتيشات خلال أربع وعشرين ساعة فقط، وكان الزمن اللازم لها في وقت السلم سبعة أيام على الأقل.. وقد يظن البعض أن هذا تم على حساب مستوى الجودة في الإنجاز، ولكن الحقيقة أن سرعة الإصلاح تمت بحساب دقيق قام به مهندسو الطيران المشرفون على الإصلاح، بتكثيف الأيدي العاملة وتطبيق مبدأ «رجل/ ساعة أكثر يعني وقتًا أقل».

ولم يكن تكثيف العمل بالشيء العسير، فقد كانت الروح والهمم المصرية عالية، والكل كان يضحي بساعات نومه وراحته، وكانت الأجسام طيعة لهذه الهمم العالية التي بلغ حماسها القمة مع نسمات النصر.

ولعله ليس سرًّا أن أعلن أنه كان هناك تخطيط مسبق من قبل قيادة مهندسي الطيران لنبذ الوسائل التقليدية للإصلاح وقت المعركة، واستخدام وسائل مبتكرة بديلة.

فالثقوب الصغيرة التي أحدثتها الشظايا في الطائرة مثلًا، لم تكن تعالج بالسمكرة بل باستخدام لدائن لاصقة. ومعدات الرفع والتحميل التي لا تتوافر إلا في الورش الرئيسة المجهزة، أمكن ابتكار ما يقوم بعملها داخل دشم الإصلاح وورش المطارات بوسائل لا تتسم إلا بالبساطة، ولكنها تؤدي إلى تحقيق نفس الفاعلية المطلوبة والمؤدية إلى سرعة الإنجاز في أقصر حيز زمني ممكن.

وأذكر الآن أنه لم يحدث أن تعطلت طائرة لنقص في قطع الغيار اللازمة لإصلاحها، لأن مهندسي الإمداد كانوا على مستوى من اليقظة ومن التفتح لاستقبال البلاغات وإنجاز المطلوب يحسدون عليه.

لم يكونوا نمطيين، ولا تقليديين في وسائلهم، فاستخدموا مبدأ الدفع من الخلف للأمام بمناورة نادرة.

وصل بلاغ من إحدى القواعد ليلًا بأن طائرة غير صالحة، في حاجة إلى قطعة غيار صغيرة الحجم، وأن صلاحية الطائرة متوقفة عليها، وبعد أن تم صرف القطعة المطلوبة، تحرك أحد المقاتلين بها لتوصيلها، وكان لزامًا عليه أن ينتقل بعربة وعلى بعد أربعة كيلو مترات من القاعدة، وتعطلت العربة فواصل الجري حتى بلغ القاعدة لتكون الطائرة صالحة قبل مطلع الشمس.

خلال عمل متصل ليل نهار في الإصلاح، لتكون صلاحية الطائرات دائمًا في القمة، توالت ملحمة بطولات عمادها المهندسون والفنيون والميكانيكيون والعمال.

وقد سقطت قنبلة أمام باب دشمة كان المقاتل «حمدي..» يجري فيها إصلاح طائرة، فيتفتق ذهنه عن سحب الطائرة من الباب الخلفي للدشمة بواسطة عربة التزويد بالوقود. وعندما يحدث الانفجار، تكون نتيجته إتلاف بعض الجدران فقط.

والمقاتل «زناتي...» تسقط قرب ورشته قنابل صغيرة كثيرة العدد، ويعرف أنها ستنفجر بعد قليل، ولكنه يمضي في جمعها في خوذته بسرعة، ويسرع إلى إلقائها في حفرة حتى لا يتعطل إصلاح الطائرات.

أما المقاتل «أبوناسو...» فقد كان متخصصًا في إصلاح كوابل التليفونات، وتحت قصف من وابل القنابل لم ينثن عن إصلاح كل الكوابل الموصلة إلى الدشم، لتكون الطائرات دائمًا جاهزة لتلقي أوامر الإقلاع فور صدورها، وليستمر سلاحنا الجوي موجودًا في المعركة التي بدأها بضربة «صدام» وأنهاها بضربة التدمير الرهيبة التي كالتها قاذفاتنا الثقيلة ومقاتلاتنا القاذفة لقوات العدو التي تسللت من ثغرة «الدفرسوار».

بهذا استحقت قواتنا الجوية التقييم المنصف الذي أعلنه الفريق أول محمد عبدالغني الجمسي نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية والقائد العام لقواتنا المسلحة عندما أعلن «أن القوات الجوية هي التي بدأت الحرب وهي التي أنهتها».

„ باسم قواتنا الجوية ـ درع قواتنا المسلحة التي تحمي سماء مصر ـ أقولها لكل جنرالات إسرائيل: لسنا مثلكم طلاب حرب لذات الحرب.. ولكننا طلاب سلام عادل.. قادرون عليه بإذن اللّه وإرادة الشعب "

كلمة أخيرة

أختم كتابي هذا، كما بدأته، بالحديث المباشر الذي أتوجه به إلى خصمنا القديم جنرال الجو الإسرائيلي «مردخاي هود».. مخطط عملية «طوق الحمامة» الإسرائيلية، التي نفذها طيارو إسرائيل ضد سلاح الجو المصري، صباح الإثنين الخامس من يونية عام 1967.

أتحدث إليه باسم قواتنا الجوية المصرية، وتعبيرًا عن واقع جديد يؤمن به الإنسان المصري، ومن خلفه جماهير أمتنا العربية كلها :

أردت يا جنرال «هود» ومن خلفك كل جنرالات إسرائيل وقادتها السياسيين أن تخلقوا من ضربة «طوق الحمامة» وما تبعها من عمليات عسكرية برية خاطفة عام 1967 عقدة «ماسادا» عربية، تترسب في عقل المقاتل المصري والإنسان العربي عامة، بحيث يتحول هذا الإنسان إلى كائن مذعور، يطارده في يقظته ونومه على السواء، خوف دائم، من وحش خرافي اسمه «جيش إسرائيل الذي لا يُقهر».

هذا هو ما أردته يا جنرال من عمليتك المسروقة خططيًّا من الفكر العسكري الأنجلوفرنسي، ولكن إرادة الله العادلة، كانت فوق إرادتك، وكان تصميم المقاتل المصري – ومن ورائه الشعب المصري وأمته العربية – على تحويل الهزيمة إلى نصر، هو الطريق الصحيح الذي مضينا فيه عشية الخامس من يونية عام 1967، ليصل في نهايته إلى الساعة

الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973 .. وأظنك تعرف جيدًا - كما يعرف كل جنرالات إسرائيل - ماذا حدث في تلك الساعة التاريخية التي أعادت الأحداث في منطقة الشرق الأوسط إلى مسارها الصحيح.

وكان حلمك يا جنرال «هود» - وهو بلا شك حلم إسرائيل كلها - أن تؤدي هزيمة يونيو 1967، إلى عزل مصر عن شقيقاتها العربيات، وإيقاعها في مصيدة التمزق الداخلي، الذي ينتهي بها إلى الانسحاب نهائيًا من الساحة العربية، لكي تسارعوا أنتم لملء الفراغ المخيف الذي يخلقه انسحاب مصر من الساحة التي يدور فيها الصراع التاريخي بين أمة العرب والفكر العدواني الذي تتبنونه.

لا شك أنكم فوجئتم بمصر تزداد تماسكًا بانتمائها العربي، وتزداد إصرارًا على دورها التاريخي في الصراع الحضاري بين العرب بكل تراثهم الحضاري المشرف، وبكل واقعهم المندفع بكل آمال المستقبل نحو استيعاب حضارة العصر. ولقد أثبتت الحوادث بُعد نظر الإنسان المصري - وقِصَر نظركم في هذه النقطة بالذات.

كانت مؤسستكم العسكرية في تل أبيب - وهي المحرك الأول والمسيطر الحقيقي على كل ما يجري في إسرائيل - تفاخر بأن ما حصلتم عليه من نصر سريع ورخيص - في يونيو 1967 - هو المقبرة التي دفن فيها إلى الأبد، وهْم كان يسمى «التضامن العربي، ووحدة الصف العربي»..وانطلاقًا من هذا التفاخر الذي أملاه عليكم الغرور والاستهانة بعدوكم وعدم معرفتكم بالمكونات الأصيلة للإنسان العربي، وضعتم كل مخططاتكم السياسية والعسكرية - بعد يونيو 1967 - على أساس أن مصر تقف وحدها في العراء بلا سند ولا عون..

ثم نجحتم في زرع هذه الفكرة الخاطئة في رءوس مخططي السياسة الاستراتيجية، سواء في قيادة حلف الأطلنطي عمومًا، أو مخططي السياسة الأمريكية على وجه الخصوص، وكان هدفكم من هذا التضليل أن تقنعوا الغرب عمومًا - والولايات المتحدة الأمريكية خصوصًا - بأنكم تستطيعون أن تقوموا بدور كلب الحراسة الأمين لمصالح الغرب في المنطقة العربية التي يسحقها التمزق والخلاف، ولا أمل إطلاقًا في قيام أدنى صور الوحدة بين صفوف الأمة العربية.

وفي مواجهة هذا الوهم، كانت القيادة السياسية المصرية الجديدة وعلى رأسها الرئيس

السادات - تتحرك سرًّا وعلنًا من منطلق مخالف تمامًا.. وفي أحلك ساعات الصمود والإعداد الصامت للمعركة، لم يتخل شعبنا المصري عن إيمانه بأمته العربية.. ومن هذا الإيمان العميق بوحدة التاريخ والمصير العربي، وضع القائد الأعلى استراتيجيته السياسية في المجال العربي، في صمت، ونفذها في صبر لا يتقنه إلا فلاح مصري - كأنور السادات.

وجاءت الساعة الموعودة، فإذا بالعالم كله يفاجأ بالصف العربي الموحد، وبالإرادة العربية الموحدة، وبالأمة العربية تطفو بإرادتها على سطح السياسة الدولية كقوة كبرى، قادرة على صنع ما تريد، وعلى توجيه أحداث المنطقة، ورسم سياستها بنفسها. أستطيع أن أقول لك يا جنرال «هود» - ولكل زملائك من جنرالات إسرائيل وقادتها السياسيين - إن هزيمتكم السياسية في هذه الناحية بالذات، لا تقل بشاعة عن هزيمتكم العسكرية في ساحة القتال ظهر السادس من أكتوبر 1973.

نجح العقل المصري - كمخطط سياسي استراتيجي على المستوى العالمي - في توجيه ضربة ساحقة لكل ما صنعته الدبلوماسية الإسرائيلية وحاكته في الظلام من مؤامرات الدس والوقيعة بين الأشقاء العرب - سواء قبل 5 يونيو 1967 أو ما تلاه من أيام شرسة - وكانت هزيمتكم السياسية قد بلغت ذروتها بالوقفة التاريخية للأمة العربية والتفافها الرائع حول المقاتل العربي الذي حطم كبرياء العسكرية الإسرائيلية ومرغ أنفها في تراب معارك أكتوبر .

وقد أدى هذا النجاح الساحق للدبلوماسية المصرية الذي آزره النجاح العسكري، إلى نتيجة بالغة الخطورة بالنسبة لمستقبلكم السياسي على المستوى الاستراتيجي البعيد، حين اكتشف العالم كله - شرقًا وغربًا - أن العرب - خصوصًا في وقت المعارك المصيرية - ليسوا بالأمة الممزقة، وأنهم قادرون على التلاحم السريع، مهما كانت صورة الخلاف في الرأي طافية على السطح.

أنت مضطر ياجنرال «هود» إلى أن تقر أن عملية «طوق الحمامة» - التي نقلتها بلا تصرف عن العسكرية الأنجلوفرنسية عام 1967 - قد لقيت من الفكر العسكري المصري، ردًّا بالغ الشراسة والضراوة، في الضربة الجوية المصرية «صدام» التي نفذها الطيار المصري المقاتل في السادس من أكتوبر عام 1973 بنجاح ساحق، لا تستطيع أنت ولا غيرك التقليل من شأنه.

والفارق الوحيد بين العمليتين، الذي ستسلم به - بينك وبين نفسك على الأقل - هو أن الضربة الجوية المركـزة «صدام» كانت ضربة خالصة المصرية في تخطيطها وتنفيذها، بعكس عمليتـك المسروقة تخطيطًا وتنفيذًا..وأن هذه الضربة المصرية الخالصة كانت ردًّا عمليًّا على كل ما روجته أجهزة الحرب النفسية - عقب 5 يونيو - عن تفوق العقل الإسرائيلي، وعجز العقل المصري.

لـو أن نجـاح قواتنـا الجوية ضدكـم، كان قد توقف عنـد حد هذه الضربـة المركزة التي وجهها لكم الطيار المصري المقاتل لجاز أن تزعموا أنها كانت فلتة لن تتكرر..ولكن استمرار الطيار المصري المقاتل في توجيه الضربات السـاحقة لكم طوال المعارك، سـواء فوق مسرح العمليات أثناء زحف قواتنا المنتصرة أو خلال المعارك الجوية الرهيبة التي دارت فوق ثغرة «الدفرسـوار» وفوق بورسـعيد - وغيرهما من المعارك الجوية الكبرى التي لم يشـهد تاريخ الحرب الجوية مثيلًا لها من قبل - كل هذا يؤكد لك ولمؤسستك العسكرية في تل أبيب - أن الضربة المصرية «صدام» كانت مجرد بداية لواقع جديد يعيشه سلاح الجو المصري، وعليكم أن تحسبوا له ألف حساب.

أخيرًا.. باسـم قواتنا الجوية - درع قواتنا المسـلحة الذي يحمي سـماء مصر - أقولها لك ولكل جنرالات إسرائيل:

لسنا مثلكم - طلاب حرب لذات الحرب.. ولكننا طلاب سلام عادل.. ونحن قادرون بإذن الله وبإرادة شعبنا المصري، وصلابة أمتنا العربية - على حماية هذا السلام العادل، وعلى ضرب كل من تسـول له نفسـه أن يعتدي على هذا السـلام القائم على العـدل، أو يحوله إلى سلام مستضعف ذليل..

ولسنا - كما صور لكم الوهم - متخلفين حضاريًّا، وليس مقاتلنا بالعاجز عن استيعاب أحدث أسـلحة العصر والتعامل معها، والسيطرة الكاملة عليها، وتعرفون جيدًا ماذا فعلنا بكـم في حـرب أكتوبر التي كانت مجرد عينة لما يسـتطيع مقاتلنا المـصري أن يوجهه لكم من ضربات ساحقة.

لـن يعـود الخامس مـن يونيو ليتكرر في حياتنـا من جديد.. لأننا لن نسـمح له بأن يعود أبـدًا.. ولأننـا قد قطعنا الطريق على عودتـه إلى الأبد.. لا بالكلام والشـعارات العنترية بل

بالعلم والعمل الجاد، والتخلص إلى الأبد من الأخطاء التي صنعت لكم يونيو 1967، أكثر مما صنعتموه أنتم.

وسيبقى «أكتوبر» هو القاعدة والأساس في كل لقاء دموي قد تفكرون - بالطيش أو الغرور - في الإقدام على إشعال نيرانه بيننا وبينكم.. لأن «روح أكتوبر العظيم» هي التي توجه حركتنا الآن، شعبًا وقيادةً، إلى المسار الصحيح.. وستبقى هذه الروح المضيئة - التي اكتويتم بنارها عام 1973 - هي المشعل الذي يحمله شعبنا ليضيء لنا معالم الطريق.. لا في المجال العسكري وحده، بل في كل مجالات العمل الوطني على أرض مصر الخالدة.

أقولها مخلصًا لوجه الله.. حذار من أي طيش عسكري جديد.. وحذار من أي مغامرة عسكرية قد تفكرون في الإقدام عليها..وحذار من أحلامكم التوسعية القديمة.. فلم يعد لكل هذا مجال.. ثق من هذا يا جنرال هود - وقلها لكل جنرالات إسرائيل وصقورها - إن كنت تعترف بشيء اسمه «قواعد الفكر العسكري الحديث».

قل لهم.. لقد تغيرت معالم الصورة على الجانب المصري إلى الأبد..قل لهم: إن يونيو لن يعود من جديد.. قل لهم إن أكتوبر سيكون هو القاعدة التي تحكم أي لقاء دموي بين إسرائيل ومصر.. لأنكم تعرفون جيدًا معنى أكتوبر.. وطعمه المر في حلوقكم.. ولأن روح أكتوبر العظيم، قد أطلقت المارد المصري الجبار فحطم قمقم الخطأ، وانطلق ليحمي أمته العربية، ويستأنف القيام بدور الرائد كحارس للحضارة على أرضه الخالدة.

ثق من كل هذا يا جنرال، وانقله عن شعبنا، إن كنت تخلص النصح إلى دولة إسرائيل.. وإن كنت في شك من كلامي.. فاقرأ هذا الكتاب من البداية وأنا متأكد أنك ستقرأ كل حرف فيه.. وبعدها.. ستعرف أنني لم أقل لك غير الحقيقة.. لأنني أنتمي إلى شعب أصيل لا يعرف الكذب، ولا يسيغ التضليل - اسمه.. شعب مصر.

الفهرس



السيـــرة الذاتيـــة للأستـــاذ

محـــمـــد الشـــنـاوي

- ليسانس (امتياز مع مرتبة الشرف) - كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
- ماجستير في «علم النفس» جامعة عين شمس.
- مذيع تنفيذ «بالإذاعة المصرية».. ثم مقدم برامج (منوعات/ ثقافية/ جماهيرية/ دينية) بالإذاعة المصرية.
- مخرج «دراما» بالإذاعة المصرية.
- صاحب فكرة ومؤسس الإذاعات المحلية «بالإذاعة المصرية» وأول مدير لإذاعة القاهرة الكبرى.
- رئيس لجنة التخطيط الدرامي بالإذاعة المصرية (8 سنوات).
- رئيس لجنة اختبار المذيعين بالإذاعة المصرية (4 سنوات).

- **أولًا: في مجال «الدراما الإذاعية» كتب الأعمال الآتية:**
  - خمسين مسلسلًا دراميًا أذيعت بإذاعات: البرنامج العام والشرق الأوسط وإذاعة الشعب وإذاعة القاهرة الكبرى.
  - مائة سهرة درامية وبرامج خاصة لإذاعة البرنامج العام والشعب وصوت العرب والقاهرة الكبرى).

- **ثانيًا: في مجال «الدراما التلفزيونية» كتب الأعمال الآتية:**
  - «ألوان من الحب» مسلسل درامي لتلفزيون دبي.
  - مسلسل «قضية عمري» لتلفزيون دبي.
  - مسلسل «الحقيقة - ذلك المجهول» لتلفزيون دبي.
  - «اللاعب والدمية» مسلسل درامي لصوت القاهرة.
  - «لكل حقيقته» مسلسل درامي لصوت القاهرة.
  - «حامل الكفن» مسلسل درامي للتلفزيون المصري.
  - «المفسدون في الأرض» مسلسل درامي للتلفزيون المصري.
  - «عذراء وادي فيران» مسلسل درامي لصوت القاهرة.
  - «رنين الصمت» مسلسل درامي لصوت القاهرة.
  - «الوزير الشاعر» مسلسل درامي للتلفزيون المصري.

- «فوتوجينيك» سهرة درامية للتلفزيون المصري.
- «الزوجة والسكرتيرة» سهرة درامية للتلفزيون المصري.
- «أسطورة كبريت» سهرة درامية للتلفزيون المصري.
- «حكاية محمود» سهرة درامية للتلفزيون المصري.
- «بطل رغم أنفه» سهرة درامية للتلفزيون المصري.
- «على الطريق» سهرة درامية للتلفزيون المصري.

- **ثالثا: في مجال «المسرح» كتب الأعمال الآتية:**
- مسرحية «حراس الحياة».. قدمت على مسرح الطليعة وعرضت لمدة 5 مواسم.
- مسرحية «الشبك».. مسرحية شعرية.

- **رابعًا: الأبحاث الإعلامية:**
- «الإذاعات المحلية.. ودورها في تنمية المجتمع».. بحث مقدم لندوة الإعلام الإقليمي باتحاد الإذاعات العربية عام 1982.
- «نحو نظرية علمية.. في الإعلام الإسلامي».. بحث مقدم للمؤتمر الثامن عشر للجامعات الإسلامية ونشرته رابطة الجامعات الإسلامية في ملحق خاص بمجلتها العلمية.

- **خامسًا: البرامج الدينية:**

1 - في مجال الإذاعة:
- كتب 360 حلقة من البرنامج الديني الدرامي «صدق رسول الله».
- كتب وقدم برنامج «من شرفات التاريخ» بإذاعة القرآن الكريم.

2 - في مجال التلفزيون:
- «في رحاب آية» إعداد وتقديم 360 حلقة «إنتاج مطيع زايد».
- «كلمات ومواقف» تأليف درامي ديني 30 حلقة «إنتاج راديو وتلفزيون العرب».

- **سادسًا: التدريس في المعاهد الفنية:**

1 - المعهد العالي للسينما بأكاديمية الفنون:
- عمل كأستاذ خارجي غير متفرغ (1973 – 1983):
  1. قام بتدريس مادة «أدب القصة السينمائية».
  2. قام بتدريس مادة «اللغة العربية وآدابها».

2 - المعهد العالي للفنون المسرحية بأكاديمية الفنون:
- عمل كأستاذ خارجي غير متفرغ (1973 – 1983):
  1. قام بتدريس مادة «المسرح الشعري».
  2. قام بتدريس مادة «اللغة العربية وآدابها».
  3. قام بتدريس مادة «الفن الإذاعي».

3 - قام بالتدريس بكلية الضباط المتخصصين بأكاديمية الشرطة لمدة عشر سنوات.

اختلف معه سياسيًا ما شئت، حاكمه على فترة حكمه التي انتهت بمؤامرة أو بجزاء عادل كما تحب، ولكن لا تنس أن التاريخ لا يسجل أحداثه بشكل انتقائي متحيز، بل يسرد في صفحات أيامه التي يسجلها يومًا بيوم وساعة بساعة وموقفًا بموقف، بطولات و هزائم، إخفاقات ونجاحات، خيرًا وشرًا... فالتاريخ يعلم أنه يوثق مسار بشرية لها ما لها وعليها ما عليها.

ومن هنا كان قرارنا بنشر مذكرات اللواء طيار محمد حسني مبارك، التي يوثق من خلالها حقيقة ما تعرضت له القوات الجوية المصرية في نكسة يونية عام ١٩٦٧، وكيف أعادت بناء نفسها لتكون رأس الحربة في نصر السادس من أكتوبر بعد ذلك بسبع سنوات في عام ١٩٧٣.

لا تلمح في المذكرات شخصية مبارك الإنسان، ولكن تلمح شخصية الضابط العسكري الذي يحلل هزيمته في يونية ١٩٦٧ فيحمل قادته المسئولية، ويحلل خطة العدو الإسرائيلي مؤكدًا أنها لا تحمل أي إبداع عسكري، بل تعتمد على سلاح متطور وحسب. ولا يمل من التأكيد على تميز العنصر البشري المصري شعبًا وجيشًا...

مذكرات كتبت في نهاية السبعينيات، وشاءت الأقدار ألا تظهر







